

وحى القلم

مصطفى صادق الرافعي

الجزء الثاني



مقدمة

موسى بن يحيى

مكتبة دار الكتب العلمية

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

مُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِي

وحي القسم

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net



جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة
تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على
أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو
برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة
الناشر خطياً.

Exclusive Rights by
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be
translated, reproduced, distributed in any
form or by any means, or stored in a data
base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Droits Exclusifs à
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle
ou morale d'éditer, de traduire, de
photocopier, d'enregistrer sur cassette,
disquette, C.D, ordinateur toute
production écrite, entière ou partielle,
sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطريف، شارع البشري، نبالة منكارت
هاتف وفاكس : ٣٦١٣٨ - ٣٦١٣٩ (٩٦١ ١) ٣٧٨٤٢
صندوق بريد : ١١٠٩٢٤ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg. 1st Floor
Tel & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3028-5



<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمسُ بأنوارها فتفتجرُ ينبوعُ الضوءِ المسمَّى النهار، يولدُ النبيُّ فيوجدُ في الإنسانية ينبوعُ النور المسمَّى بالدين. وليس النهار إلا يقظة الحياة تُحقَّقُ أعمالها، وليس الدينُ إلا يقظة النفس تحقِّق فضائلها.

والشمسُ خلقها الله حاملةً طابَعَه الإلهي، في عملها للمادة تُحوِّلُ به وتُغيِّرُ، والنبيُّ يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع في عمله تترقَّى فيه وتسمو.

وَرَعِشَاتُ الضوء من الشمس هي قصَّةُ الهداية للكون في كلام من النور، وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسان الكون نور من الكلام.

والعاملُ الإلهي العظيم يعملُ في نظامِ النفس والأرضِ بأداتين متشابهتين: أجرامِ النور من الشمس والكواكب، وأجرامِ العقل من الرُّسُلِ والأنبياء.

فليس النبيُّ إنساناً من العظماء يُقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق، ومع المنطقي الشك، ثم يُدرَّسُ بكلِّ ذلك على أصولِ الطبيعة البشرية العامة، ولكنه إنسانٌ نجميُّ يُقرأ بمثل «التلسكوب» في الدقة، معه العِلْمُ، ومع العِلْمِ الإيمان، ثم يُدرَّسُ بكلِّ ذلك على أصولِ طبيعته النورانية وحدها.

والحياةُ تُنشئُ عِلْمَ التاريخ، ولكن هذه الطريقة في درسِ الأنبياء - صلوات الله عليهم - تجعلُ التاريخ هو يُنشئُ عِلْمَ الحياة، فإنَّما النبيُّ إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية، يُقوِّمها في فلَكها الأخلاقي، ويجذبُها إلى الكمالِ في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب.

ويجيءُ النبيُّ فتجيءُ الحقيقةُ الإلهية معه في مثل بلاغة الفنِّ البياني، لتكوُنَ أقوى أثراً، وأيسرَ فهماً، وأبدعَ تمثيلاً، وليس عليها خِلافٌ من الجسِّ. وهذا هو الأسلوبُ الذي يجعلُ إنساناً واحداً فَنَّ الناسِ جميعاً، كما تكونُ البلاغةُ فَنَّ لغةٍ بأكملها، هو الشخصُ المفسَّرُ إذا تعسَّفَ الناسُ الحياةَ لا يدرون أين يؤمُّون منها،

ولا كيف يتهذون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه وتهالك فيه من أطماع الدنيا، ثم يُخلَقُ رجلٌ واحدٌ ليكونَ هو التفسيرَ لما مضى وما يأتي، فتظهرُ به حقائقُ الآدابِ العاليةِ في قالبٍ من الإنسانِ العاملِ المرئي، أبلغُ مما تظهرُ في قصةٍ متكلمةٍ مروية.

وما الشهادةُ للنبوةِ إلا أن تكونَ نفسُ النبي أبلغَ نفوسِ قومه، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعةٌ قائمةٌ وحدها، كأنها الوضعُ النفسانيُّ الدقيقُ الذي يُنصبُ لتصحيحِ الوضعِ المغلوطِ للبشريةِ في عالمِ المادةِ وتنازعِ البقاء. وكأنَّ الحقيقةَ الساميةَ في هذا النبي تُنادي الناس: أن قَابِلُوا على هذا الأصلِ وصَحِّحُوا ما اعترى أنفسكم من غلطِ الحياةِ وتحريفِ الإنسانية.

* * *

ومن ثَمَّ فنبئُ البشريةَ كلها مَنْ بُعثَ بالدينِ أعمالاً مفضلةً على النفسِ أدقَّ تفصيلٍ وأوفاهُ بمصلحتها، فهو يُعطي الحياةَ في كُلِّ عصرٍ عقلها العمليَّ الثابتَ المستقرَّ تُنظَّمُ به أحوالُ النفسِ على مَنَيزَةٍ وَبَصِيرَةٍ، وَيَدْعُ للحياةِ عقلها العِلْمِيَّ المتجددَ المتغيِّرَ تُنظَّمُ به أحوالُ الطبيعةِ على قَصْدٍ وَهَدًى، وهذه هي حقيقةُ الإسلامِ في أَحْصَ معانيه، لا يُغني عنه في ذلك دينٌ آخر، ولا يؤدي تَأْدِيَتَهُ في هذه الحاجةِ أدبٌ ولا عِلْمٌ ولا فلسفة، كأنما هو نَبْعٌ في الأرضِ لِمعاني النور، بإزاءِ الشمسِ نبعِ النورِ في السماء.

وكلُّ ذلكِ تراهُ في نفسِ محمدٍ ﷺ، فهي في مجموعها أبلغُ الأنفسِ قاطبةً، لا يُمكنُ أن تعرفَ الأرضُ أكملَ منها، ولو اجتمعت فضائلُ الحكماءِ والفلاسفةِ والمتألهينَ وجُعِلَتْ في نِصَابٍ واحدٍ - ما بلغتْ أن يجيءَ منها مثلُ نفسه ﷺ. ولكأنما خَرَجَتْ هذه النفسُ من صِغَةٍ كصِغَةِ الدُرَّةِ في محارثها، أو تركيبِ كتركيبِ الماسِ في منجمه، أو صفةِ كصفةِ الذهبِ في عِزِّقه. وهي النفسُ الاجتماعيةُ الكبرى، من أين تدبِّرُها رأيَتها على الإنسانيةِ كالشمسِ في الأفقِ الأعلى تنبسطُ وتُنْضَخِي.

وتلك هي الشهادةُ له ﷺ بأنَّه خاتمُ الأنبياء، وأنَّ دينَه هو دينُ الإنسانيةِ الأخير، فهذا الدينُ في مجموعِهِ إن هو إلا صورةُ تلكِ النفسِ العظيمةِ في مجموعها: صلابتُه بمقدارِ الحقِّ الإنسانيِّ الثابت، لا بمقدارِ الإنسانِ المتغيِّرِ الذي يكونُ عند سَبَبٍ جَبَلًا صَلْدًا يَشْمَخُ، وعند سَبَبٍ آخَرَ ماءً عَذْبًا يجري.

وهو دينٌ يعلو بالقوةِ ويدعو إليها، ويريدُ إخضاعَ الدنيا وحُكْمَ العالمِ، ويستفرغُ همُّهُ في ذلك، لا لإعزازِ الأقوى وإذلالِ الأضعف، ولكن لارتفاعِ

بالأضعف إلى الأقوى، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة، أن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها، وتلك تعمل للتفريق، وهو يعمل للمساواة، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية.

ومن هنا كان طبيعياً في الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطبع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد، ولا رذيلة إلا وهو يضغ عليها صورة النار الأبدية وتؤذيها الناس والحجارة، فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع: يحرص على ما يكون له ويشره إلى ما ليس له، ويمكر الحيلة، ويبدع وسائل الخداع، ويزيد بكل ذلك في تعقيد الدنيا - بل نظرة القلب المسالم: يخلع الدنيا ويسخو بكل مضمون فيها، فيعف عن كثير، ويعرف الإنسانية ويطمع في غاياتها العليا، فيعفو عن كثير، ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حساب، وأن الحرام وإن غر ليس إلا تعلل ساعية ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد.

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله - تعالى - قانون وجود الإنسان على الأرض، فمن أي عطفيه التفت هذا الإنسان وجد على يفتنه ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها، فهو كالمتهم المستراب به في سياسة النفس: لا يمشي خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب الثية، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد، ويترجمان عنه حتى معاني النظر.

وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس، قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الإرادة المميّزة، تريد الحسنات وتعمل لها، وتخشى السيئات وتنفّر منها، فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضاً، لا لتحقيق الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة، وإذا نوايس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان، قد نهضت إلى جانبها نوايس الإرادة الحكيمة في الإنسان، وإذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تُهمّة عند قاضيتها في محكمتها، وإذا كل ما في الإنسان وما حول الإنسان، لا يراؤ منه إلا سلام النفس في عاقبتها؛ وإذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها.

وكل أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه، فتلك هي غايتها، وهذه هي فلسفتها؛ لا يقرؤها للإنسانية حسب، بل يقرؤها في الوراثة غرضاً بالاعتقاد والجبران الدائم، لتكون علماً وعملاً، فتتمكن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة إليها من ضرورات الحياة، في أيدي الأعداء المتألب عليها من شهوات الغريزة.

فليس يعنى السلام إلا إذا عمّ هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها؛ فإنّ قانون العالم حينئذٍ يُصبحُ منتزَعاً من طبيعة التراحم، فإنّما انتسخَ به قانونُ التنازع الطبيعي، وأما كَسَرٌ من شِرتِه؛ ويُولدُ المولودُ يومئذٍ وتُولدُ معه الأخلاقُ الإنسانية.

تقريرُ معنى الدوامِ لكلِّ أعمالِ النفسِ حتى مثقالِ الذرة من الخير والشرِّ، وضبطُ ذلك برياضةٍ عمليةٍ دائمةٍ مفروضةٍ على الناسِ جميعاً - هذا هو أساسُ العقيدة الإسلامية؛ ولا صلاحٌ للإنسانية بغيره يرُدُّها إلى سبيلِ قَضِيبِها، فإنّ من ذلك تكونُ الصفةُ العقليةُ التي تَغْلِبُ على المجتمع، وتُجَانِسُ بين أفرادِه، فتوجُّهُ الإنسانيةَ كُلِّها نحوَ الممكن من كمالِها، ولا تزالُ توجُّهُها نحوَ ما هو أعلى، وتحكمُ فاسدَها بصالحِها، وتأخذُ عاصيَها بمطِيعِها، وتجعلُ الشرفَ الإنسانيَّ غرضَها الأول، لأنَّ الله الحقَّ غرضُها الأخير؛ فيُصبحُ المرءُ - وهذا دينُه - كلِّما تقدَّم به العمرُ كَمَل فيه اثنان: الإنسان، والشرعية. ولا يعودُ طالبُ السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراءَ ظِلِّهِ لِيَمِيكَه؛ فلا يُدرِكُ في الآخرِ شيئاً غيرَ معرفتِه أنَّه كان في عملٍ باطلٍ وسعيٍ ضائع.

والإسلام يحرضُ أشدَّ الجزسِ وأبلغه على تقريرِ ذلك المعنى الإلهي العظيم، لا بالمنطق، ولكن بالعمل؛ ثم في النفسِ وعواطفِها، لا في العقلِ وآرائه؛ ثم على وجه التعميم، دونَ الاستثناءِ والخصوص؛ وذلك هو سِرُّ مشقَّتِه على النفسِ بما يفرضُه عليها؛ فإنَّ فلسفتَه أنَّ هذه النفسَ هي أساسُ العالم، وأنَّ النظامَ الخُلقيَّ هو أساسُ النفس، وأنَّ العملَ الدائمَ هو أساسُ النظام، وأنَّ روحَ العملِ الدائمِ تكونُ فيما يشقُّ بعضَ المشقة ولا يبلغُ العُسْرَ والخرَجَ، كما تكونُ فيما يسهلُ بعضَ السهولة ولا يبلغُ الكَسَلَ والإهمال.

وللنفسِ وجهان: ما تُعلن، وما تَسِرُ؛ ولا صدقٌ لإعلانِها حتى يصدقَ ضميرُها، ولا صلاحٌ لجَهَرِها حتى يصلحَ السِرُّ فيها، ولا يكونُ الإنسانُ الاجتماعيَّ فاضلاً بمَشْهَدِه حتى يكونَ كذلكَ بَعْيِه.

وللعالم كذلك وجهان: حاضِرُه الذي يمرُّ فيه، وآتِيه الذي يمتدُّ له؛ ولا يَفْلِحُ حاضرٌ منقطعٌ لا يُوَرِّثُ ما بعده كما وَرِثَ ما قبله، وما حاضِرُ الإنسانيةِ إلا جزءٌ من عملِ الناسِ في استمرارِ فضائلهم باقيةً ناميةً.

وللنظامِ أيضاً وجهان: نظامُ الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها، ونظامُ الرغبة

على الخشية والثفرة منها . ولا يستقيم شأن ليس أساسه الطاعة في النفس ، ولا يستمر نظام عليه خلاف من فكر العامل به .

وللعمل الدائم طريقتان : إحداهما طريقة الجاد يعمل للعاقبة يستيقظها ، فلا يجد ممّا يشقّ عليه إلا لذة المغالبة للنصر : كلُّ مرارة من قبله هي حلاوة فيه من بعد ، ولا يعرف للمحنة يُبتلى بها إلا معناها الحقيقي وهو إيقاظ نفسه ، فيصحب الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممّن تحبه ؛ صبر فيه من السحر ما يكسو الجزمان في بعض الأحيان خيال الاستمتاع ، ويذيق النفس في العجز عن بعض أغراضها - لذة كلذة إدراكه .



تلك هي فلسفة الإسلام ؛ لا قوام للأمر فيها ولا مساك له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس ، ووضع طابع الجنة على أعمال الجنة ، وطابع النار على أعمال النار - وحيطة كل فرد من الناس حيطة رياضية عملية بين الساعة والساعة ، بل بين الدقيقة والدقيقة ، بما يكلف من أعمال جسمه وحواشه ، ثم أعمال قلبه ونيته - وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية ، فلا يحاول كل إنسان أن يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية ، بما يتقص من حقوق غيره ؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية ؛ وبهذا لا يغيره تتعین مقاييس الأخلاق في الأرض : بالمصلحة لا باللذة ؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير ، وتتحل المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقداً فيها .

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نسقها الطبيعي ، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الإنساني من أوبائه الاقتصادية ، التي جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس ، وتركب الناس يهدم بعضهم بعضاً ، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته .

وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة ، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة ، فيكون الفقير مغدماً ويتعفف ، ويكون الغني موسراً ويتصدق ، ويكون الشر طامعاً ويُفسك ، ويكون القوي قادراً ويُخجم ، وكما قال العرب في تحققي ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الاقتصادي : «تجوع الحر ولا تأكل بثديها» .



تُرِيدُ الإنسانية امتداداً غير امتدادها التجاري في الأرض، وتحتاجُ إلى معنى يقرُّدُ إنسانها غير الحيوان الذي فيه؛ وإذا قاذَ الغرابُ قوماً فلأنما هو - كما قال شاعرنا - يمرُّ بهم على جَيْبِ الكلاب... والإنسانية اليوم في مثل ليلٍ حَوْشِيٍّ مظلم اختلطَ بعضُهُ في بعض، وليست معاني الإسلام إلَّا الإشراقُ الإلهيُّ على هذه الكثافة المادية المتراكمة، وإذا رُفِعَ المصباحُ لم تجدِ الظلامُ إلَّا وراءَ الحدودِ التي تنتهي إليها أشعته.

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتخيّل وتفرح فرحها الصادق وتحزن حزنها السامي - إلَّا أن تعيش في محبوب؛ فلإنسانية العالم لا تكون مثل ذلك إلَّا إذا عاشت في نبيها الطبيعي، نبي أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلَّا في محمدٍ ودين محمد؟

وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان كل يوم، يُنادى باسمه الشريف ملء الجوّ؛ ثم حكمة ذكره في كل صلاة من الفريضة والنافلة، يُهمسُ باسمه الكريم ملء النفس! وهل الحكمة من ذلك إلَّا الفرض عليهم إلَّا ينقطعوا من نبيهم ولا يوماً واحداً من التاريخ، ولا جزءاً واحداً من اليوم؛ فيمتد الزمنُ مهما امتد الإسلام كأنه على أوله، وكأنه في يومه لا في دهر بعيد؛ والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعثه روح الرسالة، ويسطع في نفسه إشراق النبوة، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض؛ ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميَّته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإن كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر فيها إلَّا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وما ورث من القِدَم؛ فهنا المسلم الفرعوني، وفي ناحية المسلم الوثني، وفي بلد المسلم المجوسي، وفي جهة المسلم المعطل... وما يُريد الإسلام إلَّا نفس المسلم الإنساني.

أيها المسلم!

لا تنقطع من نبيك العظيم، وعش فيه أبداً، واجعله مثلك الأعلى؛ وحين تذكره في كل وقت فكُن كأنك بين يديه؛ كُن دائماً كالمسلم الأول؛ كُن دائماً ابن المعجزة.

حقيقة المسلم (*)

لا يعرف التاريخ غير محمد ﷺ رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله؛ كما تنصب المادة في المادة، ليمتزج بها فتحوّلها، فتحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحوّل به وتنمو، وإذا هو ﷺ وجود سار فيها فما تبرّح هذه الإنسانية تنمو به وتتحوّل.

كان المعنى الآدمي في هذه الإنسانية كأثما وهن من طول الدهر عليه، يتخيفه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر؛ فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد بدأت به الدنيا في تطوّرهما الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته؛ فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها: كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان في محمد سر كمالها.



ولهذا سُمي الدين (بالإسلام)؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبها، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية؛ كأن المسلم يُنكر ذاته فيُسَلِّمها إلى الإنسانية تُصرفها وتعتلّها في كمالها ومعاليها؛ فلا حظ له هو من نفسه يُمكنها على شهواته ومنافعها، ولكن للإنسانية بها الحظ.

وما الإسلام في جملته إلّا هذا المبدأ: مبدأ إنكار الذات و(إسلامها) طائعة على المنشط والمكره لفروضها وواجباتها؛ وكلّما نكصت إلى منزعتها الحيوانية، أسلمها صاحبها إلى وازعها الإلهي؛ وهو أبداً يروضها على هذه الحركة ما دام حياً؛ فينتزعها كل يوم من أوهاام دنياها، ليضعها ما بين يدي حقيقتها الإلهية: يروضها على ذلك كل يوم ليلة خمس مرات مسماة في اللغة خمس صلوات، لا

(*) كتبها لجماعة الكشاف المسلم في بيروت في ذكرى المولد النبوي الشريف. وانظر فترة جمام و«عود على بدء» من كتاب حياة الرافي.

يكون الإسلام إسلاماً بغيرها؛ فلا غَرْوَ كَانَتْ الصلاةُ بهذا المعنى كما وصفها النبي ﷺ هي عماد الدين .

بين ساعات وساعات في كلِّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة، أي إسلام النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة^(١) القائمة على الطاعة للفرص الإلهي، وإنكاراً لمعانها الذاتية الغانية التي هي مادة الشرِّ في الأرض، وإقراضها لحظات في خَيْرِ الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها. ومعنى ذلك كله تحقيق المسلم لوجود روحه؛ إذ كانت أعمال الدنيا في جملتها طُرُقاً تنشئت فيها الأرواح وتبعثر، حتى تَصِلُ روح الأخ عن أخيه فتُكْرِها ولا تعرفها!

وهذا الوجود الروحي هو مبعث الحالة العقلية التي جاء الإسلام لينهدي الإنسانية إليها: حالة السلام الروحاني الذي يجعل حرب الدنيا المهلكة حرباً في خارج النفس لا في داخلها، ويجعل ثروة الإنسان مقدرة بما يعامل الله والإنسانية عليه؛ فلا يكون ذهابه وفقته ما كتبت عليه الدول: «ضرب في مملكة كذا»، ولكن ما يراه هو قد كتبت عليه: «صنع في مملكة نفسي»؛ ومن ثم لا يكون وجوده الاجتماعي لإلاخذ حسب، بل للعطاء أيضاً، فإن قانون المال هو الجمع، أما قانون العمل فهو البذل.

بالانصراف إلى الصلاة وجمع النية عليها، يستشعر المسلم أنه قد حطَّم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرَّج منها إلى روحانية لا يُحدُّ فيها إلا بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة، يُحقِّق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله، ليمتزج بجلال الكون ووقاره، كأنه كائن متصِّب مع الكائنات يسبح بحمده.

وبالتولي شطر القبلة في سمتها الذي لا يتغيَّر على اختلاف أوضاع الأرض، يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة؛ فيحمل قلبه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبية الدنيا وقلقها.

وبالركوع والسجود بين يدي الله، يُشعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة على كلِّ ما عدا الخالق من وجود الكون.

(١) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها.

وبالجلسة في الصلاة وقراءة التحيات الطيبات، يكون المسلم جالساً فوق الدنيا يحمد الله ويسلم على نبيه وملأته ويشهد ويدعو.

وبالتسليم الذي يخرج به من الصلاة، يُقبل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً: من جهتي السلام والرحمة.

هي لحظات من الحياة كل يوم في غير أشياء هذه الدنيا؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقت وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة، ولتمزيق الفناء خمس مرات كل يوم عن النفس؛ فيرى المسلم من ورائه حقيقة الخلود، فتشعر الروح أنها تنمو وتتسع.

هي خمس صلوات، وهي كذلك خمس مرات يفرغ فيها القلب مما امتلأ به من الدنيا، فما أدق وأبدع وأصدق قوله ﷺ: «جعلت قرّة عيني في الصلاة»^(١).



لم يكن الإسلام في حقيقته إلا إبداعاً للصيغة العملية التي تنتظم الإنسانية فيها؛ ولهذا كانت آدابه كلها خراساً على القلب المؤمن، كأنها ملائكة من المعاني؛ وكان الإسلام بها عملاً إصلاحياً وقّع به التطور في عالم الغريزة، فنقله إلى عالم الخلق، ثم ارتقى بالخلق إلى الحق، ثم سما بالحق إلى الخير العام؛ فهو سمو فوق الحياة بثلاثة طبقات، وتدرج إلى الكمال في ثلاث منازل، وابتعاد عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق.

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المسلمة التي أسسها النبي ﷺ دنيا أسلمت طبيعتها، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادت هي؛ وكأنها قائمة بنواميس من أهلها، لا على أهلها؛ وكان الظاهر أن الإسلام يغزو الأمم بالعرب ويفتحها، ولكن الحقيقة أن إقليماً من الدنيا كان يحارب سائر أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين.

وكان الله - تعالى - ألقى في رمال الجزيرة روح البحر، وبعثها بغثة الإلهي لإمره، فكان النبي ﷺ هو نقطة المد التي يقوّر البحر منها، وكان المسلمون أمواجه التي غبيلت بها الدنيا...

(١) كان محمد (ﷺ) يستبطن الصلاة وقد جاء وقتها، من شدة شوقه إليها فيقول: «أرخنا بها يا بلال» ولا أنصح ولا أدق في تصوير نفسيته (ﷺ) وأشواق روحه العالية من قوله: «أرخنا بها». فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه.

لهذا سمع المسلمون الأولون كلام الله - تعالى - في كتابه، وكلام رسوله ﷺ، لا كما يسمعون القول، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ المقتضي؛ ولم يجدوا فيه البلاغة وحدها، بل روعة أمر السماء في بلاغة؛ واتصلوا بنبیهم، ثم بعضهم ببعض، لا كما يتصل إنسان بإنسان، بل كما تتصل الأمواج بقوة المد، ثم كما يمد بعضها بعضاً في قوة واحدة.

وحققوا في كماله ﷺ وجودهم النفسي؛ فكانوا من زخارف الحياة وباطليها في موضع الحقيقة الذي يرى فيه الشيء لا شيء.

ورأوا في إرادته ﷺ النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس؛ فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض، لا من كتب ولا علم ولا فلسفة، بل من قلب نبیهم وحده.

وعرفوا به ﷺ تمام الرجولة؛ ومتى تمت هذه الرجولة تماماً في إنسان، رجعت له الطفولة في روجه، وامتلك تلك الطبيعة التي لا يملكها إلا أعظم الفلاسفة والحكماء فأصبح كأنما يمسي في الحياة إلى الجنة بخطوات مسددة لا تزيع ولا تنحرف، فلا شر ولا رذيلة؛ ودينه هي الدنيا كلها بشمسها وقمرها، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً، ما دامت في قلبه طبيعة السرور، فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه، بل كل ما أمكن فهو غنى كامل، إذ لم تعد القوة في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها، بل القوة في الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلبة، حتى لتجعل من النور والهواء ما يؤتدّم به مع الخبز القفار، كما يؤتدّم باللحم وأطياب الأطعمة^(١).

وبذلك لا تتسلط ضرورة على الجسم - كالجوع والفقر والألم ونحوها - إلا كان تسلطها كأنه أمر من قوة في الوجود إلى قوة في هذا الجسم: أن تظهر لتعمل عملها المعجز في إبطال هذه الضرورة. وهذا الجنس من الناس كالأزهار على

(١) عن ابن عباس قال: دخل رسول الله (ﷺ) يوم فتح مكة على (أم هانئ) وكان جانماً، فقال لها: «أعندك طعام أكله؟» فقالت: «إن عندي كسراً يابسة، وإني لأستحي أن أقدمها إليك» فقال: «هلمها»، فكسرها في ماء، وجاءته بملح، فقال: «ما من إدام؟» فقالت: «ما عندي إلا شيء من خل». فقال «هلمها» فلما جاءت به صبه على طعامه فأكل منه، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «نعم الإدام الخل يا أم هانئ»، لا يقفر بيت فيه خل» اهـ.

أغصانها الخُضر؛ لو قالت شيئاً لقالت: إن ثروتِي في الحياة هي الحياة نفسها، فليس لي فقرٌ ولا غنى، بل طبيعةٌ أولاً طيبة.

ولقد كان المسلم يُضربُ بالسيفِ في سبيلِ الله، فتَقَعُ ضَرَبَاتُ السيوفِ على جسمِهِ فتمزَّقُهُ؛ فما يُجسِّسُها إلا كأنها قُبُلُ أصدقاءٍ من الملائكة يَلْقَوْنَهُ ويعانقُونَهُ!

وكان يُبتلى في نفسه وماله، فلا يشعرُ في ذلك أنه المُرزَأُ المبتلى يُعْرِفُ فيه الحُزنُ والانكسار، بل تُظهِرُ فيه الإنسانيةَ المنتصرةَ كما يَظْهَرُ الظافِرُ في بطلِهِ العظيمِ أصيبَ في كُلِّ موضعٍ من جسمِهِ بجراح، فهي جِراحٌ وتشوِيَةٌ والم، وهي شهادةُ النصر!

ولم تكن أثقالُ المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه، بل كانتْ له أسبابُ قوَةٍ وسموٍ؛ كالنَشْرِ المخلوقِ لطبقاتِ الجوّ العُلْيَا، ويحملُ دائماً من أجلِ هذه الطبقاتِ يُقلِّ جناحيهِ العظيمين.

وكانتِ الحقيقةُ التي جعلها النبي ﷺ مثَلَهُم الأعلى، وأقرَّها في أنفسهم بجميعِ أخلاقِهِ وأعمالِهِ - أنْ الفضائلُ كُلُّها واجبةٌ على كُلِّ مسلمٍ لِنَفْسِهِ، إذ إنها واجبةٌ بِكُلِّ مسلمٍ على غيره، فلا تكونُ في الأُمَّةِ إلا إرادةٌ واحدةٌ متعاونة، تجعلُ المسلمَ وما هو رُوحُ أُمَّتِهِ تعملُ به أعمالُها هي لا أعمالُهُ وحدها.

المسلمُ إنسانٌ معتدٌّ بمنافعِهِ في معناه الاجتماعيِّ حول أُمَّتِهِ كُلِّها، لا إنسانٌ ضيقُ مجتمعٍ حول نفسه بهذه المنافع؛ وهو من غيره في صدقِ المعاملة الاجتماعية كالتاجرِ من التاجر؛ تقولُ الأمانةُ لِكُلِّهِمَا: لا قيمةَ لِمِيزَانِكَ إلا أنْ يُصَدِّقَهُ مِيزَانُ أَخِيكَ.

ولن يكونَ الإسلامُ صحيحاً تاماً حتى يجعلَ حاملَهُ مثلاً من نبيِّهِ في أخلاقِهِ الله؛ فما هو بشخصٍ يضبطُ طبيعته: يَظْهَرُها مرةً وتقهرُها مراراً؛ ولكن طبيعةً تضبطُ شخصَها فهي قانونٌ وجوده.

لا يضطربُ من شيءٍ، وكيف يضطربُ ومعه الاستقرارُ؟

لا يخافُ من شيءٍ، وكيف يخافُ ومعه الطمأنينةُ؟

لا يخشى مخلوقاً، وكيف يخشى ومعه الله؟

أيُّها الأسد، هل أنتَ بجملتكِ إلا في طبيعةِ مَخَالِيكَ وأنيابِكَ...

وحي الهجرة (*)

إنَّ التاريخَ ليتكلَّم بِلُغَةٍ أَوْسَعٍ مِنَ الْفَاطِظَةِ إِذَا قَرَأَهُ مَنْ يَقْرُؤُهُ عَلَى أَنَّهُ بَعْضُ نَوَامِيسِ الوجودِ، صُوِّرَتْ فِيهَا النَفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ كَيْفَ اغْتَوَزَتْ أَغْرَاضَهَا، وَكَيْفَ مَدَّتْ فِي نَسَقِهَا، وَكَيْفَ تَغْلَغَلَتْ فِي مَسَالِكِهَا، وَمَا تَأْتَى لَهَا فَجَرَتْ بِهِ مَجْرَاهَا، وَمَا دَفَعَهَا فَاِنْحَدَرَتْ مِنْهُ إِلَى مَقَارِهَا؟ فَهُوَ لَيْسَ بِكَلَامٍ تَسْتَقْبِلُهُ تَقْرَأُ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ أَحْوَالٌ مِنَ الوجودِ تَعْتَرِضُهَا فُتُغَيِّرُ عَلَيْكَ جِسْمَكَ بِإِلْهَامِهَا وَأَحْلَامِهَا، وَتَتَنَاوَلُهَا مِنْ نَاحِيَةٍ فَتَتَنَاوَلُكَ مِنَ الْآخَرَى؛ فَإِذَا الْكَلِمَةُ مِنْ وَرَائِهَا مَعْنَى، مِنْ وَرَائِهِ طَبِيعَةٌ، مِنْ وَرَائِهَا سَبَبٌ وَجِئَمَةٌ؛ وَإِذَا كُلُّ حَادِثَةٍ فِيهَا إِنْسَانِيَّتُهَا وَإِلَهِيَّتُهَا مَعًا. وَإِذَا الوجودُ فِي ذَهْنِكَ كَالسَّاعَةِ تَرْسِمُ لَكَ حَدَّ الثَّانِيَةِ بِخَطَرَتَيْنِ، وَحَدَّ الدَّقِيقَةِ مِنْ عَدَدٍ مُحْدُودٍ مِنَ الثَّوَانِي، وَحَدَّ السَّاعَةِ إِلَى حَدِّ الْيَوْمِ؛ وَإِذَا الْبَيَانُ فِي نَفْسِكَ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْحَوَاشِي، وَإِذَا التَّارِيخُ فِيمَا تَقْرُؤُهُ مَفْتَنٌ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ يَبْقَى عَلَيْكَ مِنَ الْفَاطِظَةِ وَمَعَانِيهِ بِظِلَالٍ هِيَ صِلَتُكَ أَنْتَ أَتُّهَا الْحَيُّ الْمَوْجُودُ بِأَسْرَارٍ مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْ قَبْلِ.

كَذَلِكَ قَرَأْتُ بِالْأَمْسِ تَارِيخَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي كِتَابِ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّبْرِيِّ لِأَكْتُبَ عَنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، فَلَمْ أَكُنْ - عَلِمَ اللَّهُ - فِي كِتَابٍ وَلَا فِي حِكَايَةٍ، بَلْ فِي عَالَمٍ انْبَثَقَ فِي نَفْسِي مَخْلُوقًا تَامًا بِأَهْلِهِ، وَحَوَادِثَ أَهْلِهِ، وَأَسْرَارِ أَهْلِهِ جَمِيعًا؛ كَمَا يَرَى الْمُحِبُّ حَبِيبَهُ: لَا يَكُونُ الْجَمِيعُ فِي مَحَلٍّ إِلَّا امْتِلَأَ مَكَانُهُ بِغَاثِيقِهِ، فَهُوَ مَكَانٌ مِنَ النَّفْسِ، لَا مِنَ الدُّنْيَا وَحْدَهَا، وَفِيهِ الْحَيَاةُ كَمَا هِيَ فِي الوجودِ بِمَظْهَرِ الْمَادَّةِ، وَكَمَا هِيَ فِي الْحُبِّ بِمَظْهَرِ الرُّوحِ.

وَتِلْكَ حَالَةٌ مِنَ الْقِرَاءَةِ بِالرُّوحِ وَالْكِتَابَةِ بِالرُّوحِ، مَتَى أَنْتَ سَمَوْتَ إِلَيْهَا رَأَيْتَ فِيهَا غَيْرَ الْمَعْنَى يُخْرِجُ مَعْنَى، وَمِنْ لَا شَيْءٍ تُخْلُقُ أَشْيَاءَ، لِأَنَّكَ مِنْهَا اتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ نَفْسِكَ، وَمِنْ نَفْسِكَ اتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ فَوْقِهَا؛ فَيُصْبِحُ التَّارِيخُ مَعَكَ فَنُّ الوجودِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ بِهِ الْحِكْمَةُ إِلَى الْحَيَاةِ لِتَسْتَمِرَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ،

(*) أَوَّلَى مَقَالَاتِهِ فِي الرِّسَالَةِ، أَنْشَأَهَا لِلْعَدَدِ السَّنَوِيِّ الْخَاصِّ بِالْهَجْرَةِ.

لا فَنُ عِلْمِ النَّاسِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ مِمَّا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ .

نشأ النبي ﷺ في مكة، واستثنى على رأس الأربعين من سنه، وغَبَرَ ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبل أن يُهاجِرَ إلى المدينة؛ فلم يكن في الإسلام أول بُدْأَتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وامرأةٌ وغلَامٌ: أما الرجلُ فهو هو ﷺ، وأما المرأةُ فزَوْجُهُ خَدِيجَةُ. وأما الغلامُ فعليُّ ابْنُ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ .

ثم كان أولُ النَّمُوِّ في الإسلام بَحْرُ وَعَبْدٍ: أمَّا الحُرُّ فأبو بكر، وأمَّا العَبْدُ فَبِلَالٌ، ثم اتَّسَقَ النَّمُوُّ قَلِيلاً قَلِيلاً بِطَوِّهِ الهموم في سِيرِهَا، وصَبَرَ الحُرُّ في تَجَلِّدِهِ؛ وكَانَ التَّارِيخُ واقِفٌ لا يَتَزَحَّجُ، ضَيِّقٌ لا يَتَسَبَّحُ، جامدٌ لا يَنمو؛ وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أخُو الشَّمْسِ: يَطْلُعُ كلاهما وَحْدَهُ كُلُّ يَوْمٍ. حتَّى إِذَا كَانَتِ الهَجْرَةُ مِنْ بَعْدُ، فانتقل الرسولُ إلى المدينة، بدأتِ الدُّنْيَا تَتَقَلَّقُ، كَأَنَّمَا مَرَّ بِقَدَمِهِ عَلَى مَرْكَزِهَا فَحَرَّكَهَا؛ وكَانَتْ خَطَوَاتُهُ فِي هَجْرَتِهِ تَخْطُ فِي الْأَرْضِ، ومعانيها تَخْطُ فِي التَّارِيخِ؛ وكَانَتِ المسافَةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، ومعناها بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

لقد كان في مَكَّةَ يَغْرَضُ الْإِسْلَامُ عَلَى الْعَرَبِ كَمَا يَغْرَضُ الذَّهَبُ عَلَى الْمُتَوَحِّشِينَ: يَرَوْنَهُ بَرِيقاً وشُعَاعاً ثُمَّ لَا قِيَمَةَ لَهُ، وما بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ، وهو حَاجَةٌ بَنِي آدَمَ إِلَّا الْمُتَوَحِّشِينَ، وكانوا في المَحَاذَةِ وَالْمُخَالَفَةِ الْحَمَقَاءَ، وَالْبُلُوغَ بِدَعْوَتِهِ مَبْلَغَ الْأَوْهَامِ وَالْأَسَاطِيرِ - كما يَكُونُ الْمَرِيضُ بِذَاتِ صَدْرِهِ مَعَ الَّذِي يَدْعُوهُ فِي لَيْلَةٍ قَارِئَةً إِلَى مَدَاوَةِ جَسَمِهِ بِأَشْعَةِ الْكَوَاكِبِ؛ وكَانَتْ مَكَّةُ هَذِهِ صَخْرًا جُغْرَافِيًّا يَتَحَطَّمُ وَلَا يَلِينُ، وكَانَ الشَّيْطَانُ نَفْسَهُ وَضَعَ هَذَا الصَّخْرَ فِي مَجْرَى الزَّمَنِ لِيَصُدَّ بِهِ التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا .

وأُوذِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكُذِّبَ وَأُهِنَ، وَرَجَفَ بِهِ الْوَادِي بِخَطْوِهِ فِيهِ عَلَى زَلَّازِلٍ تَتَقَلَّبُ، وَنَابَذَهُ قَوْمُهُ وَتَذَامَرُوا فِيهِ، وَحَضُّوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ، وَانصَفَقَ عَنْهُ عَامَةُ النَّاسِ وَتَرَكُوهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ اللَّهُ مِنْهُمْ؛ فَأَصِيبَ كَبِيرًا بِالْيَتِيمِ مِنْ قَوْمِهِ، كَمَا أَصِيبَ صَغِيرًا بِالْيَتِيمِ مِنْ أَبَوِيهِ .

وكان لا يَسْمَعُ بِقَادِمٍ يَقْدُمُ مِنَ الْعَرَبِ لَهُ اسْمٌ وَشَرَفٌ، إِلَّا تَصَدَّى لَهُ فِدْعَاؤُهُ إِلَى اللَّهِ وَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ؛ وَمَعَ ذَلِكَ بَقِيَتِ الدَّعْوَةُ تَلَوُّحٌ وَتَخْتَفِي كَمَا يَشْتَقُّ الْبَرُّ مِنْ سَحَابَةٍ عَلَى السَّمَاءِ: لَيْسَ إِلَّا أَنْ يُرَى ثُمَّ لَا شَيْءَ بَعْدَ أَنْ يُرَى!

فهذا تاريخُ ما قبل الهجرة في جملة معناه، غيرَ أنّي لم أقرأه تاريخاً، بل قرأت فيه فصلاً رائعاً من حِكْمَةِ إلهية، وضَعَهُ الله كالمقدمة لتاريخ الإسلام في الأرض؛ مقدمة من الحوادث والأيام تحيا وتمرُّ في نَسَقِ الرواية الإلهية المنطوية على رموزها وأسرارها، وتظهر فيها رحمة الله تعملُ بقسوة، وحِكْمَةُ الله تتجلّى في غموض؛ فلو أنت حققتَ النظرَ لرأيتَ تاريخَ الإسلام يتألَّهُ في هذه الحَقِيقَةِ، بحيث لا تقرأه النفس المؤمنة إلا خاشعةً كأنها تُصَلِّي، ولا تندبُهُ إلا خاضعةً كأنها تتعبد.

بدأ الإسلام في رجلٍ وامرأةٍ وغلّام، ثم زاد حراً وعبدًا؛ أليست هذه الخمسُ هي كلُّ أطوارِ البشرية في وجودها، مخلوقةً في الإنسانية والطبيعة، ومصنوعةً في السياسة والاجتماع؛ فها هنا مطلعُ القصيدة، وأولُ الرمز في شعرِ التاريخ.

ولبثَ النبي ﷺ ثلاثَ عشرةَ سنةً لا يَنبغي قومه إلا سُرا، على أنّه دائبٌ يطلبُ ثمَّ لا يجد، ويغرضُ ثمَّ لا يُقبَلُ منه، ويُخَفِّقُ ثمَّ لا يعترِبُه اليأس، ويَجْهَدُ ثمَّ لا يتخوُّهُ الملل، ويستمرُّ ماضياً لا يتحرّف، ومعزّماً لا يتحوّل؛ أليست هذه هي أسمى معاني التربية الإنسانية أظهرها الله كلّها في نبيّه، فَعَمِلَ بها وثَبَّتَ عليها، وكاثت ثلاثَ عشرةَ سنةً في هذا المعنى كعمرِ طفلٍ وَلِدَ ونشأ وأحكَمَ تهذيبَهُ بالحوادث، حتى تسَلَّمَتِ الرجولةُ الكاملةُ بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائِلِها؟

أفليس هذا فصلاً فلسفياً دقيقاً يعلمُ المسلمُ كيف يجبُ أن ينشأ المسلم: غِناءً في قلبه، وقوّةً في إيمانه، وموضَعُهُ في الحياة موضعُ النافع قبل المنتفع، والمصلح قبل المقلّد؛ وفي نفسه من قوة الحياة ما يموتُ به في هذه النفس أكثرُ ما في الأرض والناس من شهوات ومطامع؟

ثم أليست تلكَ العواملُ الأخلاقيةُ هي التي أَلْقَيْتَ في منبعِ التاريخ الإسلامي ليُعْبَ منها تيّاره؛ فتدفعُهُ في مجراه بين الأمم، وتجعلُ من أخصِّ الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا - الثبات على الخُطوةِ المتقدمة وإن لم تتقدّم، وعلى الحقِّ وإن لم يتحقّق؛ والتبرُّؤ من الأثرة وإن شَحَّتْ عليها النفس، واحتقار الضعيف وإن حَكَمَ وتسَلَّط، ومقاومةَ الباطل وإن سادَ وغلب، وحملُ الناسِ على مَخْضِ الخير وإن رَدُّوا بالشرِّ، والعملُ لِلْعَمَلِ وإن لم يأت بشيء، والواجبُ لِلواجبِ وإن لم يكن فيه كبيرُ فائدة، وبقاء الرجلِ رجلاً وإن حطَّمَهُ كُلُّ ما حوله؟

ثمَّ هي هي البرهانات القائمةُ لِلدهرِ قيامَ المنارة في الساحل - على نبوة محمدٍ ﷺ تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنّه رُوحٌ وغاياتها المحتومة بِالقدر،

لا جسمٌ ووسائله المتغلّبة بالطبيعة؛ ولو كان رجلاً ابتعثته نفسه، لتمحّل الجبَلِ لسيّاسته، ولأخذت طمعاً من كلّ مطمع، ولركدت مع الحوادث وهب، ولما استمرّ طوال هذه المدة لا يتّجّه وهو فردٌ إلا اتّجاه الإنسانية كلّها كأنما هو هي.

ولو هو كان رجل المُلِكِ أو رجل السياسة، لاستقامَ والتّوى، ولأدرك ما يتغي في سنوات قليلة، ولأزجذ الحوادث يتعلّق عليها، ولما أفلت ما كان موجوداً منه يتعلّق به، ولما انتزع نفسه من محلّه في قومه وكان واسطة فيهم، ولا ترك عوامل الزمن تُبعده وهي كانت تُدنيه.

قالوا: إنّ عمّه أبا طالب بعث إليه حين كلّمته فُريش فقال له: يا ابن أخي، إنّ قومك قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبقي عليّ وعلى نفسك، ولا تُحمّلني من الأمر ما لا أطيق. فظنّ رسول الله ﷺ أنّه قد بدا لعمّه فيه بداء^(١)، وأنّه خاذله ومُسلّمه، وأنّه قد ضَعُفَ عن نُصْرته والقيام معه، فقال: يا عمّاه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته. ثم استعبر ﷺ فبكى!

يا دموع النبوة! لقد أثبت أنّ النفس العظيمة لن تتعزّى عن شيءٍ منها بشيءٍ من غيرها كائنًا ما كان، لا من ذهب الأرض وفَضّيتها، ولا من ذهب السماء وفَضّيتها إذا وُضِعَتِ الشمس في يد والقمر في الأخرى.

وكلّ حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلّا دليل ذلك الزمن على أنّه زمنُ نبيّ، لا زمنُ ملكٍ أو سياسيٍّ أو زعيمٍ؛ ودليل الحقيقة على أنّ هذا اليقين الثابت ليس يقين الإنسان الاجتماعيّ من جهة قوّته، بل يقين الإنسان الإلهي من جهة قلبه؛ ودليل الحكمة على أنّ هذا الدين ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها غدوى النفس للنفس؛ فها هو ذا لا يبلغ أهلّه في ثلاث عشرة سنة أكثر ممّا تبلغ أسرة تتوالّد في هذه الجفّة؛ ودليل الإنسانية على أنّه وحي الله بإيجاد الإخاء العالميّ والوحدة الإنسانية. أفلم يكنّ خروجه عن موطنه هو تحقّقه في العالم؟

ثلاث عشرة سنة، كانت ثلاثة عشرّ دليلاً تُثبت أنّ النبي ﷺ ليس رجل مُلك، ولا سياسة، ولا زعامة؛ ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل؛ وليس مبتدعٍ شريعة من نفسه، وإلّا لما غبّر في قومه وكأنّه لم يجدهم وهم حوله؛ وليس

(١) أي نشأ له رأي جديد فيه، وهذا كما يقولون: رجع عن رأيه.

صاحب فكرة تعمل أساليب النفس في انتشارها؛ ولو كانه لحملهم على مخفيها ومزوجها؛ وليس رجلاً متعلقاً بالمصادفات الاجتماعية، ولو هو كان لجعل إيمان يوم كُفِّرَ يوم؛ وليس مُضْلِحَ عشيرة يهذب منها على قدر ما تقبل منه سياسة ومُخَادَعَة، ولا رجل وطيئه تكون غايته أن يشمخ في أرضه شموخ جبل فيها، دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلائه على الدنيا إطلال السماء على الأرض، ولا رجل حاضره إذ كان واقعاً دائماً أن معه الغد وآتيه، وإن أدير عنه اليوم وذاهبه؛ ولا رجل طبيعته البشرية يلتبس لها ما يلتبس الجائع ليطيه، ولا رجل شخصيته يستهوي بها ويسحر، ولا رجل بطيئه يغلب به ويتسلط، ولا رجل الأرض في الأرض، ولكن رجل السماء في الأرض.

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة: قبض عنه أطراف الزمن، وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة، لا تصدُر به الأمور مصادرها كي تثبت أنها لا تصدُر به، ولا تستحق به الحقيقة لتدل على أنها ليست من قوته وعمله.

وكان ﷺ على ذلك - وهو في حدود نفيه وضيق مكانه - يشغ في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه - قبل أن تشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة - مشرقة في قلبه ﷺ

والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه، لأنه من سير الكون كله؛ والسحابة لا تشعلون برقها بالمصابيح، ومع النبي من مثل ذلك برهان الله على رسالته، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونََ الَّذِينَ كَلَّمُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] فحل الفصل، وانطلقت الصاعقة، وكانت الهجرة.

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ، وكان طبيعياً أن يطرد التاريخ بعدها، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرث به: أمطري حيث شئت فسيأتي خراجك!

فلسفة قصة (*)

ماتت خديجة زوج النبي ﷺ ومات عمه أبو طالب في عام واحد، في السنة العاشرة من النبوة، فعظمت المصيبة فيهما عليه، إذ كان عمه هذا يمتعه من أذى قريش، ويقوم دونه فلا يخلصون إليه بمكره؛ وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياسية: هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة؛ فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته، وهم أمة تحكمهم الكلمة الاجتماعية التي تسيّر عنهم في القبائل؛ وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم، فيخشون المقالة أكثر مما يخشون الغارة، وقد لا يبالون بالقتلى والجرحى منهم، ولكنهم يبالون بالكلمات المجروحة.

فكان من لطيف صنع الله للإسلام، وعجيب تدبيره في حماية نبيه ﷺ - وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة، تشتغل بها سخافات قريش، وتكون عملاً لفراغهم الروحي، وتثير فيهم الإشكال السياسي الذي يعطل قانونهم الوحشي إلى أن يتم عمل الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون، فإن المصنع الإلهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة.

أما خديجة زوج النبي ﷺ فكانت في هذه المحنة قلباً مع قلبه العظيم، وكانت لنفسه كقول (نعم) للكلمة الصادقة التي يقول لها كل الناس (لا)؛ وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة هي التي تعطي الرجل ما نقص من معاني الحياة، وتلد له المسرات من عواطفها كما تلد من أحشائها، فالوجود يعمل بها عاملين عظيمين: أحدهما زيادة الحياة في الأجسام، والآخر إتمام نقصها في المعاني.

وبموت أبي طالب وخديجة، أفرّد النبي ﷺ بجسمه وقلبه، ليتجرّد من الحالة التي يغلب فيها الجس، إلى الحالة التي تغلب فيها الإرادة، ثم ليخرج من أيام

(*) أنشأها لعدد الهجرة سنة ١٣٥٥ هـ.

الاستقرار في أرضه، إلى الأيام المتحركة به في هجرته، ثُمَّ لِيَتَهَيَّ بِذَلِكَ إِلَى غَايَةِ قَوْمِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الْمَحْدُودَةِ، فَيَتَّصِلَ مِنْ ذَلِكَ بِأَوَّلِ عَالَمِيَّةِ الْكُبْرَى .

وَأَرَادَ اللَّهُ - تَعَالَى - أَنْ يَبْدَأَ هَذَا الْجَلِيلَ الْعَظِيمَ مِنْ أَسْمَى خِلَالِ الْجَلَالِ وَالْعَظْمَةِ، لِيَكُونَ أَوَّلُ أَمْرِهِ شَهَادَةً بِكَمَالِهِ، فَكَانَتْ الْحَسَنَةُ فِيهِ بِشَهَادَةِ السَّيِّئَةِ مِنْ قَوْمِهِ، فَجَلَّمَهُ بِشَهَادَةِ رُغُونَتِهِمْ، وَأَنَاتُهُ بِدَلِيلِ طَيْشِهِمْ، وَحِكْمَتُهُ بِبِرْهَانِ سَفَاهَتِهِمْ؛ وَبِذَلِكَ ظَهَرَ الرُّوحَانِيُّ رُوحَانِيًّا فِي الْمَادَّةِ .

قَالُوا: فَنَالَتْ مِنْهُ قَرِيشٌ، وَوَضَلُّوا مِنْ أَذَاهُ إِلَى مَا لَمْ يَكُونُوا يَصِلُونَ إِلَيْهِ فِي حَيَاةِ عَمِّهِ، حَتَّى نَثَرَ بَعْضُهُمُ التَّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، كَأَنَّمَا يُعْلِمُونَهُ أَنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَكُونَ خُرًّا، فَضَلًّا عَنْ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا، فَضَلًّا عَنْ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا؛ قَالُوا: فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَهُ وَالتَّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَغْسِلُ عَنْهُ التَّرَابَ وَهِيَ تَبْكِي!

كَانَتْ تَبْكِي إِذْ لَا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا التَّرَابَ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ هُوَ شُدُودُ الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ الدُّنْيَا، فِي مَقَابِلَةِ إِنْسَانِيَّةِ الشَّاذِّ الْمُنْفَرِدِ . هَذِهِ الْقَبْضَةُ مِنَ التَّرَابِ الْأَرْضِيِّ قَبْضَةٌ سَفِيهَةٌ، تُحَاوِلُ رَدَّ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ تَنْشَأَ نَشْأَتَهَا وَتَعْمَلَ عَمَلَهَا فِي التَّارِيخِ، فَهِيَ فِي مَقْدَارِهَا وَسَخَافَتِهَا وَمَحَاوِلَتِهَا، كَعَقْلِ قُرَيْشٍ حِينَئِذٍ فِي مَقْدَارِهِ وَسَخَافَتِهِ وَمَحَاوِلَتِهِ .

أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِبَيْتِهِ: «يَا بِنْتِي لَا تَبْكِي، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ» . حَبِيبَتْ ذَلِكَ هَوَانًا وَضِيعَةً، فَأَعْلَمَهَا أَنَّ قَبْضَةً مِنَ التَّرَابِ لَا تَطْمُرُ الثُّجَمَ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحَفْوَةُ التَّرَابِيَّةُ لَا تُسَمَّى مَعْرَكَةً أَثَارَتِهَا الْخَيْلُ فَجَاءَتْ بِنَتِيجَةٍ، وَأَنَّ سَاعَةً مِنَ الْحَزَنِ فِي يَوْمٍ، لَا يُحْكَمُ بِهَا عَلَى الزَّمَنِ كُلِّهِ، وَأَنَّ هَذِهِ الثَّرْوَةُ الَّتِي تَحْرَكَتْ الْآنَ هِيَ حَقٌّ الْغَاوَةُ: قَوَّتُهَا نَهَايْتُهَا .

«يَا بِنْتِي لَا تَبْكِي فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ» . أَي لَيْسَ لِلنَّبِيِّ كِبَرِيَاءُ يَنَالُهَا النَّاسُ أَوْ يَغْضُونَ عَنْهَا فَيَأْتِي الدَّمْعُ مُتَرَجِّمًا عَنِ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ النَّاْقِصِ مُبْتَنًى أَنَّهُ نَاقِصٌ، إِنَّمَا هِيَ النَّبِيُّ: قَانُونُهَا غَيْرُ مَا اعْتَادَتْ النَّفْسُ مِنْ أَفْرَاحٍ وَأَحْزَانٍ، وَهِيَ النَّبِيُّ: تَجْعَلُ الْمُخْتَارَ لَهَا غَيْرَ مُحَدُودٍ بِجَسَدِهِ الضَّعِيفِ، بَلْ حُدُودُهُ الْحَقَائِقُ الَّتِي فِيهَا قَوَّتُهَا، فَهُوَ فِي مَنَّةِ الْوَاقِعِ الَّذِي لَا بَدْءَ أَنْ يَقَعَ، فَلَوْ أَمَكُنْ أَنْ يُحْدَفَ يَوْمٌ مِنَ الزَّمَنِ أَوْ يُؤَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ، أَمَكُنْ أَنْ يُؤَخَّرَ النَّبِيُّ أَوْ يُحْدَفَ .

«يَا بِنْتِي لَا تَبْكِي إِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ» . لَا - وَاللَّهِ - مَا يَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا نَبِيٌّ

وَسِعَ التَّارِيخُ فِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ هَذَا التَّارِيخُ فِي الدُّنْيَا، فَكَلِمَتُهُ هِيَ الْإِيمَانُ وَالثِّقَةُ إِذْ يَتَكَلَّمُ عَنْ مَوْجُودٍ.

تَرَابٌ يَنْثُرُهُ سَفِيهَةٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ! وَيَحْكُ يَا حَقَّارَةَ الْمَادَّةِ؛ إِنَّ ارْتِفَاعَكَ لَعْنَةٌ، إِنَّ ارْتِفَاعَكَ لَعْنَةٌ.

قَالُوا: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَدَّ إِلَى الطَّائِفِ، يَلْتَمِسُ مِنْ ثَقِيفِ النَّصَرِ وَالْمَنْعَةِ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الطَّائِفِ عَمَدَ إِلَى نَفَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ هُمْ يَوْمِئِذٍ سَادَتُهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَكَلَّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ، فَلَمْ يَفْعَلُوا وَأَغْرَزُوا بِهِ سُفْهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسُوتُهُ وَيَصْبِحُونَ بِهِ، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَالْجَاوِرُ إِلَى حَانِطٍ^(١) لِعُتْبَةَ ابْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بَنِ رَبِيعَةَ وَهَمَا فِيهِ. وَرَجَعَ عَنْهُ مَنْ سُفْهَاءُ ثَقِيفٍ مَنْ كَانَ يَتَّبِعُهُ، فَعَمَدَ ﷺ إِلَى ظِلِّ حُبْلَةٍ مِنْ عِنَبٍ فَجَلَسَ فِيهِ، وَابْنَا رَبِيعَةَ يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَرِيَانِ مَا لَقِيَ مِنَ السُّفْهَاءِ.

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ ﷺ فِي مَجْلِسِهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقَلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّمْتُ، إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتُهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي. أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَّحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ، أَوْ يَحُلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ!».

أَلَا مَا أَكْمَلَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي تُثَبِّتُ أَنَّ قُوَّةَ الْخُلُقِ هِيَ دَرَجَةُ ارْفَعُ مِنَ الْخُلُقِ نَفْسِهِ، فَهَذَا فَنُ الصَّبْرِ لَا الصَّبْرَ فَقَطْ، وَفَنُ الْجَلَمِ لَا الْجَلَمَ وَحْدَهُ.

قُوَّةُ الْخُلُقِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ ثَابِتًا فِي مَرْكَزِ تَارِيخِهِ لَا مُتَقَلِّلاً فِي تَوَارِيخِ النَّاسِ، مُحَدِّدًا بِعَظَائِمِ شَخْصِيَّتِهِ الْخَالِدَةِ لَا بِمُصَالِحِ شَخْصِهِ الْفَانِي، نَازِلًا فِي الْحَيَاةِ إِلَى الْوَضْعِ الثَّابِتِ لِلْحَقِيقَةِ لَا إِلَى الْوَضْعِ الْمُتَغَيِّرِ لِلْمَنْفَعَةِ. وَمَا كَانَ أَوْلَئِكَ الْأَشْرَافُ وَسُفْهَاؤُهُمْ وَعَبِيدُهُمْ إِلَّا مَعَانِي الظُّلْمِ، وَالشَّرِّ،

(١) الْحَانِطُ: الْبِسْتَانُ، وَجَمْعُهُ حَوَانِطُ.

والضعف، تقول للنبي العظيم الذي جاء يمحوها ويُدبِّلُ منها: إننا أشياء ثابتة في البشرية.

لم يكن منهم الأشراف والسفهاء والعبيد، بل كان منهم العُنفُ، والرَّق، والطَّيش، تَسَخَّرَ ثلاثُها من نبيِّ العذل، والحرية، والعقل، فما تَسَخَّرَ إلا من نفسها. صفائِرُ الحياة قد أحاطت بمجدِ الحياة، لِيُثَبَّتِ الصِّغائرُ أنَّها الصِّغائرُ، وليُثَبَّتِ المجدُّ أنَّه المجد.

كان الغريقان هما الفكرتين المتعاديتين أبدأ على الأرض: إحداهما عِش لتأكل وتستمتع وإنْ أهلكْتَ، والأخرى عِش لتعمل وتنفع النَّاسَ وإنْ هلكْتَ.

كانتِ الأقدارُ تُبادي هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحَ الضيقَ، لينطلقَ الواسعُ من مكانه ويستقبلَ الدنيا التي عليه أنْ يُنشِئها. فأولئك الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ إنْ هم إلا الضيقُ، والركودُ، وذُلُّ العيش، حول السُّعة الروحية، والسمو، وطهارة الحياة.

وقفَ المعنى السماويُّ بين معاني الأرض، ولكنْ نورَ الشمسِ ينبسطُ على الترابِ فلا يُعْفِرُهُ التراب، وما هو بنورٍ يُضيءُ أكثرَ ممَّا هو قوةٌ تعملُ بالعناصرِ التي من طبيعتها أنْ تحوِّلَ، في العناصرِ التي من شأنها أنْ تتحوِّلَ.

وكان بين النبي ﷺ وبين أولئك المستهزئين قوةٌ أخرى، هي القدرةُ التي تعملُ بهذا النبيِّ للعالمِ كلِّه، وبهذه القدرة لم ينظرِ النبيُّ إلى قریشٍ وصَوْلَيتهم عليه إلا كما ينظرُ إلى شيءٍ انقضى، فكان الوجودُ الذي يُحيطُ به غيرُ موجود، وكانت حقيقةُ الزمنِ الآتي تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة.

وإلى هذه القدرة توجَّهَ النبيُّ ﷺ بذلك الدعاءِ البليغِ الخالد، يشكو أنَّه إنسانٌ فيه الضعفُ وقِلَّةُ الجيلة، فينطقُ الإنسانيُّ فيه بالشُّطْرِ الأولِ من الدعاءِ يذكُرُ انفرادَهُ وآثَارَ انفراده، ويتوجَّعُ لِمَا بينَهُ وبين إنسانية قومه، ثم ينطقُ الروحانيُّ فيه بعدَ ذلك إلى آخِرِ الدعاءِ متوجَّهاً إلى مصدرِهِ الإلهيِّ قائلاً أول ما يقول: إنْ لم يكنْ بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي.

ولعمري لو نطَقَتِ الشمسُ تدعو الله لِمَا خرَّجَتْ عن هذا المعنى ولا زادتْ على قوله: «أعوذُ بنورِ وجهك»، تلتئمُ من مصدرِ النورِ الأزليِّ جِياطةٌ وجودها الكامل.



ولقد هزئوا من قبلُ بالمسيحِ (عليه السلام) فقال لِلساخِرِينَ منه: ليس نبيُّ بلا كرامةٍ إلا في وطنه وفي بيته. وبهذا ردُّ عليهم ردُّ مَنْ انسلَخَ منهم، وقال لهم قول

مَنْ لَيْسَ لَهُ حُكْمٌ فِيهِمْ، وَأَخَذَهُمْ بِالشَّرِيعَةِ الْأَدْبِيَّةِ لَا الْعَمَلِيَّةِ؛ إِذْ كَانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَالْحِكْمَةِ الطَّائِفَةِ لَيْسَتْ لِكُلِّ قَلْبٍ وَلَا لِكُلِّ عَقْلٍ، وَلَكِنَّهَا لِمَنْ أَعَدَّ لَهَا؛ وَشَرِيعَتُهُ أَكْثَرُهَا فِي التَّعْبِيرِ وَأَقْلَبُهَا فِي الْعَمَلِ، وَلَمْ تَجِءْ بِالْقُوَّةِ الْعَامِلَةِ فَلَمْ يَكُنْ بَدْءٌ مِنْ أَنْ تَضَعُ الْمَوْعِظَةَ فِي مَكَانِ السِّيفِ، وَأَنْ تَكُونَ قَائِمَةً عَلَى النَّهْيِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى الْأَمْرِ، وَأَنْ تَكُونَ كَشَمْسِ الشِّتَاءِ الْجَمِيلَةِ: لَا تَغْلِي بِهَا الْأَرْضَ، وَإِنَّمَا عَمَلُهَا أَنْ تَمَهِّدَ هَذِهِ الْأَرْضَ لِفَصْلِ آخِرٍ.

أَمَّا نَبِيُّنَا ﷺ فَلَمْ يُجِبِ الْمُسْتَهْزِئِينَ، إِذْ كَانَتْ الْقُوَّةُ الْكَامِنَةُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ كُلِّهَا كَامِنَةً فِيهِ، وَكَانَ صَدْرُهُ الْعَظِيمُ يَحْمِلُ لِلدُّنْيَا كَلِمَةً جَدِيدَةً لَا تَقْبَلُ الدُّنْيَا أَنْ تُعَامَلَ عَلَيْهَا إِلَّا بِطَرِيقَتِهَا الْحَرِيَّةِ؛ فَلَمْ يَرُدَّ رَدُّ الشَّاعِرِ الَّذِي يُرِيدُ مِنَ الْكَلِمَةِ مَعْنَاهَا الْبَلِيغُ، وَلَكِنَّهُ سَكَتَ سَكُوتَ الْمُشْتَرَعِ الَّذِي لَا يُرِيدُ مِنَ الْكَلِمَةِ إِلَّا عَمَلُهَا حِينَ يَتَكَلَّمُ؛ وَكَانَ فِي سَكُوتِهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي فِلْسَفَةِ الْإِرَادَةِ وَالْحَرِيَّةِ وَالتَّطَوُّرِ، وَأَنْ لَا بَدْءٌ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْقَوْمُ، وَأَنْ لَا بَدْءٌ أَنْ يَفْطَرَّ هَذَا الشَّجَرُ الْأَخْزَدُ عَنْ وَرَقٍ جَدِيدٍ أَخْضَرَ يَنْمُو بِالْحَيَاةِ.

لَمْ يَتَسَخَّطْ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً، وَكَانَ كَالصَّانِعِ الَّذِي لَا يَرُدُّ عَلَى خَطَا الْآلَةِ بِسَخْطٍ وَلَا يَأْسَ، بَلْ يَأْرِسَالِ يَدَهُ فِي إِصْلَاحِهَا.

قَالُوا: وَرَأَى ابْنُ رَبِيعَةَ، عُثْبَةُ وَشَيْبَةُ مَا لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ السَّفَهَاءِ، فَتَحَرَّكَتْ لَهُ رَجِمُهُمَا، فَذَعَا غُلَاماً لَهَا نَصْرَانِيّاً يُقَالُ لَهُ عَدَّاسُ، فَقَالَا لَهُ: جِذْ قَطْعاً مِنْ هَذَا الْعَنْبِ وَضَعْنَاهُ فِي ذَلِكَ الطَّبَقِ، ثُمَّ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ فَقُلْ لَهُ يَأْكُلُ مِنْهُ. فَفَعَلَ عَدَّاسٌ ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا وَضَعَ يَدَهُ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» ثُمَّ أَكَلَ؛ فَنَظَرَ عَدَّاسٌ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: - وَاللَّهِ - إِنَّ هَذَا لَكَلَامٌ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبَلَدَةِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ وَمَا دِينُكَ؟

قَالَ: أَنَا نَصْرَانِيٌّ وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَيْنَوَى. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؟ قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّى؟ قَالَ ﷺ ذَاكَ أَخِي: كَانَ نَبِيّاً وَأَنَا نَبِيٌّ.

فَاكْبَتْ عَدَّاسٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُ رَأْسَهُ وَيَدِيهِ وَرَجْلَيْهِ.

يَا عَجَباً لِمُؤَمَّرِ الْقَدَرِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ!

لقد أسرعَ الخيرُ والكرامةُ والإجلالُ فأقبلتْ تعتذرُ عن الشرِّ والسفاهةِ والطيشِ، وجاءتِ القُبُلَاتُ بعدَ كلماتِ العداوةِ.

وكان ابنا ربيعةً من ألدِّ أعداءِ الإسلامِ، وممنَ مَشَوْا إلى أبي طالبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ من أشرافِ قريشٍ يسألونه أنْ يكفُّهُ عنهم أو يُخَلِّيَ بينهم وبينه، أو يُنَازِلُوهُ وإيَّاهُ حتى يهلكَ أحدُ الفريقينِ، فانقلبَتِ الغريزةُ الوحشيةُ إلى معناها الإنسانيِّ الذي جاء به الدينُ، لأنَّ المستقبلَ الدينيَّ للفكرِ لا للغريزةِ.

وجاءتِ النصرانيةُ تُعَانِقُ الإسلامَ وتُعَزِّهُ، إذ الدينُ الصحيحُ من الدينِ الصحيحِ كالأخِ من أخيه، غيرَ أنْ نَسَبَ الإخوةَ الدُمَ ونَسَبَ الأديانَ العقلَ.

ثمَّ أنتمُ القُدُرُ رمزُهُ في هذه القصةِ، بَقَطْفِ العنَبِ سائغاً عَذْباً مملوءاً خَلاوةً؛ فباسمِ الله كان قِطْفُ العنَبِ رمزاً لهذا العنقودِ الإسلاميِّ العظيمِ الذي امتلأَ حبًّا كُلُّ حبةٍ فيه مملكةً.

فوق الأدبية(*)

الإسراء والمعراج

من أعجب ما اتفقَ لي أنني فرغتُ من تسويدِ هذا المقالِ ثم أردتُ نقله، فتعسّرَ عليّ وضرِفْتُ عنه بآلم شديدٍ اعتراني، ونالني منه ثقلٌ في الدماغ؛ ثم كشفهُ الله بعدَ يومٍ فراجعتُ الكتابةَ، فإذا قلّمي ينبعثُ بهذه الكلمات:

كيف يَسْتَوْطِئُ المسلمونَ العجزَ، وفي أولِ دينهم تسخيرُ الطبيعة؟
كيف يَسْتَمْهِدُونَ الراحة، وفي صَدْرِ تاريخهم عملُ المعجزة الكبرى؟
كيف يَزْكُونُ إلى الجهل، وأولُ أمرهم آخرُ غاياتِ العِلْم؟
كيف لا يحملونَ النورَ للعالمِ ونيهم هو الكائنُ النورانيُّ الأعظم؟

قصةُ الإسراءِ والمعراجِ هي من خصائصِ نبينا محمدٍ ﷺ هذا النجمُ الإنسانيُّ العظيم؛ وهو النورُ المتجسّدُ لهدايةِ العالمِ في خيرةِ ظلماتِهِ النفسيّةِ؛ فإنَّ سماءَ الإنسانِ تُظْلِمُ وتُضِيءُ من داخلِهِ بأغراضِهِ ومعانيهِ. والله - تعالى - قد خلقَ للعالمِ الأرضيِّ شمساً واحدةً تُنِيرُهُ وتُحييه وتُثَقِّلُ عليه بليله ونهارِهِ، بيدَ أنّه تركَ لكلِّ إنسانٍ أنْ يصنَعَ لِنَفْسِهِ شمسَ قلبِهِ وغمَامَها وسحابتها وما تُسْفِرُ به وما تُظْلِمُ فيه. ولهذا سُمِّيَ القرآنُ نوراً لِعَمَلِ آدَابِهِ في النفسِ، ووُصِفَ المؤمنونَ بأنَّهم ﴿يَتَنَزَّلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَإِنْ يَشَاءُ﴾ [الحديد: ١٢]، وكان أثرُ الإيمانِ والتقوى في تعبيرِ القرآنِ الكريمِ أنْ يجعلَ الله لِلْمُؤْمِنِينَ نوراً يمشون به.

وقد حازَ المفسّرونَ في حكمةِ ذكرِ «الليل» في آيةِ «الإسراء» من قوله - تعالى -: ﴿سَبَّحَنَ الَّذِي أَمَرَهُ بِعَبِيدِهِ، لِلَّهِ مِنَ السَّجْدِ الْحَرَامِ إِلَى السَّجْدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِتَرِيَهُ مِنْ مَّكَانَيْنَا﴾ [الإسراء: ١]. فإنَّ السُّرَى في لغةِ العربِ لا يكونُ إلا ليلاً.

(●) أنشأها برأي صديقه الأستاذ محمود أبو ربه.

والحكمة هي الإشارة إلى أنَّ القصةَ قصَّةُ (النجم) الإنسانيِّ العظيم الذي تحوّل من إنسانيته إلى نوره السماويِّ في هذه المعجزة، وتُسمّى هذه المعجبةُ أنَّ آياتِ «المِعراج» لم تجيء إلّا في سورة: «والنَّجم».

وعلى تأويلٍ أنَّ ذكرَ (الليلِ) إشارةً إلى قصة النجم، تكونُ الآيةُ برهاناً نفسها، وتكونُ في نَسَقِها قد جاءتْ معجزةً من المعجزاتِ البيانيّة؛ فإذا قيل إنَّ نجماً دارَ في السماء، أو قطعَ ما تقطّعه النجومُ من المسافاتِ التي تُعجزُ الحساب، فهل في ذلك من عجيب؟ وهل فيه شكٌ أو نظرٌ أو تردّد؟ وهل هو إلّا من بعض ما يُسبّحُ الله بذكره؟ وهل يكونُ إلّا آيةً اتصلت بالآياتِ التي نراها اتصالَ الوجودِ ببعضه ببعض؟

وأنا ما يكادُ ينقضي عَجْبِي من قوله تعالى: ﴿لَيُريَنَّكَ﴾ [الإسراء: ١]. مع أنَّ الألفاظَ كما ترى مكشوفةً واضحة، يُخيّلُ إليك أنَّ ليس وراءها شيء، ووراءها السرُّ الأكبر؛ فإنّها بهذه العبارة نصُّ على إشراف النبي ﷺ فوق الزمان والمكان يرى بغير حجابِ الحواسِّ ممّا مرّجعه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه؛ بخلاف ما لو كانت العبارة: «ليري من آياتنا» فإن هذا يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها، فيضطربُ الكلام، ويتطرّقُ إليه الاعتراضُ ولا تكونُ ثمَّ معجزة.

وتحويلُ فعلِ (الرؤية) من صيغةٍ إلى صيغةٍ كما رأيتُ، هو بعينه إشارةٌ إلى تحويلِ الرائي من شكلٍ إلى شكلٍ كما ستعرفه، وهذه معجزةٌ أخرى يسجدُ لها العقلُ؛ فبَارَكَ اللهُ مُنزِلُ هذا الكلام!

وإذا كان ﷺ نجماً إنسانياً في نوره، فلنْ يأتِي هذا إلّا من غلبةِ روحانيته على مادّته؛ وإذا غلبَتْ روحانيتهُ كانتْ قوَاهُ النفسيةُ مهتأةً في الدنيا لِمِثْلِ حالتها في الأخرى؛ فهو في هذه المعجزة أشبهُ بالهواءِ المتحرّك. فقلْ الآن: أَيْعترضُ على الهواءِ إذا ارتفعَ بأنّه لم يرتفعْ في طيّارة...؟

ومن ثَمَّ كان الإنسانُ إذا سما درجةً واحدةً في ثباتِ قوَاهُ الروحيّة، سما بها درجَات فوق الدنيا وما فيها، وسُخِّرَتْ له المعاني التي تُسَخَّرُ غيره من الناس، ونشأتْ له نواميسُ أخلاقيّةٌ غيرُ النواميسِ التي تتسلطُ بها الأهواء. ومتى وُجدَ الشيءُ من الأشياءِ كانتْ طبائعُ وجوده هي نواميسه؛ فالنارُ مثلاً إذا هي تضرّمتْ أوجذبتِ الإحراقَ فيما يحترق، فإنْ وُضِعَ فيها ما لا يحترقُ أبطل نواميسها وغلبَ عليها.

وكلُّ معجزةٍ تُحدثُ فهذا هو سبيلُها في إيجادِ النواميس الخاصة بها وإبطالِ النواميس المألوفة، وبهذا يُقال: إنها خَرَقَتِ العادة. وَمَنْ النورُ نورٌ لا يَشْفُ له غيرُ الهواء، ومنه أشعةُ (رونجن) التي تشفُ لها الجدرانُ والحُجبُ؛ فهذه معجزةٌ في ذلك.

والنبيُّ لا يكون نبياً حتى يكونَ في إنسانِه إنسانٌ آخرُ بنواميس تجعلُهُ أقربَ إلى الملائكة في روحانيَّتها، وما ينزلُ إنسانُهُ الظاهرُ من الإنسانِ الباطنِ فيه إلّا منزلةً مَنْ يتلقَى بِمَنْ يُعطي؛ فذلك الباطنُ هو للحقائِقِ التي لا تحملُها الدنيا، وهذا الظاهرُ لِمَا يُمكنُ أَنْ يبلغَ إليه الكمالُ في المثلِ الإنسانيِّ الأعلى، ولولا ذلك الباطنُ ما استطاعَ نبيُّ من الأنبياءِ أَنْ يحملَ همومَ أمةٍ كاملةٍ لا تُضَيِّيه ولا تُفَيِّزُهُ ولا تُعْجزُهُ.

فحقيقةُ النبوةِ أنها قوةٌ من الوجودِ في إنسانٍ مختارٍ جاءتْ تُصلِّحُ الوجودَ الإنسانيَّ به لتَقَرُّ في هذه الحيوانية المَهْذَبةِ مَثَلُها الأعلى، بدلايتها على طريقِها النفسيِّ مع طريقِها الطبيعيِّ؛ فيكونُ مع الانحطاطِ الرقيُّ، ومع النقصِ الكمالُ، ومع حُكْمِ الغريزةِ التحكُّمُ في الغريزة، ومع الظلمةِ الماديةِ الإشرافُ الروحانيُّ.

وما المعجزاتُ إلّا شأْنُ تلكِ القوةِ الباطنة لا شأْنُ إنسانِها الظاهر، وَمَنْ الذي يُنْكَرُ أَنْ قُوَى الوجودِ هي في نفسها إعجازٌ للعقلِ البشريِّ؟ وهلْ يُنْكَرُ اليومَ أَحَدٌ شأْنَ هذه القوةِ في (الراديو) حينَ مَسَّتْهُ فجعلتِ الكلمةَ التي تُرْسَلُ بين الشرقِ والغربِ، كالكلمةِ بين اثنين يتحدثان في مجلسٍ واحدٍ؟

ونحنُ نرى معجزاتِ التنويمِ المغناطيسيِّ وما يُبْصِرُهُ النَّائمُ وما يسمعه، وما ينكشفُ له مِمَّا وراءَ الزمانِ والمكانِ؛ وليس التنويمُ شيئاً إلّا تسليطُ الذاتِ الباطنة بقواها الروحيةِ العجيبة، على الذاتِ الظاهرةِ المقيّدة بحواسِّها المحدودة، فتَطْلُعُ عليها، فتُضَيِّعُ الحواسَّ مطلقةً شائعةً في الوجودِ بمقدارِ ما فيها من قوَاهُ لا بمقدارِ ما فيها من قوةٍ شخصِها.

وعلى نحوِ من ذلك يتصلُّ الرجلُ الروحانيُّ بذاته الباطنة، فيوقِعُ شخصه الظاهرَ في الاستهواء، فينكشفُ له الوجودُ، ويُبْصِرُ ما يَقَعُ على البعد، ويرى ما هو آتٍ قبلَ أَنْ يَأْتِيَ؛ وما الكوْنُ في هذه الحالةِ إلّا كالمعشوقِ يقولُ لِعاشِقِهِ الذي وَقَعَ في قلبِهِ الحُبُّ: قَدْ آتَيْتُكَ نوراً تنظرُ به جمالي.

وفي علماءِ عصرِنا من يَفْكرُ في الصعودِ إلى القمرِ، وفيهم مَنْ يعملُ

لِلْمُخَاطَبَةِ مَعَ الْأَفْلَاقِ، وَفِيهِمْ مَنْ تَقَعَّ لَهُ الْعَجَائِبُ فِي اسْتِحْضَارِ الْأَرْوَاحِ وَتَسْخِيرِهَا؛ وَكُلُّ ذَلِكَ أَوَّلُ الْبِرْهَانِ الْكُونِيِّ الَّذِي سَيُلْزِمُ الْعِلْمَ فَيُضْطَرُّهُ فِي يَوْمٍ مَا إِلَى الْإِقْرَارِ بِصَحَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ.

وَنَحْنُ قَبْلَ أَنْ نُبْدِيَ رَأْيَنَا فِي الْقِصَّةِ نُلَمُّ بِهَا إِلَامَةً مُوجِزَةً؛ فَقَدْ اخْتَلَفَتْ فِيهَا الْأَحَادِيثُ وَوَقَعَ فِيهَا تَخْلِيضٌ كَثِيرٌ، فَجَاءَتْ قُنُوناً وَأَنْوَاعاً مِنْ طُرُقٍ شَتَّى، حَتَّى جَمَعَهَا بَعْضُهُمْ فِي جُزْأَيْنِ^(١)، وَمَا تَحْتَمِلُ كُلُّ ذَلِكَ وَلَا بَعْضُهُ، وَلَكِنْ رَوْحُ الرِّوَايَةِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ كَانَتْ كَرُوحِ الصَّحَافَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ: مَتَى فَارَثَ قُوَّزَهَا اسْتَحْدَثَتْ مِنْ كُلِّ عِبَارَةٍ عِبَارَةً أُخْرَى، وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَخْرُجُ مِنَ الْعِبَارَتَيْنِ عِبَارَةٌ ثَالِثَةٌ، فَيَكُونُ الْأَصْلُ مَعْنَى وَاحِداً وَإِذَا هُوَ يَمُتُّ مِنْ يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ.

وَلَا يَزِيدُونَ بِذَلِكَ بَأْساً؛ فَإِنَّهُمْ يَشُدُّونَ بِهِ الرَّأْيَ، وَيُضَاعِفُونَ مِنْهُ الْيَقِينَ، وَيَزِيدُونَ ضَوْءاً فِي نَوْرِ الْمَعْنَى، وَمَا دَامُوا قَدْ أَثْبَتُوا الْأَصْلَ وَاسْتَبَقْنَاهُ، فَلَا خَرَجَ أَنْ يُؤَيِّدَ الْقَوْلَ بِبَعْضِهِ بَعْضاً، بِاجْتِهَادٍ فِي عِبَارَةٍ، وَاسْتِنْبَاطٍ مِنْ أُخْرَى، وَزِيَادَةً فِي الثَّالِثَةِ بِمَا هُوَ بِسَبِيلِهَا، عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى مِنْ قُرْنِ الرِّوَايَةِ الْقِصَصِيَّةِ؛ إِذْ تَتَعَدَّدُ الْأَسَالِيبُ وَالْعِبَارَاتُ مُخْتَلِفَةً مُتَنَوِّعَةً، وَلَيْسَ تَحْتَهَا إِلَّا حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَخْتَلِفُ. وَالْقِصَصُ الدِّينِيُّ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قُرْنٌ كَامِلٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، لَا يُبَدِّغُ الْعَقْلَ وَالْخَيَالَ وَالْعَاطِفَةَ أَقْوَى مِنْهُ وَلَا أَعْجَبَ وَلَا أَغْرَبَ.

هَذَا فِي مَثْنِ الْقِصَّةِ، أَمَّا فِي وَاقِعَتِهَا فَقَدْ اخْتَلَفُوا اخْتِلَافاً آخَرًا: هَلْ كَانَ الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ يَقْطَعُهُ أَوْ مَنَاماً؟ وَبِالرُّوحِ وَحْدَهَا، أَوْ بِالرُّوحِ وَالْجِسْمِ مَعاً؛ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَا الْخِلَافَ لِأَنَّهُ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُخَيَّرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمْ يَعْيُنْ لَهُمْ وَجْهٌ مِنْ هَذِهِ الْأَوْجِهَةِ. وَالْحَكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عَقُولَهُمْ لَمْ تَكُنْ تَحْتَمِلُ الْإِدْرَاكَ الْعِلْمِيَّ الَّذِي أُسَّسُهُ مَا عُرِفَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ الْكَهْرِبَاءِ وَالْأَثِيرِ...

وَالْخِلَاصَةُ الَّتِي تَتَأَدَّى مِنَ الْقِصَّةِ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ مَضْطَّجِعاً، فَاتَاهُ جَبْرِيلُ، فَأَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَأَرَكَبَهُ الْبُرَاقَ، فَاتَى بَيْتَ الْمَقْدَسِ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى فِيهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ، فَاسْتَفْتَحَهَا جَبْرِيلُ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، فَرَأَى فِيهَا مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ، وَاجْتَمَعَ بِالْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - وَصَعِدَ فِي سَمَاءٍ بَعْدَ سَمَاءٍ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا، فَرَأَى ﷺ مَظْهَرَ الْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ، ثُمَّ رُجِّعَ بِهِ فِي النُّورِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ مَا أَوْحَى.

(١) قَالَ الذَّهَبِيُّ: إِنْ الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ جَمَعَ أَحَادِيثَ الْإِسْرَاءِ فِي جُزْأَيْنِ.

أما وشي القصة وطرأها فباب عجيب من الرموز الفلسفية الإنسانية التي يرمز بها إلى تجسيد الأعمال في هذه الحياة: تكون تعباً وتقع فائدة، أو تُلْتَمَس منفعة وشهوة وتقع مُضَرَّة وحماقة، ثم تنفى من هذه وتلك الصُور الزمنية التي توهمها أصحابها، وتخلد الصور الأبدية التي جاءت بها حقائقها.

ومن هذه الرموز البديعة قوله: فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فأخذت اللبن، فقال جبريل: أَخَذْتَ الْفِطْرَةَ. وأنه مر على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم، كلّمَا حصدوا عادَ كما كان؛ فسأل ما هذا؟ قال جبريل: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ سَبْعُمِائَةٍ ضِعْفٍ. ثم أتى على قوم تُرْضَخُ رُؤُوسُهُم بِالصَّخَرِ، كلّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؛ فقال ما هذا؟ قال جبريل: هؤلاء الذين تتأقّل رؤوسهم عن الصلاة. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نَضِيجٌ في قَدْرٍ، ولحمٌ آخَرُ نِيءٌ في قَدْرٍ خَبِيثٍ، فجعلوا يأكلون من النِيءِ الْخَبِيثِ وَيَدْعُونَ النَّضِيجَ؛ فقال ما هؤلاء؟ قال جبريل: هذا الرجلُ تَكُونُ عَنْدهُ الْمَرْأَةُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ فيأتي امرأة خبيثة، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً. ثم أتى على رجلٍ قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجلُ تَكُونُ عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحبل عليها. ثم رأى نساء معلقات بثديهن؛ فسأل، فقال جبريل: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم.



ونحن على الرأي الذي عليه جمهور العلماء: من أن الإسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً على التأويل الذي سُنِّيَهُ؛ ويثبت ذلك قوله - تعالى - في سورة (النجم): ﴿إِذْ يَشْفَى الْأَيْدِي مَا يَفْتَنِي مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا كُنَّ﴾ [النجم: ١٧]. فلا يكون البصر يزغ ويطفئ إلا في الجسم، ولا ينتفي عنه ذلك إلا وهو في الجسم. ولم يتنبأ أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب في قوله: ﴿وَمَا كُنَّ﴾ [النجم: ١٧]: فذلك نص على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء؛ إذ لا يكون طغيان البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التي لا يستقيم بها حكم على حقيقته، فما زاع البصر بكونه مقيّد الحاسة، ولا طغى بكونه مُطْلَق الخيال، بل كان كما يريه الله من آياته، أي كان حقيقةً كونيةً في غير حالتها الأرضية الناقصة.

والذين قالوا إِنَّ الإسراءَ والمِعراجَ كانا رؤيا رأها النبي ﷺ احتجوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَرْثِيَاءَ الَّذِينَ هَلَكَ مِنْكُمْ إِلَّا لِيُصْغَتْ إِلَيْكَ أَلَيْسَ لَكَ بِالَّذِينَ قَتَلُوا نَبِيَّكَ إِزْمَاتٌ كَذِبًا﴾ [الإسراء: ٦٠]. وقد خلطَ المفسرون في هذا أيضاً، وإثماً كان التعبير بلفظ «الرؤيا» - وهي التي تكونُ مناماً - لنفي تأثير الحواس على الرائي، وإثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معاً، فليس نائماً كالنائم، ولا مستيقظاً كالمتيقظ.

وفي أساسِ القصة جبريلُ والبراقُ، وهما القوةُ الملائكية والقوةُ الطبيعية، أو الروحُ الملائكيُّ والروحُ الطبيعيُّ؛ ولم يُوصف البراقُ بأنه دابةٌ إلا رمزاً، إذ لا يأتي للعرب أن يفهموا ما يُرادُ منه؛ وعندنا أنه سُمِّيَ البراقُ من البرق، وما البرق إلا الكهربائية، وهذا هو المرادُ منه؛ فثلث قوة كهربائية متى نبضت جمعت أول العالم بآخره؛ وهذه هي الحكمة في أن آية الإسراء لم تذكر أنه كان محمولاً على شيء، إذا لم يكن محمولاً إلا على روح الأثير.

وما دامت القوةُ الملائكيةُ والقوةُ الطبيعيةُ قد سُخرتا له ﷺ فلا معنى لأن يكون ذلك للروح دونَ الجسم، بل اجتماعهما معاً في القصة دليلٌ على أن سرَّ المعجزة إنما كان في تيسيرِ ملاءمة جسمه الشريف لهاتين الحالتين؛ فيتحول في صورة كونية ملائكية بين سرِّ الملك وسرِّ الطبيعة، وحينئذ لا تجري عليه أحكام الحواس ولا أحكام المادة.

ومن الممكن أن تتحول الأجسام إلى حالتها الأثيرية في بعض الأحوال الخارقة، وبهذا يُعلل طي الأرض لبعض الروحانيين، وتعلل خوارق كثيرة مما يحدث في استحضار الأرواح لهذا العهد، ومما يأتيه فقراء الهند، ومما كان يصنعه «هوديني» الأمريكي: إذ كانوا يغلبونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقاً؛ ويحبسون المحضنة يقوم عليها الحراس وتُمسِكُه فيها الأبواب والجدران ثم يجدونه في بعض الفنادق.

وليس للعقل أن يُكبِّر شيئاً من هذه ونحوه، فإن تركيب الطبيعة ردُّ عليه، ونقصه هو ردُّ على نفسه، والمستحيل على الأعمى هو أيسرُ الممكنات على البصير.

فأنت ترى أن ذكر البراق والملك في أساس قصة الإسراء والمِعراج هو صلة القصة بالمعجزة، وهو عينه صلتها بالبرهان؛ ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير.

والقصة بعد ذلك تُثبِتُ أنَّ هذا الوجودَ يرقُ وينكشفُ ويستضيءُ كلُّما سما الإنسانُ بوجهه، ويغلُظُ ويتكاثُفُ ويتحجَّبُ كلُّما نزلَ بها، وهي من ناحية النبي ﷺ قصةٌ تُصِفُهُ بمظهره الكونيِّ في عظمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملةَ في ملكوتِ الله، ومن ناحية كلِّ مسلمٍ من أتباعه هي كالدرسٍ في أنَّ يكونَ لِقَلْبِ المؤمنِ معراجٌ سماويٌّ فوقَ هذه الدُّنيا، ليُشْهَدَ ببصيرته أنوارَ الحقِّ، وجمالِ الخيرِ، وتجسُّدِ الأعمالِ الإنسانيةِ في صورها الخالدة؛ فيكونَ بتدبُّره القصةَ كأنَّما يصعدُ إلى السماءِ وينزلُ؛ فيستريحُ إلى الحقائقِ الأساسيةِ لهذه الحياة، فيدفعُ عن نفسه بذلكَ تعقُّدَ الأخيلةِ الذي هو أساسُ البلاءِ على الروحِ.

ومتى استنارَ القلبُ كانَ حيًّا في صاحبه، وكانَ حيًّا في الوجودِ كلِّه. ومتى سَلِمَتِ الحياةُ من تعقيدِ الخيالِ الفاسدِ لم يكنْ بينَ الإنسانِ وبينَ الله إلا حياةٌ هي الحقُّ والخيرُ، ولم يكنْ بينَهُ وبينَ الناسِ إلا حياةٌ هي الرحمةُ والحبُّ.

الإنسانية العليا(*)

من أوصاف النبي ﷺ أنه كان متواصلاً بالأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، ليس بالجافي ولا المهين، يُعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئاً، ولا تُغضب الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تُعذّي الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها؛ وكان خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، ولا يطوي عن أحد من الناس بشره، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء؛ يحسن الحسن ويقويه، ويُقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف؛ وكان أشد الناس حياءً، لا يثب بصره في وجه أحد، له نور يعلوه كأن الشمس تجري في وجهه، لا يؤيس راجيه، ولا يُخيّب عافيه، ومن سألَه حاجة لم يرده إلا بها أو بمتشور من القول؛ أجود الناس بالخير^(١).

* * *

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التي لا يجد الكمالات الإنساني مذهباً عنها ولا عن شيء منها، ولا يجد النقص البشري مَسَاحاً إليها ولا إلى شيء منها؛ ففيها المعنى التام للإنسانية، كما أن فيها المعنى التام للحق، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للإيمان.

هي صفات إنسانها العظيم، وقد اجتمعت له لتأخذ عنه الحياة إنسانيتها العالية؛ فهي بذلك من برهانات نبوته ورسالته.

ولو جمعت كل أوصافه ﷺ ونظمته بعضها إلى بعض، واعتبرتها بأسرارها العلمية - لرأيت منها كونا معنوياً دقيقاً قائماً بهذا الإنسان الأعظم، كما يقوم هذا

(*) انظر صفحة ٢٤١ من حياة الرافعي.

(١) جمعنا هذه الأوصاف من روايات مختلفة، وجعلناها كالحديث الواحد.

الكون الكبير بسُنَّته وأصول الحكمة فيه، ولأيقنت أن هذا النبي الكريم إن هو إلا مُعْجَمٌ نفسي حيُّ أَلْفَتُهُ الحكمةُ الإلهيةُ بعلم من عِلْمِها، وقوة من قوتها، لِيُتَخَرَّجَ به الأمة التي تُبدعُ العالمَ إبداعاً جديداً، وتُثبِتُهُ النشأةُ المحفوظةُ له في أطوارِ كماله .

ولن ترى في الإنسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض وأنني لأكادُ كلُّما تأملتُها أحسُّبُ هذا السموَّ قضاءً وقَدرًا بإنسانٍ على الإنسانية كلها . وهي دليلٌ على أنَّه الإنسانُ الذي خُلِقَ لِلدنيا لا لِنَفْسِهِ؛ فهو لا ينمو بما يكون على الناس من الحقِّ، ولكن بما يكون للناس عليه من الواجبات، كأنما هو حقيقةٌ كونيةٌ تعيشُ عيشها، فما تكونُ في الوجودِ إلَّا لِتَقَرَّرَ وجودُها هي، ولا تنتهي حينَ تنتهي بذاتها إلَّا لِتَبْدَأَ معانيها في غيرها، فهو ﷺ إنسانٌ غُرِسَ في التاريخِ غرساً ليكونَ حداً لزمانٍ وأولاً لزمانٍ بعده، وما كانت حياتهُ تلكَ إلَّا طريقةَ عَرضِهِ، وهو أبدأُ قائمٌ في مكانه الاجتماعي، إذ كان الزمنُ كلما تقدم زاد في إثباته، وقد أصبحَ في الدنيا كأنهُ جهةٌ من الجهاتِ لا إنسانٌ من الناس، فلن يتغيرَ أو يُمَحَى إلَّا إذا تغيرَ أو مُحِيَ المشرقُ والمغرب .

ونحن حينَ نقرأ تلكَ الصفاتِ وما فاضَتْ به كُتُبُ الشرائعِ من أمثالها، لا نقرأها أوصافاً ولا جليةً، بل نراها صفحةً إلهيةً مصنَّعةً أبدعَ تصنيفٍ وأدقُّه، وبين وراءِ تأليفها تفسيرٌ طويلٌ لا يتهدَّى الفكرُ البشريُّ لِأحسنَ منه ولا أصحَّ ولا أكملَ؛ فقد اجتمعت تلكَ الصفاتُ في إنسانها اجتماعَ الأجزاء في المسألة الرياضية: لا ينبغي أن تزيدَ أو تنقصَ، إذ كان في مجموعها ما وُجِدَ له مجموعها .

ويكادُ الارتباطُ بين أجزاء المسألة يكون هو بعينه صورةً لِلارتباطِ بين أجزاء تلكَ الصفاتِ الشريفة؛ فإنَّ كُلَّ جزءٍ منها موضوعٌ وضْعاً لا يتمُّ الكلُّ إلَّا به، حتى لا موضعٌ فيها لِقَلَّةٍ أو كثرةٍ؛ وهذا معنى قوله ﷺ «أَدْنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»، وأنت إذا دَقَّقْتَ في هذا الحديثِ أدركتَ من مَغْنَاتِهِ أنَّ هناك طبيعةً أخلاقيةً مفردةً تجري على قانونها الذي وضعَهُ اللهُ لها وأحكمها به .

وأعجبُ ما يدهشنا من مجموع صفاته ﷺ أنَّ فيها دليلاً بيِّناً على أنَّه مخلوقٌ خَلَقَهُ متميزةً بنفسها، كخَلْقَةِ القلبِ الإنساني: نظامُهُ حياتهُ وحياتهُ نظامُهُ، وكأنما اعترَتْهُ حالةٌ نفسيةٌ كالتي تعترى القلبَ في استشعارِ الخطرِ فتُخرِجُهُ من طبيعتهِ إلى أقوى منها، فلا يزالُ يُمَدُّ أعضاءَ الجسمِ بِمَدَدٍ لا ينفَدُ من القوةِ والصبرِ، يجعلُ الحياةَ فيها على أضعافها كأنها حياةٌ كانت مخبوءةً وظهَرتْ بغتةً؛ وفي هذه الحالة تُتَجَهَّرُ غرائزُ النفسِ كُلِّها إلى جهةٍ واحدةٍ كأنها مقدَّرةٌ بميزانٍ مضبوطةٌ بقياسٍ؛

فترجع على تناقضها واختلافها مُتعاونة يُؤازِر بعضها بعضاً، وكان قانونها الطبيعي أن تتجاذب وتتساقط وتفسر الواحدة منها عمل الأخرى، فيجىء بها الشيء وضده معاً: كالصدق والكذب، والطمع والقناعة، والشهوات الثائرة والخمود الساكن، إلى آخر ما تعد من هذه الغرائز؛ ولكنها في استعمار الخطر تكون كالأشياء لا كالأضداد، فيشد بعضها بعضاً، ويتمم النقيض منها نقيضه، وتجري كلها في قانون واحد: هو الدفاع بأجزائها عن مجموعها؛ فترى النزاع منها وإنه لمستقر في أشد من القيد، وكأن فيه غير طبيعته.

وهل يُثبتك مجموع صفاته ﷺ إلا أنه يعيش معيشة القلب إذا اختلف ما حوله وفجأته بفتات الوجود فتجاوز أن يكون منبعاً للحياة إلى أن يكون حافظاً للحياة في منبها؟

وتلك الحالة - كما مر بك - تجعل وجود الإنسان هو وجود إرادته وعقله، لا وجود شهواته وغرائزه؛ وكذلك عاش نبينا ﷺ فهو مدة حياته في وجود إرادته لا غيرها، حتى ليس عليه سبيل لتمييز أو لائمة، كأنه خلق تشده نية مستقيمة قد نبهها ما ينبئ النفس من الغرر والخطر. ولعل هذا الشعور في نفسه ﷺ هو التفسير لقوله: «نية المؤمن خير من عمله». إلى أحاديث كثيرة مما يجري في معنى هذه الكلمة الجامعة؛ يريد بها: أن نية المؤمن لا تنطوي إلا على الخير الكامل، فهو - ما دامت نيته على صلاحها وسيره على إخلاصه - لا يغدو اليسير من الشر يسيراً، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً؛ فالأصل القائم في تلك النية المؤمنة ألا يبدأ الشر كي لا يوجده، وألا ينتهي الخير كي لا يفنى؛ فالمؤمن من ذلك على الخير والكمال أبداً، في حين أن عمله بطبيعته الإنسانية يتناول الخير والشر جميعاً، ثم لا يكون إلا عملاً إنسانياً على نقص واضطراب والتواء.

وقد لا يستطيع المؤمن أن يأتي الخير في بعض أحواله، ولكنه يستطيع دائماً أن يتوهم ويرغب فيه ويغرم عليه، ليحقق ضميره في كل ما يهم به؛ ويحصر أفكاره في قانون نيته المؤمنة. وهذا هو الأساس في علم الأخلاق، لا أساس من دونه.

والنية من بعد هي حارس العمل؛ فكل إنسان يستطيع أن يذعن وأن يأبى، ومن ثم تكون هذه النية رداً ومدافعةً من ناحية، واستجابة ومطابقة من الناحية الأخرى؛ فهي على الحقيقة متى صلحت كانت استقلالاً تاماً للإرادة، وكانت مع ذلك ضبطاً لهذه الإرادة على حال واحدة هي التي يتنظم بها قانون المبدأ السامي.

ثُمَّ إِنَّهُ لَا ضَابِطَ لِصِحَّةِ الْعَمَلِ وَاسْتِقَامَتِهِ إِلَّا النِّيَّةُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ؛ فَالتَّزْوِيرُ وَالتَّلْبِيسُ كِلَاهُمَا سَهْلٌ ميسورٌ فِي الْأَعْمَالِ، وَلَكِنَّهُمَا مُسْتَحِيلَانِ فِي النِّيَّةِ إِذَا خُلِصَتْ.

وَهِيَ كَذَلِكَ ضَابِطٌ لِلْفَضَائِلِ تُوجِّهُ الْقُلُوبَ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَفَاوُثِهَا اتِّجَاهاً وَاحِداً لَا يَخْتَلِفُ؛ فَيَكُونُ طَرِيقُ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ، مِنْ نَاحِيَةِ الطَّرِيقِ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ.

وَأَشَوَّقُ الرُّوحَ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَنْتَهِي، فَيُعَارِضُهَا الْجِسْمُ بِجَعْلِهِ حَاجَاتِهِ غَيْرَ مُنْتَهِيَةٍ؛ يُحَاوِلُ أَنْ يَطْمِسَ بِهِذِهِ عَلَى تِلْكَ، وَأَنْ يُغْلِبَ الْحَيَوَانِيَّةَ عَلَى الرُّوحَانِيَّةِ، فَإِذَا كَانَتِ النِّيَّةُ مُسْتَقِظَةً كَثُفَتْ وَأَمَانَتْ أَكْثَرَ نَزَاعَاتِهِ، وَوَضَعَتْ لِكُلِّ حَاجَةٍ حَدّاً وَنِهَايَةً؛ وَبِذَلِكَ تَرْجِعُ النِّيَّةُ إِلَى أَنْ تَكُونَ قُوَّةً فِي النَّفْسِ يَخْرُجُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَخْذُهُ مِنْ جَسَمِهِ، لِيَخْرُجَ بِذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَحْذُهُ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ...

وَهِيَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَاجِبِهِ كَأَنَّهُ رَقِيبٌ حَيٌّ فِي قَلْبِهِ، لَا يُرَائِيهِ وَلَا يُجَامِلُهُ، وَلَا يُخَدِّعُ مِنْ تَأْوِيلٍ، وَلَا يُغَرُّ بِفَلَسَفَةٍ وَلَا تَزْيِينٍ، وَلَا يُسَكِّتُهُ مَا تُسَوِّلُ النَّفْسَ، وَلَا يَزَالُ دَائِماً يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ فِي قَلْبِهِ: إِنَّ الْخَطَأَ أَكْبَرَ الْخَطَأِ أَنْ تَنْظُمَ الْحَيَاةَ مِنْ حَوْلِكَ وَتَتْرَكَ الْفُرْصَى فِي قَلْبِكَ.

وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ فِي مَعَانِي النِّيَّةِ أَنَّهَا قُوَّةٌ تَجْعَلُ بَاطِنَ الْجِسْمِ مُتَسَاوِقاً مَعَ ظَاهِرِهِ، فَتَتَعَاوَنُ الْغَرَائِزُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي النَّفْسِ تَعَاوُنًا سَهْلاً طَبِيعِيًّا مُطَرِّداً، كَمَا تَتَعَاوَنُ أَعْضَاءُ الْجِسْمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي أَطْرَادٍ وَسَهُولَةٍ وَطَبِيعَةٍ.

وَكُلُّ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ - مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وَمَا لَمْ نَذْكُرْهُ - مَتَى اعْتُبِرَتْ بِذَلِكَ الْأَصْلِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ انْتِظَمَها جَمِيعاً، فَجَاءَ بَعْضُهَا تَمَاماً عَلَى بَعْضٍ فِي نَسَبِ رِيَاضِيٍّ عَجِيبٍ، وَظَهَرَتْ جِكْمَةُ كُلِّ مِنْهَا وَاضِحَةً مَكشُوفَةً، وَرَأَيْنَاهَا فِي مَجْمُوعِهَا تُصِفُ لَكَ عُمراً هِنْدَسِيّاً دَقِيقاً قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ مِنَ الْكَمَالِ وَالرَّوْعَةِ وَالِدَقَّةِ، لَا يُعَدُّ جُزْءٌ مِنْهُ جُزْءاً، بَلْ كُلُّهُ أَجْزَاؤُهُ، وَأَجْزَاؤُهُ كُلُّهُ؛ كَالْوَضْعِ الْهِنْدَسِيِّ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِكُلِّهِ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فِيهِ الْهِنْدَسَةُ كُلُّهَا.

وَلَيْسَ مَجْمُوعُ تِلْكَ الصِّفَاتِ فِي مَعْنَاهُ إِلَّا صِنْعَةُ الْإِنْسَانِ صِنْعَةً جَدِيدَةً تُخْرِجُهُ مَوْجُوداً مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ، وَتَكْثِيرُ الْقَالِبِ الْأَرْضِيِّ الَّذِي صُبَّ فِيهِ وَتَفَرُّغُهُ فِي مِثْلِ قَالِبِ الْكَوْنِ، فَإِذَا هُوَ غَيْرُ هَذَا الْإِنْسَانِ الضَّيِّقِ الْمُنْحَصِرِ فِي جَسَمِهِ وَذَوَاعِيهِ

جسمه، فلا تُخضعُ المادة، ولا يُؤتى من سوءِ نظره لِنفسه، ولا تَغْرِهُ الدنيا، ولا يُمسِكُهُ الزمان؛ إذ كَانَتْ هذه هي صفاتُ المستعبدِ بأهوائه لا الحرِّ فيها، والخاضعِ بنفسه لا المستقلِّ بها، والمقبورِ في إنسانيته لا الحيِّ فوق إنسانيته؛ ومثلُ هذا المُستعبدِ الخاضعِ المقبورِ لا وجودَ له إلا في حُكْمِ حواسه، فعملُهُ ما يعيشُ به لا ما يعيشُ من أجله؛ ويتصلُّ بكلِّ شيءٍ اتصالاً مبتوراً ينتهي في هوى من أهواء الحيوان الذي فيه .

ومنَ المقابلةِ العجيبةِ أن يكونَ في الإنسان الاجتماعي حيواناً، تُقابلُهُ الحكمةُ في الحيوان الأليف بإنسان، وحُكْمُها واحدٌ ومنطقُهما لا يختلف . فلو أُنْكَ سَأَلْتَ حيوانَ الأعصابِ عن صاحبه الإنسان لقال لك : هو غلّتي ومزّعتي . ولو سَأَلْتَ كلباً عن حُبِّه صاحبه ومبلغِ هذا الحُبِّ في نفسه لما زادَ في جوابه على أنه يُحِبُّ حُبَّ اللقمةِ والعظْمَةِ .

ومتى كان الإنسانُ في حكمِ حواسه لم تُعَدِ الأشياءُ عندهُ كما هي في نفسه بماعيناها الطبيعية المحدودة، وانقلبتْ كما هي في وهجه بمعانٍ متفاوتةٍ مضطربة، فلا يشعرُ المرءُ بِاتِّلافِ الوجودِ وتعاونهِ، ولكنْ بِاختلافِهِ وتناقضِهِ، فيمنَ ثَمَ لا تكونُ أسبابُ اللذةِ إلا من أسبابِ الألم، ويدخلُ في كُلِّ حُبِّ بغضٍ، وفي كُلِّ رغبةٍ طمعٍ، وفي كُلِّ خيرٍ شرٍّ، وفي كُلِّ صريحٍ خبيءٍ، وهلمَّ جرّاً؛ إذ لا بدَّ من هذا كُلِّهِ متى غلبَ الفاني على الباقي، ولا بدَّ من كُلِّ هذا في تمثيلِ روايةِ الحواسِ الخادعةِ التي أساسُها التغيُّرُ والتقلُّبُ، حتى لكانَ النفسُ إنّما تعيشُ بها في ظاهرٍ من الحياة لا في الحياة نفسها .

وهذا الخِداغُ جاعِلٌ كُلِّ شيءٍ من أشياءِ النفسِ لا يبدأ إلا لِيَنْتَهِي، ثُمَّ لا ينتهي إلا لِيَبْدَأَ؛ فما تَزَالُ هذه النفسُ طامعةً فيما لا تنالُه، ولا يَزَالُ من ذلك مصدرٌ لِأَلَامِها الجِسْمِيَّةِ؛ ثم إذا هي نالتْ مَنالَها سَئِمَتْ، فلا يَزَالُ من ذلك مصدرٌ آخَرُ لِأَلَامِها المعنويَّةِ . ولن يجيءَ الصحيحُ من غيرِ الصحيح؛ فالكونُ كُلُّهُ ليس إلا كَذِباً في النفسِ الكاذبةِ بحواسِها .

ولذا كان أخصُّ أوصافِهِ ﷺ راجعاً إلى خروجه من سلطانِ نفسه، فلا يَغْضَبُ لها، ولا يُطْلِعُها من الدنيا فيما تَذمُّهُ أو تمدحُها، ولا يُحِبُّ فيها، ولا يُبْغِضُ من أجلِها، ولا يُهاوِنُها، ولا يَسْتَلِينُ لها في مأكَلٍ ولا ملبسٍ، ولا يأخذُها إلا من ناحيةِ الإيمانِ باللهِ والإيمانِ بالإنسانيةِ؛ فأفراحُها أحزانُها، وآمالُها أشواقُها، وأملانُها

أعمالها، وحسابها في طبيعتها، وحوادثها من العقل لا من الحواس، وعظمتها إثبات ذاتها في غيرها، لا إثبات غيرها في ذاتها؛ وغايتها في الباقي لا الزائل، وفي الخالد لا الفاني، وما دام الحاضر متحركاً فهو طارئ؛ عابرٌ أوشكُ أمور الدنيا زوالاً، والعملُ له على مقداره في قلةِ بُنيهِ وهوان أمره، والاهتمامُ أبداً بما وراءه لا به.

فأولُ النفسِ النيةُ العاملةُ لِآخِرَتِها، وآخرُ النفسِ ما تُؤدِّي إليه أعمالُ هذه النية؛ فليس في إنسان الدنيا إلا إنسانُ العالم الآخر؛ وبهذا يُقدَّرُ صمتهُ وكلامه، وحركتهُ وسكونه، وما يأتي وما يَدْعُ، وما يُحِبُّ وما يكره، إذ كلُّ شيءٍ منه على ذلك الاعتبارِ إنما هو صورةُ الحقيقةِ العاملةِ فيه.

وجماعُ الأمرِ ألا يكونَ مستقبلُ الإنسان علامةً استهزاءٍ بجانبِ ماضيه، ولا علامةً استفهام، ولا علامةً إنكار.

* * *

وتدلُّ صفاتُ النبي ﷺ باجتماعِها وتساوِيقِها على حقيقةٍ عظمى لم يتنبه إليها أحد؛ وهي أن جميعَ خصائصه النفسيةِ مُزَهَّقةٌ متيقِّظة، وهذا ممَّا يَنذُرُ وقوعه وإمكانه؛ فإنَّ الرجلَ مِنَ الناسِ لِيَكُونَ حَيًّا بِالحياة، ولكنَّ جوانبَ كثيرةٍ من نفسه قد طاحَ بها الموت، أو هي مريضةٌ وذلك أولُ الموت؛ أو غافلةٌ وذلك شِبهُ الموت؛ أمَّا الحيُّ العظيمُ فهو الذي يحيا بأكثرَ خصائصِ نفسه، وأمَّا الحيُّ الأعظمُ فهو الذي يحيا بجميعَ خصائصِها، تملؤه الحياةُ فيملاُ الحياة، ويتمدُّ السُرُّ فيه لِيُرى حقائقَ الأشياءِ وَيَهْدِيَهُ وَيُدُّهُ، فيكونَ بنفسه رؤيةً للناسِ وهدايةً ودلالةً؛ ومثلُ هذا يعظمُ ثُمَّ يعظمُ حتى لِيُرى الفرقُ بينَهُ وبين غيره كالفرقِ بين نور لِسِ اللحمِ والدم، وبين تُرابٍ لِسِ الدَّمِ واللحم.

وذلك لا يَكادُ يَثْقُقُ إلَّا في مراتبِ أعلاها الامتيازِ في النبوة، ثُمَّ تدنو إلى النبوة؛ ثُمَّ تنزِلُ إلى الامتيازِ في الحكمة؛ ثُمَّ تهبطُ إلى عبقرية الشعر. فأكبرُ الشعراءِ قاطبةً كالنبي في معناه إلَّا أَنَّهُ نبيٌّ صغير، وإلَّا أَنَّهُ في حُدودِ قلبه.

وهذه القوى الثلاثُ هي التي أبدعتها الحكمةُ الإلهيةُ لِتحويلِ الحياةِ والسموِّ بها؛ فالشاعرُ يستوحي الجمالَ إذا تألَّهَ الجمالُ في قلبه، والحكيمُ يستوحي الحقيقةَ إذا تألَّهَتْ في نفسه، والنبِيُّ يستوحي الألوهيةَ نفسها.

كان ﷺ متواصلَ الأحزانِ ولكنَّها أحزانُ النبوةِ تكسو الحياةَ فرحَ النفسِ الكبيرة؛ وهو فرحٌ كُلُّه حزنٌ وتأمُّلٌ، وفكرةٌ وخشوعٌ، وطهرٌ وفضيلةٌ؛ وما فَرَحَ

أعظم الشعراء يَطْرِبُ الوجودَ وجمالِ الموجوداتِ إلّا شيءَ قليلٍ من حزنِ النبي .
«وكان دائمَ الفكرة ليست له راحة» إذ هو مكلفٌ أن يصنعَ الإنسانَ الجديدَ
ويُنقِصَ الآدميةَ فيه . وفكرةُ النبي هي معيشتُهُ بنفسه معَ الحقائقِ العليا، إذ لا يرى
أكثرَها تعيشُ في الناس، وهي الفرديةُ واستقلالُها وسموها؛ لأنها إطاقَةُ النفسِ
الكبيرةِ ليوحدتها، بخلافِ الأنفسِ الضعيفةِ التي لا تُطيقُها، فدأبُها أبداً أن تبحتَ
عما تستعبدُ له، أو تنسى ذاتها فيه، أو تستريحُ إليه من ذاتها . ومتى كائتِ النفسُ
فارغةً كان تفكيرُها مضاعفةً لإفراغها، فهي تفرُّ منه إلى ما يُلهمها عنه؛ ولكنَّ العظيمَ
يعيشُ في امتلاءِ نفسه؛ وعالمُهُ الداخليُّ تُسميه اللغةُ أحياناً: الفكرة؛ وتُسميه
أحياناً: الصمت .

«وكان ﷺ طويلَ السكوتِ لا يتكلَّمُ في غير حاجة»، ومن الصمتِ أنواعٌ:
فنوعٌ يكون طريقةً من طرقِ الفهمِ بين المرءِ وبين أسرارِ ما يُحيطُ به؛ ونوعٌ يغشى
الإنسانَ العظيمَ ليكونَ علامةً على رهبةِ السرِّ الذي في نفسه العظيمة؛ ونوعٌ ثالثٌ
يكون في صاحبه طريقةً من طرقِ الحُكمِ على صُنمِ الناسِ وكلامهم؛ ونوعٌ رابعٌ
هو كالفصلِ بين أعمالِ الجسدِ وبين الروحِ في ساعةِ أعمالها؛ ونوعٌ خامسٌ يكون
صمتاً على دويِّ تحته يُشبهُ نوماً ساكناً على أحلامٍ جميلةٍ تتحرك .



على هذا النمطِ يجب أن تُفسَّرَ كلُّ أوصافِهِ ﷺ؛ فهي بمجموعِها طابعُ إلهيٍّ
على حياته الشريفة، يُثبتُ للعالمِ بكلِّ برهاناتِ العِلْمِ والفلسفةِ أنَّه الإنسانُ الأفضلُ،
وأنَّه الأقدرُ، وأنَّه الأقوى .

سَمُّ الْفَقْرِ (*)

في المصطلح الاجتماعيِّ الأعظم

(١)

كان النبي ﷺ على ما يصفُ التاريخُ من الفقرِ والقِلَّةِ، ولكنه كان بطبيعته فوقَ الاستغناء، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أن يُوصَفَ بالفقر، ولا تنالهُ المعاني النفسية التي تملو بَعَرَضٍ من الدنيا وتنزلُ بَعَرَضٍ، فما كَانَتْ به خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَذَمًا في الحياة فيزِمُهَا المال، ولا كان يتحركُ في سَفْيٍ يُنْفِقُ فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا، ولا كان يتقلَّبُ بين البعيدِ والقريبِ من طَمَعٍ أدرك أو طمع أخفق، ولا نظرَ لنفسه في الحسنة والتدبيرِ ليتدبَّرَ معيشتَهُ فيختلِبَهَا ذَهَبًا أو فِضَّةً، ولا استقرَّ في قلبه العظيم ما يجعلُ للدينارِ معنى الدينارِ ولا للدرهمِ معنى الدرهم؛ فإنَّ المعنى الحيَّ لهذا المالِ هو إظهارُ النفسِ رابئةً متجسِّمةً في صورةٍ تكبِّرُ في قدرٍ من السَّعة والغنى؛ والمعنى الحيُّ للفقرِ من المالِ هو إبرازُ النفسِ ضئيلةً منزويةً في صورةٍ تصغُرُ على قدرٍ من الضيقِ والعُسرة.

إنَّ فقرَهُ ﷺ كان من أنَّه يتَّسَعُ في الكونِ لا في المال، فهو فقرٌ يُعَدُّ من معجزاته الكبرى التي لم ينتبِهْ إليها أحدٌ إلى الآن، وهو خاصٌّ به ومن أين تدبَّرْتَهُ رأيتُهُ في حقيقته معجزةً تواضعتْ وغيَّرتْ اسمَهَا؛ معجزةً فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى، وقد سبقَتْ زمنَهَا بأربعة عَشَرَ قرنًا، وهي اليومُ تُبَيِّنُ بالبرهان معنى قوله ﷺ في صفة نفسه: «إِنَّمَا أَنَا رَخِمَةٌ مُهْدَاةٌ».

نحن في عصرٍ تكادُ الفضيلةُ الإنسانيةُ فيه تَلْحَقُ بالألفاظِ التاريخية التي تدلُّ على ما كان قديمًا... بل عادتْ كلمةٌ من كلماتِ الشعرِ تُرادُّ لِتَحْرِيكِ التَّسِيمِ اللَّغَوِيِّ الرَّاكِدِ في الخيال، كما تقول: السحابُ الأزرق، والفجرُ الأبيض، والشفقُ

(*) انظر صفحتي ٢٣٥، ٢٤١ من حياة الرافي.

الأحمر، والتطاريّف الوردية على ذئب الشمس. وأصبح الناس ينظرون أكثرهم إلى أكثرهم بأعين فيها معنى وحشي لو لمس لضرب أو طعن أو دبح.

وعملت المدينة أعمالها فلم تزد على أن أخرجت الشكل الشعري لإنسانها الفني منها فتزفأ، ونعمة، وافتتاناً بين ذلك من أسير الحلال إلى الفطيع المتفاحش في الإباحة؛ فكأنما وضعت المدينة عقلاً في وحش، فجاء وقد زاحت فيه الطبيعة من ناحيتين؛ ثم قابلته بالشكل الوحشي لإنسانها الفقير، فكأنما نزعته عقلاً من إنسان، فجاء وقد ضلّت فيه الطبيعة من ناحيتين؛ وكان مع الأول سرف الهوى بالطبيعة، وكان مع الثاني بالطبيعة سرف الحماقة.

وقد أصبح من تهكم الحياة بأهلها أن يكون الفقير فقيراً وهو يعلم أن صناعته في المدينة عمل الغني للأغنياء... وأن يكون الغني غنياً وهو يعلم أن عمله في المدينة هو صنعة الفقر لإضميره!

وخرجت من هذا وذاك مسائل جديدة في فلسفة المعاشة الإنسانية التي يسمونها «الاجتماع»؛ إلى أسئلة كثيرة لودهنبا نعدّها ونصفها لطال بنا القول، وكلها عاملة على نزع الشعور العقلي من الحياة لتظهر أسخف ممّا هي، وأقبح ممّن كانت؛ حتى أصبحت الشمس تطلع تمحو ليلاً عن المادة وتلقي ليلاً على النفس، في حين أن الدين والإنسانية لا يعملان غير بث هذا النور العقلي في الأشياء والمعاني لتظهر الحياة مضيئة ملتئمة، فتصبح أوضح ممّا هي في نفسها، وأجمل ممّا هي في الطبيعة.

في مثل هذه النزعات المتقاتلة التي صعدت بالفلسفة ونزلت، وجعلت من العلم في صدر الإنسانية ملء سماء من الغيوم يسودها ورغدها وصواعقها، وتركت العالم يضح ضحيجه المزعج في قلب كل حيّ حتى لتذاع الهوموم إلى قلوب الناس إذاعة الأصوات إلى أسماعهم في «الراديو»... في مثل هذا البلاء الماحي تلتفت الإنسانية إلى التاريخ تسأله درساً من الكمال الإنساني القديم تطب منه لهذه الحماقات الجديدة، ولو علمت لتعلمت أن درس هذا العصر في علاج مشاكله الإنسانية هو «محمد» ﷺ، الذي لن يبلغ أحد في وصفه الاجتماعي ما بلغ هو في قوله: «إنما أنا رحمة مهداة».



هذا المصلح الاجتماعي الأعظم يلقي فقره اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية، لا من كتاب ولا فكر، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته؛ إذ ليس المصلح من فكر وكتب، ووعظ وخطب، ولكنّه الحي العظيم الذي تلمسه الفكرة العظيمة

لِحَيَا فِيهِ، وَتَجْعَلْ لَهُ عُمْراً ذَهِيباً يَكُونُ مُصَرِّفاً عَلَى حَكِيمِهَا، فَيَكُونُ تَارِيخُهُ وَوَصْفُهُ هُوَ وَصَفَ هَذِهِ الْفِكْرَةَ وَتَارِيخَهَا.

وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَّا عُمراً ذَهِيباً مَخْصُصاً، تَمُرُّ فِيهِ الْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةُ لِتُظْهِرَ لِلنَّاسِ الْهَيْئَةَ مَفْسُورَةً. وَكُلُّ حَيَاتِهِ ﷺ دُرُوسٌ مَفْتَنَةٌ مُخْتَلِفَةُ الْمَعَانِي، وَلَكِنَّهَا فِي جَمَلِيَّتِهَا تُخَاطَبُ الْإِنْسَانَ عَلَى الذَّهْرِ بِهَذِهِ الْجَمْلَةِ: أَيُّهَا الْحَيُّ، إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَا: أَيْ إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ فَلَا تَكُنْ أَنْتَ فِي الْكَذِبِ، وَإِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ فِي الرَّجُولَةِ الْبَصِيرَةِ فَلَا تَكُنْ أَنْتَ فِي الطُّفُولَةِ الْتَّرَقَّةِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَعْرِفُ وَيُذَكِّرُ، فَهُوَ بِذَلِكَ وَرَاءَ الْحَقِيقَةِ؛ وَلَكِنَّ الطُّفْلَ يَجْهَلُ وَلَا يَعْرِفُ الدُّنْيَا إِلَّا بِعَيْنِيهِ، فَهُوَ وَرَاءَ الْوَهْمِ، وَمَنْ ثُمَّ طَيْشُهُ وَتَرَقُّهُ، وَإِثَارُهُ كُلُّ عَاجِلٍ وَإِنْ قَلَّ، وَعَمَلُهُ أَنْ تَكُونَ حَيَاتُهُ النَّفْسِيَّةُ الضَّئِيلَةُ فِي مِثْلِ تَوَثُّبِ أَعْضَاءِ جَسَدِهِ، حَتَّى كَأَنَّهُ أَبَداً يَلْعَبُ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ مَعاً...

أَيُّهَا الْحَيُّ، إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَا: أَيْ الْحَيَاةُ فِي ذَاتِكَ الدَّاخِلِيَّةِ وَقَانُونِ كِمَالِهَا، فَإِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تُخْرَجَ لِلْأَرْضِ مَعْنَى سَمَاقِهَا مِنْ ذَاتِكَ فَهَذَا هُوَ الْجَدِيدُ دَائِماً فِي الْإِنْسَانِيَّةِ، وَأَنْتَ بِذَلِكَ عَائِشٌ فِي الْقَرِيبِ الْقَرِيبِ مِنَ الرُّوحِ، وَأَنْتَ بِهِ شَيْءٌ إِلَهِيٌّ؛ وَإِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ وَعَشْتَ فِي ذِمِّكَ وَأَعْصَابِكَ فَهَذَا هُوَ الْقَدِيمُ دَائِماً فِي الْحَيَوَانِيَّةِ، وَأَنْتَ بِذَلِكَ عَائِشٌ فِي الْبَعِيدِ الْبَعِيدِ مِنَ النَّفْسِ، وَأَنْتَ بِهِ شَيْءٌ أَرْضِيٌّ كَالْحَجَرِ وَالتُّرَابِ.

هَنَا: أَيْ فِي الْإِرَادَةِ الَّتِي فِيكَ وَحَدِّكَ. وَلَا هُنَا: أَيْ فِي الْخِيَالِ الَّذِي هُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَهَنَا، فِي أَخْلَاقِكَ وَفَضَائِلِكَ الَّتِي لَا تَدْفَعُكَ إِلَى طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ الْحَيَاةِ إِلَّا إِذَا كَانَ هُوَ بِعَيْنِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الْهَدَايَةِ وَالْحِكْمَةِ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ، فِي أَمْوَالِكَ وَمَعَارِيفِكَ الَّتِي تَجْعَلُكَ كَاللَّصِّ مُنْدَفِعاً إِلَى كُلِّ طَرِيقٍ مَتَى كَانَ هُوَ بِعَيْنِهِ طَرِيقاً إِلَى نَهْبَةٍ أَوْ سَرَقَةٍ. هَنَا، فِي الرُّوحِ، إِذْ تَشْعُرُ الرُّوحُ أَنَّهَا مُوجُودَةٌ، ثُمَّ تَعْمَلُ لِتُثَبِّتَ أَنَّهَا شَاعِرَةٌ بِوُجُودِهَا، مَاضِيَةً إِلَى مُصِيرِهَا، مُتَهَيِّئَةً بِجَسَدِهَا إِلَى الْمَوْتِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى سُنَّةِ النَّفْسِ الْخَالِدَةِ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ فِي الْجَسَدِ، إِذْ يَتَعَلَّقُ الْحَسُّ بِمَا يَتَقَلَّبُ عَلَى الْجَسَمِ، فَهُوَ مُهْتَاجٌ لِشَعُورِهِ بِوُشُكٍ فَتَانَةٍ فَلَا يُحَدِّثُ إِلَّا الْآلَمَ إِنْ نَالَ أَوْ لَمْ يَنْلِ، وَهُوَ مُنْتَبِهٌ بِجَسَدِهِ إِلَى الْمَوْتِ الْحَيَوَانِيِّ بَيْنَ أَكْلِ وَمَاكُولٍ عَلَى سُنَّةِ الطَّبِيعَةِ الْغَانِيَةِ.

أَيُّهَا الْحَيُّ، إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَا.



إِنَّ الْحَكِيمَ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى مَا وَرَاءَ الْأَشْيَاءِ فَيَتَعَرَّفُ أَسْرَارَهَا، لَا تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِظَاهِرِهَا وَلَا أَخْلَاقُهُ وَلَا نَظَرَتُهُ؛ هَذَا الْآخِرُ هُوَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ

الاشياء له مظهرُ المادة وِجْداعُها عن الحقيقة؛ وذلك الأول هو نفسه سرُّ من الأسرار له رَوْعَةُ السِّرِّ وكشفُهُ عن الحقيقة. ولهذا كان في حياة الأنبياء والحكماء ما لا يُعطِيهِ النَّاسُ ولا يَضِيطُونَهُ إذا تكلَّفوه، بل يَنْحَرِقُ عليهم فيكون منه العجزُ والغَلَطُ، ويحدثُ مِنَ الغلطِ الزَّلَلُ.

ونظرةُ نبينا ﷺ إلى هذا الوجود نظرةً شاملةً مدرِكةٌ لحقيقة اللانهاية، فيرى بدايةَ كُلِّ شيءٍ ماديٍّ هي نهايتهُ في التَّوَّ واللحظة، فلا وجودَ له إلا عارضاً ماژا، فهو في اعتباره موجودٌ غيرُ موجود، مبتدئٌ مُتَّهَ معاً؛ وبذلك تَبْطُلُ عندَهُ الأشياءُ الماديةُ وتأثيرُها، فلا تتصلُ بنفسه العاليةِ إلا من أضعف جهاتِها، ويجدُ لها النَّاسُ في حياتِهِمُ الشجرةَ والفرعَ والثمرةَ، وما لها عندَهُ هو جذرٌ ولا فرع؛ وبهذا لم يَفْتِنَهُ شيءٌ ولم يتعلّقْ به شيءٌ.

وكانت الدنيا تطولُ النَّاسَ وتتقاصرُ عنه، وكانت منقطعةُ الثَّماءِ وهو ذاهبٌ في نموِّه الروحيِّ، وكانما هو صورةٌ أخرى من آدمَ (عليه السلام)؛ فكلاهما لَمَسَ بنفسه الحياةَ جديدةً خاليةً ممّا جمع فيها الزمَنُ وأهلُهُ من طمعٍ وشرِّه، وجاء آدمُ لِيُعْطِيَ الأرضَ ناسِها من صُلْبِهِ، وجاء محمدٌ لِيُعْطِيَ النَّاسَ قَوانينَهُمُ من فضائلِهِ؛ فأدَمُ بشخصِهِ هو دنيا بُعِثَ لِتَسْعَ، ومحمدٌ بشخصِهِ هو دنيا بُعِثَ لِتَنْتَظَمَ.

وماذا يُفْهَمُ من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمة؟ يُفْهَمُ منها أَنَّ الشهواتِ خُلِقَتْ مع الإنسان تتحكّمُ فيه، لينقلبَ بها إنساناً يتحكّمُ فيها؛ وأنَّ الإنسانَ الصحيحَ الذي لم تُزَوِّدْهُ الدنيا يجبُ أن يكونَ ذا روحٍ يمتدُّ فيفيضُ عن غاياتِ جسمِهِ إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يُصْبِحَ في حكم النُّورِ وانطلاقِهِ وحريته، ولا ينكمشُ فيحصِرُهُ جسمُهُ في غاياتِهِ وضروراته فيرتدُّ إلى ما هو أسفلُ أسفلٍ حتى يعودَ في حكم الترابِ وأسرِهِ وعبوديته. فالفقرُ وما إليه، والزهدُ وما هو بسبيلِ منه، والانصرافُ عَنِ الشهواتِ والرذائلِ - كُلُّ ذلك إنَّه هو إلا تَراجُعُ النفسِ العاليةِ إلى ذاتِها النورانيةِ حالاً بعدَ حالٍ، وشيئاً بعدَ شيءٍ، لِتُضِيءَ على المادة فتكشفَ حقائقَها الصريحةَ فلا تُباليها ولا تُقيّمَ لها وزناً. فبينما النَّاسُ يَرَوْنَ الأموالَ والشهواتِ مادةَ حياةٍ وعملٍ وشعورٍ، تراها هي مادةٌ بَخِثٌ ومعرفةٌ واعتبارٌ ليسَ غيرُ؛ وبهذا تكونُ النفسُ العظيمةُ في الدنيا كاستاذٍ المعمِلِ: تدخلُ المادةُ إلى معمِلِهِ وهي مادةٌ وفكرةٌ، وتخرجُ منه وهي حقيقةٌ ومعرفةٌ، وعلى أيِّ أحوالِها فهي إنَّما تُحَسَّرُ في ذلك المعمِلِ بأصابعِ علميةٍ دقيقةٍ ليسَ فيها الجمعُ ولا الجَرَصُ، ولكنَّ فيها الذهنُ والفكرُ؛ وليسَ لها طبيعةُ الرغبةِ والغفلةِ، ولكنَّ طبيعةَ الانتباهِ

والتحرُّز، وليست في أسرِ المادة، ولكنَّ المادةَ في أسْرِها ما شاءت .

ولا يسمَّى فقرُهُ ﷺ زُهداً كما يظنُّ الضعفاءُ مِنَّ يتعلَّقونَ على ظاهِرِ التاريخ ولا يُحقِّقونَ أصولهُ النفسيَّةَ؛ وأكثرُهم يقرأ التاريخَ النبويَّ بأرواحٍ مظلمةٍ تُريهم ما تُري العينُ إذا ما اختلطَ الظلامُ وليسَ الأشياءُ قراءاتٌ مُجمِلةٌ لا تفصيلُ لها، مُفرَّعةٌ لا تبيِّنُ فيها؛ وما بها من ذلك شيء، غيرَ أنَّها تترأى في بقيةٍ من البصرِ لا تُغمَرُها .

وهلِ الزهدُ إلَّا أنَّ تطرَّدَ الجسمَ عنكَ وهو معكَ، وتنصرفَ عنه وهو بكَ متعلِّقٌ؟ فتلكُ سُخْريَّةٌ ومُثَلَّةٌ، وفي رأيي تشويهٌ للجسمِ بِروحِهِ، وقد تنعكسُ فتكونُ من تشويهِ الروحِ بجسميها؛ فليس يعلمُ إلَّا الله وحدهُ: أذاك تفسيرٌ لإنسانيةِ الزاهدِ بالنور، أم هو تفسيرٌ بالتراب . . .

ولقد كان ﷺ يملكُ المالَ ويحدُّهُ، وكان أجودَ به منَ الريحِ المرسلَةِ، ولكنَّهُ لا يدعُهُ يتناسلُ عندهُ، ولا يتركُهُ يَنْبُثُ في عملِهِ، وإنَّما كان عملهُ ترجمةً لإحسابِهِ الروحيِّ؛ فهو رسولٌ تعليمي، قلبُهُ العَظِيمُ في القوانينِ الكثيرةِ من واجباتِهِ، وهو يُريدُ إثباتَ وحدةِ الإنسانيةِ، وأنَّ هذا الإنسانَ معَ المادةِ الصامتةِ العمياءِ مادةٌ مفكَّرةٌ مميزةٌ، وأنَّ الدينَ قوَّةٌ روحيةٌ يلقى بها المؤمنُ أحوالَ الحياةِ فلا يثبُتُ بإزائها شيءٌ على شيءٍ، إذ الروحُ خلودٌ وبقاء، والمادةُ فناءٌ وتحولٌ، ومن ثَمَّ تخضعُ الحوادثُ للروحِ المؤمَّنةِ وتتغيَّرُ معها، فإنَّ لم تخضعْ لم تُخضعِها، وإن لم تغيَّرِ الروحُ بها؛ وأساسُ الإيمانِ أنَّ ما ينتهي لا ينبغي أن يتصرَّفَ بما لا ينتهي .

ما قيمةُ العقيدةِ إلَّا بصديقِها في الحياةِ، وأكثرُ ما يصنعُ هذا المالُ: إما الكذبُ الصُّراخُ في الحياةِ، وإما شُبُهَةُ الكذبِ؛ ولهذا تنزَّهَ النبيُّ ﷺ عن التعلُّقِ بِهِ، وزادَهُ بُغْداً منه أنَّه نبيُّ الإنسانيةِ ومثلُّها الأعلى، فحياتُهُ الشريفةُ ليستُ كما تُرى في الناسِ: إيجاداً لحلِّ مسائلِ الفردِ وتعقيداً لمسائلِ غيره، ولا توسُّعاً من ناحيةٍ وتضييقاً من الناحيةِ الأخرى، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك؛ بل كانتُ حياتُهُ بعدَ الرسالةِ منصرفةً إلى إقرارِ التوازنِ في الإنسانيةِ، وتعليمِ الجميعِ على تفاوتِهِم واختلافِ مراتبِهِم كيف يكونَ لهم عقلٌ واحدٌ من الكونِ؛ وبهذا العقلِ الكونيِّ السليمِ ترى المؤمنُ إذا عَرَضَ له الشيءُ من الدنيا يفتِنُهُ أو يَصْرِفُهُ عن واجِبِهِ الإنسانيِّ - أثبتَ نفسُهُ العظيمةُ إلَّا أنَّ ترتفعَ بطبيعتها، فإذا هو في قانونِ السموِّ، وإذا المادةُ في قانونِ الثقلِ؛ فيرتفعُ وتَهاوَى ويَصْبِحُ الذهبُ - وإنَّه ذهبٌ - وليس فيه عند المؤمنِ إلَّا روحُ الترابِ .

سمو الفقير في المصالح الاجتماعيّ الأعظم (٢)

قالت عائشة (رضي الله عنها): لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يشتهي؛ إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب.

وقالت: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ.

وعنها: كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا التمر والماء.
وقالت: ما رفع رسول الله ﷺ قط غداء ليمشأ، ولا عشاء ليعدا، ولا اتخذ من شيء زوجين؛ لا قميصين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا زوجين من النعال.
ويروى عنها، قالت: توفي رسول الله ﷺ وليس عندي شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي.

وقالت: توفي رسول الله ﷺ وذراعُه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير.
وعن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة وأهله طوايأ لا يجدون عشاء، وإنما كان خبزهم الشعير.

وعن الحسن، قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام، وإنها لتسعة أبيات!» والله ما قالها استقلاً، ولكن أراد أن تناسي به أمته.

وعن ابن مجير قال: أصاب النبي ﷺ جوع يوماً، فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه، ثم قال: «ألا رب نفسي طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة؛ ألا رب مكرم نفسه وهو مهين لها؛ ألا رب مهين نفسه وهو مكرم لها».

وَحَيْرٌ ﷺ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ «أَحَدٍ» ذَهَباً فَقَالَ: «لَا يَا رَبُّ؛ أَجَوْعُ يَوْماً فَادْعُوكَ، وَأَشْبِعْ يَوْماً فَأَحْمَدُكَ»!

وكان يقول في دعائه وَيُحَيِّرُ منه: «اللَّهُمَّ أَخِيْنِي مِنْكِينَا، وَأَمْتِنِي مِنْكِينَا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ».



هذا هو سَيِّدُ الْأَمَةِ، يُمَسِّكُهُ فِي الْحَيَاةِ نَبِيّاً عَظِيماً مَا يُخْرِجُ غَيْرَهُ مِنْهَا ذَلِيلاً مُحْتَقِراً، وَكَأَنَّمَا أَشْرَقَ صَفَاءُ نَفْسِهِ عَلَى تَرَابِ الْأَرْضِ فَرْدَةً أَشْعَى نَوْرٍ، عَلَى حِينِ يُلْقِي النَّاسُ عَلَى هَذَا التَّرَابِ مِنْ ظِلَامِ أَنْفُسِهِمْ فَلَا يَبْقَى تَرَاباً بَلْ يَرْجِعُ ظِلَاماً، فَكَأَنَّهُمْ إِذْ يَمْشَوْنَ عَلَيْهِ يَطْوَوْنَ الْمَجْهُولَ بِخَوْفِهِ وَرُؤُوعِهِ؛ ثُمَّ لَا يَسْتَقِرُّ ظِلَاماً بَلْ يَرْجِعُ آلاماً، فَكَأَنَّهُمْ يَنْتَبِثُونَ عَلَى الْمَرَضِ لَا عَلَى الْحَيَاةِ؛ ثُمَّ لَا يَثْبُتُ آلاماً بَلْ يَتَحَوَّلُ فَوْزَةً وَتَوْبِئاً تَكُونُ مِنْ نَزَوَاتِ الْحَمَقِ وَالْجَنُونِ فِي النَّفْسِ.

هؤلاء الَّذِينَ تَعِيشُ أَنْفُسُهُمْ فِي التَّرَابِ، وَيَتَمَرَّغُونَ بِأَخْلَاقِهِمْ فِيهِ، يَنْقَلِبُونَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ صَنْعِ التَّرَابِ نَاساً دُوداً كَطَبِيعِ الدُّودِ لَا يَقَعُ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَفْسَدَهُ أَوْ قَذَرَهُ؛ أَوْ قَوْماً سُوساً كَطَبِيعِ السُّوسِ لَا يَبَالُ شَيْئاً إِلَّا تَخَرَّهَ أَوْ عَابَهُ، فَهَمْ يُوقِعُونَ الْخَلَلَ فِي نِظَامِ أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا هِيَ طَائِشَةٌ تُخِيلُ لَهُمْ كَأَنَّمَا اخْتَلَّتْ نَوَامِيسُ الدُّنْيَا، وَكَأَنَّ اللَّهَ قَبَضَهُمْ وَبَسَطَ غَيْرَهُمْ، وَشَغَلَهُمْ وَفَرَّغَ مَنْ عَدَاهُمْ، وَابْتَلاَهُمْ عَلَى مُسْكَةِ الرِّزْقِ^(١) بِالشَّهْوَةِ الْمَسْمُورَةِ الَّتِي لَا تَحْقُقُ، فَضَرَبَهُمْ بِالْمَجَاهِدَةِ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ؛ وَأَنْعَمَ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي بَسْطَةِ الرِّزْقِ بِالشَّجَرَةِ الْمَسْحُورَةِ الَّتِي لَا تُقَطِّعُ مِنْهَا ثَمَرَةً إِلَّا نَبَتْ غَيْرُهَا فِي مَكَانِهَا.

إِنْ مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ فَقْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَتِيدٌ حَاضِرٌ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ نَفْسَهُ فِي هَمِّ الْمَالِ، وَلَا جَعَلَتْهُ نَفْسُهُ فِي هَمِّ الْفَقْرِ، وَأَنَّهُ لَقِيَ الْحَيَاةَ حَامِلاً لَا مَحْمُولاً، وَاسْتَقَرَّ فِيهَا هَادِئاً لَا مُضْطَرِياً - كُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَثْبُتُ لِلدُّنْيَا أَنَّهُ خُلِقَ وَوُعِثَ وَعَاشَ لِيَكُونَ دَرْساً عَمَلِيّاً فِي حَلِّ الْمَشْكَلاتِ الْاجْتِمَاعِيَةِ، يُعَلِّمُ النَّاسَ أَنَّهَا لَا تَتَعَفَّدُ بِطَبِيعَتِهَا، وَلَكِنْ بِطَبَائِعِهِمْ فِيهَا، وَلَا تَسْتَمِرُّ بِقُوَّتِهَا، وَلَكِنْ بِإِمْدَادِ قَوَاهِمِ لَهَا؛ وَلَا تَغْلِبُ بِصَوْلَتِهَا، وَلَكِنْ بِجَزَعِهِمْ مِنْهَا؛ وَلَا تُغْضِلُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا، وَلَكِنْ مِنْ سَوْءِ أَثَرِهَا عَلَيْهَا وَسَوْءِ نَظَرِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَهَا.

(١) مسكة الرزق: ضد بسطة الرزق، أي الضيق والسعة.

فلذا قرأت الأحاديث التي أسلفناها فلا تقرأها زُهداً وتقللاً، ولا فقراً وجوعاً، ولا اختلالاً وحاجة، كما تُترجمُها نفسك أو تُجسِّسها ضرورتك؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو ﷺ، ثم اقرأها سريعة اجتماعية مفصلة على طبيعة النفس، قائمة على أن تأخذ نفس الإنسان من قوى الدنيا عناصرها الحيوية، لِتُعْطِيَ الحياة من ذلك قوَّة عناصرها.

والحياة العاملة غير الحياة الوداعة، هما ذكرُ وأنثى؛ فأما الأولى فهي ما وصَّفنا وحكيها، وأما الثانية فهي تغلُّل النعمة، وإطلاق قانون التناسل في المال يُنمي بعضه بعضاً، ويُنبت بعضه على بعض، ثم إقامة الحياة على الزينة ومقوماتها، وقيام الزينة على الجِدَاع وطباعه، فيقبلُ المرء من دنياه على ما هو جديرُ أن يصرفه عنها، ويحبُّ منها ما كان ينبغي أن يباغضه فيها. وكلُّ ما رأيتُ وعلمتُ في رجلٍ، قُوَّته القوَّة فهو هناك؛ وكلُّ ما علمتُ ورأيتُ في أنثى، قُوَّتها الضعفُ فهو هنا.

فالسوادُ الذي تراه في فقره ﷺ هو السوادُ الحي؛ سوادُ الليل حول الروح التَّجَمُّية الساطعة؛ وذلك الترابُ هو الترابُ الحي؛ ترابُ الزرع تحت النضرة والخضرة؛ وتلك الحاجةُ الجسميَّة هي الحاجةُ الحيَّة الدافعة إلى حرِّية النفس؛ وذلك الإقلالُ من فهم اللذة هو الإقلالُ الحي الذي يزيدُ قوَّة فهم الجمال في السماء والأرض وما بينهما، وذلك الضيقُ في حَيِّزِ المتاع لِلْحَاشَةِ هو الضيقُ الحي الذي يُوسِّع حَيِّزَ المتاع لِلروح. وبالجملَة فذلك النقصُ من المادة لم يكن إلَّا لِنفْيِ النقصِ عن الفضيلة، وذلك الاحتقارُ لِلْعَرَضِ الفاني الزائل هو المعنى الآخرُ لِتَقْدِيسِ الخالدِ الباقي.

فليس هناك خبزُ الشعير، ولا الجوعُ، ولا رهنُ الدرع عند اليهودي. كلا، بل هناك حقيقة نفسية عقلية، ثابتة متزنة، قائمة بعناصرها السامية: من اليقين والعقل والحكمة، إلى الرقي والجُلُم والتواضع، تُخبرُ هذه الدنيا العلميَّة الفلسفيَّة المفكِّرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجلُ الاجتماعي التامُ بأخلاقه وفضائله، وهو الذي بُعثَ لِتنقيح غريزة تنازع البقاء، وكَسْرِ هذه الحيوانية، وقَمْعِ نزواتها، وإماتة ذواغيتها، والسموِّ بخواطرها؛ فهو بنفسه صورةُ الكمالِ الذي بُعثَ لِتحقيقه وإثباتِ أنه الممكنُ لا الممتنع، والحقيقي لا الخيالي.

ليس هناك دِزَعُ مرهونة في ثلاثين صاعاً، ولا الفقرُ ولا خبزُ الشعير. كلا، بل هناك تقريرُ أن النصرَ في معركة الحياة لا يأتي من المالِ والثراءِ والمتاعِ،

ولكن من المعاناة والشدة والصبر؛ وأن التقدم الإنساني لا يُباع ببعاء، ولا يُؤخذ هوناً؛ بل هو انتزاع من الحوادث بالأخلاق التي تتغلب على الأزمات ولا تغلب الأزمات عليها، وأن هذا المال وهذه الشهوات - في حقائقي الحياة ومضائرها - ككنوز الأحلام: لا تكون كنوزاً إلّا في مواضعها من أرض الغفلة والنوم، فلا لذة منها إلّا بمقدار خفيف من هذه الغفلة. وليس إلّا الأحمق أو المخدول أو الضائع هو الذي يقطع العمر نائماً أبداً ليظل مالكاً أبداً لهذه الكنوز. وهو يعلم أنه لا بدّ من مستيقظ، وأنه متى انتبه في آخرته لم يجد منها شيئاً «ووجد الله عنده فوقه جسابه».

كلا، كلا، ليس هناك فقر ولا جوع وما إليهما، بل هناك وضع هذه الحقيقة: ينبغي أن تجد نفسك، وموضع نفسك، وإيمان نفسك، وعزة نفسك. فإذا أدركت ذلك ورفعت نفسك إلى موضعها الحق، وأقررتها فيه، وحسنتها عليه، وحددتها بالإنسانية من ناحية وبالله من الناحية المقابلة - رأيت إذن أن قيمتك الصحيحة في أن تكون وسيلة تُعطي وتعمل لتُعطي، لا غاية تأخذ وتعمل لتأخذ، ومهما ضيق عليك فإنما أنت كالشجرة الطيبة تأخذ تراباً وتصنع خلاوة.

وما قط نبتت شجرة في مكانها لتأكل وتشرب وتخزن السماذ والتراب وتحصنها وتمنعها عن غيرها، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكان هلاكها فيما تفعل، إذ تحاول أن تضاعف فائدتها من قانون العالم، فيكون طمئنها سريعاً في إفساد الصلة بينهما، فلا يجد القانون فيها نظامه، ومن ثم لا تجد في القانون نظامها، فيهلكها الذي كان يحييها، وتستعبد لحظ نفسها، فيفقد ذلك حرية الحياة التي كانت لها في نفسها.



يقول نبينا ﷺ: «إن المؤمن بكل خير على كل حال، إن نفسه تُنزع من بين جنبيه وهو يحمده الله عز وجل». فهذا هو أسمى قانون اجتماعي يمكن أن تظفر به الإنسانية، وما يأتي لها ذلك إلّا إذا أصبحت تلك المعاني التي أومأنا إليها شعوراً اجتماعياً عاماً مقررراً في النفس، قائماً فيها على إيمانٍ راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها، وأن الناس كحب القمح في السنبلة، ليس لجميعه إلّا قانون واحد، فموضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها، علت أو سفلت، وكثر ما تأخذ أو قل؛ وإذا كان أساس الحياة في الحبة منها أن تجد قوامها وكيفياتها من مادة الأرض، فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها، وأن يستمر النور من حولها يغمرها.

فالحِجَةُ من السُّنْبلة بكلِّ خيرٍ على كُلِّ حال، وإِنها لَتُنزَعُ وما بها أَثَرٌ تُرْعَثُ، ولكنها أَثَرٌ ما تُؤدِّي، وانقطعت من قانونٍ لِتُتَصِلَ بقانونٍ غيره، وما اغتنث ولا افتقرت، ولا أَكثرت ولا أَخفَّت بل حَقَّقَتْ موضِعَها، فإنها ما نَبَتَتْ لِتَبْقَى، وما نَمَتْ إِلا لِينقطعَ نَمَاؤها. وكذلك المؤمنُ الصَّحيحُ الإِيمانَ، الصادقُ النظرَ في الحياة: هو أَبداً في قانون آخرته، فهو أَبداً في عملٍ ضميره.

والناسُ في هذه الحياة كَحَشِدٍ عَظِيمٍ يَتَدَفَّقُ من مَضِيقٍ بين جَبَلين يَنفُذُ إلى الفُضاء؛ فإذا هم أدرَكوا جميعاً أَنَّهُم مُفْعَضُونَ إلى هذه النِّهاية مَرُوا آمَنِينَ وكان في يَقِينِهِمُ السَّلامَةُ، وفي صَبْرِهِمُ الرِّقَايةُ، وفي نِظامِهِمُ التَّوفِيقُ، وفي تَعَاوُنِهِمُ الحَيَاةُ؛ ففهم بكلِّ خيرٍ على كُلِّ حال، ما دَامَ هذا قانونٌ جَميعِهِمُ؛ فأَيُّما رَجُلٍ شَدَّ مِنْهُمْ فاضطربَ فطاشٌ، هَلَكَ وأَهْلَكَ مَنْ حوله، وَمَنْ عَكَسَ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ وَنَكَصَ على عَقِبِيهِ، أَهْلَكَ مَنْ حوله وَهَلَكَ، والموتُ أَشَقَى الموتِ هُنا في هذا المَضِيقِ بين الجَبَلين - اعتباراً الحَاضِرِ حاضراً فقط، والضَّجَرُ مِنْهُ، وجعلَ كُلَّ إِنسانٍ نَفْسَهُ غَايَةً. والحَيَاةُ أَهْنا الحَيَاةُ - اعتباراً الحَاضِرِ بِما وراءَهُ، والصَّبْرُ على شِدَّتِهِ، وجعلَ الإنسانَ نَفْسَهُ وَسيلةً.



فذلك معنى خَبَرِ الشَّعِيرِ، والقِلَّةِ والضِّيقِ، ورهنِ الدَّرعِ عند يَهُودِيٍّ من سَيِّدِ الخَلْقِ وأَكمِلِهِمُ، وَمَنْ لو شاءَ لَمَشَى على أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ. فهو ﷺ يُعَلِّمُ الإِنسانِيَّةَ أَنَّ الرَجُلَ العَظِيمَ النَّفْسِ لا يَكُونُ في الحَيَاةِ إِلا ضَيْفاً نازِلاً على نَفْسِهِ.

ومن مَعانِي ذلك الفَقْرِ العَظِيمِ أَنَّ خَبَرَ الشَّعِيرِ هو رَمَزٌ من رَمَوزِ الحَيَاةِ على التَّحَلُّلِ من خُلُقِ الأَمْرَةِ، والبراءَةِ من هَوَى التَّزَوُّفِ؛ ورهْنُ الدَّرعِ رَمَزٌ آخَرُ على التَّخَلُّصِ مِنَ الكِبَرِيَاءِ والطَّمَعِ؛ والمُسرَّةُ رَمَزٌ ثالِثٌ على مُجاهدَةِ اللَّيلِ الحَيِّ الَّذِي يُغَيِّدُ الحَيَاةَ كما يُغَيِّدُ بَعْضُ النَّباتِ النَّباتِ. ومجموعُ هذه الرَمَوزِ رَمَزٌ بِحَالِهِ على وَجوبِ الإِيقاظِ النَّفْسِيِّ لِلأَمَةِ العَزِيزَةِ الَّتِي تَقوِّدُ أَنْفُسَها بِمِقياسَةِ الشَّدائِدِ ومُجاهدَةِ الطَّباعِ، لِتَكُونُ في كُلِّ فَرْدٍ مادَّةُ الجَيْشِ، وليُصلَحَ هذا الجَيْشُ قانِداً لِلإِنسانِيَّةِ.

على أَنَّهُ ﷺ حثَّ على طَلَبِ اليَسَّارِ، والتَّغَلُّلِ مِنَ الأَعْمَالِ الشَّرِيفَةِ بِالغَلَّةِ والمالِ، فقال: «إِنَّكَ إِذْ تَدْعُ عِيالَكَ أَغْنِياءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ غَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسُ». ورأى عابِداً قَدِ انقطعَ لِلعِبادَةِ حَتَّى أَكَلَتْ نَفْسُهُ جَسَمَهُ، ووصَفوا لَهُ مِنْ رُهيْدِهِ وَعِبادَتِهِ، فقال ﷺ: «مَنْ يَعوْلُهُ؟» قالوا: كُلُّنا نَعوْلُهُ. فقال: «كُلُّكُمْ خَيْرٌ

منه . . . إلى أحاديث كثيرة مروية، هي تمام القانون الأدبي الاجتماعي في الدنيا، تُبَيِّنُ أَنَّ الْحَيَّ إِنْ هُوَ إِلَّا عَمَلُ الْحَيِّ.

ولكنَّ حينَ يكونُ سيِّدُ الأُمَّةِ وصاحبُ شريعَتِها رجلاً فقيراً، عاملاً مُجاهداً، يَكْدَحُ لِعَيْشِهِ، ويجوِّعُ يوماً ويشبعُ يوماً، فلم يَقلِّبْ يَدَهُ في بِلَادٍ من المَالِ يرثُها، ولم يَجمَعُهما على طَريفٍ منه يُورَثُهُ - فذلك هو ما بيَّنناه وشرخناه، وذلك كالأمرِ نافِذاً لا رُخْصَةً فيه، على الأَلَا يَتَخَذُ الغنيُّ من الفقيرِ عبداً اجتماعياً لِفَقْرِ هذا ولِمَالِ ذاك؛ بل هي المساواةُ النفسِيَّةُ لا غَيْرُها وإن اختلفَت طبقاتُ الاجتماعِ. والأَكْرَمُ هو الأَتْقَى لِلَّهِ بِمعنى التقوى، والأَقْوَمُ بالواجبِ على معنى الواجب، والأَكْفَى لِلإنسانيَّةِ في معاني الإنسانية.

فقرُّ ذلك السيِّدِ الأعظم ليس فقراً، بل هو كما رأيت: ضبطُ السلطةِ الكائنةِ في طبيعةِ التَمَلُّكِ، لِقِيَامِ التعاوُنِ الإنسانيِّ على أساسِهِ العمليِّ؛ هو المحاجَزةُ العادلةُ بين المصالحِ الاقتصاديةِ الطاغيةِ: يمنعُ أَنْ تَأْكُلَ مصلحةٌ مصلحةً فَتَهْلِكَ بها، وَيُوجِبُ أَنْ تَلِدَ المصلحةُ مصلحةً لِتَحْيَا بها.

والنبيُّ الفقيرُ العَظِيمُ هو في التاريخِ من وراءِ كُلِّ هذه المعاني، كالقاضي الجالسِ وراءَ موادِّ القانونِ. ﷺ.

درس من النبوة

قالوا: إنه لما نصر الله (تعالى) رسوله وردَّ عنه الأحزاب وفتح عليه قُرَيْظَةَ والْثُغَيْر^(١)، ظنَّ أزواجه ﷺ أنه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم؛ وكنَّ تَسْعُ نِسوة: عائشة، وحَفْصَة، وأمُّ حَبِيبَة، وسُودَة، وأمُّ سَلَمَة، وصَفِيَة، وميمونة، وزَيْنَب، وجُؤَيْرِيَة؛ فمَعَذَن حوله وقلن: يا رسول الله، بناتُ كِسْرَى وقَيْصَرٍ في الْحلي والحُللِ، والإماءُ والحَوَل، ونحن ما نراه من الفاقة والضيق... وآلمن قلبه بمطالبتهم له بتوسيع الحال، وأن يعاملهنَّ بما يُعاملُ به الملوكُ وأبناء الدنيا أزواجهم؛ فأمره الله (تعالى) أن يتلوَ عليهنَّ ما نزل في أمرهنَّ من تخييرهنَّ في فراقه، وذلك قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْ تَخِفْنَ مَرْكَبًا جَبِيلًا^(٢)﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِيدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

قالوا: وبدأ ﷺ بعائشة - وهي أحبهن إليه - فقال لها: «إني ذاكركَ لكِ أمراً ما أحبُّ أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك». قالت: ما هو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ استأمرُ أبوي؟ بلُ اختارَ الله - تعالى - ورسوله. ثم تتابعت كلهن على ذلك، فسماهنَّ الله «أمهات المؤمنين»، تعظيماً لحقهنَّ، وتأكيداً لحرمتهنَّ، وتفضيلاً لهنَّ على سائر النساء.



هذه هي القصة كما تُقرأ في التاريخ وكما ظهرت في الزمان والمكان، فلنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة، وكما ظهرت في الإنسانية العالية؛ فنسجدُ لها غوراً بعيداً، ونعرفُ فيها دلالةً سامية، ونتبينُ تحقيقاً فلسفياً دقيقاً للأوهام والحقائق.

(١) هما حيان من أحياء اليهود بالمدينة، وكان ذلك في أواخر سنة خمس للهجرة.
(٢) السراج: الطلاق، ومتعة الطلاق ما نطعاه المطلقة - وهو - يختلف حسب السعة والإقتار.

وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوي على حكمة رائعة لم ينتبه لها أحد، ومن أجلها ذُكرت في القرآن الكريم، لتكون نصّاً تاريخياً قاطعاً يُدافع به التاريخ عن هذا النبي العظيم في أمر من أمر العقل والعريضة، فإن جهالة المبشرين في زمننا هذا، وكثيراً من أهل الزُيغ والإلحاد، وطائفة من قصار النظر في التحقيق - يزعمون أن محمداً ﷺ إنما استكثر من النساء لإهواء نفسية محضّة وشهوات كالشهوات؛ ويتطرقون من هذا الزعم إلى الشبهة، ومن الشبهة إلى سوء الظن، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي؛ وكلهم غيبي جاهل؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحو من قريبه، لما كانت هذه القصة التي أساسها نفى الزينة وتجريد نساؤه جميعاً منها، وتصحيح النية بينه وبينهنّ على حياة لا تحيا فيها معاني المرأة، وتحت جو لا يكون أبداً جو الزهر... وأمره من قبل ربّه أن يُخَيَّرَهُنَّ جميعاً بين سراجهنّ فيكنّ كالنساء ويجذّن ما شئت من دنيا المرأة، وبين إمساكينّ فلا يَكُنَّ معه إلا في طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتها.

فالقصة نفسها ردّ على زعم الشهوات، إذ ليست هذه لغة الشهوة، ولا سياسة معانيها، ولا أسلوب غضبها أو رضاها. وما ههنا تمليق، ولا إطراء، ولا نُعومة، ولا جِرْصٌ على لذة، ولا تعبير بلغة الحاسة؛ والقصة بعد مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبهة معنى من حرارة القلب، ولا أثر ولا بقية أثر من ميل النفس، ولا حرف أو صوت حرف من لغة الدم. وهي على منطقي آخر غير المنطقي الذي تُستمال به المرأة، فلم تقتصر على نفى الدنيا وزينة الدنيا عنهنّ، بل نفى الأمل في ذلك أيضاً إلى آخر الدهر، وأما نت معناه في نفوسهنّ، بقصر الإرادة منهنّ على هذه الثلاثة: الله في أمره ونهيه، والرسول في شذائده ومكابدته، والدار الآخرة في تكاليفها ومكاريها. فليس هنا ظرف، ولا رقة، ولا عاطفة، ولا سياسة لطبيعة المرأة، ولا اعتبار لمزاجها، ولا زلّقى لأنوثتها، ثم هو تخيير صريح بين ضيدين لا تتلوّن بينهما حالة تكون منهما معاً، ثم هو عام لجميع زوجاته لا يستثنى منهنّ واحدة ولا أكثر.

والحريص على المرأة والاستمتاع بها لا يأتي بشيء من هذا، بل يُخاطب في المرأة خيالها أول ما يُخاطب، ويُشيعُ مُبالغةً وتأكيذاً، ويؤسّعه رجاء وأملاً، ويقرب له الزمن البعيد، حتى لو كان في أول الليل وكان الخلاف على الوقت، لحقّق له أن الظهر بعد ساعة...



وبرهان آخر؛ وهو أن النبي ﷺ لم يتزوج نساءً لِمَتَاعٍ مِمَّا يُمَتَّعُ الْخَيَالُ بِهِ، فلو كان وَضَعَ الأمر على ذلك لَمَا اسْتَقَامَ ذلك إِلَّا بِالزينة وبِالْفَنِّ الناعم في الثوب والجِلَّةِ والتشكُّل كما نرى في الطبيعة الفَنِّيَّة، فَإِنَّ الْمُثَلَّة لا تمثل الرواية إِلَّا في المسرح المهيأ بمناظره وجَوْه... وقد كَانَتْ نساؤه ﷺ أَعْرَفَ به؛ وها هو ذا ينفي الزينة عَنْهُنَّ وَيُخَيِّرُهُنَّ الطَّلَاقَ إِذَا أَصْرَزْنَ عَلَيْهَا. فهل ترى في هذا صورة فِكْرٍ من أَفْكَارِ الشهوة؟ وهل ترى إِلَّا الكمال المحض؟ وهل كَانَتْ مُتَابَعَةُ الزوجاتِ التَّسْعِ إِلَّا تَسْعَةً بَرَاهِنَاتٍ على هذا الكمال؟

وكانَ النبي ﷺ يُلْقِي بهذه القصة درساً مستفيضاً في فلسفة الخيالِ وَسُوءِ أثره، على المرأة في أنوثتها، وعلى الرجل في رجولته؛ وأنَّ ذلك تعقيدٌ في الشهوات يُقَابِلُهُ تعقيدٌ في الطبع، وكَذِبٌ في الحقيقة ينشأ عنه كَذِبٌ في الخلق، وأنه صَرَفٌ لِلْمَرْأَةِ إِلَى حياة الأحلام والأمانِ والطيشِ والبَطْرِ والفراغ، وتعديدها عادات تُفْسِدُ عاطفتها، وتُضَيِّفُ إِلَيْهَا التَّصَنُّعَ فتُضْعِفُ قوتها النفسِيَّةَ القائمةَ على إبداع الجمالِ من حقيقتها لا من مظهرها، وتحقيقِ الفائدة من عملها لا من شكلها.

وكلُّ محاسن المرأة هي خيالٌ متخيَّلٌ ولا حقيقةً لشيءٍ منها في الطبيعة، وإنَّما حقيقتها في العين الناضرة إليها فلا تكون امرأةً فاتنةً إِلَّا لِلْمَفْتُونِ بها ليس غير. ولو رَدَّتْ الطبيعة على مَنْ يَشْبُبُ بامرأةٍ جميلةٍ فيقول لها: هذه محاسنك وهذه فتنتك وهذا سحرُك وهذا وهذا؛ لَقَالَتْ له الطبيعة: بل هذه كُلُّها شهواتُك أنت^(١)...

وبهذا يختلفُ الجمالُ عند فَقْدِ النظر؛ فلا يفتنُ الأعمى جمالُ الصورة ولا سحرُ الشكلِ ولا قَرَاهَةُ المنظر، وإنَّما يفتنه صوتُ المرأة ومَجَسَّثُها ورائحتها.

فلا حقيقةً في المرأة إِلَّا المرأة نفسها؛ ولو أَخَذْتُ كُلَّ أنثى على حقيقتها هذه لَمَا فَسَدَ رَجُلٌ ولا شَقِيَّتْ امرأةٌ، ولا انتظمتْ حياةُ كُلِّ زوجين بِأسبابِها التي فيها. وذلك هو المثلُ المضروبُ في القصة.

يُرِيدُ النبي ﷺ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ أَنَّ خَيْفَ الغريزة على العقلِ إفسادٌ لِهَذَا العقلِ، وأنه متى أَخَذَتْ المرأةُ لِحَظَّ الغريزة واختيارها، كَانَتْ حَيَاتُهَا استجابةً لِبُغْوِ الرجل، وملاؤها معاني التزويد والتصنع؛ فَيُوشِكُ أَنْ يَنْقَلِبَ هَذَا عن طبيعتها السامية التي

(١) بسطنا هذا المعنى في كثير مما كتبناه، وخاصة في كتاب: (السحاب الأحمر).

أكثرُها في الجرمان والإيثاري والصبر والاحتمال، ويردُّها إلى أضدادِ هذه الصفات، فيقومُ أمرُها بعدُ على الأثرة والمصلحة والتفادي والضعف والتبرُّم والإلحاح والإزعاج، ويُضعفُ معنى السلبِ الراسخ في نفسها من أصلِ الفِطْرة؛ فيتبدَّلُ حياؤها، وفي الحياءِ رذُها عن أشياء؛ ويقلُّ إخلاصُها، وفي الإخلاصِ ردُّ لها عن أشياء أخرى؛ ويكثرُ طمعُها، وفي قناعتها مُحاجزةٌ بينها وبين الشرِّ.

وبهذا ونحوه يفسدُ ما بين الرجلِ والمرأة المتصنعة؛ فإذا كثُر المتصنعاتُ لا يكون من النساءِ مشاكلٌ فقط، بل تكون من حلولِ المشاكلِ معهنَّ مشاكلٌ أخرى...

ولباب هذه القصة أن النبي ﷺ يجعلُ نفسَهُ في الزواج المثلَ الشعبيِّ الأكمل كما هو دأبه في كلِّ صفاته الشريفة، فهو يُريدُ أن تكونَ زوجاتُه جميعاً كنساءِ فقراءِ المسلمين، ليكونَ منهنَّ المثلُّ الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تَبْرُعُ البراعةَ كُلَّها في الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة، فلا تكونَ المرأةُ زينةً تَطْلُبُ زينةً لِيَتَمَّ بها في الخيال، ولكنَّ إنسانيةً تطلبُ كمالها الإنساني لِيَتَمَّ به في الواقع.

وهذه الزينة التي تتصنَّعُ بها المرأةُ تكادُ تكونُ صورةَ المكرِّ والخداع والتعقُّد، وكلِّما أسرقت في هذه أسرقت في تلك، بل الزينةُ لوجه المرأة وجسمُها سلاحٌ من أسلحة المعاني: كالأظفار والمخالب والأنياب، غيرَ أنَّ هذه لوخشيَّة الطبيعة الحيَّة المفترسة، وتلك لوخشيَّة الغريزة الحيَّة التي تُريدُ أن تفتَرس. ولا تُنكِرُ المرأةُ نفسها أنَّ الزينةَ على جسمِها ثرثرةٌ طويلةٌ تقول وتقول وتقول...

وإنَّما يكونُ أساسُ الكمالِ الإنساني، في الإنسان العاملِ المُجاهد: لا يحضُرُ نفسُهُ في شيءٍ يُسمَّى متاعاً أو زينة، ولا يقدرُ نفسُهُ بما يجمعُ لها أو بما يجمعُ حولها، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عملِ الشهوات عن الشهوات. ونبينا ﷺ هو الغاية في هذا. دخل عليه مرةً عمرُ بنُ الخطاب، فإذا هو على حصيرٍ وعليه إزارُهُ وليس عليه غيره، وإذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبه. قال عمر: وإذا أنا بقبْضَةٍ من شعيرٍ نحو الصباغ، وإذا إهابٌ معلقٌ^(١)، فابتَدَرْتُ عيناي، فقال: ما

(١) كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء.

يُكَيِّك يا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قال: عمر: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحَصِيرُ قد أثرَ في جنبِكَ، وهذه خزائنُكَ لا أرى فيها إلَّا ما أرى، وذلك كسرى وقيصرُ في الثمارِ والأنهارِ وأنت نبيُّ الله وصفوتهُ وهذه خزائنُكَ^(١)؟

وجاء مرة من سَفَرٍ فدخل على ابنته فاطمةَ (رضيَ الله عنها) فرأى على بابها سِتْرًا وفي يديها قُلْبَيْنِ من فضةٍ^(٢)، فرجع؛ فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرتهُ برجوعِ أبيها، فسأله في ذلك فقال ﷺ: من أجلِ السِتْرِ والسَّوَارِينِ.

فلما أخبرها أبو رافع هتَكَتِ السِتْرُ^(٣) ونَزَعَتِ السَّوَارِينِ فأرسلتُ بهما بلالاً إلى النبيِّ ﷺ وقالت: قد تصدَّقْتُ به، فضغهُ حيثُ تَرَى. فقال ليلال: اذهب فيغهُ وادفعهُ إلى أهلِ الصُّفَّةِ^(٤). فباعَ القُلْبَيْنِ بدرهمين ونصفٍ (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدَّقَ به عليهم.

يا بنتُ النبيِّ العظيمِ! وأنتِ أيضاً لا يرضى لكِ أبوكِ جليَّةٌ بدرهمين ونصفٍ وإنْ في المسلمينَ فقراءَ لا يملكونَ مثلاً.

أيُّ رجلٍ شَغِبِي على الأرضِ كمحمدٍ ﷺ، فيه لئامةٌ كُلُّها غريزةُ الأب، وفيه على كُلِّ أحواله اليقينُ الذي لا يتحوَّل، وفيه الطبيعةُ التامةُ التي يكونُ بها الحقيقيُّ هو الحقيقيُّ.

يا بنتُ النبيِّ العظيمِ! إنْ زينةٌ بدرهمين ونصفٍ، لا تكونُ زينةً في رأيِ الحقِّ إذا أمكنَ أنْ تكونَ صدقةٌ بدرهمين ونصفٍ؛ إنْ فيها حِيتَنٌ معنى غيرَ معناها؛ فيها حقُّ النفسِ غالباً على حقِّ الجماعة؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعة حاكماً على الإيمانِ بالخير؛ وفيها ما ليس بضروريٍّ قد جازَ على ما هو الضروري؛ وفيها خطأ من الكمالِ إنْ صحَّ في حسابِ الحلالِ والحرامِ لم يصحَّ في حسابِ الثوابِ والرحمةِ.

تعالوا أيُّها الاشتراكيونَ فاعرفوا نبيَّكم الأعظمَ؛ إنْ مذهبكم ما لم تُخِبه فضائلُ الإسلامِ وشرائعه - إنْ مذهبكم لكالشجرة الذابلة تُعلَّقونَ عليها الأثمارَ تُشَدُّونها بالخيوطِ... كُلُّ يومٍ تَجْلُونَ، وكلُّ يومٍ تَرِبُّونَ، ولا ثمرةٌ في الطبيعةِ.

(١) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه (ﷺ)، وقد بسطنا فلسفة هذه المعاني في مقال (سمو الفقر).

(٢) القلب (بالضم): سوار من الفضة غير ملوى، هو الذي يقال له اليوم: (الفويشة) وهو خفيف.

(٣) أي مزقته؛ وكذلك رأى مرة سِتْرًا على باب عائشة (رضيَ الله عنها) فهتكه وقال: كلما رأته ذكرت الدنيا. أرسلني به إلى آل فلان.

(٤) الصفة: الغرفة، وأهل الصفة: هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه؛ فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه.

ليست قصة التخيير هذه مسألة من مسائل الغنى والفقر في معاني المادة، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح؛ فهي صريحة في أن النبي ﷺ أستاذ الإنسانية كلها؛ واجبه أن يكون فضيلة حية في كل حياة، وأن يكون عزاء في كل فقر، وأن يكون تهدياً في كل غنى، ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانون الأدبي للجميع.

وكأنه ﷺ يريد ليُعلم الأمة بهذه القصة أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهي، ولكن بعمل عظمائها في الأمر والنهي؛ وأن الحاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كان في نفسه وطبيعته يحس فتنة الدنيا إحساس المتسلط لا الخاضع، ليكون أول استقلاله داخله.

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى في ظاهر القصة، ولكنها جزاء النفس العظمى في تقرير حقائقها العملية.

وتنتهي القصة في عبارة القرآن الكريم بتسمية زواجه ﷺ: «أنهات المؤمنين» بعد أن اختزن الله ورسوله والدار الآخرة؛ وعلماء التفسير يقولون: إن الله (تعالى) كافأهم بهذه التسمية؛ وليس ذلك بشيء ولا فيه كبير معنى، وإنما تُشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الإعجاز؛ فإن الزوجة الكاملة لا تكمل في الحياة ولا تكمل الحياة بها إلا إذا كان وضفها مع رجلها كوصف الأم: ترى ابنها بالقلب ومعانيه، لا بالغريزة وحظوظها؛ فكل حياة حينئذ ممكنة السعادة لهذه الزوجة، وكل شقاء محتتمل بصبر، وكل جهاد فيه لذته الطبيعية، إذ يقوم البيت على الحب الذي هو الحب الخالص لا المنفعة، وتكون زينة الحياة وجود الحي نفسه لا وجود المادة، وتبنى النفس على الوفاء الطبيعي كوفاء الأم، وذلك خلق لا يغسر عليه في سبيل حقيقته أن يغلب على الدنيا وزينتها.

وآخر ما نستخرج من القصة في درس النبوة هذه الحكمة:

بحسب المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقة نفسه الطيبة، وإن لم يجد حقيقة كسرى ولا قيصر.

شهر الثورة (*)

فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحد قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته؛ أما منفعة الجسم، وأنه نوع من الطب له، وباب من السياسة في تدبيره؛ فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك؛ وكان أيام هذا الشهر المبارك إن هي إلا ثلاثون حبة تؤخذ في كل سنة مرة لتقوية المعدة وتصفية الدم وحيطة أنسجة الجسم؛ ولكننا الآن لسنا بضد من هذا، وإنما نستوحي تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى التي شرعت هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة، عاملة على استمرار الفكرة الإنسانية فيها، كي لا تبدل النفس على تغير الحوادث وتبدلها، وليكلا تجهل الدنيا معاني الترقيع إذا أنت على هذه الدنيا معاني التمزيق.

من معجزات القرآن الكريم أنه يذخر في الألفاظ المعروفة في كل زمن، حقائق غير معروفة لكل زمن، فيجليها لوقتها حين يضيئ الزمان العلمي في مآهته وخبرته، فيشعب على التاريخ وأهله مستخفاً بالاديان، ويذهب يتتبع الحقائق، ويستقصي في فنون المعرفة، ليستخلص من بين كفر وإيمان ديناً طبيعياً سائغاً، يتناول الحياة أول ما يتناول فيضبطها بأسرار العلم، ويوجهها بالعلم إلى غايتها الصحيحة، ويضاعف قواها بأساليبه الطبيعية، ليحقق في إنسانية العالم هذه الشيئية المجهولة التي تتوهمها المذاهب الاجتماعية ولم يهتد إليها مذهب منها ولا قاربها؛ فما برحت سعادة الاجتماع كال تجربة العلمية بين يدي علمائها: لم يحققوها ولم يأسوا منها، وبقيت تلك المذاهب كمقارب الساعة في دورتها: تبدأ من حيث تبدأ ثم لا تنتهي إلا إلى حيث تبدأ...



يضطرب الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجزاً من يحاول تغيير الإنسان بزيادة ونقص في أعصابه؛ ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهب كُتب ورسائل؛ ولو

(*) كتبها في شهر رمضان سنة ١٣٥٣هـ، وانظر «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعي.

أنهم تدبّروا حكمة الصوم في الإسلام، لرأوا هذا الشهرَ نظاماً عملياً من أقوى وأبداع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة: فهذا الصوم فقرٌ إجباريٌّ تفرضه الشريعة على الناسِ قرصاً ليتساوى الجميعُ في بواطنهم، سواء منهم من ملكَ المليونَ من الدنانير، ومن ملكَ القِرشَ الواحد، ومن لم يملك شيئاً؛ كما يتساوى الناسُ جميعاً في ذهابِ كبريائهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كلِّ مسلم؛ وفي ذهابِ تفاوتهم الاجتماعيِّ بالحج الذي يفرضه على من استطاع.

فقرٌ إجباريٌّ يُرادُ به إشعارُ النفس الإنسانية بطريقةٍ عمليةٍ واضحةٍ كلِّ الوضوح، أنَّ الحياةَ الصحيحةَ وراءَ الحياة لا فيها، وأنها إنما تكونُ على أنمها حين يتساوى الناسُ في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساسِ الألم الواحد لا حين يتنازعون بإحساسِ الأهواء المتعددة.

ولو حققت لرأيت الناس لا يختلفون في الإنسانية بعقولهم، ولا بأنسابهم، ولا بمراتبهم، ولا بما ملكوا؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة؛ فمن البطن نكبةُ الإنسانية، وهو العقل العملي على الأرض؛ وإذا اختلف البطن والدماغ في ضرورة، مدَّ البطن مدّه من قوَى الهضم فلم يبق ولم يذَر.

ومن ههنا يتناولهُ الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب، ويجعلُ الناس فيه سواء: ليس لجميعهم إلا شعورٌ واحدٌ وجسٌ واحدٌ وطبيعةٌ واحدة؛ ويُحكّم الأمر فيحول بين هذا البطن وبين المادة، ويُبَالِغ في إحكامه فيُمسِكُ خواشيتُ العصبية في الجسم كله يمنعها تغذيتها ولذتها حتى تَفْتَنَ من دخينه^(١).

وبهذا يضعُ الإنسانية كلها في حالةٍ نفسيةٍ واحدةٍ تتلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها، ويُطلَق في هذه الإنسانية كلها صوتُ الروح يُعلِّمُ الرحمة ويدعو إليها، فيُشَبِّع فيها بهذا الجوع فكرةً معينةً هي كلُّ ما في مذهبِ الاشتراكية من الحق، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواةُ الغنيِّ للفقير من طبيعته، واطمئنانُ الفقير إلى الغني بطبيعته؛ ومن هذين: (الاطمئنان والمساواة)، يكون هدوء الحياة بهدوءِ النفسين اللتين هما السُّلبُ والإيجابُ في هذا الاجتماع الإنساني؛ وإذا أنت نزعْتَ هذه الفكرة من الاشتراكية بقي هذا المذهب كله عَبَثاً من العبث في محاولة جعلِ التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له.

(١) الدخينة كلمة وضعناها للسيجارة، وجمعها دخائن.

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم، إذ يُبالغ أشد المبالغة، ويدقق كل التدقيق، في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر الطاقة؛ فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث؛ فهما طريقتان كما ترى: مُبصرة وعياء، وخاصة وعامة، وعلى نظام وعلى فجة.

ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ، وحكم الوازع النفسي على المادة؛ فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول: «أعطني». ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبية والاستجابة لمعانيه، كما يؤاسي المبلى من كان في مثل يلائه.

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يُحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة، ليحل في محله تاريخ النفس^(١)؟ وأنا مُستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم، وأعمال الجسم للنفس؛ كآلة الشهر الصحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة، لإحداث الترميم العصبي في الجسم، ولعل ذلك آت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق؛ إذ تنتفخ العروق وتربو في النصف الأول من الشهر، كأنها في (مد) من نور القمر ما دام هذا النور إلى زيادة، ثم يُراجعها (الجَزَر) في النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءة وظلاماً. وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية، وفي مد الدم وجزوه^(٢)، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره.

وفي تراخي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر، وهو - مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها - إثبات الإرادة وإعلانها، كأنما انبعث أول الشعاع السماوي في التنبيه الإنساني العام لفروض الرحمة والإنسانية والبر.

(١) أفسد ضعف النفوس هذا المعنى، فما يحقق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه في شهر رمضان، وهم يعوضون البطن في الليل ما منعه في النهار، حتى جعلوا الصوم تغييراً لمواعيد الأكل... ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده.

(٢) قال الجاحظ في (الحيوان): «ولزيادة القمر حتى يصير بدرًا، أثر بين في زيادة الدماء والأدمغة وجميع الرطوبات».

وهنا حكمة كبيرة من حِكَم الصوم، وهي عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي، الذي يَدْرَبُ الصائم على أن يمنع باختياره من شهواته ولذته حيوانيته، مُصِرّاً على الامتناع، مُتَهِئاً له بعزمته، صابراً عليه بأخلاق الصبر، مُزاولاً في كل ذلك أفضل طريقة نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغير ولا تتحول، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة.

وإدراك هذه القوة من الإرادة العملية منزلة اجتماعية سامية، هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم، ففي هذين تعرض الفكرة مارةً مُروّرها، ولكنها في الإرادة تعرض لتستقر وتتحقق. فانظر في أي قانون من القوانين، وفي أية أمة من الأمم، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فُرِضَتْ فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاولة فكرة نفسية واحدة بخصائصها وملابساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءاً من عمل الإنسان، لا خيالاً يعمر برأيه مراً.

أليسَ هذه هي إتاحة الفرصة العملية التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة؟ وهل تبلغ الإرادة فيما تبلغ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مُذَعِّنَةً لِفكرِهِ، مُنْقَادَةً لِلْوَازِعِ النَّفْسِيِّ فِيهِ، مُصَرَّفَةً بِالْحَسَنِ الدِّينِيِّ الْمُسَيِّطِرِ عَلَى النَّفْسِ وَمَشَاعِرِهَا.

أما - والله - لو عمّ هذا الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعاً، لآل معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة، لتطهير العالم من رذائله وفساده، ومخق الأثرة والبخل فيه، وطرح المسألة النفسية ليتدارسها أهل الأرض دراسة عملية مدة هذا الشهر بطوله، فيهبط كل رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها، ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر، وليفهم في طبيعة جسمه - لا في الكتب - معاني الصبر والثبات والإرادة، وليبلغ من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان؛ فيحقق بهذه وتلك معاني الإخاء والحرية والمساواة.

شهر هو أيام قليلة في الزمن؛ متى أشرقت على الدنيا قال الزمن لأهله: هذه أيام من أنفسكم لا من أيامي، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي؛ فيقبل العالم كله على حالة نفسية بالغة السمو، يتعهد فيها النفس برياضتها على معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالحي، ويراه كأنما أجيئت من طعامها اليومي كما جاع هو، وكأنما أفرغت من خسايسها وشهواتها كما فرغ هو، وكأنما ألزمت معاني التقوى كما ألزمتها هو. وما أجمل وأبدع أن تظهر الحياة

في العالم كله - ولو يوماً واحداً - حاملَةً في يديها السُّبْحَة . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة؟

إنها - والله - طريقةً عمليةً لِرِسْوَحِ فكرة الخير والحق في النفس؛ وتطهير الاجتماع من خسائس العقل المادي؛ ورَدُّ هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرها بالقوانين، والمحزرة من القوانين في باطنها - إلى قانون من باطنها نفسه يُطَهِّرُ مشاعرَها، ويسمو بإحساسها، ويَصْرِفُها إلى معاني إنسانيتها، ويَهْدُبُ من زياداتها، ويحذف كثيراً من فضولها، حتى يرجع بها إلى نحو من براءة الطفولة، فيجعلها صافيةً مُشْرِقةً بما يجتذب إليها من معاني الخير والصفاء والإشراق؛ إذ كان من عمل الفكرة الثابتة في النفس أن تدعو إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفكر الأخرى. والنفس في هذا الشهر مُحْتَبَسَةٌ في فكرة الخير وحدها، فهي تبني بناءها من ذلك ما استطاعت.

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر، بل هو فصلٌ نفسانيٌّ كفصول الطبيعة في دَوَرانها؛ ولهُوَ - والله - أشبه بفصل الشتاء في حلوله على الدنيا بالجو الذي من طبيعته السحب والغيث، ومن عمله إمداد الحياة بوسائل لها ما بعدها إلى آخر السنة، ومن رياضته أن يُكسِبَهَا الصلابة والانكماش والخفة، ومن غايته إعداد الطبيعة للتفتح عن جمال باطنها في الربيع الذي يتلوه.

وعجيب جداً أن هذا الشهر الذي يَدْخُرُ فيه الجسم من قِوَاهِ المعنوية فيودعها مَصْرِفَ روحانيته، ليجد منها عند الشدائد مدد الصبر والشباب والعزم والجلد والخشونة - عجيب جداً أن هذا الشهر الاقتصادي هو من أيام السنة كفاضة $\frac{1}{8}$ في المائة . . . فكأنه يُسَجَّلُ في أعصاب المؤمن حساب قوته وربحه فله في كل سنة زيادة $\frac{1}{8}$ من قوته المعنوية الروحانية.

وسخر العظام في هذه الدنيا إنما يكون في الأمة التي تعرف كيف تدخر هذه القوة وتوفرها لتستمدّها عند الحاجة، وذلك هو سرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمايهم وأعصابهم ما تجد الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتاد والأسلحة والذخيرة.

* * *

كلُّ ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم؛ فإنما استخرجته من هذه الآية الكريمة: ﴿كُيِّبَ عَلَيْكُمُ الْبَيْتَامُ كَمَا كُيِّبَ عَلَى الْذِيئِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَأَتَّكُمُ ثُمَّ نَقُومُ﴾

[البقرة: ١٨٣]. وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى «التقوى»، أما أنا فأولتها من «الاتقاء»؛ فبالصوم يتقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدته، وألا يعامل الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة؛ ويتقي المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك، فلا يكون إنساناً مع إنسانٍ كحمارٍ مع إنسانٍ: يبيع القوة كلها بالقليل من العلف.

وبالصوم يتقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه، فإن ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه، وما خلفه هو الجيل الذي سيرت من هذه الطباع والأخلاق، فيعمل بنفسه في الحاضر، ويعمل بالحاضر في الآتي^(١).

وكل ما شرخناه فهو اتقاء ضرر لجلب منفعة، واتقاء رذيلة لجلب فضيلة؛ وبهذا التأويل تتوجه الآية الكريمة جهة فلسفية عالية، لا يأتي البيان ولا العلم ولا الفلسفة بأوجز ولا أكمل من لفظها؛ ويتوجه الصيام على أنه شريعة اجتماعية إنسانية عامة؛ يتقي بها الاجتماع شروء نفسه؛ ولن يتهدب العالم إلا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانون العام الذي اسمه الصوم، ومعناه «قانون البطن»....

ألا ما أعظمك يا شهر رمضان! لو عرفك العالم حق معرفتك لسمّاك: «مدرسة الثلاثين يوماً».

(١) يفسر القرآن بعضه بعضاً، ومن معجزاته في هذا التأويل الذي استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة في سورة (يس): «وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ...» ويشير إلى هذا التأويل قول النبي (ﷺ): «إنما الصوم جنة (بضم الجيم) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، وإني صائم». الجنة الوقاية يتقي بها الإنسان، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقي شر حيوانيته وحواسه، فقله: «إني صائم، إني صائم»؛ أي إني غائب عن الفحش والجهل والشر؛ إني في نفسي ولست في حيوانيتي.

ثبات الأخلاق

لو أنني سُئِلْتُ أَنْ أَجِيبَ فلسفة الدين الإسلاميَّ كُلِّها في لفظين، لقلتُ: إنَّها ثبات الأخلاقِ «ولو سُئِلَ أكبرُ فلاسفة الدنيا أَنْ يُوجِّزَ علاجَ الإنسانيةِ كُلِّه في حرفين، لَمَّا زادَ على القول: إنَّه ثباتُ الأخلاقِ. ولو اجتمعَ كُلُّ علماء أوروبا ليدرسوا المدينةَ الأوروبيَّةَ ويَحْضُرُوا ما يُعْزِزُها في كلمتين لقالوا: ثباتُ الأخلاقِ.

فليس ينتظرُ العالمُ أنبياءَ ولا فلاسفةَ ولا مُصلحينَ ولا علماءَ يُدْعَوْنَ له بِدَعَاٍ جديداً؛ وإنَّما هو يترقَّبُ مَنْ يستطيعُ أَنْ يفسِّرَ له الإسلامَ هذا التفسيرَ، ويُثَبِّتَ لِلدنيا أنَّ كُلَّ العباداتِ الإسلاميَّةِ هي وسائلٌ عمليَّةٌ تمنعُ الأخلاقَ الإنسانيَّةَ أَنْ تتبدَّلَ في الحينِ فيخلعَ منها ويلبسَ، إذا تبدَّلَت أحوالُ الحياةِ فصعِدَتْ بِإنسانِها أو نزلتْ؛ وأنَّ الإسلامَ يَأْبَى على كُلِّ مسلمٍ أَنْ يَكُونَ إنساناً حالتيه التي هو فيها من الثروة أو العُلوِّ، ومن الارتفاع أو الضَّعْفِ، ومن خمولِ المنزلة أو نباهيتها؛ ويوجبُ على كُلِّ مسلمٍ أَنْ يَكُونَ إنساناً الدرجة التي انتهى إليها الكونُ في سموه وكَماله، وفي قلبه على مَنَازِلِه بعدَ أَنْ صُفِّيَ في شريعةٍ بعدَ شريعةٍ، وتجربةٍ بعدَ تجربةٍ، وعِلْمٍ بعدَ عِلْمٍ.

انتهتِ المدينةُ إلى تبدُّلِ الأخلاقِ بتبدُّلِ أحوالِ الحياةِ، فَمَنْ كانَ تَقِيًّا على الفقرِ والأُملاقِ وحَزَمَهُ الإِعْساؤُ فَنَوَى اللذةَ، ثُمَّ أيسَرَ من بعدُ؛ جازَ له أَنْ يَكُونَ فاجراً على الغِنَى وأنَّ يتسَمَّحَ لُفْجوره على مَدٍّ ما يتطوَّحُ به المالُ، وإنَّ أَصْبَحَ في كُلِّ دينارٍ من ماله شقاءُ نفسٍ إنسانيَّةٍ أو فسادُها.

وَمَنْ وُلِدَ في بطنِ كُوخٍ، أو على ظَهرِ الطريقِ، وجبَ أَنْ يَبْقَى أرضاً إنسانيَّةً؛ كَأَنَّ اللهَ (سبحانه) لم يَبْنِ من عظامِه ولحمِه وأعصابِه إِلَّا خَرِبَةً آدميَّةً من غيرِ هندسةٍ ولا نظامٍ ولا فنٍّ... ثُمَّ يُقَابِلُهُ مَنْ وُلِدَ في القَصْرِ أو شبه القَصْرِ فَلَهُ حُكْمٌ آخَرُ، كَأَنَّ اللهَ (سبحانه) قد رَكَّبَ من عظمِه ودمِه وتكوينِه آيَةً هندسيَّةً وأعجوبةً فنٍّ، وطَرَفَةً تدبيرٍ، وشيئاً مع شيءٍ، وطَبَقَةً على طبقةٍ.

ولكنَّ الإسلامَ يُقرِّرُ ثباتَ الخُلُقِ ويوجِّهُهُ ويُنشِئُ النفسَ عليه، ويجعلُهُ في جِياطةِ المجتمعِ وجِراسِتهِ، لأنَّ هناكَ حدوداً في الإنسانيةِ تتميزُ بحدودٍ في الحياةِ،

ولا بد من الضبط في هذه وهذه، حتى لا يكون وَضْعُ إِلَّا وِراءَهُ تقدير، ولا تقدير إِلَّا معه حِكْمَة، ولا حِكْمَة إِلَّا فيها مصلحة؛ وحتى لا تَعْلَوْ الحِياة ولا تنزل إِلَّا بمثل ما ترى من كِفْتَي ميزانِ شُدتا في عَلاقَةٍ تَجْمَعُهُما وتَحَرُّكُهُما معاً، فهي بذاتها هي التي تنزل بالنازل لَتَذُلَّ عليه، وتُثِيلُ بالعالي لِتَبِينَ عنه؛ فالإسلام من المدينة هو مدينة هذه المدينة.



إنَّها لَنَ تتغير مادةُ العظم واللحم والدم في الإنسان فهي ثابتةٌ مقدرةٌ عليه، ولنَ تتبدل السُّنَنُ الإلهيةُ التي تُوجَدُها وتُغْنِيها فهي مُصَرِّفةٌ لها قاضيةٌ عليها، وبين عمل هذه المادة وعمل قانونها، فيها تكونُ أسرارُ التكوين: وفي هذه الأسرار تجدُ تاريخَ الإنسانية كُلَّهُ سابحاً في الدم.

هي الغرائزُ تعملُ في الإنسانية عملها الإلهي، وهي محدَّدةٌ محكمةٌ على ما يكون من تعاديبها واختلاف بينها، وكأنَّها خُلِقَتْ بمجموعِها لِمجموعِها؛ ومن ثَمَّ يكون الخُلُقُ الصحيحُ في معناه قانوناً إلهياً على قوَّةِ كقوة الكون وضبط كضبطه.

وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخُلُقُ أَنْ يحوِّلَ المادة التي تُعارضُهُ إذا هو اشتدَّ وُضِّلَب، ولكِنَّهُ يتحوَّلُ معها إذا هو لَانَ أو ضَعُف. فهو قَدَرٌ إِلَّا أَنَّهُ في طاعَتِكَ، إذ هو قوَّةُ الفضل بين إنسانيتِكَ وحيوانيتِكَ، كما أَنَّهُ قوَّةُ المَرْج بينَهُما، كما أَنَّهُ قوَّةُ التعديل فيهِما، وقد سَوَّغَ القُدرة على هذه الأحوال جميعاً، ولولا أَنَّهُ بهذه المثابة لعاش الإنسان طول التاريخ قبل التاريخ، إذ لَنَ يكونَ له حينئذٍ كَوْنٌ تَوَرَّخَ فضائلُهُ أو رذائلُهُ بمدحٍ أو ذَمٍّ.

فلا عبرةٌ بمظهرِ الحياة في الفرد، إذ الفردُ مقيَّدٌ في ذاتِ نفسِهِ بمجموع هو للمجموع وليس له وحده: فإنَّكَ ترى الغرائزَ دائبةً في إيجادِ هذا الفردِ لِنوعِهِ بَسُنن من أعمالِها، ودائبةً كذلك في إهلاكِهِ في النوعِ نفسِهِ بَسُنن أخرى؛ فليس قانونُ الفردِ إِلَّا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يُمكنُ أَنْ يَتحوَّلَ الفردُ على أسبابٍ مختلفة، ثم تبقى الأخلاقُ التي بينَهُ وبين المجموعِ ثابتةً على صورتِها.

فالأخلاقُ على أنَّها في الأفراد، هي في حقيقتها حُكْمُ المجتمعِ على أفرادِهِ؛ فقوامُها بالاعتبارِ الاجتماعي لا غير.



وحينَ يَقعُ الفسادُ في المُجْمَعِ عليه من آدابِ الناسِ، ويلتوي ما كان

مستقيماً، وتَشَبُّهُ العالِيَّة والسَّافِلَة، وتُطَرَّحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعي، ويقومُ وزنُ الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجري العِبرةُ فيما يعتبرونه بالردائل والمحرمات، ولا يُعْجِبُ النَّاسَ إِلَّا ما يُفْسِدُهُمْ، ويقعُ ذلك منهم بموقع القانون ويحلُّ في محلِّ العادة؛ فهناك لا مِسَاكَ لِلخُلُقِ السليم على فرد، ولا بدُّ من تحوُّل الفرد في حقيقته؛ إذ كان لا يجيء أبداً إِلَّا مُتَّصِداً في كُلِّ مظاهره الاجتماعية، فإنما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً، وكأنه متثقل من عالم إلى عالم ثانٍ بغير نوايسٍ الأول.

وما شدُّ من هذه القاعدة إِلَّا الأنبياء وأفراد من الحكماء؛ فأما أولئك فهم قوة التحويل في تاريخ الإنسانية: لا يُبْعَثُ أحدهم إِلَّا ليَهَيِّجَ به الهَيْجُ في التاريخ، ويتطرقُ به الناسُ إلى سُبُل جديدة كأنما تطردُّهم إليها العواصف والزلازل والبراكين، لا شريعته ومبادئه وأدابه؛ وأما الحكماء الناضجون فهم دائماً في هذه الإنسانية أمكنة بشرية مُحَصَّنة لِحِفْظِ كنوزها وإحرازها في أنفسهم، فلم في ذات أنفسهم عِصْمةً ومنعةً كالجبال في ذات الأرض.

* * *

الأخلاق في رأيي هي الطريقةُ لِتنظيم الشخصية الفردية على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاح فيها إنما يكون من عمل هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه. وعندي أن للشعب ظاهراً وباطناً؛ فباطنه هو الدين الذي يحكم الفرد، وظاهره هو القانون الذي يحكم الجميع، ولن يصلح للباطن المتصل بالغيب إِلَّا ذلك الحكم الديني المتصل بالغيب مثله؛ ومن هنا تتبين مواضع الاختلال في المدنية الأوروبية الجديدة؛ فهي في ظاهر الشعب دون باطنه، والفرد فاسدٌ بها في ذات نفسه إذا هو تحلل من الدين، ولكنه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين، فلا يبرح هائلاً من الأخلاقِ ساخراً بها؛ لأنها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يعتدُّ بها إِلَّا إذا درَّتْ بها منافعه، وإلا فهي ضارة إذا كانت منها مَضَرَّة، وهي مؤلمة إذا حالت دون اللذات. ولا ينفك هذا الفرد يتحوَّل لأنه مطلق في باطنه غير مقيّد إِلَّا بأهوائه ونزعاته، وكلّمنا الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات؛ إذ الغاية المتاع واللذة والنجاح، وليكن السبب ما هو كائن...

وبهذا فلن تقوم القوانين في أوروبا إذا فني المؤمنون بالاديان فيها أو كآثرهم الملحدون، وهم اليوم يَبْصُرُونَ بأعينهم ما فعلت عقلية الحرب العظمى في طوائف

منهم قد خَرِبَتْ أَنْفُسُهُمْ من إيمانهم فتحولوا ذلك التحول الذي أومأنا إليه ، فإذا أعصابهم بعد الحرب ما تزال محاربة مقاتلة ترمي في كل شيء بروح الدم والأشلاء والقبور والتعفن والبلى . . . وانتهت الحرب بين أمم وأمم ، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق .

وقديماً حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوخوا الأمم ؛ فأثبتوا في كل أرض هذِي دينهم وقوة أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السلم ، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحول ، ولا تستخفُّ الحياة بنزقها ، ولا تسفهُه المدنيات فتحمله على الطيش .

ولو كانوا هُم أهل هذه الحرب الأخيرة بكل ما قدَّفت به الدنيا . لبقيت لهم العقلية المؤمنة القوية ، لأن كل مسلم فإنما هو وعقليته في سلطان باطنه الثابت القار على حدود بينة مُحَصَّلة مقسومة ، تحوطها وتمسكها أعمال الإيمان التي أحكمها الإسلام أشدَّ إحكام يفرضها على النفوس منوعة مكررة : كالصلاة والصوم والزكاة ، ليمنع بها تغيراً ويُحدث بها تغيراً آخر ، ويجعلها كالحارسَة للإرادة ما تزال تمرُّ بها وتتعدها بين الساعة والساعة^(١) .

إنما الظاهر والباطن كالموج والساحل ؛ فإذا جُرَّ الموج فلن يَضِيرَه ما بقي الساحل ركيناً هادئاً مشدوداً بأغصانه في طبقات الأرض . أمّا إذا ماج الساحل . . . فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأعاصير ؛ ولا جَرَم ألا يكون إلا خَسفاً بالأرض والماء وما يتصل بهما .

* * *

في الكون أصل لا يتغير ولا يتبدل ، هو قانون ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة . ويقابلُه في الإنسان قانون مثله لا بد منه لضبط معاني الإنسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكل فروض الدين الإسلامي وواجباته وآدابه ، إن هي إلا حركة هذا القانون في عمله ؛ فما تلك إلا طُرُق ثابتة لِخَلْقِ الجِسِّ الأدبي ، وتثبيته بالتكرار ، وإدخاله في ناموس طبيعي بإجرائه في الأنفس مجرى العادة ، وجعله بكل ذلك قوة في باطنها ، فتسمى الواجبات والآداب فروضاً دينية ؛ وما هي في الواقع إلا عناصر تكوين النفس العالية ، وتكون أوامر وهي حقائق^(٢) .

(١) فصلنا هذا المعنى في كثير من مقالاتنا : كمقالة (حقيقة المسلم) ، و(فلسفة الصوم) وغيرها .

(٢) هذا هو الذي ضل عنه مصطفى كمال ومن شايعوه ، ومن قلدوه ، ومن انخدعوا فيه ، ولو .

ومن ذلك أرانا نحن الشرقيين - نمتازُ على الأوروبيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون؛ ففي أنفسنا ضوابطٌ قويَّةٌ متينةٌ إذا نحنُ أقرزنا مدنيَّتهم فيها - وهي بطبيعتها لا تقبلُ إلا محاسنَ هذه المدينة - سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا في وجوههم، وكنا الطبقةَ المُصفاةَ التي يُشُدُّونها في إنسانيَّتهم الراهنة ولا يجدونها، ونبْتَازُ عنهم من جهةٍ أخرى بأننا لم نُنشِءْ هذه المدينةَ ولم نُنشِئنا، فليس حقاً علينا أن نأخذَ سيئاتها في حسناتها، وحماقها في حكمتها، وتزويرها في حقيقتها؛ وأن نُسيغَ منها الحُلوةَ والمُرَّةَ، والناضجةَ والفجةَ؛ وإنما نحن نُحَصِّلُها ونقتبسُها ونرتجِعُ منها الرُجعةَ الحسنةَ؛ فلا نأخذُ إلا الشيءَ الصالحَ مكانَ الشيءِ قد كان دونهُ عندنا ونَدَعُ ما سوى ذلك؛ ثُمَّ لا نأخذُ ولا نَدَعُ إلا على الأصولِ الضابطةِ المحكمةِ في أدياننا وآدابنا؛ ولسنا مثلهم متصلينَ من حاضرِ مدنيَّتهم بمثلِ ماضيهم، بيدَ أن العَجَبَ الذي ما يفرغُ عَجبي منه، أن الموسومينَ مِنَّا بالتجديدِ لا يُحاولونَ أولَ وَهْلَةٍ وأخرها إلا هدمَ تلك الضوابطِ التي هي كُلُّ ما نمتازُ به، والتي هي كذلك كُلُّ ما تحتاجُ إليه أوروبا لِضبطِ مدنيَّتها؛ ويسمونَ ذلك تجديداً، ولهُوَ بِأَن يسمَى حماقةً وجَهلاً أولى وأحقَّ.

أقولُ ولا أبالي: إننا ابتلينا في نهضتنا هذه بقومٍ مِنَ المترجمينَ قد احترقوا النقلُ من لغاتِ أوروبا، ولا عقلُ إلا عقلُ ما ينقلونه: فَصَنَعَتْهُمْ الترجمةُ من حيث يدرون أو لا يدرون صنعةً تقليديَ مَخْضٍ وَمُتَابَعَةٍ مُسْتَعْبِدةٍ، وأصبحَ عقلُهم - بحكم العادة والطبيعة - إذا فُكِّرَ انجذَبَ إلى ذلك الأصلِ لا يخرجُ عليه ولا يتحوَّلُ عنه. وإذا صَحَّ أن أعمالنا هي التي نَعْمَلُنا - كما يقولُ بعضُ الحكماءِ - فهم بذلك خَطَرُ أي خطرٍ على الشعبِ وقوميتهِ وذاتيتهِ وخصائصه، ويُوْشِكُ إذا هو أطاعهم إلى كُلِّ ما يدعونُ إليه أن... أن يترجموه إلى شعبٍ آخر...



إن أوروبا ومدنيَّتها لا تُساوي عندنا شيئاً إلا بمقدارِ ما تُحقِّقَ فينا من اتساعِ الذاتيةِ بعلموها وفنونها، فإنما الذاتيةُ وحدها هي أساسُ قوتنا في النزاعِ العالميِّ بكلِّ مظاهره أيها كان؛ ولها وحدها، وباعتبارِ منها دونَ سواها، نأخذُ ما نأخذُه من مدينةِ أوروبا ونُهْمِلُ ما نُهْمِلُ؛ ولا يجوزُ أن نتركَ الثَبْتَ في هذا ولا أن نتسامَحَ في دقةِ المحاسبةِ عليه.

= فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الإسلامي كله، ولكن الرجل غريب عن هذه المعاني
قصير النظر، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة...!

فالمحافظة على الضوابط الإنسانية القويّة التي هي مظاهر الأديان فينا، ثمّ إدخال الواجبات الاجتماعيّة الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته، ثمّ تنسيق مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط، ثمّ العمل على اتحاد المشاعر وتمازجها لتقويم هذا المظهر الشعبي في جملته بتقويم أجزائه - هذه هي الأركان الأربعة التي لا يقوم على غيرها بناء الشرق.

والإلحاد والنزعات السافلة وتخانيث المدنيّة الأوروبيّة التي لا عمل لها إلا أن تُظهر الخطر في أجمل أشكاله... ثمّ الجهل بعلوم القوّة الحديثة وبأصول التدبير وجباطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى، ثمّ التدليس على الأمة بآراء المُقلّدين والزائفين والمستعمرين لِمَحَقِ الأخلاق الشعبيّة القويّة وما اتّصل بذلك، ثمّ التخاذل والشقاق وتدابر الطوائف وما كان بسبيلها - تلك هي المعاول الأربعة التي لا يهدم غيرها بناء الشرق.

فليكن دائماً شعارنا - نحن الشرقيين - هذه الكلمة: أخلاقنا قبل مدنيّتهم.

قُلْتُ لِنَفْسِي

(١) وقالت لي...

قُلْتُ لِنَفْسِي: ويحك يا نفس! ما لي أتحاملُ عليك؛ فإذا وفيت بما في وُعدِكَ أردتُ منك ما فوقهُ وكلفتُك أن تَسْعِي؛ فلا أزالُ أغيتُك من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه، وبعدَ الحَسَنِ فيما هو الأحسن؛ وما أنفكُ أجهدكُ كلُّما راجعَكَ النشاط، وأضنيكُ كلُّما ثابَّتِ القوَّة؛ فإن تَكُنْ لك همومٌ فأنا أكبرُها، وإذا ساوَرَتْكَ الأحزانُ فأكثرُها ممَّا أجلبُ عليك.

أنتِ يا نفسُ سائرةٌ على النُهج، وأنا اعتَصِفُ بك أريدُ الطيرَانَ لا السيرَ، وأبتغي عملَ الأعمارِ في عُمر، وأسْتَحْثُك من كُلِّ هَجْعَةٍ راحةٍ بفجرٍ تعبٍ جديد، وكأني لك زَمَنٌ يُعَادُ بعضُهُ بعضاً، فما يبرُحُ يَنْبِقُ عليك من ظلامٍ بنورٍ ومن نورٍ بظلامٍ؛ لِيَهَيِّئَ لَكَ القوَّةَ التي تمتدُّ بك في التاريخ من بعدُ، فتذهيبن حينَ تذهيبن ويعيشَ قلبُك في العالمِ سارياً بكلماتٍ أفراجه وأحزانه.

وقالت لي النفس: أما أنا فإنني معك ذاباً كالحبيبةِ الوفيَّةِ لِمَن تُحبُّه: ترى خضوعها أحياناً هو أحسنَ المقاومة؛ وأما أنتُ فإذا لم تكن تتعبُ ولا تزالُ تتعبُ فكيف تُريني أنك تتقدَّمُ ولا تزالُ تتقدَّمُ؟

ليستْ دُنياك يا صاحبي ما تجدهُ من غيرك، بل ما تُوجدهُ بنفسك؛ فإن لم تَرُدْ شيئاً على الدنيا كنتُ أنتَ زائداً على الدنيا؛ وإن لم تدعها أحسنَ ممَّا وجدتها فقد وجدتها وما وَجَدْتُكَ؛ وفي نفسك أولُ حدودِ دُنياك وآخرُ حدودِها. وقد تكونُ دنيا بعضِ الناس حانوتاً صغيراً، ودُنيا الآخرِ كالقريةِ المُلَمَّلَمَةِ^(٢)، ودنيا بعضهم كالمدينة

(١) كتبت في ساعة ضجر، من هذه الساعات الطارئة على الروح، يخيل للمرء فيها أنه هو وحده والعالم كله وحده؛ ذاك في وجود نفسه خاصة، والآخر في وجود الطبيعة كلها.

(٢) أي الصغيرة تقوم بالدور القليلة المجتمع.

الكبيرة؛ أما دنيا العظيم فقارةٌ بأكملها، وإذا انفرد امتدَّ في الدنيا فكان هو الدنيا.

والقوةُ يا صاحبي تغتذي بالتعبِ والمُعانة؛ فما عانيتَه اليومَ حركةٌ من جسمِكَ، أَلَيْتَهُ غداً في جسمِكَ قُوَّةٌ من قُوَى اللحم والدم. وساعةُ الراحة بعدَ أيامٍ من التعب، هي في لذَّتها كأيامٍ من الراحة بعدَ تعبٍ ساعة. وما أشبهَ الحيَّ في هذه الدنيا ووشكِ انقطاعه منها، بَمَنْ خُلِقَ ليعيشَ ثلاثةَ أيامٍ معدودةٍ عليه ساعتها ودقائقها وثوانها؛ أَفَتَرَاهُ يَغْفُلُ فَيَقْدُرُها ثلاثةَ أعوامٍ، ويذهبُ يَسْرِفُ فيها ضُروباً من لَهْوِهِ ولَبِيبِهِ ومُجونِهِ، إلَّا إذا كان أحمقَ أحمقَ إلى نهايةِ الحُفَق؟

اتعبَ تعبَكَ يا صاحبي، ففي الناسِ تعبٌ مخلوقٌ من عمله، فهو لَيِّنٌ هَيِّنٌ مُسَوًى تسويةً؛ وفيهم تعبٌ خالقٌ عمله، فهو جَبَّارٌ متمردٌ لَهُ القَهْرُ والغَلَبَةُ. وأنتَ إنَّما تكذبُ لتسموَ بروجِكَ إلى همومِ الحقيقةِ العاليةِ، وتسموَ بجسمِكَ إلى مشقاتِ الرُّوحِ العظيمةِ؛ فذلك يا صاحبي ليس تعباً في حَفْرِ الأرضِ، ولكنَّه تعبٌ في حَفْرِ الكثرِ.

اتعبَ يا صاحبي تعبَكَ؛ فَإِنَّ عَناءَ الرُّوحِ هو عُمرُها؛ فأعمالكُ عُمرُكَ الرُّوحانيُّ، كعمرِ الجسمِ للجسمِ؛ وأحدُ هذينَ عُمرُ ما يعيشُ، والآخرُ عُمرُ ما سيعيشُ.



قلْتُ لِنَفْسِي: فقد مللْتُ أشياءَ وتبرئتُ بأشياءَ. وإنَّ عَمَلَ التَّغْيِيرِ في الدنيا لَهُوَ هَذَمُ لها كلُّما بُنِيَتْ، ثم بناؤها كلُّما هُدِمَتْ؛ فما من شيءٍ إلَّا هو قائمٌ في الساعةِ الواحدةِ بصورتينِ معاً؛ وكم من صديقٍ خلطتُهُ بالنفسِ يذهبُ فيها ذهابَ الماءِ في الماءِ، حتى إذا مرَّ يومٌ، أو عَهْدٌ كاليومِ، رأيتُ في مكانه إنساناً خيالياً كمسألةٍ من مسائلِ الثُّحاةِ فيها قولان...! فهو يَحْتَمِلُ في وقتٍ واحدٍ تأويلَ ما أَظُنُّ به من خيرٍ، وما أتوقَّعُ به من شرٍّ! وكم مِن اسمٍ جميلٍ إذا هَجَسَ في خاطري قلتُ: آه، هذا الذي كان...!

أما - والله - إنَّ ثيابَ الناسِ لتجعلُهُم أَكثَرَ تشابهاً في رأيِ النفسِ، ممَّا تجعلُهُم وجوهُهُم التي لا تختلفُ في رأيِ العينِ: وإني لأرى العالمَ أحياناً كالقِطَارِ السريعِ منطلقاً بَرَجِّهِ وليس فيه مَنْ يقودُه، وأرى الغفلةَ المُفْرِطَةَ قد بلغتْ من هذا النَّاسِ مبلغَ مَنْ يظنُّ أَنَّهُ حيٌّ في الحياةِ كالموظَّفِ تحتَ التجربةِ، فإذا قَضَى المدةَ قيلَ له: أيدأ من الآن. كأنَّه إذا عاشَ يتعلَّمُ الخيرَ والشرَّ، ويدركُ ما يَصْلُحُ وما لا يَصْلُحُ، وانتهى من عمرِهِ إلى النهايةِ المحدودةِ - رَجَعَ من بعدها يعيشُ منتظماً على استواءٍ واستقامةٍ، وفي إدراكٍ وتمييزٍ. مع أنَّ الخرافةَ نفسُها لم تقبل قطَّ أنْ يُعَدَّ منها

في أوام الحياة أَنْ رجلاً بلغ الثمانينَ أو التسعينَ وحانَ أجلُهُ فأصبحوا لم يجدوه ميتاً في فراشه؛ بل وجدوه مولوداً في فراشه...!

وقالت لي النفس: وأنت ما شألك بالناس والعالم؟ يا هذا ليس ليصبح الطريق أن يقول: «إن الطريق مظلم». إنما قوله إذا أراد كلاً أن يقول: «ها أنذا مُضي».

والحكيم لا يَضْجُر ولا يَضِيْق ولا يَتَمَلَّل، كما أنه لا يَنْخَف ولا يَطِيش ولا يَسْتَرْيِل في كَذِب الوهم؛ فإن هذا كله أثر الحياة البهيمية في هذه البهيمة الإنسانية، لا أثر الروح القوية في إنسانها. والحيوان هو الذي يجوع ويشبع لا النفس. وبين كل شيتين مما يَغْتَوِر الحيوانية - كالخلو والامتلاء، واللذة والألم - تعمل قوى الحيوان أشياءها الكثيرة التي تتسلط بها على النفس، لتخطفها من مرتبة إلى أن تجعلها كنفوس الحيوان؛ ولهذا كان أول الحكمة ضبط الأدوات الحيوانية في الجسم، كما توضع اليد العالمة على مفاتيح القطار المنطلق يَسْعُر مِرْجَلُهُ ويغلي.

إعمل يا صاحبي عملك؛ فإذا رأيت في العاملين مَنْ يَضْجُر فلا تضجر مثله، بل خذ اطمئنائه إلى اطمئنايك، ودعه يخلو وتضاعف أنت.

إنه ليوشك أن يكون في الناس ناس (كالبُنوك)؛ هذه مُسْتَوْدَعَاتٍ لِلْمَالِ تحفظه وتُخْرِج منه وتُكْرِمه، وتلك مستودعاتٍ لِلْفَضَائِلِ تحفظها وتخرج منها وتزيدُها. وإفلاس رجل من أهل المال، هو إطلاق النكبة مُسَدِّسها على رجل تقتله؛ ولكن إفلاس (بنك) هو إطلاق النكبة مِدْقَعها الكبير على مدينة تدمرها.



قلتُ لِنفسي: فما أشدَّ الألم في تحويل هذا الجسد إلى شبه روح مع الروح! تلك هي المعجزة التي لا توجد في غير الأنبياء، ولكن العمل لها يجعلها كأنها موجودة. والأسد المحبوس محبوس في قوته وطباعه؛ فإن زال الوجود الحديدي من حوله أو هنت ناحية منه، انطلق الوحش. والرجل الفاضل فاضل ما دام في قفصه الفكري، وهو ما دام في هذا القفص فعليه أن يكون دائماً نموذجاً معروضاً للتنقيح الممكن في النفس الإنسانية: تُصَيِّبُ السيئة من الناس لِتُخَبِّر فيه الحسنة، وتبلوؤ الخيانة لِتَجِدَ الوفاء، وتكرؤه البُغْض لِيقابله بالحُب، وتأتيه اللعنة لِتَجِدَ المَغْفِرَة؛ وله قلب لا يتعب فيبلغ منزلة إلا ابتداء التعب ليبلغ أعلى منها، وله فكر كلما جهد فادرك حقيقة كانت الحقيقة أن يجهد فيدرك غيرها.

وقالت لي النفس: إن مَنْ فاق الناس بنفسه الكبيرة كاث عظمته في أن يفوق

نفسه الكبيرة؛ إن الشيء النهائي لا يوجد إلا في الصغائر والشر، أما الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسمى، فهذه حقائق أزلية وجدت لنفسها: كالهواء يتنفسه كل الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهي، ولا يُعرف أين ينتهي؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الأرض يشبه أن تكون تلك الصفات منبعثة إلى النفوس من أنوار الملائكة، وبهذا كان أكبر الناس حظاً منها هم الأنبياء المتصلين بتلك الأنوار.

ومن رحمة الله أن جعل في كل النفوس الإنسانية أصلاً صغيراً يجمع فكرة الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسمى، وقد تعظم فيه هذه الصفات كلها أو بعضها، وقد تصغر فيه بعضها أو كلها: ألا وهو الحب.

لا بد أن تمر كل حياة إنسانية في نوع من أنواع الحب؛ من رقة النفس ورحمتها، إلى هوى النفس وعشقها.

وإذا بلغ الحب أن يكون عشقاً، وضع يده على المفاتيح العصبية للنفس، وفتح للعظام والمعجزات أبوابها؛ حتى أنه ليجعل الخرافة الفارغة معجزة دقيقة، ويملاً الحياة بمعانٍ لم تكن فيها من قبل، ويصبح سر هذا الحب لا ينتهي؛ إذ هو سر لا يُدرك ولا يُعرف.

إجهد جهدك يا صاحبي، فما هو قفصك الفكري ذلك الشعاع الذي يحبسك، ولكنه صقل النفس ليتلقى الأنوار، ولا بد للمرأة من ظاهر غير ظاهر الحجب لتكون به مرآة.



قلتُ لنفسِي: فما أشدُّه مضضاً أعانيه! إن أمري ليذهب فرطاً^(١). أكلماً ابتغيت من الحياة مراحاً طرب له واهتز، جاءني الحياة بفكرة استكبد فيها وأدب؟ أهذا السرور الذي لا يزال يقع بين الناس هو الذي لا يكاد يقع لي؟ وهل أنا شجرة في مغربها: تنمو صاعدة بفروعها، ونازلة بجذورها، غير أنها لا تبرح مكانها؟ أو أنا يمثال على قاعدته: لا يتزحزح عنها إلا ساعة لا يكون يمثالاً، ولا يدعها حتى تدعها معاني العظمة التي نصبت لها؟

قالت لي النفس: ويحك! لا تطلب في كونك الصغير ما ليس فيه؛ إن الناس لو ارتفعوا إلى السماء وتقلبوا فيها كما يسبح أهل قارّة من الأرض في قارّة غيرها،

(١) أي مجاوزاً فيه عن الحد.

وَابْتَغُوا أَنْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ مِمَّا هُنَاكَ تَذْكَارًا صَغِيرًا إِلَى الْأَرْضِ - لَوْجِدُوا أَصْغَرَ مَا هُنَاكَ أَكْبَرَ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا؛ فَأَنْتَ سَانِعٌ فِي سَمَاوَاتِ.

أَنْتَ كَالنَّاسِ: لَهُ أَنْ يَرَى وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِمَّا يَرَى إِلَّا وَضَعَهُ، وَحِكْمَتَهُ، وَالسَّرُورَ بِمَا التَّذَمُّنَةُ، وَالْأَلَمَ بِمَا تَوَجَّعَ لَهُ.

لَنْ تَكُونَ فِي الْأَرْضِ شَجَرَةً يَرْجُلِينَ تَذْهَبُ هُنَا وَهُنَا، وَلَكِنْ الشَّجَرَةَ تُرْسَلُ أَثْمَارَهَا يَتَنَاقَلُهَا النَّاسُ، وَهِيَ تُبْدِعُ الثَّمَارَ إِبْدَاعَ الْمُؤَلِّفِ الْعَبْقَرِيِّ مَا يُؤَلِّفُهُ بِأَشَدِّ الْكَدِّ وَأَعْظَمِ الْجَهْدِ، مُطْلَقَةً ضَمِيرَهَا فِي الْفِكْرَةِ الصَّغِيرَةِ، تَعْقِدُهَا شَيْئًا شَيْئًا، ثُمَّ تَعُودُ عَلَيْهَا بِالزِّيَادَةِ، وَلَا تَزَالُ كُلَّ وَقْتٍ تَعُودُ عَلَيْهَا حَتَّى تَسْتَفْرِغَ أَقْصَى الْقُوَّةِ؛ ثُمَّ يَكُونُ سُرُورُهَا فِي أَنْ تَهَبَ فَاثِدَتَهَا، لِأَنَّهَا لِذَلِكَ وَجِدَتْ.

إِنَّ فِي الشَّجَرَةِ طَبِيعَةً صَادِقَةً لَا شَهْوَةَ مَكْذُوبَةً؛ فَالْحَيَاةُ فِيهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ الْحَيَاةُ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى مَجَازِهَا؛ وَشَرَطُ الْمَجَازِ الْخَيَالُ وَالْمِبَالِغَةُ وَالتَّلْوِينُ؛ وَلَكِنْ مَتَى اخْتَارَ اللَّهُ رَجُلًا فَأَقَرَّ فِيهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ الصَّادِقَةِ، وَوَهَبَ لَهُ الْعَاطِفَةَ الْقَادِرَةَ الَّتِي تَصْنَعُ ثِمَارَهَا - فَقَدْ غَرَسَهُ شَجَرَةً فِي مَنَئِبَتِهَا لَا مَفْرُ وَلَا مُنْذَوخةً، وَقَدْ يُخَيَّلُ لَهُ ضَعْفُ طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ أحيانًا أَنْ تُضَرَّ الْمَجِيدُ الَّتِي تَعْلُوهُ وَتَتَأَلَّقُ كَشَعَاعِ الْكَوْكَبِ، هِيَ تَعْبُهُ وَضَجْرُهُ، أَوْ أَثَرُ انْخِذَالِهِ وَأَلْبِهِ وَمَسْكَنَتِهِ؛ وَهَذَا مِنْ شَقَاءِ الْعَقْلِ؛ فَإِنَّهُ دَائِمًا يُضَيِّفُ شَيْئًا إِلَى شَيْءٍ، وَيُخْلِطُ مَعْنَى بِمَعْنَى، وَلَا يَتْرَكُ حَقِيقَةً عَلَى مَا هِيَ؛ كَأَنْ فِيهِ مَا فِي الطِّفْلِ مِنْ غَرِيزَةِ التَّقْلِيدِ؛ وَالْعَقْلُ لَا يَرَى أَمَانَةً إِلَّا الْإِلَهِيَّةَ، فَهُوَ يُقْلِدُهَا فِي مَذَاخِلَةِ الْأَشْيَاءِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، لِإِيجَادِ الْأَسْرَارِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ.

وَمَنْ ثَمَّ كَانَتْ الْحَقِيقَةُ الصَّرِيحَةُ الثَّابِتَةُ مَذْعَاةً لِلْمَلَلِ الْعَقْلِيِّ فِي الْإِنْسَانِ، لَا يَكَادُ يُقِيمُ عَلَيْهَا أَوْ يَتَّقِدُّ بِهَا، فَمَا نَالَ شَيْئًا إِلَّا لِيَطْمَعُ فِي غَيْرِهِ، وَمَا فَازَ بِلَذَّةٍ إِلَّا لِيَزْهَدَ فِيهَا، وَأَجَلَ مَا أَحْبَبَهُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَنَالَهُ، فَإِذَا نَالَهُ وَقَعَ فِيهِ مَعْنَى مَوْتِهِ، وَبَدَأَ فِي النَّفْسِ عُمرًا آخَرَ مِنْ حَالَةٍ أُخْرَى، أَوْ مَاتَ وَلَمْ يَبْدَأْ؛ فَلَا بَدْءَ لِهَذَا الْإِنْسَانِ مَعَ كُلِّ صَوَابٍ مِنْ جِزْمٍ مِنَ الْخَطَا، فَإِنَّ هُوَ لَمْ يَجِدْ خَطَأً فِي شَيْءٍ اثْتَفَكَ لِنَفْسِهِ^(١) الْخَطَا الْمُضْحَكُ فِي شِبْهِ رَوَايَةِ خَيَالِيَّةٍ.

إِنَّهُ لَشِعْرٌ سَخِيفٌ بِالْغُ السَخَافَةِ أَنْ يُتَخَيَّلَ الْغَرِيقُ مَفْكَرًا فِي صَيِّدِ سَمَكَةٍ

(١) كَذِبٌ وَاخْتَرَعُ، وَمِنْهُ حَدِيثُ الْإِفْكَ.

رآها... ولكن هذا من أبلغ البلاغة عند العقل الذي يبحث عن وهم يُضيفه إلى هذه الحقيقة ليضحك منها، كما يبحث لنفسه أحياناً في أجمل حقائق أللذة عن ألم يتألم به ليتغنى فيه!

* * *

قلتُ لنفسِي: فهل ينبغي لي أن أحرّق دمي لإثني أفكر، وهل أظل دائماً بهذا التفكير كالذي ينظر في وجه حسناء بمنظار مكبر: لا يريه ذلك الوجه المعشوق إلا نقوباً وتخريماً كأنه خشبة تُزعت منها مسامير غليظة...! فلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال؟ وهل بُد من الشبه بين بعض الناس وبين ما ارتصد له من عمل يحيا به؟ فلا يكون الخوذي خوذيًا إلا لشبهه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير...؟

وقالت لي النفس: إن فأس الخطاب لا تكون من أداة الطبيب؛ فخذ لكل شيء أداؤه، وكُن جاهلاً أحياناً، ولكن مثل الجهل الذي يَضَع لوجه الطفل بشاشته الدائمة؛ فهذا الجهل هو أكبر عِلْم الشعور الدقيق المرفف، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غماً وكمدًا، ولكانوا في هذا الوجود، على هذه الأرض، بين هذه الحقائق - كالذي قُيّد وحسّ في رَهج ثيَره القَدَم والخُف والحافر: لا يتنفس إلا الغبار يثار من حوله إلى أن يُقضى عليه.

إجهل جهلك يا صاحبي في هذه الشهوات الخسيسة؛ فإنها العِلْم الخبيث الذي يُفسد الروح، واعرف كيف تقول لِرُوحك الطُفلة في ملائكتيها حين تُساوِرُك الشهوات: هذا ليس لي؛ هذا لا ينبغي لي.

إن الروح الكبيرة هي في حقيقتها الطفل الملائكي.

وعِلْم خسائس الحياة يجعل للإنسان في كل خسيّة نفساً تتعلّق بها، فيكون المسكين بين نفسين وثلاث وأربع، إلى ثلاثين وأربعين كلهن يتنازعن، فيضيق بهذه الكثرة، ويصبح بعضه بلاء على بعض، وتشتغل الفضول، فيعود لها كالمزبلة لما ألقي فيها، ويُمتحَق في نفسه الطبيعية جس الفرج بجمال الطبيعة، كما يُمتحَق في المزبلة معنى النظافة ومعنى الجس بها.

هذه الأنفس الخيالية في هذا الإنسان المنكود، هي الأرواح التي يُنفخها في مصائبه، فتجعلها مصائب حيّة تعيش في وجوده وتعمل فيه أعمالها، ولولاها لماتت في نفسه مطاعم كثيرة، فماتت له مصائب كثيرة.

انظر بالروح الشاعرة، تَرِ الكونَ كُلَّهُ في سَمَائِهِ وأَرْضِهِ انسجاماً واحداً ليس فيه إلا الجمالُ والسحرُ وفتنةُ الطُّربِ، وانظر بالعقلِ العالمِ، فلنَ تَرى في الكونِ كُلِّهِ إلا موادَّ عِلْمِ الطبيعة والكيمياء .

ومَدَى الروحِ جمالُ الكونِ كُلِّهِ؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حَجَرٍ، أو عَظْمةٌ من حيوانٍ، أو نَسِيجَةٌ من نباتٍ، أو فِلْدَةٌ من معدنٍ، وما أَشَبَّهَا .

إِجْهَلْ جَهْلَكَ يا صاحبي؛ ففي كُلِّ حُسْنٍ عَزَلٌ بشرطِ ألا تكونَ العاشقُ الطامعُ، وإلا أَصَبْتَ في كُلِّ حَسَنِ هَمًّا ومَشْغَلَةٍ... !

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي: إلى الآنَ لم أَقُلْ لَكَ ذلكَ المعنى الذي كَتَمْتَهُ عَنْكَ .

وقالتْ لِي النفسُ: وإلى الآنَ لم أَقُلْ لَكَ إلا جوابَ ذلكَ الذي كَتَمْتَهُ عَنِّي . .

الانتحار (*)

(١)

حَدَّثَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ الْكُوفِيُّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، وَمَعِيَ سَعِيدُ بْنُ عَثْمَانَ، وَمُجَاهِدٌ، وَدَاوُدُ الْأَزْدِيُّ وَجَمَاعَةٌ - أَقْبَلَ فَتَى فَجَلَسَ قَرِيبًا مِنَّا، وَكَانَ تَلْقَاءَ وَجْهِي؛ لَا أُمْدُ نَظَرِي إِلَّا انْطَلَقَ فِي سَمْتِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ فَرَأَيْنَهُ يَتَسَمَّعُ إِلَى حَدِيثِنَا؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيدٌ - وَكَانَ خَافَتِ الصَّوْتِ مِنْ عِلَّةٍ بِهِ، وَكُنَّا نُسَمِّيهِ النَّمْلَةَ الصُّخَابَةَ - رَأَيْتُ الْفَتَى يَتَزَخَّفُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ يَقَعُ فِي سَمَاعِهِ حَبِيسٌ نَمْلَتِنَا.

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ: اجْتَزْتُ أَنَا وَالشَّعْبِيُّ^(١) أَمْسَ بِعَمْرَانَ الْخِطَاطِ، فَمَارَزَهُ الشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ: عِنْدَنَا جَبٌ^(٢) مَكْسُورٌ، تَخِيطُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خِيطٌ مِنْ رِيحٍ! فَقُلْتُ أَنَا: فَاهْذَبْ فِجْتَنَّا بِالْمِغْزَلِ الَّذِي يَغْزِلُ الْهَوَاءَ لِنَصْنَعَ لَكَ الْخِيطَ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي تَنَادُرِ شَيْخِنَا وَمَا يَتَّقُ لَهُ؛ أَخْبَرَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فِي مَسْأَلَةٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ امْرَأَتِهِ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَيُّكُمَا الشَّعْبِيُّ...؟ فَأَوْمَأَ الشَّيْخُ إِلَى امْرَأَتِهِ وَقَالَ: هَذِهِ...!

قَالَ الْمُسَيَّبُ: وَضَحَكُنَا جَمِيعًا، وَأَخَذَ نَظَرِي الْغَلَامَ فَإِذَا هُوَ نَاكِسٌ حَزَنًا وَهَمًّا، وَكَأَنَّهُ لَا يَتَسَمَّعُ إِلَيْنَا لِيَسْمَعَ، بَلْ لِيَشْغَلَ نَفْسَهُ عَنْ شَيْءٍ فِيهَا، فَتَتَوَزَّعُ خَوَاطِرُهُ، فَيَتَبَدَّدُ اجْتِمَاعُهَا عَلَى هَمِّهِ بِصَوْتٍ مِنْ هُنَا وَصَوْتٍ مِنْ هُنَا، كَمَا يَفْعَلُ

(*) انظر سبب إنشائه هذه المقالات الست في «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

(١) هو الإمام العظيم (عامر بن شراحيل الشعبي) توفي سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها. عن بضعة وثمانين سنة، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الإسلام: سعيد بن المسيب في المدينة (ذكرناه في قصة زواج)، والحسن البصري في البصرة (ذكرناه في قصة: بنته الصغيرة)، ومكحول في الشام، والشعبي هذا في الكوفة. وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه.

(٢) الحب (بكسر الحاء): هو الزبر، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً، ويقال لرشحه: قطر حب.

المحزون في مغالبة الحزن ومُدافَعته: يَشْغُلُ عَنْهُ بَصَرُهُ وَقَلْبُهُ وَسَمْعُهُ جَمِيعاً، فَيَكُونُ الْحَزْنُ فِيهِ وَكَأَنَّهُ بَعِيدٌ مِنْهُ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَمْرٌ أَمَاتَ الضَّحْكَ فِي هَذَا الْفَتَى وَكَسَرَ جَدَّتَهُ وَشَبَابَهُ. ثُمَّ تَحَوَّلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: رَأَيْتُكَ يَا بَنِي مُقْبِلاً عَلَيْنَا كَالْمَنْصَرِفِ عَنَّا؛ فَمَا بِأَنَّكَ لَمْ تَضْحَكْ وَقَدْ ضَحَكْنَا جَمِيعاً؟

قال: إِلَيْكَ عَنِّي يَا هَذَا؛ فَأَيُّ مَنِي الضَّحْكَ وَأَنَا عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ، وَرُوحُ التُّرَابِ مَالِيَّةٌ عَيْنِي فِي كُلِّ مَا أَرَى، وَكَأَنَّ خُفْرَتِي ابْتَلَعَتِ الدُّنْيَا الَّتِي أَنَا فِيهَا لِتَأْخُذَنِي فِيهَا، وَأَنَا السَّاعَةُ مَيِّتٌ حَيٌّ؛ رَجُلٌ فِي الدُّنْيَا وَرَجُلٌ فِي الْآخِرَةِ!

قُلْتُ: فَأَعْلَمْنِي مَا بِكَ يَا بَنِي، فَلَقَدْ احْتَسَبْتُ وَلَدًا لِي كَانَ فِي مِثْلِ سِنَّكَ وَشَبَابِكَ وَلَمْ أَرِزُقْ غَيْرَهُ، فَقَلْبِي بَعْدَهُ مَرِيضٌ بِهِ، يَتَوَسَّمُهُ مُفَرَّقًا فِي لِدَائِهِ، مُتَوَقِّعًا أَنَّ وَجُوهُهُمْ تَجْمَعُهُ بِمَلَامِحِهِ؛ فَأَنَا مِنْ ذَلِكَ أَحْبَبْتُهُمْ جَمِيعاً وَأَطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْهِمْ وَالتَّأَمُّلُ فِي وَجُوهِهِمْ، وَلَسْتُ أَرَى أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا كَانَ لَهُ وَلِقَلْبِي حَدِيثٌ! فَإِنَّ رَأْيَتَهُ حَزِينًا مِثْلَكَ تَقَطَّعَتْ لَهُ مِنْ إِشْفَاقٍ وَرَحْمَةٍ، وَطَالَغَنِي فَتَايَ فِي مِثْلِ هُمِّهِ وَحَزْنِهِ وَانْكَسَارِهِ؛ فَيَعُودُ قَلْبِي كَالْعَيْنِ الَّتِي غَشَّاهَا الدَّمْعُ، تَحْمِلُ أَثَرَ الْحَزْنِ وَمَعْنَاهُ وَسْرَهُ؛ فَيُبْنِي مَا تَجِدُ يَا بَنِي، فَلَعَلَّ لِي سَبَبًا إِلَى كَشْفِ ضُرِّكَ أَوْ إِسْعَافِكَ بِحَاجَتِكَ؛ وَلَعَلَّكَ تَكُونُ قَدْ حَزَنْتَ مِنْ أَمْرِ قَرِيبٍ الْمُتَاوَلِ هُنَّ الْمَحَاوَلَةُ، لَمْ يَجْعَلْهُ عِنْدَكَ كَبِيرًا أَنَّهُ كَبِيرٌ، وَلَكِنْ أَنَّكَ أَنْتَ صَغِيرٌ.

قال الفتى: مَهْلًا يَا عَمِّ، فَإِنَّ مَا نَزَلَ بِنَا مِمَّا تَنْقَطِعُ عِنْدَهُ الْجِيلَةُ وَلَا تَنْقَادُ فِيهِ الْوَسَائِلُ، وَلَا عِلَاجَ مِنْهُ إِلَّا بِالْمَوْتِ يَأْخُذُنَا وَيَأْخُذُهُ!

قُلْتُ: يَا بَنِي، هَذِهِ كَلِمَةٌ مَا أَحْسَبُ أَحَدًا يَقُولُهَا إِلَّا مِنْ أَجْدَلِ الْقَتْلِ بِجَنَائِيهِ وَلَمْ يَعْفُ أَهْلُ الدَّمِّ، فَهَلْ جَنَيْتَ أَوْ جَنَى أَبُوكَ عَلَى أَحَدٍ؟

قال: إِنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ، فَإِنِّي تَرَكْتُ أَبِي السَّاعَةَ مُجْمِعاً عَلَى إِزْهَاقِ نَفْسِهِ، وَقَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ الدَّارَ وَاسْتَوَثَّقَ مِنَ الْبَابِ!

قال المسيَّب: فَكَأَنَّمَا لَدَغْتَنِي حَيَّةٌ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَكْبِرْتُ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَقْتُلُ نَفْسَهُ: فَتَنَاهَضْتُ، وَلَكِنَّ الْغُلَامَ أَمْسَكَ بِي وَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا، وَسَيَقْتُلُ نَفْسَهُ مَتَى أَظْلَمَ اللَّيْلُ وَهَذَاتِ الرَّجُلِ.

قُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِنَّ فِي النُّورِ عَقْلًا، وَلَكِنْ مَا الَّذِي صَارَ بِهِ إِلَى مَا قُلْتُ، وَكَيْفَ تَرَكْتَهُ لِقَدَرِهِ وَجِئْتُ؟

قال الفتى: إِنَّهُ قَالَ لِي: يَا وَلَدِي، لَيْسَ لَكَ أَبٌ بَعْدِي؛ فَإِنَّ أَرْضَتِ

اللاحق بي فارجع مع الليل لئسليم أنفسنا، وإن أثرت الحياة فارجع مع الصبح
لئسليمني إلى غاسلي!

قلت: أفأمن أنت ألا يكون أبوك قد أخرجك عنه لأن عينك تُمسيك يده
وتردّه عما يهّم به، حتى إذا خلا وجهه منك أزهق نفسه؟

قال: لم أدعه حتى أقسم أن يحيا إلى الليل، وحتى أقسمت أن أرجع لأموت
معه؛ فإن لم تُمسكه يمينه أمسكه انتظاري، وقد فرغت الحياة منا فلم يبق إلا أن نفرغ
منها؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه، لم ير الناس من نفسه ضعة
ولا استكائة؛ وإنما خرجت لأسأل هذا الإمام (الشعبي) وجهاً من الرأي فيمن يقتل
نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا، ونزلت به النازلات، وتعدّز القوت، واشتد الضر، وتدلّت
به المسكنة إلى خفيضاها، وألجىء إلى أحوال دقّة ذق الرّخي لما تدور عليه، ولم يعد
له إلا رأي واحد في معنى الدنيا: هو أنّه مكذوب مزور على الدنيا.

قلت: يا بني، فلأني أراك أديباً؛ فمن أبوك؟

قال: هو فلان التاجر، ظهر ظهور القمر ومجى محافه، وهو اليوم في أهلك
الليالي وأشدّها انطماساً؛ جهّذه الفقر، وبأ ليته كان الفقر وحده، بل انتهكته
العلل، وليتها لم تكن إلا العلل مع الفقر، بل أخذ الموت امرأته فماتت هما به
وبي، ولم يكن له غيري وغيرها، وكان كل من ثلاثينا يحيا للاثنين الآخرين، فهذا
ما كان يجعل كلاً منا لا يفرغ إلا امتلاً، ولما ذهب الأم ذهب الحقيقة التي كنا
نقاتل الأيام عنها، وكانت هي وحدها ثرينا الحياة بمعناها إن جاءتنا الحياة فارغة
من المعنى، وكنا من أجلها نفهم الأيام على أنّها مجاهدة البقاء؛ أما الآن فالحياة
عندنا قتل الحياة...!

قلت: يا بني، فلأنت - والله - مع أدبك لحكيم، وإنّي لأنفس بك على
الموت، فكيف ردّتك حياة أمك عن قتل نفسك ولا تردّك حياة أباك؟

قال: لو بقي أبي حيّاً لبقيت، ولكن الدهر قد انتزع منه آخر ما كان يملك
من أسباب القوة، حين أخذ القلب الشفيق الذي كان يجعله يرتعد إذا فكّر في
الموت؛ فهو الآن كالذي يُحارب عن نفسه تلقاء عدو لا يرحمه؛ إن عجز عن
عدوه فالرأي قتل نفسه ليسترخ من تنكيل العدو به.

قال المسيّب بن رافع: وأدركت أن الفتى يريد من سؤال الشيخ تحلة يطمنئ

إليها أن يموت مسلماً إذا قتل نفسه كالمضطّر أو المُكره؛ فاشْفَقْتُ أَنْ أَكْبِرَ نَفْسَهُ إِذَا أَنَا حَدَّثْتُهُ أَوْ أَفْتَيْتُهُ؛ وَقُلْتُ: هَذَا مَرِيضٌ يَحْتَاجُ الْعِلَاجَ لَا الْفُتْيَا؛ وَكَانَ إِمَامُنَا (الشَّعْبِيُّ) حَكِيمًا لِحِنَا قَطْنًا، سَفَرٌ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَبْدِ الْمَلِكِ) وَعَاهِلِ الرُّومِ، فَحَسَدْنَا الْعَاهِلَ أَنْ يَكُونَ فِينَا مِثْلُهُ. وَقُلْتُ: لَعَلَّ اللَّهَ يُحَدِّثُ بِهِ أَمْرًا. فَأَخَذْتُ بِيَدِ الْفَتَى إِلَيْهِ، وَمَشَيْتُ أَكَلِمَهُ وَأَرْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ. وَقُلْتُ لَهُ: أَنَا تَدْرِي أَنَّكَ حِينَ فَرَعْتَ مِنْ سُرُورِ الْحَيَاةِ فَرَعْتَ مِنْ غُرُورِهَا أَيْضًا، وَأَنَّ الزَّاهِدَ الْمُنْقَطِعَ فِي غُرْعَةِ الْجَبَلِ يَنْظُرُ مِنْ صَوْمَعَتِهِ إِلَى الدُّنْيَا، لَيْسَ بِأَحْكَمَ وَلَا أَبْصَرَ مِمَّنْ يَنْظُرُ مِنْ آلَايِهِ إِلَى الدُّنْيَا؟

يَا بَنِي: إِنَّ الزَّاهِدَ يَحْسِبُ أَنَّهُ قَدْ فَرَّ مِنَ الرِّذَالِ إِلَى فُضَائِلِهِ، وَلَكِنْ فِرَازُهُ مِنْ مُجَاهَدَةِ الرِّذِيلَةِ هُوَ فِي نَفْسِهِ رَذِيلَةٌ لِكُلِّ فُضَائِلِهِ. وَمَاذَا تَكُونُ الْعِفَّةُ وَالْأَمَانَةُ وَالصَّدَقُ وَالْوَفَاءُ وَالْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ وَغَيْرُهَا، إِذَا كَانَتْ فِيمَنْ انْقَطَعَ فِي صَحْرَاءٍ أَوْ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ؟ أَيْزَعِمُ أَحَدُ أَنْ الصَّدَقَ فَضِيلَةٌ فِي إِنْسَانٍ لَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا عَشْرَةُ أَحْجَارٍ؟ وَإَيْمُ اللَّهِ إِنَّ الْخَالِيَّ مِنْ مُجَاهَدَةِ الرِّذَالِ جَمِيعًا، لَهُوَ الْخَالِي مِنْ الْفُضَائِلِ جَمِيعًا!

يَا بَنِي: إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْتَارُهُمُ اللَّهُ فَيَكُونُونَ قَمَحَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ: يَنْثَبُونَ وَيُحْصِدُونَ وَيُطْعَمُونَ وَيُعَجَّبُونَ وَيُخْبَزُونَ، لِيَكُونُوا غَذَاءَ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي بَعْضِ فُضَائِلِهَا. وَمَا أَرَاكَ أَنْتَ وَأَبَاكَ إِلَّا مِنَ الْمُخْتَارِينَ، كَأَنَّ فِي أَعْرَاقِكُمَا دَمَ نَبِيٍّ يُقْتَلُ أَوْ يُضْلَبُ!

قَالَ الْمَسِيبُ: وَاتَّهِنَا إِلَى دَارِ الشَّعْبِيِّ، فَطَرَقْتُ الْبَابَ، وَجَاءَ الشَّيْخُ فَفَتَحَ لَنَا، وَسَلَّمْنَا وَسَلَّمْ، ثُمَّ بَدَزْتُ فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَمْرٍو، إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ مِنْ حَالِهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ، فَتَرَادَفَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ، وَتَوَالَتْ النِّكَبَاتُ، وَتَوَاتَرَتْ الْأَسْقَامُ... ثُمَّ اقْتَصَصْتُ مَا قَالَ ابْنُهُ حَرْفًا حَرْفًا، ثُمَّ قُلْتُ: وَإِنَّهُ الْآنَ مُوشِكُ أَنْ يُزْهِقَ نَفْسَهُ وَسَيَتَّبِعُهُ ابْنُهُ هَذَا؛ وَقَدْ (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ) فَجَاءَ يَسْأَلُكَ: أَيْمُوتُ مُسْلِمًا مِنْ الْجَبِيءِ وَأُخْرَةٍ وَاضْطَرَّ وَاسْتَقْصَاقَ وَاخْتَلَّ، فَتَحْسَى سُمًّا فَهَلْكَ أَوْ تَوَجَّأَ بِحَدِيدَةٍ فَقَضَى، أَوْ دَبَّحَ نَفْسَهُ بِنَضْلِ فَحَقَّتْ، أَوْ حَزَّ فِي يَدِهِ بِسَكِينٍ فَمَا رَقَا دَمُهُ حَتَّى مَاتَ، أَوْ اخْتَنَقَ فِي حَبْلِ فَفَاضَتْ نَفْسُهُ، أَوْ تَرَدَّى مِنْ شَاهِقٍ فَطَاحَ...!

وَأَدْرَكَ الشَّيْخُ مَعْنَى قَوْلِي: (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ)، وَمَعْنَى مَا أَكْثَرْتُ مِنَ الْأَلْفَافِ الْمَتْرَادِفَةِ عَلَى الْقَتْلِ وَمَا اسْتَقْصَيْتُ مِنْ وَجُوهِهِ؛ فَعَلِمَ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ الْفُتْيَا وَالنَّصْ، وَلَكِنِّي سَأَلْتُهُ الْحِكْمَةَ وَالسِّيَاسَةَ؛ فَقَالَ: هَذَا - وَاللَّهِ - رَجُلٌ كَرِيمٌ، أَخَذَتْهُ الْأَنْفَةُ وَغَزَتْهُ النَّفْسُ، وَمَا أَنَا السَّاعَةُ بِمَغْرَلٍ عَنْ هَمِّهِ، فَتَذَهَّبْ نَكَلَمُهُ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَمَشَيْتَا ثَلَاثَتَنَا، فَلَمَّا شَارَفْنَا الدَّارَ قَالَ الْفَتَى: إِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لِي إِذَا رَأَى كَمَا، وَرَبِّمَا

اسْتَفَرَّ بِنَفْسِهِ فَازْهَقَهَا، وَسَاسَوْزُ الْحَانِطُ وَأَتَدَلَّى ثُمَّ أَفْتَحَ لَكَمَا فَتَدَخُلَانِ وَأَنَا عِنْدَهُ.

ودخلنا، فإذا رجلٌ كالمرِيضِ من غير مرض، خَوَّازٌ مَسْلُوبٌ الْقُوَّةَ، انزَعَجَ قَلْبُهُ إِلَى الْمَوْتِ وَمَا بِهِ جُرْأَهُ، وَإِلَى الْحَيَاةِ وَمَا بِهِ قُوَّةٌ؛ وَصَفَّرَ إِلَيْهِ نَفْسَهُ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ فِي مَعَامِلَةِ النَّاسِ كَالدَّرْهِمِ الزَّائِفِ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، وَثَابَرَ عَلَيْهِ دَاءُ الْحُزَنِ فَاضْنَاهُ وَتَرَكَهُ رُوحًا تَتَقَعَّقُ فِي جِلْدِهَا، فَهِيَ تَهْمُ فِي لِحْظَةٍ أَنْ تَثْبُتَ وَتَتَدَلَّى.

وسَلَّمَ الشَّيْخُ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الرَّجُلِ، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفَرَقِ وَبَيْنَ الْبَآئِسِ الْأَلْبَاسِ وَالْزَّيْنِ الَّذِينَ سَدَّوْا وَأَوْثَقَ لَهُمُ الْمَنُكُونَ﴾» [البقرة: ١٧٧].

فَقَطَعَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ كَالْمَحْنَقِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، قَدْ صَبَرْنَا حَتَّى جَاءَ مَا لَا صَبَرَ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ خَلَوْنَا مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ كُلِّهِ، فَمَا نَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا لَفْظَةً وَاحِدَةً نَمْلِكُ مَعْنَاهَا، هِيَ أَنْ نَنْتَهِيَ!

وَمَدَّ الشَّيْخُ عَيْنَهُ فَرَأَى كُوزَ مَسْدُودَةٍ فِي الْجِدَارِ، فَقَالَ لِي: افْتَحْ هَذِهِ وَدَعْ الْهَوَاءَ يَتَكَلَّمُ مَعْنَا كَلَامِهِ. فَفَعَّمْتُ إِلَيْهَا فَعَالِجَتَهَا حَتَّى فَتَحَتْهَا، وَنَفَذَ مِنْهَا رَوْحُ الدُّنْيَا، وَقَالَ الشَّيْخُ لِلرَّجُلِ: أَصْبَحْ إِلَيَّ، فَإِذَا أَنَا فَرَعْتُ مِنَ الْكَلَامِ فَشَانَكَ بِنَفْسِكَ:

أَعْلَمْتُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ مَرَضَ، فَأَغْضَلُ مَرَضُهُ فَأَبَيْتُهُ عَلَى سِرِّهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا يَتَحَرَّكُ، وَطَوَى فِيهِ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ حَيًّا وَنَشَرَ مِنْهُ الرَّجُلُ الَّذِي سَيَكُونُ مَيِّتًا، فَبَقِيَ لَا حَيًّا وَلَا مَيِّتًا ثَلَاثِينَ سَنَةً...؟

قال الرجل: وفي الدنيا مَنْ يعيشُ على هذه الحالِ ثلاثين سنة؟

قال الشيخ: صَحَّحَ الْكَلَامَ وَاسْأَلْ. أَبْصِرْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَلَا يَقُولُ: (جاء ما لا صبرَ عليه) وَأَيُّ شَيْءٍ لَا صَبَرَ عَلَيْهِ عِنْدَ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الْبَلَاءَ مَالٌ غَيْرُ أَنَّهُ لَا يُوضَعُ فِي الْكَيْسِ بَلْ فِي الْجِسْمِ؟

أَفْتَدْرِي مَنْ كَانَ الصَّابِرَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَى بَلَاءِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ مُجْتَمِعِينَ فِي عِظَامٍ مُمَدَّدَةٍ عَلَى سِرِّيرِهَا؟ إِنَّهُ إِمَامُنَا (عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنِ الْخُزَاعِيِّ)^(١) الَّذِي أَرْسَلَهُ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ يُفَقِّهُ أَهْلَ الْبَصْرَةِ، وَتَوَلَّى قِضَاءَهَا، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَدِمَهَا خَيْرَ لِهِمْ مِنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ. وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَيْهِ أَنَا وَأَخُوهُ (العلاء)، فَرَأَيْنَاهُ مُثَبَّتًا عَلَى سِرِيرِ الْجَرِيدِ كَأَنَّمَا شُدَّ بِالْجِبَالِ وَمَا شُدَّ إِلَّا بِانْتِهَاكِ

(١) توفي سنة ٥٣ من الهجرة.

عَصِيهِ وَذَوْبَانٍ لِحِمِهِ وَوَقْنٍ عِظَامِهِ؛ فَبَكَى أَخُوهُ، فَقَالَ: لِمَ تَبْكِي؟ قَالَ: لِأَنِّي أَرَاكَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْعَظِيمَةِ؟ قَالَ: لَا تَبْكِي؛ فَإِنَّ أَحِبَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَحِبَّهُ إِلَيَّ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ تَحْمِلُ الْجِبَالَ فَلَا يَشْعُرُ مَوْضِعُ مِنْهَا بِالْجِبَلِ الْقَائِمِ عَلَيْهِ، إِذْ كَانَ تَمَاسُكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا قُوَّةَ الْجَمِيعِ، وَلَوْلَا هَذَا لَذُكَّ الْجِبَلُ مَوْضِعَهُ وَغَارَ بِهِ؛ وَكَذَلِكَ يَحْمِلُ الْمُؤْمِنُ مِثْلَ الْجِبَالِ مِنَ الْبَلَاءِ عَلَى أَعْضَائِهِ لَا يَنْكَسِرُ لَهَا وَلَا يَتَهَدَّمُ؛ إِذْ كَانَتْ قُوَّةُ رُوحِهِ قُوَّةً فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، فَالْبَلَاءُ مَحْمُولٌ عَلَى هِمَّةِ الرُّوحِ لَا عَلَى الْجِسْمِ، وَهَذَا مَعْنَى الْخَيْرِ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِنَّ رُوحَهُ لَتَنْزِعُ مِنْ بَيْنِ جَنَبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ».

ثُمَّ قَالَ: وَلَكِنْ ذَاكَ هُوَ الْمُؤْمِنُ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا قَالَ لَهُ: «امْتَحِنِّي!» وَكَيْفَ تَرَاكَ إِذَا كُنْتَ بَطْلًا مِنَ الْأَبْطَالِ مَعَ قَائِدِ الْجَيْشِ، أَمَا تَفْرَضُ عَلَيْكَ شَجَاعَتُكَ أَنْ تَقُولَ لِلْقَائِدِ: «امْتَحِنِّي وَأَزِمْ بِي حَيْثُ شِئْتَ!» وَإِذَا زَمَى بِكَ فَرَجَعْتَ مُشْحَنًا بِالْجِرَاحِ وَنَالَكَ الْبَثْرُ وَالتَّشْوِيهِ، أَتَرَاهَا أَوْصَافًا لِمَصَائِبِكَ، أَمْ ثَنَاءً عَلَى شَجَاعَتِكَ؟

ثُمَّ قَالَ: إِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ أَطْمَئِنَّا فِي النَّفْسِ عَلَى زَلَالِهَا وَكَوَارِثِهَا، لَمْ يَكُنْ إِيْمَانًا، بَلْ هُوَ دَعْوَى بِالْفَكْرِ أَوْ بِاللِّسَانِ لَا يَغْذُوهُمَا، كَدَعْوَى الْجَبَانِ أَنَّهُ بَاطِلٌ، حَتَّى إِذَا فَجَأَهُ الرُّوْعُ أَحْدَثَ فِي ثِيَابِهِ مِنَ الْخَوْفِ... وَمَنْ ثُمَّ كَانَ قَتْلُ الْمُؤْمِنِ نَفْسَهُ لِبَلَاءٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِمَا كَفَرًا بِاللَّهِ وَتَكْذِيبًا لِإِيْمَانِهِ، وَكَانَ عَمَلُهُ هَذَا صَوْرَةً أُخْرَى مِنْ طَيْشِ الْجَبَانِ الَّذِي أَحْدَثَ فِي ثِيَابِهِ!

وَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ هُوَ بِشَاشَةِ الرُّوحِ، وَإِعْطَاءُ اللَّهِ الرِّضَى مِنَ الْقَلْبِ، ثَقَّةٌ بِوَعْدِهِ وَرَجَاءٌ لِمَا عِنْدَهُ، وَمِنْ هَذَيْنِ يَكُونُ الْأَطْمَئِنُّانُ. وَبِالْبِشَاشَةِ وَالرِّضَى وَالثَّقَّةِ وَالرَّجَاءِ، يُصْبِحُ الْإِيمَانُ عَقْلًا ثَانِيًا مَعَ الْعَقْلِ؛ فَإِذَا ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُ بِمَا يَذْهَبُ مَعَهُ الصَّبْرُ وَيَطِيشُ لَهُ الْعَقْلُ، وَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ فِي مِثْلِ الْجُنُونِ - بَرَزَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ عَقْلُهُ الرُّوحَانِيُّ وَتَوَلَّى سِيَاسَةَ جَسَدِهِ حَتَّى يُفَيِّقَ الْعَقْلَ الْأَوَّلَ. وَيَجِيءُ الْخَوْفُ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقَمَتِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَيَنْغَمِرُ بِهِ خَوْفُ النَّفْسِ مِنَ الْفَقْرِ أَوْ الْمَرَضِ أَوْ غَيْرِهِمَا فَيَقْتُلُ أَقْوَامَهَا الْأَضْعَفَ، وَيُخْرِجُ الْأَعَزَّ مِنْهُمَا الْأَذَلَّ.

فَالْأَطْمَئِنُّانُ بِالْإِيْمَانِ هُوَ قَتْلُ الْخَوْفِ الدُّنْيَوِيِّ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضَى، أَوْ تَحْوِيلُهُ عَنْ مَعْنَاهُ بِجَعْلِ الْبَلَاءِ ثَوَابًا وَحَسَنَاتٍ، أَوْ تَجْرِيدُهُ مِنْ أَوْهَامِهِ بِاعْتِبَارِ الْحَيَاةِ سَاطِرَةً بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَى الْمَوْتِ؛ وَهُوَ بِهَذَا عَقْلٌ رُوحَانِيٌّ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي تَصْرِيفِ الدُّنْيَا، يَتْرُكُ النَّفْسَ رَاضِيَةً مُرْضِيَةً، تَقُولُ لِمَصَائِبِهَا وَهِيَ مُطْمَئِنَّةٌ: نَعَمْ. وَتَقُولُ لِشَهَوَاتِهَا وَهِيَ مُطْمَئِنَّةٌ: لَا.

وما الإنسان في هذا الكون؟ وما خيرُهُ وشرُّهُ؟ وما سخطُهُ ورضاه؟ إن كل ذلك إلا كما ترى قبضةً من الترابِ تكبُرُ وقد نسيَتْ أنه سيأتي مَنْ يَكْنسُها...!

قال الشيخ: وانظر، أما تُبْتَلَى الشجرةُ الخضراءُ في بعضِ أوقاتها بمثل ما يُبْتَلَى به الإنسان؟، غيرَ أنَّ لها عقلاً روحانياً مستقراً في داخلها يُسَكُّ الحياةَ عليها ويتريّضُ حالاً غيرَ الحال؛ ومهما يكن من أمرِ ظاهرها وبَلائِها فالسعادةُ كُلُّها في داخلها، ولها دائماً ربيعٌ على قَدْرِها حتى في قَرِّ الشتاء.

فالعقلُ الروحانيُّ الآتي من الإيمان، لا عمل له إلا أن يُنشِئَ للنفسِ غريزةً منصرفةً في كلِّ غرائزها، تُكْمَلُ شيئاً وتُنْقُصُ من شيء. وتَوَجُّهُ إلى ناحيةٍ وتصرفُ عن ناحيةٍ؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها وأكبر من لذاتها جميعاً.

وتلك الغريزة هي نفسها معنى الرضى بالقدرِ خيرهِ وشرِّهِ، وهي تأتي بالتأويل لكلِّ هموم الدنيا، فتضعُ في النكباتِ معانيَ شريفةً تنزعُ منها شرُّها وأذاها للنفس؛ وليستِ المصيبةُ شيئاً لولا تأذي النفسِ بها. وإذا وقع التأويلُ في معاني النكباتِ أصبحت تعملُ عمل الفضائل، وتغيّرت طبيعتها فيعود الفقرُ باباً من الزهد، والمرضُ نوعاً من الجهاد، والخيبةُ طريقاً من الصبر، والحزنُ وجهاً من الرجاء، وهلمَّ جراً.

والنفسُ وحدها كنزٌ عظيم، وفيها وحدها الفرحُ والابتهاجُ لا في غيرها، وما لذاتُ الدنيا إلا وسائل لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج، فإن وُجدَ مع الفقرِ بطلت عِزُّهُ المالِ وأصبحَ حجراً من الحجر؛ والبلبلُ يتغرّدُ بحَنجَرِيهِ الصغيرة ما لا تُغني فيه آلاتُ التَّطَرُّيبِ كُلُّها. وفي النفسِ حياةٌ ما حوَّلها، فإذا قَوِيَتْ هذه النفسُ أَذَلَّتِ الدنيا، وإذا ضَعُفَتْ أَذَلَّتْها الدنيا!

قال المسيّب: ثم سَكَتَ الشيخ قليلاً، وكُنْتُ أرى الرجلَ كأنما يفتسلُ بكلامِهِ، وقد أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَتَنَصَّرَ وَانْقَلَبَ إلى روجه التي كان منصرفاً عنها، فعادَتْ مصائبُهُ تَضْغُطُّ روحاً لينةً كما تَضْغُطُّ اليَدُ على الماء، وأيقِنُ أنَّ النكبةَ كُلُّها هي أن ينظرَ الإنسانُ إلى الحياةِ بعينِ شهواتِهِ، فيَنكَبُ أول ما ينكَبُ في صبرِهِ وِيقينِهِ.

ثم قال الشيخ، ولقد رأيتُ بعيني رأسي معجزةً (العقلُ الروحانيُّ) وكيف يصنع: رأيتُ عروةَ بَنِ الزبير^(١) وهو شيخٌ كبير، عند الوليدِ بَنِ عبدِ الملك، وقد

(١) توفي سنة ٩٣ للهجرة.

وَقَعَتْ فِي رَجْلِهِ الْأَكْلَةُ: فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِقَطْعِهَا لَا تُفْسِدَ جَسَدَهُ كُلَّهُ، فَدُعِيَ لَهُ مَنْ يَقْطَعُهَا فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ: نَسْقِيكَ الْخَمْرَ حَتَّى لَا تَجِدَ لَهَا أَلَمًا. فَقَالَ عُرْوَةُ: لَا أَسْتَعِينُ بِحَرَامِ اللَّهِ عَلَى مَا أَرْجُو مِنْ عَافِيَةٍ! قَالَ: فَنَسْقِيكَ الْمُرْقِدَ. فَقَالَ عُرْوَةُ: مَا أَحَبُّ أَنْ أَسْلَبَ عَضْوًا مِنْ أَعْضَائِي وَأَنَا لَا أَجِدُ أَلَمَ ذَلِكَ فَاحْتَسِبُهُ!

ثُمَّ دَخَلَ رَجَالٌ أَنْكَرَهُمْ عُرْوَةُ، فَقَالَ: مَا هَؤُلَاءُ؟ قَالُوا: يُمَسْكُونُكَ، فَإِنَّ أَلَمَ رَبِّمَا عَزَبَ مَعَهُ الصَّبْرُ. قَالَ أَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي!

قَالَ الشَّيْخُ: فَانْظُرْ أَيُّهَا الضَّعِيفُ الَّذِي يُرِيدُ قَتْلَ نَفْسِهِ كَيْفَ صَنَعَ عُرْوَةُ، وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَ الْبَلَاءَ، وَكَيْفَ صَبَرَ وَكَيْفَ احْتَمَلَ. إِنَّهُ انْصَرَفَ بِحُسْنِهِ إِلَى النَّفْسِ فَانْبَسَطَتْ رَوْحُهُ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ يَكْبُرُ وَيَهْلُلُ لِيَبْقَى مَعَ رَوْحِهِ وَحَدِّهَا، وَخَرَجَ مِنْ دُنْيَا ظَاهِرِهِ إِلَى دُنْيَا بَاطِنِهِ، وَغَمِرَتْ حَوَاسُهُ وَأَعْصَابُهُ بِالنُّورِ الْإِلَهِيِّ مِنْ مَعْنَى التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ، فَقَطَعَ الْقَاطِعُ كَعْبَهُ بِالسَّكِينِ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْعَظَمَ وَضَعَ عَلَيْهَا الْمُنْشَارَ وَنَشَرَهَا وَعُرْوَةُ فِي التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ؛ ثُمَّ جِيءَ بِالزَّيْتِ مَغْلِيًا فِي مِغَارِفِ الْحَدِيدِ فَحُصِمَ بِهِ مَكَانُ الْقَطْعِ، فَغَشِيَ عَلَى عُرْوَةَ سَاعَةً ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ، وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَلَامِ الْمَاحِقَةِ أَنَّهُ وَلَا آهَةً، وَلَمْ يَقُلْ قَبْلُهَا وَلَا بَعْدَهَا وَلَا بَيْنَ ذَلِكَ: «جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ...».



قَالَ الْمُسَيَّبُ: وَأَزْهَفَ بِأَسْرِ الرَّجُلِ الضَّعِيفِ وَقَوِيَّ جَأَشُهُ، وَانْبَعَثَ فِيهِ الرُّوحُ إِلَى عُمَرٍ جَدِيدٍ، وَنَشَأَ لَهُ الْيَقِينُ مِنْ عَقْلِهِ الرُّوحَانِيِّ، وَعَرَفَ أَنَّ مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْرَكَ، يُمَكِّنُ أَنْ يُتْرَكَ.

وَجَاءَ هَذَا الْعَقْلُ الرُّوحَانِيُّ فَمَرَّ بِالْمُنْشَارِ عَلَى الْيَاسِ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِ فَقَطَعَهُ، فَمَا رَاعِنَا إِلَّا أَنْ وَثَبَ الرَّجُلُ قَانِمًا يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا، اللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا!.

ثُمَّ أَكْبَأَ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ وَهُوَ يَقُولُ: صَدَقْتَ؛ «إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ إِلَّا كَمَا تَرَى قَبْضَةً مِنَ التَّرَابِ تَتَكَبَّرُ، وَقَدْ نَبِيَتْ أَنَّهُ سَيَأْتِي مَنْ يَكْنُسُهَا!».

مَاذَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ إِذَا غَلَطَ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الدُّنْيَا إِلَّا أَنْ يَتَحَرَّى الصَّوَابَ، وَيَجْتَهِدُ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ، وَيَصْبِرَ عَلَى مَا يَنَالُهُ فِي ذَلِكَ؟ وَمَاذَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ إِذَا غَلَطَ فِيهِ مَسْأَلَةٌ...؟

الانتصار

(٢)

قال المسيب بن رافع: وقام الشعبي إلى الرجل فاعتنقه فراحاً بما آل أمره إليه، بعد إذ رأى النور يجري على لونه ويتفرق في ديباجته؛ كأنما وقع الصلح بين وجهه وبين الحياة. ثم قال له: نغم أخو الإسلام أنت، فاستعذ بالله من جذلانه، فإنه ما خذلك إلا وضعت نفسك بإزاء الله تعارضه أو تجاربه في قدرته، فيكلك إلى هذه النفس، فتنتهي بك إلى العجز، وينتهي العجز بك إلى السخط؛ ومتى كنت عاجزاً ساخطاً، محصوراً في نفسك؛ موكولاً إلى قدرتك، كنت كالأسد الجائع في القفر، إذا ظن أن قوته تتناول خلق الفريسة؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأس والانزعاج والكآبة؛ وأمثالها من هذه المهلكات تقدح في قلبك الشك في الله، وتثبت في روعك شر الحياة، وتؤدي إلى خاطرك حماقات العقل، وتقرّر عندك عجز الإرادة؛ فتنتهي من كل ذلك ميتاً قد أزهقتك نفسك قبل أن تزدهقها!

ولو كنت بدّل إيمانك بنفسك قد آمنت بالله حق الإيمان، لسلطك الله على نفسك ولم يسلطها عليك؛ فإذا رمثك المطامع بالحاجة التي لا تقدر عليها، رميتها من نفسك بالاستغناء الذي تقدر عليه؛ وإذا جاءتك الشهوات من ناحية الرغبة المقبلة، جثتها من ناحية الزهد المنصرف، وإذا ساورتك كبرياء الدنيا أذللتها بكبرياء الآخرة.

وبهذا تنقلب الأحران والآلام ضروباً من فرح الفوز والانتصار على النفس وشهواتها، وكانت فنوناً من الجذلان والهم، وتعود موضع فخر ومباهاة، وكانت أسباب خزي وانكسار. «وعزيمة الإيمان إذا هي قويت حصرت البلاء في مقداره، فإذا حصرت لم تزل تنقص من معانيه شيئاً شيئاً، فإذا ضعفت هذه العزيمة جاء البلاء غامراً متفشياً يجاوز مقداره بما يصحبه من الخوف والرؤع، فلا تزال معانيه تزيد شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليس فيه.

وللإيمان ضوء في النفس يُبَيِّرُ ما حولها فتراه على حقيقته الفانية وشيئاً أن

يزول؛ فإذا انطفأ هذا الضوء انطمست الأشياء، فتوهمها النفس أوهاماً متباينة على أحوالها المختلفة؛ كما يرى الأعمى بؤفه: لا عينه مع الأشياء تكون في طبيعتها، ولا أسيأؤه عند عينه تكون في حقيقتها.

قال المسيب: وكانت الشمس قد طفلت للمغيب؛ فقال الإمام للرجل: قُمْ فتوضاً وأسبغ الوضوء، وسأعلمك أمراً تنتفع به في دينك ودنياك: فإذا قُمْتَ إلى وضوءك فأيقن في نفسك واعزم في خاطرك على أن في هذا الماء سرّاً روحانياً من أسرار الغيب والحياة، وأنه رمزٌ للسماء عندك، وأنتك إنما تتطهر به من ظلمات نفسك التي امتدت على أطرافك؛ ثم سَمِ الله (تعالى) مفيضاً اسمه القادر الكريم على الماء وعلى نفسك معاً، ثم تمثّل أنك غسلت يديك بماء فيهما ومما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا، وأنتك آخذٌ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك؛ وقرّر عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مسحاً سماوياً تُسبغها على كل أطرافك، ليشرع بها جسمك وعقلك؛ وأنتك بهذه المسحة السماوية تستقبل الله في صلاتك سماوياً لا أرضياً.

فإذا أنت استشعرت هذا وعملت عليه وصار عادةً لك، فإن الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلة الدواء، كلما اغتممت أو تسخطت أو غشيتك حزنٌ أو غرض لك وسواس، فما توضاً على تلك النية إلا غسلت الحياة وغسلت الساعة التي أنت فيها من الحياة^(١). وترى الماء تحسبه هدوءاً ليناً لين الرضى، وإذا هو ينساب في شعورك وفي أحوالك جميعاً.

قال المسيب: وقمتُ أنا فجددت وضوئي على هذه الصفة بتلك النية، فإذا أنا عند نفسي مستضيء بروح نجمية لها إشراقٌ وسناء، وإذا الوضوء في أضعف معانيه هو ما علمنا من أنه الطهارة والنظافة، أما في أقوى معانيه فهو إفاضة من السماء فيها التقديس والتزكية وغسل الوقت الإنساني مما يخالطه كلما مرّت ساعات، وابتداؤه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطلولاً مترطباً بالماء.

ثم صلى بنا الشيخ، وأمرني بالمبيت مع الرجل، كأنما خشي البدوات أن تبدؤ له فتقصّ عزمه، أو هو زادني عليه لإغتر شخصه وأبدل وحدته التي كان فيها، أو كأن الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانه الروحي قد تنبّه بأكمليه فوضعتني كالتنبيه له.

(١) هذه في رأينا حكمة تكرار الوضوء وتلك هي أسرارها عندنا.

وجاءنا العشاء من دارِ الشيخ فطعّمنا، ثُمَّ قامَ الرجلُ فتوضأ وصلّىنا العَتَمَةَ وجلسنا نتحدث، فاستنبأته نبأه، فقال: مهلاً. ثُمَّ نهض فتوضأ الثالثة وقال: تالله ما أعرفُ الرضوءَ بعدَ اليوم إلا ملاسَةً بين السماء والنفس، وما أعرفُ وقته من الروح إلا كساعة الفجرِ على النباتِ الأخضرِ.

* * *

قال المسيّب: وأصبحنا فغدونا على الإمام، ثُمَّ لزمني الرجلُ في بعضِ أموري، ثُمَّ وافينا المسجدَ صلاةَ العصرِ لحضورِ درسِ الشيخ؛ وكان الناسُ كالْحَبِّ المتراصِفِ على العنقود، لا أدري من ساقهم وجمّهم؛ كأنما عَلِمَتِ الكوفةُ أن رجلاً مسلماً كَفَرَ بالله كُفْرَةً ضلّعاء وأنه سيحضرُ درسَ الشيخ، وسيحضرُ الشيخُ من أجله، فهبَّت الرياحُ الأربعُ تسوقُ أهلها إلى المسجدِ من أقطارِها.

وجلسَ الشيخُ مجلسَ الحديث فقال:

رَوَيْنَا أَنَّ رجلاً كَانَتْ بِهِ جِرَاحَةٌ، فَأَتَى قَرْنًا لَهُ فَأَخَذَ مِشْقَصًا^(١) فَذَبَحَ بِهِ نَفْسَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَتَرَكَ جَنَازَتَهُ مَطْرُودَةً تَقْتَحِمُ مَثَلَفَةَ الْآخِرَةِ كَمَا اقْتَحَمَتْ مَثَلَفَةَ الدُّنْيَا!

رَوَيْنَا فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الَّذِي يَخْنُقُ نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا فِي النَّارِ، وَالَّذِي يَطْعَنُ نَفْسَهُ يَطْعَنُ نَفْسَهُ فِي النَّارِ، وَالَّذِي يَقْتَحِمُ يَقْتَحِمُ فِي النَّارِ»

رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذَّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ بِهِ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ اللَّهُ: بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ!».

قال الشعبي: يقولُ الله: «بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ...» أَيِ بَدَرْنِي وَتَأَلَّه فَجَعَلَ نَفْسَهُ إِلَهَ نَفْسِهِ، فَقَبَضَهَا وَتَوَقَّاهَا، فَكَانَ ظَالِمًا.

بَدَرْنِي وَتَأَلَّه فِي آخِرِ أَنْفَابِهِ لِحَظَّةٍ يَنْقَلِبُ إِلَيَّ، فَكَانَ مَعَ ظُلْمِهِ مَغْرُورًا أَحْمَقًا! بَدَرْنِي وَتَأَلَّه حِينَ ضَاقَ، فَهَوَّزَ نَفْسَهُ فِي الْمَوْتِ مِنْ عَجْزِهِ أَنْ يُمَسِّكَهَا فِي الْحَيَاةِ، فَكَانَ عَاجِزًا مَعَ ظُلْمِهِ وَغُرُورِهِ وَحُمْقِهِ!

بَدَرْنِي وَتَأَلَّه عَلَى جِهَلِهِ بِسَرِّ الْحَيَاةِ وَحِكْمَتِهَا، فَلَمْ يَسْتَحِ هَذَا الْمَخْلُوقُ الظَّالِمُ الْمَغْرُورُ فِي حَقِّهِ وَعَجْزِهِ وَجِهَلِهِ - لَمْ يَسْتَحِ أَنْ يَجِثْنِي فِي صُورَةِ إِلَهٍ!

(١) القرن (بفتحيتين): جعبة النشاب. والمشقص: سهم فيه نصل عريض.

بَدَرْنِي وتَأَلَّه، فَطَبَعَ نَفْسَهُ طَابَعَهَا الْأَبَدِيُّ مِنْ غِيٍّ وَتَمَرَّدٍ وَسَفَاهَةٍ، وَأَرْسَلَهَا إِلَيَّ مَقْتُولَةً يَرُدُّهَا عَلَيَّ.

بدرني وتأله كأنما يقول: إِنَّ له نصفَ الأمرِ ولِي النصف: أنا أحييتُ وهو أمات...!

بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ! قَالَ الشَّعْبِيُّ: وَإِنَّمَا تُحَرِّمُ الْجَنَّةَ عَلَى مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ، إِذْ يَنْقَلِبُ إِلَى اللَّهِ وَعَلَى رُوحِهِ جَنَائِدُهُ يَدُهُ مَا تُفَارِقُهَا إِلَى الْأَبَدِ: فَهُوَ هُنَاكَ جِيفَةٌ مِنَ الْجَيْفِ مَسْمُومَةٌ أَبَدًا، أَوْ مَخْنُوقَةٌ أَبَدًا، أَوْ مَذْبُوحَةٌ أَبَدًا، أَوْ مَهْشُمَةٌ أَبَدًا يَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَنْتَ بَدَرْتَنِي بِنَفْسِكَ، وَجَرَنْتَ مَعِيَ فِي الْقَدَرِ مَجْرَى وَاحِدًا، فَسَتَحْلُدُ نَفْسُكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَمَلِكَ، وَمَا قَتَلْتَ إِلَّا حَسَنَاتِكَ.

قال الشعبي: ولو عرفَ قاتِلُ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَصْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ جِيفَةً أَبَدِيَّةً، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا تَحَوَّلَ حِمَارًا وَبَقِيَ حِمَارًا، فَيَرْضَى أَنْ يَتَحَوَّلَ وَيُسْرَعَ لِيَتَحَوَّلَ؟

مِنْ ذَلِكَ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ، كَمَا يَنْظُرُ إِلَى ذَبَابَةٍ تَوَجَّهَتْ بِالسَّبَبِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَفْلَاقِ كُلِّهَا، ثُمَّ جَاءَتْهُ تَقُولُ لَهُ: اشْهَدْ لِي.

قال الشيخ: وَمِمَّنْ يَقْتُلُ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ؟ أَمَّا إِنَّ الْمَوْتَ آتٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عَنْهُ، وَهُوَ الْخَبِيئَةُ الْكُبْرَى تُلْقَى عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ؛ فَمَا ضَرَرُ الْخَبِيئَةِ الصَّغِيرَةِ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ؟

إِنَّ الْمَرَّةَ لَا يَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ نَجَاحِ بَلٍ مِنْ خَبِيئَةٍ، فَإِنَّ كَانَتْ الْخَبِيئَةُ مِنْ مَالٍ فَهِيَ الْفَقْرُ أَوْ الْحَاجَةُ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عَاقِيَةٍ فَهِيَ الْمَرَضُ أَوْ الْإِخْتِلَالُ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عِزَّةٍ فَهِيَ الذُّلُّ أَوْ الْبُؤْسُ، وَإِنْ كَانَتْ بِمِثْلِ سِوَى ذَلِكَ - كَالنِّسَاءِ وَغَيْرِهِنَّ - فَهِيَ الْعَجْزُ عَنِ الشَّهْوَةِ أَوْ التَّخَيُّلُ الْفَاسِدُ. وَلَيْسَ يَخِيبُ الْإِنْسَانَ إِلَّا خَبِيئَةُ عَقْلٍ أَوْ إِرَادَةٍ، وَإِلَّا فَالْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ وَالْمَرَضُ وَالْإِخْتِلَالُ وَالذُّلُّ وَالْبُؤْسُ، وَالْعَجْزُ عَنِ الشَّهْوَةِ وَفَسَادُ التَّخَيُّلِ، كُلُّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي النَّاسِ، يَحْمِلُهُ أَهْلُهُ رَاضِينَ بِهِ صَابِرِينَ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْغِبَارُ النَّفْسِيُّ لِهَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى نَفُوسِ أَهْلِهَا. وَيَا عَجَبًا! إِنَّ الْعُمَيَّانَ هُمَ بِالطَّبِيعَةِ أَكْثَرُ النَّاسِ ضَحْكَاً وَابْتِسَاماً وَعِبْثاً وَسُخْرِيَةً، أَفْتَرِيدُونَ أَنْ تُخَاطَبَكُمْ الْحَيَاةُ بِأَفْصَحَ مِنْ ذَلِكَ؟

ليست الخيبة هي الشر، بل الشر كله في العقل إذا تبلّد فجمد على حالة واحدة من الطمع الخائب، أو في الإرادة إذا وهنت فبقيت متعلقة بما لم يوجد. أفلا ترون أنه حين لا يبالي العقل ولا الإرادة لا يبقى للخيبة معنى ولا أثر في النفس، ولا يخيب الإنسان حينئذ، بل تخيب الخيبة نفسها؟

لهذا يأبى الإسلام على أهله الترف العقلي والتخيل الفاسد، ويشد كل الشدة في أمر الإرادة، فلا يترخص في شيء يتعلق بها، ولا يزال يُمنى بأعمال يومية تشد منها لتكون رقيقة على العقل حارسة له، فإن للعقل أمراضاً كثيرة يقيس فيها درجات من الطيش حتى يبلغ الجنون أحياناً؛ فكانت الإرادة عقلاً للعقل؛ هي لينه إذا تصلب، وهي حركته إذا تبلّد، وهي جلّعه إذا طاش، وهي رضاه إذا سخط.

الإرادة شيء بين الروح والعقل، فهي بين وجودين؛ ولهذا يكون بها الإنسان بين وجودين أيضاً، فيستطيع أن يعيش وهو في الدنيا كالمنفصل عنها، إذ يكون في وجوده الأقوى وجود روجه، وأكبر همه نجاحه في هذا الوجود.

وهذا النجاح لا يأتي من المال، ولا تحقّقه العافية، ولا تُسرّه الشهوات، ولا يُسبّيهِ التخيلُ الفاسد؛ ولا يكون من متاع الغرور، ولا ممّا عمره خمسون سنة أو مائة سنة؛ بل يأتي ممّا عمره الخلود وممّا هو باقٍ أبداً في معانيه من الخير والحق والصالح؛ فهنا يُعْمِنُ المريض بالصبر عليه ممّا لا تُعِينُ الصحة، ويُقَيِّدُ الفقر بحقائقه ما لا تُقَيِّدُ الثروة؛ وهنا يكون العقلُ الإنسانيّ عاملاً أكثر ممّا هو متخيل، وقانِعاً أكثر ممّا هو طامع؛ وهنا لا موضع لغلبة الشهوة، ولا كبرياء النفس، ولا حُب الذات؛ وهذه الثلاث هي جالية الشقاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة، وبدونها يكون الإنسان هائناً حتى في أحوال الشقاء.

بالإرادة المؤمنة القويّة ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائق العالم وصلاح النفس بها، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاء إلى خيال الإنسان وفساد الإنسان...

ولذا انصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلاً مرناً مطواعاً، واستحال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يُقرّها، فإن هذه الفكرة الخبيثة لا تستطرق إلى العقل إلا إذا تحجّر وانحصر في غرض واحد قد خاب وخابث فيه الإرادة ففرغت الدنيا عنده.

ولو أن امرأ تمّ عزّمه على قتل نفسه ثم صابر الدنيا أياماً، لانفسح عزّمه أو رَكَ؛ إذ يلين العقل في هذه المدة نوعاً ما، ويجعل الصبر بينه وبين المصيبة مسافة

ما، فتتغير حالة النفس هزناً ما؛ فالصبر كالترُّوح بالهواء على العقل الذي يكاد يختنق من احتباسه في معنى واحدٍ مُقفَلٍ من جوانبه «ومثلُ العقل في هذه الحال مثلُ القائم في إعصارٍ لَفَّه بالترابِ لَفًّا وسَدَّ عليه مَنَافِذَ الهواء، وحبسَه في هذا الترابِ الملتف حَبَسَ الحشرة في جوف القَصْبَةِ؛ فهو على اليقين أنَّها حالة ساعية طارئة في الزمن لا حالة الزمن؛ وأنَّ الهواء الذي جاء بهذا الهمِّ هو الذي يذهب بهذا الهمِّ.

وكما أنَّ الأرض هي شيءٌ غيرُ هذا الإعصارِ الثائرِ منها، فالحياة كذلك هي أمرٌ آخرٌ غيرُ شقائِها.

* * *

قال الإمام: وفي كتابِ الله آيتان تدلُّان على أنَّه كتابُ الدنيا كُلِّها، إذ وضعَ لهذه الدنيا مثالين: أحدهما المثالُ الروحيُّ لِلْفَرْدِ الكامل، والآخرُ المثالُ الروحيُّ لِلْجَمَاعَةِ الكاملة.

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأما الثانيةُ فهي قوله تعالى: ﴿تَحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ففي رجاءِ الله واليومِ الآخرِ يتسامى الإنسان فوقَ هذه الحياةِ الفانية، فتتمرُّ همومُها حوله ولا تصدِّمُه، إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكان لا سلطانَ لها عليه؛ وهذه الهمومُ تجدُّ في مثلِ هذه النفسِ قُوَى بالغةَ تصرفِها كيف شاءت، فلا يجيءُ الهمُّ قُوَّةَ تسحقُ ضعفاً، بل قُوَّةَ تمتحنُ قُوَّةَ أخرى أو تُثِيرُها لِتَكُونَ عملاً ظاهراً يقلِّدُه الناسُ ويتفغَّوْنَ منه بالأسوةِ الحسنة، والأسوةُ وحدها هي عِلْمُ الحياة. وقد ترى الفقيرَ من الناسِ تحسُّبُه مسكيناً، وهو في حقيقته أستاذٌ من أكبرِ الأساتِيزِ يُلقي على الناسِ دروسَ نفسه القويَّة.

وفي رجاءِ الله واليومِ الآخرِ يبطلُ أكبرُ أسبابِ الشرِّ في الناسِ، وهو نظَرُ الإنسانِ لِمَنْ هو أحقُّى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يَبْعَثُ إِلَّا اليَقْدَ والسخطَ، فينظرُ المؤمنُ حينئذٍ إلى ما في الناسِ من الخيرِ والصلاحِ والإيمانِ والحقِّ والفضيلة، وهذه بطبيعتها لا تبعثُ إِلَّا السُرورَ والغبطة. وَمَنْ جعلها في تفكيره أبطلَ أكثرَ الدنيا من تفكيره؛ وبها تسقطُ الفروقُ بين الناسِ عاليهم ونازلهم؛ كالرجلِ الفقيرِ

العالم إذا قَدِمَ على الغنيِّ العالم؛ جَمَعَ بينهما الاتِّفاقُ العقليُّ وسَقَطَ ما عداه.

وفي رجاءِ الله واليومِ الآخرِ يعيشُ الإنسانُ عُمرَهُ الطويلَ أو القصيرَ كأنَّهُ في يومٍ يُصبحُ منه غادياً على الحشرِ والحِسابِ؛ فهو مُتَّصِلٌ بالخلودِ غيرَ مَغْنِيٍّ إِلَّا بِأَسْبَابِهِ؛ وبهذا تكونُ أمراضُهُ وآلامُهُ ومصائبُهُ ليستَ مَكَايِدَ مِنَ الدُّنْيَا، بل هي تلكَ المَكَايِدُ التي حُفَّتِ الجَنَّةُ بها؛ ولا يَضُرُّهُ الجِزْمَانُ لَأَنَّهُ قَرِيبُ الزوالِ، ولا يَثُرُهُ المتاعُ لَأَنَّهُ قَرِيبُ الزوالِ أيضاً.

وفي رجاءِ الله واليومِ الآخرِ يَسُودُ الإنسانُ على نفسه؛ وَمَنْ كانَ سيِّدَ نفسه كانَ سيِّدَ ما حولها يَضُرُّهُ بِحُكْمِهِ، وَمَنْ كانَ عَبْدَ نفسه صَرَفَهُ بِحُكْمِهِ كُلِّ ما حَوْلَهُ.

قال الشعبي: وأما المثالُ الروحيُّ للجماعةِ الكاملة، فهو في وصفِ المؤمنينَ بأنهم «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ»؛ فهذا هذا، ما أَحْسَبُهُ يَحْتَاجُ إِلَى بَسْطِ وَبَيَانِ.

إِنَّ أَكْثَرَ ما يَضِيقُ به الإنسانُ يكونُ من قَبْلِ مَنْ حَوْلَهُ يَمُنُّ بِعَاشِيَتِهِمْ وَيَتَّصِلُ بِهِمْ لا من قَبْلِ نَفْسِهِ، فإذا قامَ اجتماعُ أُمَّةٍ على أَنَّهُمْ (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) تَقَرَّرَتِ العِظَمَةُ النَفْسِيَّةُ لِلْجَمِيعِ على السَّوَاءِ؛ وَمَنْ كانوا كذلكَ لم يَخْفَرُوا الْفَقِيرَ بِفَقْرِهِ، ولم يُعْظَمُوا الْغَنِيَّ لِغِنَايِهِ، وَإِنَّمَا يُخَفَّرُونَ وَيُعْظَمُونَ لِصِفَاتِ سَامِيَةٍ أو حَقِيرَةٍ. وبين هؤَلاءِ يكونُ الْفَقِيرُ الصَّابِرُ أعْظَمَ قَدْرًا مِنَ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ، وإِعْظَامُ النَّاسِ لِفَضِيلَةِ الْفَقِيرِ هو الَّذِي يجعلُ فَقْرَهُ عندَ نَفْسِهِ شَيْئًا ذا قِيَمَةٍ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ.

ومتى تَصَحَّحَتْ آراءُ الجماعةِ في هذه المعاني المؤلِّمةِ لِلنَّاسِ بَطَلَ الْمُها واستحالت معانيها، وصارَ لا يَبْلَى مَعْنَى من معاني الحياةِ في إنسانٍ إِلَّا وَضَعَ إِيْمَانَهُ مَعْنَى جَدِيداً في مكانِهِ، وتُصْبِحُ الْفَضِيلَةُ وَحْدَهَا غَايَةَ النَّفْسِ في الْجَمِيعِ؛ وبذلك يَصْبِرُ الْفَرْدُ على مصائبِهِ، لا بِقُوَّتِهِ وَحْدَهُ، ولكنَّ بِجَمِيعِ الْقُوَى التي حوله. أَقْلا تَرَوْنَ أَنَّ إِعْجَابَ النَّاسِ بِالشَّجَاعَةِ وتعظيمَهُم صاحبَها يَضَعُ في أَلَمِ السِّلَاحِ لَذَّةً يُحْسِنُ لَحْمَ الشَّجَاعِ الْبَطْلُ؟

قال المسيَّبُ بْنُ رَافِعٍ: فقامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَجْلِسِ، فقال: أَيُّها الشَّيْخُ، وإذا فَسَدَ النَّاسُ وَغَلَّظَتْ قُلُوبُهُمْ، وتَقَطَّعَتْ بَيْنَهُمُ الْأَسْبَابُ، ولم يعودوا (رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ)، وشَبَّتُوا بِالْفَقِيرِ، وتهزَّؤُوا بِالْمُبْتَلَى وطرحوه في السَّيِّئِ كما يَطْرَحُ الشَّاعِرُ في لِسَانِهِ رَجُلًا يَهْجُوهُ لا يَكْفُ عَنْهُ - فما عسى أَنْ يصنَعَ الْمَسْكِينُ حِينَئِذٍ وَكُلُّ شَيْءٍ يَدْفَعُهُ إِلَى قَتْلِ نَفْسِهِ؟

وقال الشعبي: ههنا الرجاء في الله واليوم الآخر، وهو شعور لا يُشتري بمال، ولا يُلتمس من أحد، ولا يَغسُر على مَنْ أرادَهُ؛ والفقيرُ والمُبتلى وغيرُهما إنما يصنعُ كلُّّ منهم مثاله السامي؛ فالصبرُ على هذا العنتِ هو صبرٌ على إتمام المِثال، وإذا وَقَعَ ما يسوءُك أو يَحزُنُك فابحث فيه عن فكرته السامية، فقلّما يخلو منها، بل قلّما يجيء إلّا بها^(١).

قال المسيّب: فقام آخرُ فقال: وكيف يصنعُ امرؤُ آلتِ أحوالِ الدنيا إلى ما يُخيفُه، أو بَلَغَ الهمُّ مبلغه من قلبه فهمٌ أن يقتل نفسه؟

قال الشعبي: فليجعلِ الخوفَ حَوْقَيْنِ: أحدهما خوفُه عذابَ الله خالداً مُخلّداً فيه أبداً؛ فَيَذْهَبِ الأقوى بالأضعف. وإذا ابتلي فليضمّ إلى نفسه مَنْ هو أشدُّ بلاءَ منه؛ ليكونَ همُّ أحدِ هَئِنِ، فيذهبِ الأثقلُ بالأخف.

إنَّ الإنسانَ ونفسه في هذه الحياة كالذي أعطيَ طفلاً نَزَقاً طَيَّاشاً عارِماً متمرداً ليؤدِّبَهُ ويُحَكِّمَ تربيته وتقويمه فيثبتَ بذلك أنه أستاذٌ، فيعطى أجرَ صبره وعمله، ثم يضيِّقُ الأستاذُ بالطفلِ ساعةً فيقتله. أكذلك التأديبُ والتربية؟

(١) في كتابنا (المساكين) كلام كثير في هذه المعاني.

الانتحار

(٣)

قال المسيبُ بنُ رافع: وكان الإمامُ قد شغلَّ خاطره بهذه القصة فأخذتْ تمُدُّ مدّها في نفسه، ومكثتْ له من معانيها بِمقدارٍ ما مكثَ لها في قلبه، وتفتّق بها ذهنه عن أساليبٍ عجيبةٍ يتهيأ بعضها من بعض كما يُلدّ المعنى المعنى. فلمّا قال الرجلان مقالهما آنفاً وأجابهما بتلك الحكمة والموعظة الحسنة، انقذخ له من كلاميهما وكلاميه رأيي فقال:

يا أهل الكوفة: أنشدكم الله والإسلام أيّما رجلٍ منكم ضاقَ بوجه يوماً فأرادَ إزهاقها إلّا كشفَ لأهل المجلسِ نفسه وصدّقنا عن أمره؛ ولا يجددُ في ذلك ثلّبا ولا عاباً، فإنّما النكبةُ مذهبٌ من مذاهبِ القدرِ في التعليم؛ وقد يكون ابتداءُ المصيبة في رجلٍ هو ابتداءُ الحكمة فيه لِنفسه أو لِغيره؛ وما من حزينٍ إلّا وهو يشعرُ في بعضِ ساعاتِ حزنه أنّه قد غيّبَ فيه أسراراً لم تكن فيه، وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها كما لألّا في سيفٍ بريّقه.

وعقلُ الهمِّ عقلٌ عظيم، فلو قد أريدَ استخراجُ علْمٍ يَعْلَمُهُ الناسُ من اللذاتِ والنعم؛ لكان من شرحِ هذا العلمِ من الحميرِ والبغالِ والدوابِّ ما لا يكون مثله ولا قرابته في العقلاء، ولا تبلغه القوى الآدميةُ في أهلها؛ بيدَ أنّه لو أريدَ علْمٌ من البؤسِ والألم والحاجة لَمّا وجدَ شرحه إلّا في الناس، ثُمَّ لا يكون الخاصُّ منه إلّا في الخاصة منهم.

وما بأنَّ أهلَ النعمة ولا غَمروا المساكينَ في تطاولهم بأعناقهم إلّا من أنّهم يَعْلَمُونَ أكتافَ الشياطين؛ فالشيطانُ دائئُ الغنى الذي يجهلُ الحقَّ عليه في غناه ويحسبُ نفسه مُخلّى لشهواته ونعيمه؛ كما هو دابةُ العالم الذي يجهلُ الحقَّ عليه في عِلْمِهِ، ويزعمُ نفسه مُخلّى لِعقله أو رأيه، وما طال الطويلُ بذلك ولا عن ذلك قَصُرُ القصير، وهل يصحُّ في الرأي أن يُقالَ هذا أطولُ من هذا لأنَّ الأولَ فوقَ السُّلَمِ والآخرَ فوقَ رجله...؟

قال المسيب: فقام شيخ من أقصى المجلس وأقبل يتخطى الرقاب والناس يتفرجون له حتى وقف بإزاء الإمام؛ وتفرسته وجعلت عيني تنجمه، فإذا شيخ تبدو طلاقته وجهه شاباً على وجهه، أبلغ العزة مهتلل عليه بشاشة الإيمان وفي أساريه أثر من تقطيع قديم، ينطق هذا وذاك أن الرجل فيما أتى عليه من الدهر قد كان أطفأ المصباح الذي في قلبه مرة ثم أضاءه. وعجبت أن يكون مثل هذا الشيخ قد هم بقتل نفسه يوماً، وأنا أرى بعيني نفسه هذه مضيئة في الحياة انبثاق الثخلة السحوق.

وتكلم هذا الرجل فقال:

أما إذ ناشدتنا الله والإسلام وميثاق العلم ووحى الأقدار في حكمتها، فإني محدثك بخبري على وصفه ورصفه: أملت منذ ثلاثين سنة ووقف بي من الدهر ما كان يجري، وأصبحت في مزاولة الدنيا كعاصر الحجر يريد أن يشرب منه، وعجزت يدي حتى لظفرت دجاجة في نبشها التراب عن الحبة والحشرة أقدر مني؛ وطرقتني النوائب كأنما هي تساكني في داري، وأكلني الدهر لحماً ورماني عظاماً، فما كان يقف علي إلا كلاب الطريق؛ ولي يومئذ امرأة أعقبت منها طفلاً، ويلزمني حقهما ولا أستطيعه؛ وكان بيننا حب فوق المعاشرة والألفة قد تركني من امرأتي هذه كالشاعر الغزل من صاحبه، غير أن الشعر في دمي لا في لساني.

فلما نهكتني المصائب وتناولتني من قريب ومن بعيد؛ قلت للمرأة ذات يوم وقد شجبت وانكسر وجهها وتقبض من هزاله: وإيم الله يا فلانة لو جاز أن يؤكل لحم آدمي لذبحت نفسي لتأكلي وتدرني على الصبي؛ ولقد هممت أن أركب رأسي وأذهب على وجهي لتفقداني فتفقد شؤمي عليكما؛ ولكن ردني قلبي، وهو حبسني في هذه الدنيا الصغيرة التي بينكما، فليس لي من الأرض مشرق ولا مغرب إلا أنت وهذا الصبي. ولست أدري - والله - ما نصنع بالحياة وقد كُنا من نباتها الأخضر فرجعنا من خطبها اليابس؛ وعادت الشمس لا تغدوها بل تمتص منها ما بقي، ولا تستضيء لها، ولكن تستوقد عليها!

إن من فقد الخير وقع في الشر، خري أن يكون قد أصاب خيراً عظيماً إذا قتل نفسه فخلص من الشر والخير جميعاً، لا يكدي ولا ينجح، ولا يالم ولا يلد؛ وكما أنكرته الدنيا فليكرها. أما إنه إن كان القبر فالقبر ولكن في بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا؛ وإن كان الموت فالموت ولكن بعرة واحدة وفي شيء واحد لا كهذا الذي نحن فيه أنواعاً أنواعاً. قد ماتت إيماناً، وتركنا نعيش كالموتى لا أيام

لهم، وزاد علينا الموتى في النعمة والراحة أنهم لا يتطقلون على أيام غيرهم
فيطردوا عن يوم هذا ويوم ذاك.

قال: فاستعبرت المرأة باكية، ولما فرغت من كلام دموعها قالت: كأني
أريد أن تفجعنا فيك؟ قلت: ما عدوت ما في نفسي؛ ولكن هل بقي في من
تفجعين فيه؟ أما ذهب مني ذاك الذي كان لك زوجاً وكابياً، وجاء الذي هو همك
وهو هذا الصبي من رجل كالحفرة لا تنتقل من مكانها وتأخذ ولا تعطى؟

أم والله لكاني خلقت إنساناً خطأ، حتى إذا تبين الغلط أريد إرجاعي إلى
الحيوان فلم يأت لا هذا ولا ذاك، وبقيت بينهما؛ يمر الناس بي فيقولون: إنسان
مسكين. وأحسب لو نطقت الكلاب لقالت عني: كلب مسكين. يا عجباً! عجباً لا
ينتهي! أصبحت الدنيا في يدينا من العجز واليأس كأننا هي بكرة نجهد في تحويلها
ياقوتة أو لؤلؤة...

فقالَت المرأة: والله لئن خيبت على هذا إن هذا لكفر قبيح، ولئن مث عليه
إنه لأقيح وأشد.

فقلت لها: ويحك وماذا تنظر العين المبصرة في الظلام الحالِك إلا ما تنظر
العمياء؟

قالت: ولم لا تنظر كما ينظر المؤمن بنور الله؟
قلت: فانظري أنت وخبريني ماذا تَرين. أترين رغيماً؟ أترين إداماً؟ أترين
ديناراً؟

قالت: والله إنني لأرى كل ذلك وأكثر من ذلك. أرى قمراً سيكشف هذه
السُدقة المظلمة إن لم يطلع فكان قد.

قال: ففاظتني المرأة ورأيته حينئذ أشد عليّ بقلّة ذات عقليها من قلّة ذات
يدي؛ ولولا حبي إياها ورحمتي لها لأوقعت بها. واستحكم في ضميري أن أزهق
نفسي وأدعها لما كتبت لها.

وقلت: إن جبن المرأة هو نصف إيمانها حين لا يكون نصف عقليها، وللقدر
يد ضعيفة على النساء تصفعهن وتمسح دموعهن، وله يد أخرى على الرجال ثقيلة
تصفع الرجل وتأخذ بحلقه فتعصّره.

قال: وكنت قد سمعت قول الجاهلية في هذه الخليفة؛ أرحام تدفع، وأرض

تَبْلَعُ . فحَضَرَنِي هَذَا الْقَوْلُ تِلْكَ السَّاعَةَ وَشَبَّهَ لِي ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ شَيْءٌ حَقِيرٌ فِي الْغَايَةِ مِنَ الْهَوَانِ وَالضُّعْفِ : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ، وَأَثْقَلَتْ بِهِ كُرْهًا ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ؛ وَهُوَ مِنْ شُؤْمِهِ عَلَيْهَا إِذَا دَنَا لَهَا أَنْ تَضَعُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّى يَضْرِبَهَا الْمَخَاضُ فَتَتَقَلَّبُ وَتَصِيحُ وَتَتَمَرَّقُ وَتَنْصَدِيعُ ؛ وَرَبَّمَا نَشِبَ فِيهَا فَقَتَلَهَا ، وَرَبَّمَا التَوَى فَيَقْرُ بَطْنُهَا عَنْهُ . وَإِذَا هِيَ وَلَدَتْهُ عَلَى أَيْ حَالِهَا مِنْ عُسْرٍ وَتَطْرِيقٍ بِمِثْلِ الْمَطَارِقِ الْمُحْطَمَةِ ، أَوْ سَرَّاجٍ وَزَوَاجٍ كَمَا يَتَبَسَّرُ - فَإِنَّمَا تَلِدُهُ فِي مَشِيمَةٍ وَدَمَاءٍ وَقَدَرٍ مِنَ الْأَخْلَاطِ كَأَنَّمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ جُرْحٍ . ثُمَّ تَتَنَاوَلُهُ الدُّنْيَا فَتَضَعُهُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي أَقْبَحِ وَأَقْدَرُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . ثُمَّ يَسْتَوْفِي مُدَّتَهُ فَيَأْخُذُهُ الْقَبْرُ فَيَكُونُ شَرًّا عَلَيْهِ فِي تَمْزِيْقِهِ وَتَعْفِيْنِهِ وَحَالَتِهِ .

قال : وَحَضَرَنِي مَعَ كَلِمَةِ الْجَاهِلِيَّةِ قَوْلُ ذَلِكَ الْجَاهِلِ الزُّنْدِيقِ الَّذِي يُعْرَفُ (بِالْيَلْدِي) - إِذْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَالْبَقْلَةِ ، فَإِذَا مَاتَ لَمْ يَزْجَعْ . وَقُلْتُ لِنَفْسِي : إِنَّمَا أَنْتَ بَقْلَةٌ حَمَاءٌ ذَاوِيَّةٌ فِي أَرْضٍ نَشَاشَةٍ^(١) ، فَقَتَلَهَا مِلْحُ أَرْضِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَحْيَاها .

قال : وَثُرْتُ إِلَى الْجِدِيَّةِ أَرِيدُ أَنْ أَتَوَجَّأَ بِهَا ، فَتَبَادَرَنِي الْمَرَأَةُ وَتَحَوَّلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ؛ وَكَأَدُ أَبْطَشُ بِهَا مِنَ الْغَيْظِ ، وَكَانَتْ رُوحُ الْجَحِيمِ تَزْفِرُ مِنْ حَوْلِي لَوْ سَمِعُوا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَمُورُ ؛ فَمَا أَدْرِي أَيْ مَلِكٍ هَبَطَ بِوَحْيِ الْجَنَّةِ فِي لِسَانِ امْرَأَتِي .

قُلْتُ لَهَا : إِنَّهَا عَزَمَةٌ مِنِّي أَنْ أَقْتَلَ نَفْسِي .

قَالَتْ : وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَتَقَضَّهَا وَلَسْتُ أَرُدُّكَ عَنْهَا وَسَتُمْضِيهَا .

قُلْتُ : فَخَلِّي بَيْنَ نَفْسِي وَبَيْنَ الْجِدِيَّةِ .

قَالَتْ : كُلُّنَا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ أَنَا وَأَنْتَ وَالصَّبِيُّ فَلَنَنْقُضَ مَعًا ؛ وَمَا بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِكَ رَغْبَةٌ وَلَا نَدْعُ الصَّبِيَّ يَتِيماً يَصْفَعُهُ مَنْ يُطْعِمُهُ ، وَيَضْرِبُهُ ابْنُ هَذَا وَابْنُ ذَاكَ إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ فِي أَوْلَادِ النَّاسِ أَنَا ابْنُ ذَلِكَ وَلَا ابْنُ هَذَا .

قُلْتُ : هَذَا هُوَ الرَّأْيُ .

قَالَتْ : فَتَعَالِ اذْبَحِ الطِّفْلَ

قال المسيب بن رافع : وما بلغ الرجل في قصته إلى ذبح صغيره حتى ضجَّ الناسُ ضجَّةً مُنْكَرَةً ؛ وَتَوَقَّعَ كُلُّ أَبٍ مِنْهُمْ أَنَّ طِفْلَهُ الصَّغِيرَ مُمَدَّدٌ لِلذَّبْحِ وَهُوَ يُنَادِي أَبَاهُ وَيَشْتَقُّ خَلْقَهُ بِالصُّرَاخِ : يَا أَبِي يَا أَبِي ؛ أَدْرَكْنِي يَا أَبِي .

(١) الأرض النشاشة : هي السبخة التي فيها الملح والماء .

أما الإمام فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَكَثُتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ، كَيْفَ تَصْنَعُ
جَهَنَّمُ حَطَبَهَا؟

وَأَنَا فَمَا قَطُّ نَسِيتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، وَمَا قَطُّ رَأَيْتُ مِنْ بَعْدِهَا كَافِرًا وَلَا فَاسِقًا
فَاعْتَبِرْتُ أَعْمَالَهُ إِلَّا كَانَ كُلُّ ذَلِكَ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ طَرِيقَةُ صَنْعَتِهِ حَطَبًا... كَأَنَّ
الشَّيْطَانَ لَعَنَهُ اللَّهُ يَقُولُ لِاتِّبَاعِهِ؛ جَفَّفُوهُ...

وَكَانَتْ هُنَيْهَاتٍ، ثُمَّ فَاءَ النَّاسُ وَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَاحُوا بِالْمُتَكَلِّمِ: ثُمَّ مَاذَا؟

قَالَ الرَّجُلُ: فَتَحْتُ عَيْنِي وَقَلْبِي مَعًا وَزَمَعْتُ الطِّفْلَ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَمْلِكُ إِلَّا
بِيَدِهِ الضَّعِيفَتَيْنِ؛ وَنَظَرْتُ إِلَى مَجْرَى السَّكِينِ مِنْ حَلْقِهِ إِلَى مَحْزَرِهَا فِي رَقَبَتِهِ اللَّيْنَةِ؛
وَرَأَيْتُهُ كَأَنَّمَا تَفَرَّقَ بَصَرُهُ مِنَ الْفَرْعِ عَلَى كُلِّ جِهَةٍ، وَرَأَيْتُهُ يَتَضَرَّعُ لِي بِعَيْنَيْهِ الْبَاكِتَيْنِ أَلَّا
أَذْبَحَهُ، وَرَأَيْتُهُ يَتَوَسَّلُ بِيَدَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ كَأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ مَتِي أَمَامَ قَاتِلِهِ، ثُمَّ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ
يَتَلَوَّى وَيَتَفَضَّلُ وَيَصْرُخُ مِنَ أَلَمِ الذَّبْحِ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِ؛ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِ النَّعِيسِ.

يَا وَبِلَتَاهُ! لَقَدْ أَخَذَنِي مَا كَانَ يَأْخُذَنِي لَوْ تَهَدَّمَتِ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ،
وَحَسِبْتُ الْكَوْنَ كُلَّهُ قَدْ انْفَجَرَ صُرَاحًا مِنْ أَجْلِ الطِّفْلِ الضَّعِيفِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ إِلَّا رَبُّهُ
أَمَامَ الْقَاتِلِ.

فَهَزَوْتُ مُسْرِعًا وَتَرَكْتُ الدَّارَ وَالْمَرَأَةَ وَالصَّبِيَّ وَأَنَا أَقُولُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.
يَا مَنْ خَلَقَ الطِّفْلَ عَالِمُهُ أُمُّهُ وَأَبُوهُ وَحَدَّاهُمَا وَبَاقِي الْعَالَمِ هِبَاءٌ عَنْدَهُ. يَا مَنْ ذَبَرَ
الرَّضِيعَ فَوَهَبَهُ مُلْكًا وَمَمْلَكَةً وَغَنَى وَسُرُورًا وَفَرَحًا، كُلُّ ذَلِكَ فِي ثَدْيِ أُمِّهِ وَصَدْرِهَا
لَا غَيْرَ يَا إِلَهِي: أَنَسَنِي مِثْلَ هَذَا النِّسْيَانِ، وَارْزُقَنِي مِثْلَ هَذَا الرِّزْقِ، وَاكْفُلْنِي بِمِثْلِ
هَذَا التَّدْبِيرِ فَإِنِّي مُنْقَطِعٌ إِلَّا مِنْ رَحْمَتِكَ انْقِطَاعَ الرِّضِيعِ إِلَّا مِنْ أُمِّهِ.

قَالَ الرَّجُلُ: وَلَقَدْ كُنْتُ مَغْرُورًا كَالْجِيْفَةِ الرَّاكِدَةِ تَحْسِبُ أَنَّهَا هِيَ تَفُورُ حِينَ
فَارَتْ حَشْرَاتِهَا. وَلَقَدْ كُنْتُ أَحْقَرُ مِنَ الذَّبَابِ الَّذِي لَا يَجِدُ حَقَائِقَهُ، وَلَا يَلْتَمِسُهَا إِلَّا
فِي أَقْدَرِ الْقَدَرِ.

وَمَا كِذْتُ أَمْضِي كَمَا تَسُوقُنِي رَجُلَايَ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتًا نَدِيًّا مَطْلُولًا يَرْجُعُ
تَرْجِيعَ الْوُزْقَاءِ فِي تَخْنَانِهَا وَهُوَ يُرْتِّلُ هَذِهِ الْآيَةَ:

﴿وَأَمِيرٌ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْغَيْبِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَدْعُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ
زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا يُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال: فوقفتُ أسمعُ وماذا كنتُ أسمع؟ هذه شغلٌ لا كلمات، أحرقتُ كلَّ ما كان حولي ولمستُ مصباحَ رُوحِي المنطفئِ فإذا هو يتوهجُ، وإذا الدنيا كلها تتوهجُ في نوره، وارتفعتُ نفسي عن الجذبِ الذي كنتُ فيه وكأنما لفثني سحابةٌ من السحب، ففي رُوحِي نسيمُ الماءِ الباردِ ورائحةُ الماءِ العذبِ.

لعمري الله هذا الاضطرابُ الذي يُبتلى الخائفُ به. إننا نحسُّه اضطراباً وما هو إلا اختلاطُ الحقائقِ على النفسِ وذهابُ بعضها في بعض، وتَضَرُّبُ الشرِّ في الخيرِ والخيرِ في الشرِّ حتى لا يَبِينُ جنسٌ من جنس، ولا يَعْرِفَ حَدٌّ من حَدٍّ، ولا تَمْتَازَ حقيقةٌ من حقيقة. وبهذا يكونُ الزمنُ على المبتلى كالماءِ الذي جَمَدَ لا يتحرَّكُ ولا يَتَسَاوَرُ. فيلوحُ الشرُّ وكأنَّه دائماً لا يزالُ في أولِهِ يُنذِرُ بالأهوالِ، وقد يكونُ هَؤُلَاءِ انتهى أو يوشِكُ.

قال الرجل: وكنتُ أرى يَاسِي قَدِ اغْتَرَى كُلَّ شَيْءٍ، فامتدَّ إلى آخرِ الكونِ وإلى آخرِ الزمنِ؛ فلَمَّا سَكَنَ ما بي إذا هو قد كان يَأْسُ يومٍ أو أيامٍ في مكانٍ من الأمكنة؛ أمّا ما وراءَ هذه الأَيَّامِ وما خَلْفَ هذا المكانِ، فذلك حُكْمُهُ حُكْمُ الشَّمْسِ التي تَطْلُعُ وتَغِيْبُ على الدنيا لإحيائها، وحُكْمُ الماءِ الذي تَهْمِي السماءُ به لِيَسْقِي الأَرْضَ وما عليها، وحُكْمُ استمرارِ هذه الأجرامِ السماويَّةِ في مَدَارِها لا تُمَسِكُها ولا تَرْفُها إلا قُوَّةُ خالقِها.

أين أثرُ الإنسانِ الدنيءِ الحَقِيرِ في كُلِّ ذلك؟ وهل الحياةُ إلا بَكلِّ ذلك؟ وما الذي في يدِ الإنسانِ العاجِزِ من هذا النظامِ كُلِّهِ فَيَسُوِّغُ له أن يقولَ في حادثةٍ من حوادثِهِ إنَّ الخيرَ لا يَبْتَدِيءُ وإنَّ الشرَّ لا يَنْتَهِي؟

تَعْتَرِي المصائبُ هذا الإنسانَ لِتَمَحُوَ من نَفْسِهِ الجُحْنَ والدناءةَ، وتَكْبِرُ الشرَّ والكِبْرِيَاءَ، وتَفْشِي الجِدَّةَ والطيشَ؛ فلا يكونُ من حُجْمِهِ إلا أن يَزِيدَ بها طِيْشاً وَجِدَّةً، وكِبْرِيَاءً وَشَرّاً، ودناءةً وَجُحْنَ، فهذه هي مصيبتُ الإنسانِ لا تلك. المصيبةُ هي ما يَنْشَأُ في الإنسانِ من المصيبةِ.



قال: ورُدَّدْتُ الآيةَ الكريمةَ في نفسي لا أَشْبَعُ منها، وجعلتُ أرْتُلُها أَحْسَنَ ترتيلٍ وأطربَ وأشجاء؛ فكانتُ نفسي تهتزُّ وترتجُّ كأنَّما هي تبدأ تنظيمَ ما فيها لإقرارِ كُلِّ حَقِيقَةٍ في موضعِها بعدَ ذلك الاختلاطِ والاضطرابِ.

صبرُ النفسِ مع الذين يمثُلون روحانيَّتها تمثيلاً دائماً بالعداءِ والعشَى، وعلى نورِ الحياةِ وظلامِها، يُريدون وَجْهَ الله الذي سبيلُهُ الحُبُّ لا غَيْرُهُ من مالٍ أو متاعٍ.

وتقييدُ العينين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمرُ في الجمالِ والحُب؛ والربطُ على الإرادة كيلاً تَنفَلَّتْ فَتَسِفَ إلى حقائِرِ الدنيا المسماة مُزْءاً وتهكماً زينة الدنيا، تلك التي تُشبهُ حقائِقَ الذبابِ العالية... فتكونُ قَذِرَةً نَجَسَةً، ولكنها مع ذلك زينة الحياة لهذا الخَلْقِ الذَّبَابِي.

تلك - والله - هي أسبابُ السعادة والقوة. أما المصائبُ كُلُّها، فهي في إغفالِ القلبِ الإنساني عن ذكرِ الله.

قال: ولَمَّا صَحَّحتُ توبتي، وَقَوَّيَ اليقينَ في نفسي، كَبُرَتْ رُوحِي واتسَعَتْ، وانبَعَثَتْ لها بواعثُ من غيرِ حقائِقِ الذباب، وأشرقَ فيها الجمالُ الإلهي ساطعاً من كُلِّ شيء، وكان الصبحُ يطلُّ عليَّ كأنَّهُ ولادةٌ جديدة، فأنا دائماً في عُمُرِ طفل، وجاءني الخيرُ من حيثُ اُحْتَسِبُ ولا اُحْتَسِب، وكأنما نِمْتُ فانتبَهْتُ غنياً وَعَمِلَ القلبُ الحيُّ في الزمنِ الحيِّ.

ولقد أَفْذْتُ من الآيةِ طَبِيعَةً لم تَكُنْ فيَّ، ولا يَثْبُتُ معها الشرُّ أبداً، فأصبحَ من خِصَالِي أَنْ أرى الحاضرَ كُلَّهُ متحرِّكاً يَمُرُّ بما فيه من خيرِهِ وشرِّهِ جميعاً، وأُستَشِعِرُ حركتَهُ مثلما ترى عيناى من قِطارِ الإبلِ يهتَزُّ تحتَ رِحالِهِ وهو يُغْذِي السَّيرَ. لم أَبْعِدْ قليلاً وأنا أمشي مطمئناً تائباً متوكِّلاً حتى دعاني رجلٌ ذو نعمةٍ ومروءةٍ وجاء، وكأنما كَلَّمَهُ قَلْبُهُ أو كَلَّمَهُ وَجْهِي في قلبِهِ فاستجابَني، وبَثَّثَهُ حالي واقتَصَصْتُ قِصتي. فقال: سَيُحْيِيكَ اللهُ بالطفلِ الذي كَذَبْتَ تَقَتَّلُهُ فارجعْ إلى دارِكَ. ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ دنانيرَ وقال: اِتَّجِرْ بهذه على اسمِ الله وبركته فيسِنمو فيها طفلٌ من المالِ يبلُغُ أَشَدَّهُ. وقد صدقَ إيمانُهُ وإيماني، فباركَ لِي اللهُ ونما طفلُ المالِ وبلغَ وجاوزَ إلى شِبابِهِ.

قال المَسِيَّبُ: وجلسَ الرجلُ وكان كالخطيبِ على المنبرِ، فقال الإمام: ما أَشْبَهَ النكبةَ بِالْبَيْضَةِ تُحَسَّبُ سِجْناً لِمَا فيها وهي تحوُّطُهُ وتَرْبِيهِ وتُعِينُهُ على تَمَامِهِ، وليس عليه إِلَّا الصبرُ إلى مَدَّة، والرَّضَى إلى غَايَةٍ، ثم تَنْقُفُ البَيضَةُ فيخرجُ خَلْقاً آخَرَ. وما المؤمنُ في دنياه إِلَّا كالْفَرْخِ في بَيْضَتِهِ، عمله أَنْ يَتَكَوَّنَ فيها، وتَمَامُهُ أَنْ يَنْبَقِيَ شَخْصُهُ الكَامِلُ فيخرجُ إلى عَالَمِهِ الكَامِلِ.

الانتحار

(٤)

قال المسيب بن رافع: ومذ الإمام عينه وقد رُفِعَ له شخص من المجلس؛ ثم جلى بنظره كأنما يتطلع إلى عجيبة كالحق إذا بطل، والصدق إذا كذب؛ ثم ردَّ بصره علي كأنه يُعْجِبُنِي من عجبهِ؛ ثم سَجَا طَرَفُهُ كأنما أنكرَ رأيَ عينيه فهو يلتبسُ رأيَ قلبه. وتبيّنتُ في وجهه انقباضاً خَئِلاً إليَّ أنَّ الشيطانَ جاءهُ بهذا الرجل يُفْجِمُهُ به يُريه كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصالحينَ يتحمَّسُ في دينه ليرجعَ بعدَ ذلك أصلاً لا غنى عنه في إنشاءِ قصةٍ كُفْرًا!

هذا هو ضيفنا (أبو محمد البصري^(*)) يَتَخَوَّضُ النَّاسَ ليجيءَ فيُحَدِّثُنَا حديقته في قَتْلِ نفسه والاثم بربه؛ فلو قيل لي: إِنَّ قَوْسَ السَّمَاءِ بِأَحْمَرِهِ وَأَصْفَرِهِ وَأَزْرَقِهِ وَأَخْضَرِهِ، قَدْ وَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ وَاصْطَبَحَ مِنَ ألْوَانِهِ أَوْحَالاً وَأَقْدَاراً؛ لَكَانَ هَذَا كَهَذَا فِي تَعَاظِيهِ وَإِنْكَارِهِ وَالْعَجَبِ مِنْهُ؛ فَأَبُو مُحَمَّدٍ مِنَ الرِّجَالِ الْخُمْسِ^(١) الَّذِينَ لَوْ كَفَرَ أَحَدُهُمْ ثُمَّ قِيلَ: «إِنَّهُ كَفَرَ»، لَقَصَّرَ اللَّفْظُ أَنْ يَبْلُغَ الْحَقِيقَةَ أَوْ يَصِفَ شُعْنَهَا، كَمَا يَقْصُرُ لَفْظُ الْجَنُونِ عَنْ وَصْفِ حَكِيمٍ تَأَلَّى أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الْكُونِ، فَلَا يَبْقَى فِي أَرْضٍ وَلَا سَمَاءٍ وَلَا تَنَالُهُ يَدُ اللَّهِ! إِنَّ فِي لَفْظِ الْكُفْرِ مَعَ ذَلِكَ، وَفِي لَفْظِ الْجَنُونِ مَعَ هَذَا - شَيْئًا مِنْ نِفَاقِ الْعَقْلِ وَتَأْذِيهِ فِي آذَاءِ الْمَعْنَى الْآخَرِ الَّذِي لَا يُشَبِّهُهُ جُنُونٌ وَلَا كُفْرٌ.

ونعوذُ بِاللَّهِ مِنْ خِذْلَانِهِ؛ فَلَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ فِي تَشَدُّدِهِ وَإِيغَالِهِ فِي الدِّينِ - كَالَّذِي يَصْنَعُ حَيْلًا يَفْتِلُهُ فَتَلًا شَدِيدًا فَيُفِئِرُهُ عَلَى طَاقٍ بَعْدَ طَاقٍ، لِيَكُونَ أَشَدُّ لَهُ وَأَقْوَى، ثُمَّ يُجَاذِبُهُ الشَّيْطَانُ حَبْلَهُ، فَإِذَا هُوَ كَانَ فِي الْوَهْنِ مِثْلَ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ

(*) يعني المؤلف بأن محمد البصري هذا صديقنا الأستاذ (م) ومن أجله أنشأ هذه المقالات وقد سبقت إشاراتنا إلى حادثته وخبره وما فعل بنفسه - فانظر كل ذلك في موضعه من كتابنا (حياة الرافعي) وأكثر ما يأتي في هذا الفصل على لسان «أبي محمد البصري» فهو من قوله بحروفة إلا قليلاً من قليل.

(١) أي المتحمسين في دينهم.

بيتاً في سَفَف حدّاد؛ فرائه يصبُّ الحديد المصهورَ يجعلُهُ سلسلةً حلقةً في حلقة،
فذهبت تحكيه وترسل من أعبائها خيطاً في خيط ترعّمه سلسلة...!

إنّ مع كلّ مؤمن شيطانه يتربّص به، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكون في كلّ
ساعة كالذي يشعر أنّه لم يؤمن إلّا منذ ساعة، فهو أبداً محترسٌ منتهية متجدّد
الحواسّ مُرَفَّها يستقبل بها الدنيا جديدةً على نفسه بين الفترة والفترة؛ ومن هذا
جكّمه أن يؤدّن المؤدّن، وأن تُقام الصلاة مراراً في اليوم، فكلّما بدأ وقت قال
المؤمن: الآن أبداً إيماني أظهر ما كان وأقوى.

وقال الإمام: هيه يا أبا محمد! فقال البَصْرِيُّ وقد رأى الكراهة في وجه
الإمام: لا يُغزّ عتك أيّها الشيخ؛ فإنّ الله - تعالى - قد يجعل ما يُحبّه هو فيما نكره
نحن؛ وليس للأقدار لغة فتجري على الفاظنا؛ وقد تُسمي النازلة تنزل بنا خساراً
وهي ربح، أو نقول مصيبة جاءت لتبديل الحياة، ولا تكون إلّا طريقة تيسّرت
لتبديل الفكر. إنّما لغة القدر في شيء هي حقيقة هذا الشيء حين تظهر الحقيقة؛
وكأني من حادثة لا تُصيب امرأ في نفسه إلّا لتقع بها الحرب بين هذه النفس وبين
غرائزها. فتكون أعمال الطبيعة المعادية أسباباً في أعمال العقل المتصر.

وكثير من هذا البلاء الذي يُفرض على الإنسان، لا يكون إلّا وسائل من القدر
يُرَدّ بها الإنسان إلى عالم فكره الخاص به؛ فإنّ هذه الدنيا عالم واحد لكل من
فيها، ولكن دائرة الفكر والنفس هي لصاحبها عالمه وحده. والسعيد من قر في
عالمه هذا واستطاع أن يحكم فيه كالملك في مملكته، نافذ الأمر في صغيرها
وكبيرتها؛ والشقي من لا يزال ضائعاً بين عوالم الناس، ينظر إلى هذا الغني، وإلى
ذاك المجدود وإلى ذلك الموفق؛ وهو في كلّ هذا كالأجنبي في غير بلده وغير
قومه وغير أهله، إذ كلّ شيء يُصبح أجنياً عن الإنسان ما دام هو أجنياً عن نفسه.

لقد كُنت ضالاً عن نفسي وعالمها، فكُنت في هذه الدنيا أستمع شعور
اللص، أشياء هي أشياء الناس جميعاً؛ واللص ينظر إلى أموال الناس بعيني شاعرٍ
مُتَحَبِّبٍ كَلِف، وهي تنظر إليه بعيني مُقاتِلٍ متربّصٍ حذرٍ.

كنت والله إن ضُفْتُ بالناس أو وسعُتهم؛ رأيت في ذلك معنى من ضيق
اللص وسعته؛ هو على أي حاله لا ينظر في أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت
الظلام يتسلّل في خشية وحذر!

وكنْتُ نَزَقًا حَدِيدَ الطَّبْعِ سَرِيعَ الْبَادِرَةِ؛ وَمَنْ فَقَدَ عَالَمَ نَفْسِهِ وَكَانَ فِي مَثَلِ اللَّصْرِ الَّذِي ذَكَرْتُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الطَّبَاعُ تَكُونُ هِيَ أَسْلِحَتَهُ يَذْفَعُ بِهَا أَوْ يَعْتَدِي. وَمَا قَطُّ تَمَكَّنَ إِنْسَانٌ مِنْ نَفْسِهِ وَأَحَاطَ بِهَا وَغَذَّ فِيهَا تَصَرُّفَهُ؛ إِلَّا كَانَ رَاضِيًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذْ يَتَّصِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِجَهْتِهِ السَّامِيَةِ لَا غَيْرِهَا، حَتَّى فِي اتِّصَالِهِ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النَّاسِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ فَمَا يَرَى هَوْلًا وَلَا هَوْلًا إِلَّا امْتِحَانًا لِفَضَائِلِهِ وَإِبْتَاءًا لَهَا. وَقَدْ يَكُونُ عَدُوُّكَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ عَيْنًا لَكَ فِي رُؤْيَا نَفْسِكَ؛ فَبِهِ بَرَكَةُ هَذِهِ الْحَاشَةِ وَنِعْمَتُهَا.

وَلَوْ نَحْنُ كُنَّا مُسْلِمِينَ إِسْلَامَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَإِسْلَامَ الْمُقْتَدِينَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ - لِأَدْرَكْنَا سِرَّ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ؛ وَهُوَ أَنَّ يَقَرَّ الْإِنْسَانُ فِي عَالَمِ نَفْسِهِ وَيَجْعَلُ بَاطِنَهُ كِبَاطِنَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَهِيٍّ، لَيْسَ فِيهِ إِلَّا قَانُونُهُ الْوَاحِدُ الْمُسْتَمَرُّ بِهِ إِلَى جِهَةِ الْكَمَالِ، الْمُرْتَفِعُ بِهِ مِنْ أَجْلِ كَمَالِهِ عَنْ دَوَائِعِ غَيْرِهِ؛ فَتَنْظَرُ الْإِنْسَانُ إِلَى نَقْصِ غَيْرِهِ هُوَ أَوَّلُ نَفْسِهِ. وَالْمُؤْمِنُ كَالْفَصْنِ؛ إِنَّ أَمَرَ فَنَلَّكَ ثَمَارَ نَفْسِهِ، وَإِنْ عَطَلَ لَمْ يَشْحَذْ وَلَمْ يَحْشُدْ وَاسْتَمَرَّ يَعْمَلُ بِقَانُونِهِ.

وَلَقَدْ نَشَأْتُ فِي مَغْرَسِ كَرِيمٍ، عَلَى صُورَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ تُشَبِّهُ صُورَةَ الشَّمْرَةِ الْخُلُوعِ، اجْتَمَعَ لَهَا مِنْ طَبِيعَةِ مَغْرَسِهَا وَمَرْتَبَتِهَا مَا تَتَعَيَّنُ بِهِ مِنْ حِلَاوَةٍ وَنُكْهَةٍ وَمَذَاقٍ؛ فَلَمَّا عَقَلْتُ وَعَرَفْتُ النَّاسَ بَعْدَ فَجَارَتِهِمْ وَخَالَطْتُهُمْ، رَأَيْتُنِي مِنْهُمْ كَالْتَفَاحَةِ مُلْقَاةٍ فِي الْبَصْلِ. وَكَانَتْ التَّفَاحَةُ حُمَقَاءَ فَزَادَتْ حُمَقًا، وَكَانَتْ جَدِيدَةً فَزَادَتْ جِدَةً، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ مُسِيخَتْ فِي الدُّنْيَا وَبُدِّلَتْ إِذْ خُلِقَتِ الْبَصْلَةُ بَعْدَ أَنْ خُلِقَتْ التَّفَاحَةُ؛ وَمَا عَلِمَتِ الْخُرْقَاءُ أَنَّ الْكَمَالَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مَجْمُوعُ نَقَائِصٍ، وَأَنَّ لِلْجَمَالِ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا الَّذِي اسْمُهُ الْقَبِيحُ؛ لَا يُعْرَفُ هَذَا إِلَّا مِنْ هَذَا؛ وَأَنَّ الْبَصْلَةَ لَوْ أَدْرَكْتُ مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنْ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى التَّفَاحَةِ لَسَمَّيْتُ نَفْسَهَا هِيَ التَّفَاحَةُ، وَقَالْتُ عَنْ هَذِهِ إِنَّهَا هِيَ الْبَصْلَةُ!

وَلَمَّا رَأَيْتُ تَفَاحَتِي أَنَّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تَجْعَلَ الشَّجَرَ كُلَّهُ فِي مِثْلِ مَرْتَبَتِهَا وَمَغْرَسِهَا - قَالَتْ: إِنَّ الْأَمْرَ أَكْبَرُ مِنْ طَبِيعَتِي، وَمَا دَامَ سِرُّ الْكُونِ مُغْلَقًا فَلَا تَعْرِيفَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ سِرٌّ مُغْلَقٌ، وَلَيَبْقَى كُلُّ شَيْءٍ فِي طَبِيعَةِ نَفْسِهِ، فَعَلَى هَذَا يَصْلُحُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَوْ فِي نَفْسِهِ وَحْدَهَا.



قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: وَلَكِنْ بَقِيَتْ وَخْشَةُ الدُّنْيَا وَجَفَوْتُهَا، إِذْ لَمْ أَكُنْ اهْتَدَيْتُ إِلَى عَالَمِي، وَلَا تَأَكَّدْتُ عَقِيدَتِي بِنَفْسِي؛ فَكَانَ كُلُّ مَا حَوْلِي مُتَجَسِّمًا فِي رُوحِي بِشَرِّهِ، وَكَانَتْ الدُّنْيَا بِهَذَا كَالْمُتَطَابِقَةِ فِي رَأْيِي عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَزَادَنِي أَنِّي كُنْتُ رَجُلًا

عَزَبًا مُتَعَفِّفًا؛ وما أَشَبَّهَ فراغَ الرجولة من المرأة بفراغِ العقلِ من الذكاء؛ هذا هو العقلُ البليد، وتلك هي الرجولة البليدة!

والمرأة تُضَاعِفُ معنى الحياة في النفس، فلا جَرَمَ كان الخلاء منها مضاعفةً لِمَعْنَى الموت؛ عَلِمَ هذا مَنْ عَلمَ وَجْهَهُ من جَهْلٍ، فكُنْتُ أَعِيشُ مَنْ الكونِ في فراغٍ مَيّتٍ، وكُنْتُ أَجِسُّ في كُلِّ ما حولي وحشةً عَقْلِيَّةً تُشْعِرُنِي أَنَّ الدُّنْيَا غَيْرُ تَامَةٍ؛ وَكَيْفَ تَتِمُّ في عَيْنِي دُنْيَا أَرَاهَا غَيْرَ الدُّنْيَا الَّتِي فِي قَلْبِي؟

وعرِفْتُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمُضِي عَلَى الرَّجُلِ الْعَزَبِ الْمُتَعَفِّفِ لَا يَمُضِي حَتَّى يُهَيِّئَ فِيهِ مَرَضٌ يَوْمَ آخَرٍ. وَمِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمَرِيضَةِ الْمُتَهَالِكَةِ، تُبْذَرُ الْحَيَاةُ انْتِقَامَهَا مِنْ هَذَا الْحَيِّ الَّذِي نَقَضَ آيَتَهَا وَافْتَأَتْ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ نَفْسَهُ كَالْإِلَهِ لَا زَوْجَةَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ!

وَأَيْمُ اللَّهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الزَّانِي وَبِالْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ مَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الْعَزَبِ وَبِالْمَرْأَةِ الْعَزْبَاءِ؛ لِأَنَّهُ فِي ذَيْنِكَ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِهَا، أَمَّا فِي هَذَيْنِ فَالشَّيْطَانُ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِ فَضِيلَةٍ...! هُنَاكَ يَلُمُّ الشَّيْطَانُ وَيَمُضِي، وَهُنَا يَأْتِي الشَّيْطَانُ وَيُقِيمُ!

وَقَدْ عِشْتُ مَا عِشْتُ بِقَلْبٍ مُغْلَقٍ وَعَقْلٍ مُفْتَوِّحٍ؛ وَلَيْتَنِي كُنْتُ جَاهِلًا مُغْلَقًا عَقْلُهُ، وَكَانَ قَلْبِي مُفْتَوِّحًا لِأَفْرَاحِ هَذَا الْكَوْنِ الْعَظِيمِ!

وَمَضَتْ أَيَّامِي يَضْرِبُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَيَمْرُضُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّى انْتَهَتْ مُتَهَاوَا، وَجَاءَ الْيَوْمُ الْمُدْنَفُ الْهَالِكُ الَّذِي سَيَمُوتُ.

أَصْبَحْتُ فَقُلْتُ لِنَفْسِي: كَمْ تَعِيشِينَ وَيَحِكُ فِي أَحْكَامِ جَسَدٍ مُخْتَلٍّ لَا تَصْدُقُ أَحْكَامَهُ، وَمَا أَنْتِ مَعَهُ فِي طَبِيعَتِكَ وَلَا هُوَ مَعَكَ فِي طَبِيعَتِهِ؛ فَفِيمَ اجْتِمَاعُكُمَا إِلَّا عَلَى بِلَاقِي وَنَكْدِي؟

لَمْ تَصْطَلِحَا قَطَّ عَلَى وَاجِبٍ وَلَا لَذَّةٍ، وَلَا حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ؛ فَانْتَمَا عَذْوَانِ لَا هَمَّ لِكُلَيْهِمَا إِلَّا إِفْسَادُ الْمَسْرُةِ الَّتِي تَغْرِضُ لِلْآخِرِ. وَمَا أَدْرِي بِمَنْ يَسْحَرُ الشَّيْطَانُ مِنْكُمْ؟ فَالْعَابِدُ الَّذِي يُؤَسِّسُ بِاللَّذَاتِ يَتَمَتَّى اقْتِرَافُهَا، كَالْفَاجِرِ الَّذِي يُوَاقِعُهَا وَيَفْتَحُهَا!

وَيَحِكُ يَا نَفْسُ! إِنِّي رَأَيْتُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْخَرْقَاءَ لَمْ تُقَدِّمْ لِي إِلَّا رَغِيفًا وَقَالَتْ: اِمْلَأْ بِهَذَا بَطْنَكَ وَعَقْلَكَ وَعَيْنَيْكَ وَأَذْنَيْكَ وَمَشَاعِرَكَ. أَهْ، أَهْ! مُنْكِئٌ وَاحِدٌ مَعَهُ أَرْبَعُ مُسْتَحِيلَاتٍ^(١)؛ إِنَّ هَذَا لَا يُلْبِثُنِي أَنْ يَذْهَبَ مِنِّي بِالْأَرْبَعَةِ الَّتِي تُمَكِّنُنِي عَلَى الْحَيَاةِ: الْأَمَلُ وَالْعَقْلُ وَالْإِيمَانُ وَالصَّبْرُ.

(١) الرغيف يملأ البطن فهذا هو الممكن ولكن عمله في الباقيات مستحيل.

لقد استوى في هذه الكآبة صغيرٌ هَمِّي وكبيرُهُ، وما أراني إلا قد أشرفتُ على الهلكة التي لا بَاقِيَةَ لها، فإنَّ وجهي المتكلِّحَ المتقبُّضُ يَدُلُّ مِنِّي على أعصابٍ مُحْتَضِرَةٍ نَهَكَتْهَا أمراضُها ووساوسُها، وإنَّما وجهُ الإنسانِ في قُطُوبِهِ أو تَهْلِيلِهِ هو وجهُهُ ووجهُ دُنْيَاهُ تَعَبُسٌ أو تَبَسُّمٌ.

وتالله لقد عجزتُ عن كِفَاحِ الدنيا بهذه الأعصابِ المريضةِ الواهنة؛ فإنَّ جِبَالَ الصَّيْدِ - صَيْدِ الوحشِ - لا تَكُونُ من خَيْطِ الإبرة...! وأراني أصبحتُ كإنسانٍ حَجَرِيٍّ ليس في طَبِيعَتِهِ الاتِّواءُ إلى يَمِينِ الحَيَاةِ ويسَارِها؛ وَيُخَيِّلُ إِلَيَّ من صلابتي أَنِّي الأسدُ، ولكنِّي أسدٌ من حَجَرٍ، لا تَفْرِضُ قُوَّتُهُ الفَرَارَ منه على أحدٍ!

قال أبو محمد: ورأيتُ نفسي في هذا الحوارِ كالمَيِّتَةِ، لا تُجِيبُ ولا تَعْتَرِضُ ولا تُنْكِرُ، وكنتُ أَظُنُّهَا تُزَاوِدُنِي على الحَيَاةِ أو تَرُدُّنِي عن غَوَايَتِي؛ فَمَلَانِي سَكُونُهَا جَزَعاً، وأيقنتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، وَأَنَّهُ أَخَذَ بِمَنَاقِذِهَا، فَأَرَدْتُ الصَّلَاةَ فَثَقُلْتُ عنها ورأيتُني لا أَصْلَحُ لها، بل خَيَّلَ إِلَيَّ أَنِّي إِذَا قُمْتُ إلى الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا قُمْتُ لِأَتَهَيَّأَ بِالصَّلَاةِ!

وجعل الشَّيْطَانُ يَأْخُذُنِي عن عقلي ويردُّني إليه، ثُمَّ يَأْخُذُنِي ويردُّني، حتى تَوَهَّمْتُ أَنِّي جُنِنْتُ، وكأَنَّمَا كان يُرِيدُ اللَّعِينُ بَقِيَّةَ إِيْمَانِي يُجَاذِبُنِي فِيهَا وَأَجَاذِبُهُ، فلم أَلْبَثُ أَن مَسَّنِي خَبَالٌ وَأَلْقَيْتُ هَذِهِ الْبَقِيَّةَ فِي يَدَيْهِ!

ثُمَّ أَفَقْتُ إِفَاقَةً سَرِيعَةً، فَرَأَيْتُ (المصحفَ) يَرُقُّبُنِي قَرِيباً، فَعُدْتُ بِهِ وَعَطَفْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: إِمْنَعِ الضَّرْبَةَ عن قلبي. يَبْدَأُ أَنِّي أَحْسَنْتُ أَنَّهُ خَصَمِي فِي مَوْقِفِي لَا ظَهِيرِي؛ كَأَنِّي جَعَلْتُهُ مَصْحَفاً عِنْدَ زَنْدِيقٍ، فَكَانَ كُلُّ إِيْمَانِي الَّذِي بَقِيَ لِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنِّي ضَعَفْتُ عَنِ حَمْلِ المَصْحَفِ كَمَا ثَقُلْتُ عَنِ الصَّلَاةِ، فَبَقِيَ الطَّاهِرُ طَاهِراً وَالنَّجَسُ نَجَساً.

ولم تَكُنْ نَفْسِي فِيَّ وَلَا كُنْتُ فِيهَا؛ فَرَأَيْتُ الدُّنْيَا على وَجْهِ لَا أَدْرِي مَا هُوَ، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعْقُولاً مِنْ تَخَالِيطِ مَجْنُونٍ تَرَكَهُ عَقْلُهُ مِنْ سَاعَةٍ: بِقَايَا شَعَوِرٍ ضَعِيفٍ، وَبِقَايَا فَهْمٍ مَرِيضٍ، تَتَصَاغَرُ فِيهِمَا الدُّنْيَا، وَتَحَاقَرُ بِهِمَا الْعَقْلُ.

فلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا لَمْ أَعْقِلْ مَا عَمَلْتُ، وَكَأَنَّتِ الْمَوْسَى قَدْ أَصَابَتْ مِنْ يَدِي عِزْقاً نَاشِزاً مُتَتَبِّراً، فَفَارَ الدَّمُ وَانْفَجَرَ مِنْهُ مِثْلُ الْيَنْبُوعِ ضَرْبَ عَنِ الصَّخَرِ فَنَاشَقَ فَاثْبَقَ. وَتَحَقَّقْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الْمَوْتُ فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ....



قال المسيب راوي القصة: وتجهّم وجه الرجل فأطرق وسكّت، وكان على وجهه شفقٌ مخمّرٌ فأظلم بغتةً عندما قال: «فَنظَرْتُ فَرَأَيْتُ».

وارتج المسجدُ بصيحةٍ واحدة: فرأيتُ ماذا؟ رأيتُ ماذا؟

وبعثتُ الصبيحةُ أبا محمد فقال: رأيتُ ثلاثة وجوهٍ أشرقتُ من المصحفِ تنظرُ إليّ كالعاتبة، وكان أوسطُها كالقمرِ الطالع، لو تمثّلتُ آياتُ الجنة كلّها وجهاً لكانتُ في نصرتِهِ وبشاشتِهِ. وعغمّمتِ الوجوهُ الثلاثةُ بكلماتٍ لم أسمعَ منها شيئاً، ولكنّ نظرَها إليّ كان يؤدّي لي معانيها، وكأنّها تقول: «أ كذلك المؤمن...؟».

ثمّ غابتُ وتخلّلتُ عني وبرزتُ ثلاثة وجوهٍ أخرى، كأنّها نقائصُ تلك، وأعوذُ بالله من أوسطِها، لو تمثّلتُ آياتُ الجحيمِ كلّها وجهاً لكانتُ في نُكرِهِ وهزله، وخيّلَ إليّ أنّ الوجهَ الأصفرَ منها وجهُ سورةٍ من سورِ المصحفِ، ففكرتُ، فوقعَ لي ممّا قامَ في نفسي من اللعنة أنّها: «تَبَّتْ يَدَايَ لَهَيٍّ وَتَبَّ» [المسد: ١]...

وطمَسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتغيّمتِ الدنيا، فأيقنتُ أنّ آتامي قد أقبلتُ عليّ ظلمةً بعد ظلمةٍ، والتمعَ شيءٌ أحمر، فنظرتُ فإذا الدّمُ يتخايّلُ في عيني كأنّه شعلٌ تتلوّى، فجزعرتُ أشدَّ الجزع، وحسبْتُها طرائقَ ممتدّةٍ لروحي تذهبُ بها إلى الجحيمِ.

وماثتُ كلّ خواطري بعد ذلك إلّا فكرةً واحدةً بقيتُ حيّةً تأكلُ في قلبي أكل النار، وهي: «كيفَ تجرأتُ فوضعتُ بيني وبين الله حُفَفي؟».

ويقولون: إنّ أختي قد رأتني أتسحّطُ في دمي فصاحت، وجاءَ الناسُ على صوتِها، وكان فيهم طبيبٌ، فبعدَ لأيّ ما، استطاعَ حبسَ الدم، واحتالَ حيلتُهُ حتى أسفَّ الجرحَ دواءً وضَمَدَهُ؛ فجعلتُ أثوبُ نفساً بعدَ نفسٍ، وراجعتُ قليلاً قليلاً...

ثم طاقَتِ الحياةُ على عيني ففتحتُها، فإذا الأشياءُ تبدو لي وليس فيها حقائقٌ ولا معاني، كأنّها تتخلّجُ جديدةً تحتَ بصري، وكأنّها خارجةٌ لِسَاعِيَتِها من يدِ الله! وتماثلتُ شيئاً بعدَ ساعات، فأحسستُ أنّ نفسي قد رجعتُ إليّ ساخرةً مني تقول: كيفَ رأيتُ عَمَلَ العقلِ أيّها العاقلُ؟

وبدأتُ الحياةُ تتجدّد، فأقسمتُ بيني وبين نفسي أنّ أجدّدَ إيماني بالله. ولم أكدُ أفعلُ حتى أحسستُ أنّ قوّةَ الوجودِ كلّها مستقرّةٌ في روحي، وخيّلَ إليّ أنّي أنا وحدي القويُّ على هذه الأرضِ قوّةً جبالِها وصخورِها، على حين كان جسمي ممدّداً كالمنيّة لا يتماسكُ من الضعف!

فأيقنْتُ حينئذٍ ما أعرَفُهُ قَطُّ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ أَشْعُرْ بِهِ قَطُّ فِي الْحَيَاةِ وَلَمْ يَأْتِنِي بِهِ
عِلْمٌ وَلَا فِكْرٌ: أَيْقَنْتُ أَنَّهَا مُعْجَزَةُ الْإِيمَانِ الْجَدِيدِ الْغَضِّ، الْمُتَّصِلِ بِاللَّهِ لِتَوَهُ كَلِيمَانَ
الْأَنْبِيَاءِ دُونَ أَنْ تَلْمَسَهُ شَهْوَةٌ، أَوْ تَعْتَرِضَهُ خَاطِرَةٌ، أَوْ تُكَدِّرَهُ ذَرَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فِكْرِ
أَرْضِي دَنْسٍ.

* * *

قَالَ الْمَسِيَّبُ: ثُمَّ جَلَسَ الْمُتَحَدِّثُ، وَكَانَ النَّاسُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ كَأَنَّمَا غَادَرُوا
الدُّنْيَا سَاعَةً، وَرَجَعُوا إِلَيْهَا عَلَى مِثْلِ حَالَتِهِ وَمِثْلِ إِيْمَانِهِ؛ فَسَكَتَ الْإِمَامُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ،
لِيَدْعَ كُلُّ نَفْسٍ تَكَلِّمَ صَاحِبِهَا.

الانتحار

(٥)

قال المسيّب بن رافع: وأطرق الناس قليلاً بعد خَبَر (أبي محمد البَصْرِي)؛ إذ كان كلُّ منهم قد جَمَعَ باله لِمَا سَمِعَ، وأخذ يَخْدِسُ، في نفسه ويُرَاجِعُهَا الرَّأْيَ، وكان المجلسُ قد امتدَّ بنا منذُ العَصْرِ وما يكادُ النهارُ يُشْعِرُنَا بِإِدْبَارِهِ، حتى اعتَرَضَتْ في شَمِسِهِ الغُبْرَةُ التي تَعْتَرِيهَا إِذَا ذَنَتْ أَنْ تَغْرُبَ. وكان إلى يساري فتى رَيَّانُ الشَّبَابِ، حَسَنُ الصُّورَةِ، وَضِيءُ مُشْرِقٍ، له هَيْئَةٌ وَسَمْتٌ، أَقْبَلَ عَلَى الْإِيَّامِ، وَأَقْبَلَتِ الْإِيَّامُ عَلَيْهِ.

فَسَمِعَنِي أَطْلُغُ عَلَى أَذُنِ (مُجَاهِدِ الْأَزْدِيِّ)؛ وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ شَاعِراً فِي كَلَامِهِ وَشَاعِراً فِي قَلْبِهِ؛ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّهَارِ يَا مُجَاهِدُ إِلَّا مِثْلُ صَبْرِ الْمُحِبِّ دَنَا لَهُ الْمَوْعِدُ؛ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا مِثْلُ مَا تَتَلَفَّفُ صَاحِبَتُهُ، تَأْخُذُ عَلَيْهَا ثَوْبَهَا وَغَلَّظَلَهَا، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُسْقِطَهَا مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا، لَتَرَى جَمَالَ جَسَمِهَا هُنَا وَهَنَا!

فَاهْتَزَّ الْفَتَى لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَسَالَتِ الرُّقَّةُ فِي أَعْطَافِهِ، وَقَالَ: يَا عَمَّ، أَمَا تَرَى مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ وَجْهٌ بَالِكٌ مَسَّحَ دُمُوعُهُ وَلَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا كَأَبَةُ الزَّمَنِ...؟
قُلْتُ: كَأَنَّ لَكَ خَبِيراً يَا فَتَى، فَإِنْ كَانَ شَأْنُكَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ فَقَضُوهَا عَلَيْنَا وَغَلَّظْنَا بِهِ سَائِرَ الْوَقْتِ إِلَى أَنْ تَجِبَ الشَّمْسُ، وَلَعَلَّكَ طَائِرٌ بَنَّا طَيْرَةً فَوْقَ الدُّنْيَا.

قَالَ: فَمَهْ؟

قُلْتُ: تَقُومُ فَتَتَكَلَّمُ، فَإِنِّي أَرَى لَكَ لِسَاناً وَبَيَاناً.

قَالَ: أَوْ يَخْسَنُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ عَنْ صَرْعَةِ الْحُبِّ وَصَرِيحِهِ، وَعَاشِقَةٍ وَعَاشِقٍ؟
فَبَادَرَ مُجَاهِدٌ فَقَالَ: وَيَحْكُ يَا فَتَى! لَقَدْ تَحَجَّرْتُ وَاسْعَأْتُ؛ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُصَلِّي بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَكِتَابِ سَيِّئَاتِهِ فِي عَنَقِهِ مَنُشُورٌ مَقْرُوءٌ. وَهَلْ أَوْقَاتُ الصَّلَاةِ إِلَّا سَاعَاتُ قَلْبِيَّةٍ لِكُلِّ يَوْمٍ مِنَ الزَّمَنِ، تَأْتِي السَّاعَةُ مِمَّا قَبْلُهَا كَمَا تَأْتِي تَوْبَةُ الْقَلْبِ مِمَّا عَمِلَ الْجِسْمُ؟ إِنَّمَا يَتَلَقَّى الْمَسْجِدُ مَنْ يَدْخُلُهُ لِإِسَاعَتِهِ الَّتِي يَدْخُلُهَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّهُ حَاسِبُهُ عَنْ

أَمْسِ وَأَوَّلَ مِنْهُ وَمَا خَلَا مِنْ قَبْلِ، لَطَرْدُهُ مِنَ الْعَتَبَةِ! إِنَّ الْمَسْجِدَ يَا بُنَيَّ إِنَّمَا يَقُولُ لِدَاخِلِهِ: أَدْخُلْ فِي زَمَنِي وَدَعْ زَمَنَكَ، وَتَعَالِ إِلَيَّ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْأَرْضِيُّ، لِتَتَحَقَّقَ أَنَّ فِيكَ حَاسَةً مِنَ السَّمَاءِ، وَجِثْنِي بِقَلْبِكَ وَفَكْرِكَ، لِيشْعُرَا سَاعَةً أَنَّهُمَا فِيَّ لَا فِيكَ^(١). وَلَسْنَا الْآنَ يَا بُنَيَّ فِي مُتَحَدِّثٍ كَتَبَنِي الْقَوْمُ يَتَطَارَحُونَ فِيهِ أَخْبَارَهُمْ، بَلْ نَحْنُ فِي مَجْلِسِ عَالَمٍ تَكَلَّمْتُ فِيهِ رَقَبَةً هَذَا وَرَقَبَةً هَذَا بِمَا سَمِعْتُ؛ فَقُمْ أَنْتَ فَادْكُرْ عَلِمَ قَلْبِكَ وَقُصِّ عَلَيْنَا خَبَرُ طَيْشِ الْحُبِّ وَالشَّبَابِ الَّذِي يُشَبُّ الْكَلَامَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا عَنِ الصُّعُودِ إِلَى الْقَمَرِ وَالْقَبْضِ مِنْ هُنَاكَ عَلَى الْبَرْقِ!

قَالَ الْمَسِيبُ: فَانْتَهَضَ الْفَتَى، وَرَأَيْتُ مُجَاهِدًا يَتَنَهَّدُ كَأَنَّمَا انْصَدَعَتْ كَبِدُهُ: فَقُلْتُ: مَا بِأَلْكَ؟ قَالَ: إِنَّ شَبَابِي قَدْ مَرَّ عَلَيَّ السَّاعَةَ فَتَسَمَّتُ مِنْهُ فِي بُرْذَةِ هَذَا الْفَتَى، ثُمَّ فَقَدْتُهُ فَقَدْأَ ثَانِيًا فَهَرَمْتُ هَرَمًا ثَانِيًا، وَجَاءَنِي الْحُزْنُ مِنْ إِحْسَاسِي بِأَنِّي شَيْخٌ، حُزْنٌ مَنْ هَمَّ أَنْ يَدْخُلَ بَابَ حَبِيبٍ ثُمَّ رَدَّ...!

وَتَحَدَّثَ الْفَتَى، فَإِذَا هُوَ يُدِيرُ بَيْنَ فُكَيْهِ لِسَانَ شَاعِرٍ عَظِيمٍ، يَتَكَلَّمُ كَلَامَهُ بِنَفْسَيْنِ: إِحْدَاهُمَا بَشَرِيَّةً تَصْنَعُ الْمَعْنَى وَاللَفْظَ، وَالْأُخْرَى غُلُوبَةً تُلْقِي فِيهَا النَّارَ وَالنُّورَ.

قَالَ: إِنَّ لِي قِصَّةَ أَيُّهَا الشَّيْخُ، لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْكَلَامُ الَّذِي دُفِنْتُ فِيهِ مَعَانِيهَا؛ وَقَدْ تَأْتِي الْقِصَّةُ مِنْ أَخْبَارِ الْقَلْبِ مُفْعَمَةً بِالْأَلَامِ وَالْأَحْزَانِ، لَا يُرَادُ بِأَلَامِهَا وَأَحْزَانِهَا إِلَّا إِيجَادُ أَخْلَاقٍ لِلْقَلْبِ يَعِيشُ بِهَا وَيَتَبَدَّلُ. وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَيْهِ الْحُبُّ لَا يَكُونُ قَدْ أَحَبَّ غَيْرَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَكُونُ قَدْ تَعَلَّمَ كَيْفَ يَنْسَى نَفْسَهُ فِي غَيْرِهِ، وَهَذِهِ كَمَا هِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْحُبِّ؛ فَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِحْسَانِ.

وَمَتَى صَدَقَ الْمَرْءُ فِي حُبِّهِ كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِكْرَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا فِكْرَةً، وَالْأُخْرَى عَقِيدَةً تَجْعَلُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ ثَابِتَةً لَا تَتَغَيَّرُ؛ وَهَذِهِ كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْحُبِّ فَهِيَ طَبِيعَةُ الدِّينِ.

وَلَا شَيْءَ فِي الدُّنْيَا غَيْرُ الْحُبِّ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى الدُّنْيَا نَارًا صَغِيرَةً وَجَنَّةً صَغِيرَةً، بِقَدْرِ مَا يَكْفِي عَذَابَ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ أَوْ نَعِيمَهَا! وَهَذِهِ حَالَةٌ فَوْقَ الْبَشَرِيَّةِ.

وَالْفَضَائِلُ عَامَّتُهَا تَعْمَلُ فِي نَقْلِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيَوَانِيَّتِهِ، وَقَدْ لَا تَنْقُلُ إِلَّا أَقْلَهُ وَيَبْقَى فِي الْحَيَوَانِيَّةِ أَكْثَرُهُ؛ وَلَكِنَّ الْحُبَّ الصَّادِقَ يَقْتُلِعُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيَوَانِيَّتِهِ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، بَيِّنْدَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا قَتَلَهُ بِأَلَامِهِ؛ فَهُوَ كَأَعْلَى السَّنَكِ وَالْعِبَادَةِ.

(١) ستأتي فلسفة المسجد في مقالات أخرى مما يجمع هذا الكتاب، وانظر مقالة (الله أكبر).

كان خَبْرِي آتِي دُعَيْتُ يَوْمًا إِلَى مَا يُدْعَى لِمِثْلِهِ الشَّبَابُ فِي مَجْلِسِ غِنَاءٍ وَشَرَابٍ. يَا لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ! وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا قَوْمَهُ﴾ [البقرة: ٢٦]، والبعضُةُ فِي قِصَّتِي أَنَا كَانَتْ امْرَأَةً نَصْرَانِيَّةً. قَبْلُ فَلَانِ الْمَغْنِيَّةُ الْحَادِثَةُ الْمُحْسِنَةُ الْمَتَادِبَةُ، تَحْفَظُ الْخَبَرَ وَتُرْوِي الشَّعْرَ، وَتَتَكَلَّمُ بِالْفَافِ فِيهَا خِلَافَهُ وَجْهَهَا، وَتَخْلُقُ التَّكْنَةَ إِذَا شَاءَتْ خَلَقَ الزُّهْرَةَ الْمَتَفَتِّحَةَ عَلَيْهَا، سَقِيطُ النَّدَى؛ وَتَجِدُ بِالْحَدِيثِ مَا شَاءَتْ وَتَهْزُلُ، فَتَجْعَلُ لِلْكَلامِ عَقْلًا وَشَهْوَةً تُضَاعِفُ بِهِمَا مَنْ تَحَدِّثُهُ فِي شَهْوَاتِهِ وَعَقْلِهِ!

وَسَتَجْرِي فِي قِصَّتِهَا أَلْفَاظُ الْقِصَّةِ نَفْسِهَا، لَا أَنَا تُنَمُّ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَنْدُمُّ؛ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الْخَمْرَ بِلَفْظِ الْخَمْرِ وَلَمْ يَقُلْ: «الْمَاءُ الَّذِي فِيهِ السُّكَّرُ»، وَوَصَفَ الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَقُلْ: «الْمَلِكُ الَّذِي عَمِلَ عَمَلُ الْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ فِي تَكْبُرِهَا»، وَذَكَرَ الْأَصْنَامَ بِأَنَّهَا الْأَصْنَامُ، وَلَمْ يُسَمِّهَا: «حَامِلَةُ السَّمَاءِ الَّتِي يَصْنَعُهَا الْإِنْسَانُ بِيَدَيْهِ» وَحِكَايَةُ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ هِيَ كَلَامٌ يَقْبَلُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَيَلْتَزِمُ وَيَتَعَانَقُ!

قَالَ الْمَسِيبُ: فَتَبَسَّمَ إِمَامُنَا وَنَظَرَتْ عَيْنَاهُ تَسْأَلَانِ سَوْأَلًا. أَمَّا مُجَاهِدُ الْأَزْدِيُّ فَكَانَ مِنْ هَزَةِ الطَّرَبِ كَأَنَّهُ عَلَى قَنْبٍ بَعِيرٍ، وَقَالَ: لَيْلَهُ دُرُّهُ فَتَى، إِنَّ هَذَا لِبَيَانٍ كَحِلِّ الْعَيْنِ...

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى: وَذَهَبْتُ إِلَى الْمَجْلِسِ وَقَدْ جَعَلْتُ هَذِهِ الْمَغْنِيَّةَ مِنْ حَوَاشِيهِ وَأَطْرَافِهِ كَأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لَهَا هِيَ. أَمَّا هِيَ فَجَعَلْتُ نَفْسَهَا تَفْسِيرًا لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ: «اللَّذَّةُ...»

قَالَ الْمَسِيبُ: وَطَرِبْتُ مُجَاهِدًا طَرِبًا شَدِيدًا، وَسَمِعْتُهُ يُخَافِتُ بِصَوْتِهِ يَقُولُ: «لَيْلَهُ دُرُّهَا امْرَأَةٌ؛ هَذِهِ، هَذِهِ عَدْوَةُ الْخُورِ الْعَيْنِ!».

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى: وَتَطَرَّبَ جَمَاعَةُ أَهْلِ الْمَجْلِسِ إِلَى الشَّرْبِ، وَمَا ذَفْتُ خَمْرًا قَطُّ، وَلَنْ أَنْدَوِقَهَا وَلَوْ شَرِبَهَا النَّاسُ جَمِيعًا، وَلَنْ أَدَوِقَهَا وَلَوْ انْقَطَعَ الْغَيْثُ وَلَمْ تَمَطِرِ السَّمَاءُ إِلَّا خَمْرًا؛ فَإِنِّي مَذْكَئْتُ يَافِعًا رَأَيْتُ أَبِي يَشْرِبُهَا، وَكَانَتْ أُمِّي تَلُومُهُ فِيهَا وَتَشْتَدُّ فِي تَعْنِيْفِهِ وَتَحْتَدِّمُ، وَكَانَا يَتَشَاحَنَانِ فَيَنَالُهَا بِالْأَذَى وَيَنْذَرِيْ عَلَيْهَا بِالسَّبِّ وَفُخْشِ الْقَوْلِ. وَسَكِرَ مَرَّةً وَغَلِبَهُ السُّكْرُ حَتَّى ثَارَتْ أَحْشَاؤُهُ، فَذَرَعَهُ الْقِيءُ فَتَوَهَّمَنِي وَعَاءً، وَجَاءَ إِلَيَّ وَأَنَا جَالِسٌ فَأَمْسَكَ بِي وَقَاءَ فِي جَنْبِي، حَتَّى أَفْرَغَ جَوْفَهُ؛ وَثَارَتْ أُمِّي لِتَنْتَرِعَهُ وَأَنْشَأَتْ تُعَالِجُهُ عَنِّي فَتَصَارَعُ جَنُونَهُ وَعَقْلُهَا حَتَّى كَفَّائَتْهُ عَلَى وَجْهِهِ كَالْإِنَاءِ؛ فَالْتَوَى كَالْحَيَّةِ بَطْنًا لِيُظْهِرَ، وَاسْتَجْمَعَ كَالْقَنْفِذِ فِي شَوْكِهِ، ثُمَّ

لَكَزَهَا بِرَجْلِهِ أَسْفَلَ بَطْنِهَا فَانْقَلَبَتْ، وَأَصَابَ رَأْسُهَا إِجَانَةٌ^(١) الْعَجِينَ فَتَثَلَّمَ تَثْلِيمَ الْإِنَاءِ كَأَنَّمَا شُدِخَ ضَرْباً بِحَجَرٍ، وَانْتَشَرَ دِمَاغُهَا عَلَى الْأَرْضِ أَمَامَ عَيْنِي، وَرَأَيْتُهَا لَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ دَفَعْتُ بِإِحْدَى يَدَيْهَا فِي الْهَوَاءِ، وَضَمَّتْ بِالْأُخْرَى إِلَى صَدْرِهَا، تَتَوَهَّمُ أَنَّهَا تَحْمِنِي وَتَدْفَعُهُ عَنِّي؛ ثُمَّ سَكَتَتْ، وَلَوْ لَمْ تَمُتْ مِنَ الشَّجَّةِ فِي رَأْسِهَا لَمَاتَتْ مِنَ الضَّرْبَةِ فِي بَطْنِهَا!

قال المسيب: وأطرق الفتى هُنيئَةً وأطرقَ الناسُ معه؛ فَرَفَعَ مُجَاهِداً صَوْتَهُ وَقَالَ: رَجِمَهَا اللَّهُ! فقال الناسُ جميعاً: رَجِمَهَا اللَّهُ.

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى: وَكَانَ عَائَةً مَنْ فِي الْمَجْلِسِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنِّي، وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَوْ سَأَعَ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَشْرَبَ دَمَ أُمِّهِ مَا شَرِبْتُ أَنَا الْخَمْرَ، فَقَالُوا لِلْمَغْنِيَةِ: إِنَّ هَذَا لَا يَدْخُلُ فِي دِيوَانِنَا^(٢) فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ، وَهَرَبْتُ أَنَا مِنْ نَظَرِهَا بِإِطْرَاقَةٍ؛ ثُمَّ قَالَتْ: تَشْرَبُ عَلَى وَجْهِهِ؟ فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ وَجْهَكَ يَقُولُ لِي: لَا تَشْرَبُ... فَتَضَاحَكْتُ وَقَالَتْ: أَهْوِ يَقُولُ لَكَ غَيْرَ مَا يَقُولُ لِهَؤُلَاءِ؟ فَهَرَبْتُ مِنْ كَلَامِهَا بِإِطْرَاقَةٍ أُخْرَى، وَوَصَلَتْ الْإِطْرَاقَتَانِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ قَلْبِي؛ وَتَنَبَّأَ فِيهَا مِثْلُ حُنُوِّ الْأُمِّ عَلَى طِفْلِهَا إِذَا أَدْنَتْهُ بِلِسَانِهَا فَاطْرُقَ سَاكِتاً يَشْكُوها إِلَى قَلْبِهَا!

والتفتت لِمَنْ حَضَرَ وَقَالَتْ لَهُمْ: لَسْتُ أَطِيبُ لَكُمْ وَلَا تَتَنَفَعُونَ بِي إِلَّا أَنْ تَشْرَبُوا لِي وَلَهُ وَلِإِنْفِسِكُمْ، وَانْحَطَّ عَلَيْهِمُ السَّاقِي، فَشَرَبُوا أَرْطَالاً وَأَرْطَالاً، وَهِيَ بَيْنَ ذَلِكَ تُغْنِيهِمْ وَقَدْ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِمْ وَخَلَا وَجْهُهَا لَهُمْ مِنْ دُونِي وَإِنَّمَا تُخَالِسُنِي النَّظْرَةَ بَعْدَ النَّظْرَةِ.

فَوَسَّوَسَ لِي شَيْطَانِي أَنْ تَشُدَّزَ مَعَ هَذِهِ بِمِثْلِ عَزْمِيكَ مَعَ الْخَمْرِ فَإِنَّمَا هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ. وَلَكِنِّي كُنْتُ أَجِدُ النَّظْرَ إِلَيْهَا، فَمَرَّةً أَوَامِقُهَا نَظْرَةً الْمُحِبِّ لِلْحَبِيبِ، وَمَرَّةً أَغْضِي عَنْهَا بِنَظْرَةٍ لَا تَنْظُرُ؛ وَكَأَنِّي بِذَلِكَ كُنْتُ أَخْذُهَا وَأَدْعُهَا، وَأَصِلُهَا وَأَهْجُرُهَا. فَقَالَتْ لِي كَالْمُنْكَرَةِ عَلَيَّ: مَا بِأَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ هَكَذَا؟ وَلَكِنْ هَيْئَةً وَجْهِهَا جَعَلْتِ الْمَعْنَى: لَا تَنْظُرُ إِلَيَّ إِلَّا هَكَذَا...!

وَأَسْرَعَ الشَّرَابُ فِي الْقَوْمِ وَأَفْرَطَ عَلَيْهِمُ السُّكْرُ؛ فَبَقِيَتْ لِي وَحْدِي وَبَقِيَتْ لَهَا وَحْدَهَا؛ ثُمَّ تَنَاوَلَتْ عَوْدَهَا وَضَمَّتْهُ إِلَيْهَا ضَمًّا شَدِيداً أَكْثَرَ مِنَ الضَّمِّ... وَالْمَسْتَهْ

(١) هي ما يعجن فيه العجين وتغسل فيه الثياب، وقد يوضع فيها الماء ليتروها منه، وتتخذ من حجر أو خزف أو غيرهما.

(٢) تعبير قديم كانوا يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك.

صدرها ونهديها، ثُمَّ رَنَتْ إِلَيَّ بِمَعْنَى، فَمَا شَكَّكَتُ أَنَّهَا ضَمَّةٌ لِي أَنَا وَالْعُودُ؛ ثُمَّ غَنَّتْ هَذَا الصَّوْتُ:

أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْحَمَامَةَ غُدُوَّةً عَلَى الْفَصْنِ؛ مَاذَا هُيْجَتْ حِينَ غُنَّتْ؟
فَمَا سَكَّتَتْ حَتَّى أَوْنَيْتُ لِصَوْتِهَا وَقُلْتُ: تُرَى هَذِي الْحَمَامَةُ جُنَّتْ؟

وَمَا وَجَدُ أَعْرَابِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا صُرُوفَ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكْ ظَنَّتْ . .
إِذَا ذَكَرَتْ مَاءَ الْعِضَاءِ وَطِيبَهُ وَبَرَدَ الْجَمَى مِنْ بَطْنِ خَبْتٍ، أَرْنَيْتِ
بِأَكْثَرِ مَنِي لَوْعَةٍ، غَيْرَ أَنَّنِي أَجْمَعُ أَحْشَائِي عَلَى مَا أَجُنْتُ!
وَعَتَّتْ غِنَاءَ مَنْ قَلْبٍ يَشْنُ، وَصَدْرٍ يَتَنَهَّدُ، وَأَحْشَاءَ لَا تُخْفِي مَا أَجُنْتُ؛ وَكَانَتْ
تَرْتَفِعُ بِالصَّوْتِ ثُمَّ كَأَنَّمَا يَهْمِي الدَّمْعُ عَلَى صَوْتِهَا، فَيَرْتَعِشُ وَيَتَنَزَّلُ قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى
يَشْنُ أُنَيْنَ الْبَاكِيةِ، ثُمَّ يَتَلَجُّ فِي صَدْرِهَا مَعَ الْحُبِّ، فَيَتَرَدَّدُ عَالِياً وَنَازِلاً، ثُمَّ يَرْفُضُ
الْكَلَامَ فِي آخِرِهِ دُمُوعاً تَجْرِي .

قَالَ الْمَسِيبُ: فَنَظَرُ إِلَيَّ مُجَاهِداً وَقَالَ: عُدُوَّةُ الْجَنَّةِ - وَاللهُ - هَذِهِ يَا أَبَا
مُحَمَّدَ، لَا تَقْبَلُ الْجَنَّةَ مَنْ يَكُونُ مَعَهَا. تَقُولُ لَهُ: كُنْتُ مَعَ عُدُوَّتِي!

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى: وَكَانَ الْقَوْمُ قَدْ انْتَشَرُوا، فَاعْتَرَاهُمْ نَصْفُ النَّوْمِ وَبَقِيَ نَصْفُ
الْيَقَظَةِ فِي حَوَاسِهِمْ، فَكُلُّ مَا رَأَوْهُ مَثَرًا رَأَوْهُ كَأَحْلَامٍ لَا وَجُودَ لَهَا إِلَّا خَلْفَ أَجْفَانِهِمْ
الْمُتَفَلِّةِ سُكْرًا وَنُعَاسًا. وَوُثِّبَتِ الْمَغْنِيَةُ فَجَاءَتْ إِلَى جَانِبِي وَالتَصَقَّتْ بِي، وَأَسْرَعَ
الشَّيْطَانُ فَوْسُوسَ لِي: أَنْ أَحْذَرَ فَلَأَنَّكَ رَجُلٌ صِدْقٍ، وَإِذَا صَدَقْتَ فِي الْخَمْرِ فَلَا
تَكْذِبَنَّ فِي هَذِهِ، وَلَئِنْ مَسَسَتْهَا إِنَّمَا لِضِيَاعِكَ آخِرَ الدَّهْرِ!

فَعَجِبْتُ أَشَدَّ الْعَجَبِ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانِي أَسْلَمَ وَأَعِنْتُ عَلَيْهِ كَمَا أَعَيْنَ الْأَنْبِيَاءُ
عَلَى شَيَاطِينِهِمْ. وَلَكِنْ اللَّعِينُ مَضَى يَصُدُّنِي عَنِ الْمَرَأَةِ دُونَ مَعَانِيهَا، وَكَانَ مَنِي
كَالَّذِي يُدْنِي الْمَاءَ مِنْ عَيْنِي الْقَتِيلِ الْمُتَلَهَّبِ جَوْفُهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ دَائِمًا قَوْتَ فِيهِ، وَلَقَدْ
كُنْتُ مِنَ الْفُحُولَةِ بِحَيْثُ يَبْدُو لِي مِنْ شِدَّةِ الْقَوْرَةِ فِي دِمِي وَشِبَابِي أَنِّي أَجْمَعُ فِي
جَسَمِي رِجَالاً عِدَّةً، وَلَكِنْ ضَرَبَنِي الشَّيْطَانُ بِالْخَجَلِ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكُونَ رَجُلًا مَعَ
هَذِهِ الْمَرَأَةِ.

وَعَجِبْتُ هِيَ لِذَلِكَ وَمَا أَسْرَعَ مَا نَطَقَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهَا بِالمَوْعِظَةِ
الْحَسَنَةِ . . . ! فَقَالَتْ أَحْبَبْتُكَ مَا لَمْ أَحِبَّ أَحَدًا، وَأَحْبَبْتُ خَجَلَكَ أَكْثَرَ مِنْكَ، فَمَا يَسْرُنِي

أَنْ تَأْتِمَ فِيْ فَتَدْخُلِ النَّارَ بِحُبِّيْ، وَلَوْ أَنَّكَ ابْتَعْتَنِيْ مِنْ مَوْلَايَ؟ فَقُلْتُ: بِكُمْ اشْتَرَاكِ؟
قَالَتْ: بِأَلْفِ دِينَارٍ! قُلْتُ: وَأَيْنَ هِيَ مِنِّي وَأَنَا لَوْ بَعْتُ نَفْسِيْ مَا حَصَلْتُ لِيْ؟

فَتَمَّ الشَّيْطَانُ مَوْعِظَتَهُ، وَقَالَتْ وَأَشَارَتْ إِلَى قَلْبِهَا: إِنَّ قَلْبِيْ هَذَا قَبْلُكَ غَنِيًّا
كَثْتُ أَوْ فَقِيرًا، وَأَحْسَنُ بِكَ وَخَدَكَ حُبُّ الْعِذْرَاءِ أَوَّلَ مَا تُحِبُّ، وَأَنَا - كَمَا تَرَانِيْ -
أَعِيشُ فِي السَّيِّئَاتِ كَالْمُكْرَهَةِ عَلَيْهَا، فَسَاعَمَلُ عَلَى أَنْ تَكُونِ أَنْتَ حَسَنَتِيْ عِنْدَ اللَّهِ،
أَذْهَبُ إِلَيْهِ حَامِلَةً فِي قَلْبِيْ حُبِّيْ إِيَّاكَ وَعِغْتِيْ عَنْكَ، وَلَئِنْ كَانَتْ عِغَةً مَنْ لَا يَشْتَهِيْ
وَلَا يَجِدُ تَعْدُ فَضِيلَةً كَامِلَةً، إِنَّ عِغَةً مَنْ يَجِدُ وَيَشْتَهِيْ لَتَعْدُ دِينًا بِحَالِهِ. وَلَا يَزَالُ
حُبِّيْ بِكَرًا، وَلَا أَزَالُ فِي ذَلِكَ عِذْرَاءَ الْقَلْبِ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ نَزَعُوا الْحَيَاءَ عَنِّيْ مِنْ أَجْلِ
أَنْفُسِهِمْ، فَالْيَسْنِيهِ أَنْتَ مِنْ أَجْلِكَ خَاصَّةً؛ وَإِنَّ قُوَّةَ حُبِّيْ كَالَّذِي سَيَأْلُمُ بِكَ وَيَتَعَذَّبُ
مِنْكَ لَطَوَلٍ مَا يَصْبِرُ عَنْكَ، سَتَكُونُ هِيَ بَعِيْنِيْ قُوَّةَ لِفَضِيلَتِيْ وَطَهَارَتِيْ.

ثُمَّ تَنَاوَلَتْ عِوْذَهَا وَسُوْتَهُ وَغَثَّتْ:

فَلَوْ أَنَا عَلَى حَجَرٍ ذُبِحْنَا جَرَى الدَّمِيَانِ بِالْخَبْرِ الْيَقِيْنِ^(١)

وَجَعَلْتُ تَتَاوَعُ فِيْ غِنَائِهَا كَأَنَّهَا تُذْبِحُ ذَبْحًا، ثُمَّ وَضَعَتْ الْعِوْذَ جَانِبًا وَقَالَتْ:
مَا أَشْقَانِيْ! إِذَا اتَّفَقْتُ لِي سَاعَةٌ زَوَاجِيْ فِيْ غَيْرِ وَقْتِهَا فَجَاءَتْ كَالْحُلُمِ يَأْتِيْ بِخِيَالِ
الزَّمَنِ فَلَا يَكُونُ فِيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا خِيَالُ الْأَشْيَاءِ.

ثُمَّ سَأَلْتَنِيْ: مَا بِأَلِّكَ لَمْ تَشْرَبِ الْخَمْرَ وَلَمْ تَدْخُلِ فِي الدِّيْوَانِ؟ فَبَدَرَ شَيْطَانِي
الْمُؤْمِنَ... وَسَاقَ فِي لِسَانِيْ خَبَرَ أُمِّيْ وَأَبِيْ، فَانْتَضَحَتْ عَيْنَاهَا بَاكِئَةً وَتَمَّ لَهَا رَأْيِيْ
فِي كَرَائِيْ أَنَا فِي الْمَسْكَرِ؛ وَكَانَ شَيْطَانُهَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْطَانًا خَبِيثًا مَعَ أَصْحَابِهَا،
وَبَطْرِيقًا زَاهِدًا مَعِي أَنَا وَحْدِي!

وَرَأَيْتُهَا لَا تُجَالِسُنِيْ إِلَّا مُتَزَابِلَةً كَالْعِذْرَاءِ الْخَفْرَةِ إِذَا انْقَبَضَتْ وَغَطَّتْ وَجْهَهَا،
وَصَارَتْ تَخَافُنِيْ لِأَنَّهَا تُحِبُّنِيْ، وَهَيَّيْنِي الشَّيْطَانُ إِلَيْهَا فَعَادَتْ لَا تَرَى فِي الرَّجُلِ
الَّذِي هُوَ تَحْتَ عَيْنِهَا الثُّبَيْتِينَ... وَلَكِنْ الْقَدِيسُ الَّذِي تَحْتَ قَلْبِهَا الْبِكْرَ.

وَلَمْ يَعُدْ جَمَالِيْ هُوَ الَّذِي يُعْجِبُهَا وَيُضْهِبُهَا، بَلْ كَانَ يُعْجِبُهَا مِنِّي أَنِّي صَنَعْتُ
فَضِيلَتَهَا الَّتِي لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا غَيْرِيْ....

وَانْطَلَقَ الشَّيْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ فِيْ وَفِيهَا بَدَاهَتِهِ وَخُنُكَيْتِهِ وَبِكُلِّ مَا جَرَّبَ فِي النِّسَاءِ

(١) كَانَتْ الْعَرَبُ تَزْعُمُ أَنَّهُ إِذَا قُتِلَ اثْنَانِ فَجَرَى دِمَاهُمَا عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدٍ ثُمَّ التَّقِيَا، حَكَمَ عَلَيْهِمَا أَنَّهُمَا
كَانَا مُتَحَابِّينَ، فَإِنْ لَمْ يَلْتَقِيَا حَكَمَ عَلَيْهِمَا أَنَّهُمَا كَانَا مُتَشَاتِّينَ. وَمَا أَجْمَلُهَا خِرَافَةً وَأَشْرَعُهَا.

والرجال من لدن آدم وحواء إلى يومي ويومها! ... فكان يجذبني إليها أشدّ الجذب، ويدفعها عني أقوى الدفع، ثم يُغريني بكلّ رذائلها ولا يُغريها هي إلا بفنائلي. وألقى منها في دمي فكرة شهوة مجنونة متقلّبة، وألقى مني في دميها فكرة حكمة رزينة مستقرّة. وكنت ألقاها كلّ يوم وأسمع غناءها؛ فما هو بالغناء ولكنّه صوت كلّ ما فيها لكلّ ما فيّ، حتى لو التصّق جسّمها بجسمي وسارّ البدن البدن، وغمس الدّم للدّم، لكان هو هذا الغناء الذي تُغنيّه.

وأصبحت كلّما استقمّت لحبّها تلوّث عليّ؛ إذ لست عندها إلا الأمل في المغفرة والثواب، وكأنّما مُسخّت خبلاً طوله من هنا إلى الجنّة لتتعلّق به. وعاد امتناعها مني جنوناً دينياً ما يُفارّقها، فابتلاني هذا بمثل الجنون في حبّها من كلفٍ وشغفٍ.

وانحصرت نفسي فيها، فرجعت معها أشدّ غبابة من الجاهل ينظر إلى مدّ بصره من الأفق فيحكم أنّ ههنا نهاية العالم، وما ههنا إلا آخر بصره وأوّل جهله. وانفلت منّي زمامٌ روحي، وانكسر ميزانُ إرادتي، واختلّ استواءُ فكري، فأصبحت إنساناً من التناقض المتعادية أجمع اليقين والشكّ فيه، والحبّ والبغض له، والأمل والحياة منه، والرغبة والمزوف عنها، وفي أقلّ من هذا يُخطف العقل، ويتدلّه من يتدلّه.

ثمّ ابتليت مع هذا اللّحم بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفتها معي، فكنت أظاير قطعاً بين السماء والأرض، وأجد عليها وأنكر لها، وهي في كلّ ذلك لا تريدني على حالة واحدة من الرهبانية؛ فكان يطير بعقلي أنّ أرى جسّمها ناراً مشتعلة، ثمّ إذا أنا رمتُ استحالة ثلجاً، وقرّحت الغيرة قلبي وفتت كبدي من عبادة الشيطان مع الجميع، الراهبة مع رجلٍ واحدٍ فقط! ...

ورجعت خاطري فيها ممّا يُعقل وما لا يُعقل؛ فكنت أرى بعضها كأنّه راجع من سفر طويل عن حبيب في آخر الدنيا، وبعضها كأنّه خارج من دار حبيب في جوارى، وبعضها كأنّه ذاهب بي إلى المارستان! ...

ورأيتنا كأننا في عالَمين لا صلة بينهما، ونحن معاً قلباً إلى قلب، فذهب هذا بالبقية التي بقيت من عقلي، ولم أر لي منجاة إلا في قتل نفسي لأزهد هذا الوحش الذي فيها.

وذهبت فابتغت شعيرات من السمّ الوجي الذي يُعجل بالقتل، وأخذتها في كفي وهممت أنّ أقمّحها وأبتلعها، فذكرت أمي، فظهرت ليخيالي مشدوخة الرأس في هيئة موتها، وإلى جانبها هذه المرأة في هيئة جمالها، وثبتت على عيني هذه

الرؤيا، وأدمنتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرٌ غيرُ الأول، وإذا المرأةُ غيرُ تلك، وطغَتْ عبرَةُ الموتِ على شهوةِ الحياة فمَحَنَتْها، وصَحَّ عندي من يومئذٍ أن لا علاجَ من هذا الحُبِّ إلا أن تُقَرَّنَ في النفسِ صورةُ امرأةٍ ميتةٍ إلى صورةِ المرأةِ الحيةِ، وكلَّما دُكِرَتْ هذه جِيءَ لها بتلك، فإذا استمرَّ ذلك فإنَّ الميتةَ تُمِثُّها في النفسِ وتُمِثُّ الشهوةَ إليها، ما من ذلك بُدٌّ، فليَجْزِنَهُ مَنْ شَكَّ فيه .

وانفتح لي رأيٌ عجيب، فجعلتُ أتأملُ كيف آمنَ شيطاني ثم كَفَرَ بَعْدُ، على أنَّ شيطانها هي كَفَرَتْ في الأولِ ثُمَّ آمَنَ في الآخر؟ فوالله ما كُنْتُ إلا غيباً خامداً الغِطْنة، إذ لم يَسْنُخْ لِي الصوابُ حتى كَذَبْتُ أزهقَ نفسي وأخسرَ الدنيا والآخرة؛ فإنَّ الشيطانَ - لعنةُ الله - إنما رَدَّنِي عن الفاحشةِ وهي ذَنْبٌ واحد، ليرمِينِي بعدها في الذنوبِ كُلِّها بالموتِ على الكفر!

ورَدَّ إليَّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ من عقلي . وَمَنْ ابْتُلِيَ ببلاءٍ شديدٍ يُزَلْزَلُ يقينُهُ ثُمَّ أبصرَ اليقينَ، جاءَ منه شخصٌ كأنما خُلِقَ لِإِسَاعَتِهِ؛ فلعلتُ شيطاني واستعدتُ بالله من مَكْرِهِ، وألقيتُ السمَّ في الترابِ وغَيَّبْتُ فيه، وقلْتُ لنفسي: ويحك يا نفسُ! إنَّ الحياةَ تعملُ عملاً بالحي، أفترَضِينِ أن تعملَ الحياةَ بأبطالِها ورجالِها ما عرفتِ وما علمتِ، ثُمَّ يكونَ عملُها بكِ أثْبَتَ القعودِ ناحيةً والبكاءِ على امرأة؟ أَيْتُها النفسُ، ما الفرقُ بين سرقةِ لحمٍ من دكانِ قُصَّاب، وبين سرقةِ لحمِ امرأةٍ من دارِ أبيها، أو زوجها، أو مولاها...؟

أَيْتُها النفسُ، إنَّ إيمانَ أسلافنا معنا؛ إنَّ الإسلامَ في المسلم .



قال المسيَّب: وهنا طَاشَ مُجاهدٌ واستخَفَّ الطربُ، فصاحَ صيحةَ النصر: الله أكبر! وجاوبَهُ أهلُ المسجدِ في صيحةٍ واحدة: الله أكبر! ولم يكذَّ يهتَفُ بها الناسُ حتى ارتفعتْ صيحةُ المؤذِّنِ لصلاةِ المغرب . الله أكبر... .

الانتحار

(٦)

تمة

قال المسيب بن رافع: وانفض مجلس الشيخ، ودرجت بعده أعوام في عدة الشهور من حمل المرأة، بلغت فيها أمور الناس مبلغها من خير الدنيا وشرها، مما أعرف وما لا أعرف؛ ودخلت البصرة أنا ومجاهد الأزدي، نسمع الحسن^(١) وناخذ عنه؛ فإننا لسائران يوماً في سكة بني سمره، إذ وافقنا الفتى صاحب النصرانية مقيلاً علينا، وكنا فقدناه تلك المدة، فأسرع إليه مجاهد فالتزمه وقال: مرحباً بذي نسب إلى القلب. وسلمت بعده وعانقته، ثم أقبلنا نسأله، فقلت له: ما كان آخر أوليك؟ قال مجاهد: بل ما كان آخر أولها هي؟

فضحك الرجل وقال: النصرانية تعني؟ قال: آخرها من أولها كهذا مني؛ وأوماً إلى ظله في الأرض ممدوداً مشبوحاً مختلطاً غير متميز؛ كأنه ثوب منشور ليس فيه لابس، وكنا في الساعة التي يصير فيها ظل كل شيء مثليه فهو مزج المسخ بالمشخ...

قال مجاهد: ما أفظ جوابك وأثقله يا رجل! كأنك والله تاجر لا صلة له بالأشياء إلا من أثمانها؛ فنظره إلى قراهة الدابة من الدواب وإلى فراهة الجارية من الرقيق سواء.

قال الرجل: فأنا والله تاجر، وأنا الساعة على طريق الإيوان^(٢) الذي يلتقي فيه تجار العراق والشام وخراسان؛ وقد ضربت في هذه التجارات وخسئت بها حالي وتأثلت منها؛ غير أن قلب التاجر غير التاجر، فليس يزُن ولا يقبض، ولا يبيع ولا يشتري. أمّا «تلك» فأصبحت نسياناً ذهب لسبيله في الزمن!

(١) الحسن البصري: الإمام العظيم.

(٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصة)، وكذلك كانوا يستعملونها.

قال مُجاهد: فكيف كُنتَ تراها وكيف عدتَ تنظرُ إليها؟

قال: كُنتُ أنظرُ إليها بعيني وأفكاري وشهواتي؛ فكانتَ بذلك أكثرَ من نفسها ومن النساء، وكانتَ ألواناً ألواناً ما تنقضي، فلما دخل بيني وبينها الزمنُ والعقلُ، أبعدَها هذا عن قلبي وأبعدَها ذاك عن خيالي؛ فنظرتُ إليها بعيني وحدهما، فزجعتَ امرأةٌ ككلِ امرأة؛ وبزولِها من نفسي هذه المنزلة، رجعتَ أقلَّ من نفسها ومن النساء، وهذه القِلَّةُ فيما عرفتُ لا تُصيبُ امرأةً عند مُحبتها إلّا فعلتَ بجمالِها مثل ما تفعلهُ الشيخوخةُ بجسمِها، فأدبرتَ به ثُمَّ أدبرتَ واستمرتَ تُدبرُ!

وانتِ فإذا أبصرتَ امرأةً شيخخةً قد ذهبتِ التي كانتَ فيها... وأخطرتَ في ذهنيكَ نيئةً مما بين الرجالِ والنساء، فهل تُراكَ وأجدُ الشهوةَ والميلَ إلّا الثُّرةَ والمغصيةَ؟ إنَّ هذا الذي كانَ الحُبَّ والهوى والعشقُ، هو بعينه الذي صارَ الإثمُ والذنبُ والضلالةُ!

قال مُجاهد: كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسك من حبِّها قتلتها هي في نفسك؟

قال: يا رحمةً قد رَحمتُ بها نفسي يومئذٍ! أما - والله - إنَّ الذي يقتلُ نفسه من حُبِّ امرأةٍ لغيري. وَيَحَهُ! فَلْيَتَخَلَّصْ من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها. وقد جعل الله لِلْحُبِّ طرفين: أحدهما في اللذة، والآخرُ في الحماقة؛ ما منهما بَذ. فهذا الحُبُّ يُلقي صاحبه في الأحلام ويُعشي بها على بصره، ثُمَّ إنَّ هو أثَّجَ بطرفه السعيدِ إلى حظِّه المقبلِ واتَّقَتِ اللذةُ لِلْمُحَبِّ، أبَقَظَتْهُ اللذةُ من أحلامِهِ؛ وإنَّ أثَّجَ الحُبِّ بطرفه الشقي إلى حظِّه المُدْبِرِ، وقَعَتِ الحماقاتُ فنوناً شتى بين الحبيبين، وفعلتُ آخراً ففعل اللذة، فأيقَظَتِ العاشقَ من أحلامِهِ أيضاً. وهذا تدبيرٌ من الرحمة في تلك القوة المدمرة المسماة الحُبِّ. أفلا يدلُّ ذلك على أنَّ اللذةَ وهمٌّ من الأوهام ما دامَ تحفُّقُها هو فناءها؟

خذُ عني يا مجاهدُ هذه الكلمة: «ليس الكمالُ من الدنيا ولا في طبيعتها، ولا هو شيءٌ يُدْرَكُ، ولكن من عظمة الكمالِ أنَّ استمرارَ العملِ له هو إدراكُهُ».

قال مُجاهد: لقد علمتُ بعدنا علماً، فمن أين لك هذا وعمَّن أخذتَ؟

قال: عن السماء!

قال: وبلك! أين عقلُك، فهل نزل عليك الوحي؟

قال الرجل: لا، ولكنَّ تَعَالياً معي إلى الدارِ فأحدثكُما.



قال المسيب: وذهبتنا معه؛ فأتينا بطعام نظيف فأكلنا، وأشعرتنا الدار أن ربها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلت عليه النعمة؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد: هيه يا أبا... يا أبا من؟ قال: أبو عبيد. قال: هيه يا أبا عبيد...

فأفكر الرجل ساعة ثم قال: عهد كما بي منذ تسع في مجلس الإمام الشعبي بالكوفة؛ وقد كنت في بقية من النعمة أتجمل بها، وكأنت تمسكني على موضعي في أعين الناس؛ فما زالت تلك البقية تدق وتنفض حتى نكد عيشي ووقعت في الأيام المقعدة التي لا تمشي بصاحبها، وانقلب الزمن كالعدو المغير جاء ليضطلم ويخرب ويفسد، فأثر في أبيض آثاره، فبغت ما بقي لي وتحملت عن الكوفة إلى البصرة، وقلت: إن لم تتغير حالي تغيرت نفسي، ولا أكون في البصرة قد انتهت إلى الفقر، بل أكون قد بدأت من الفقر كما يبدأ غيري، وأدع الماضي في مكانه وأمضي إلى ما يستقبلني.

فالتمنت رفقةً فالتأمتا عشرين رجلاً، فلما كنا في الطريق، سلبنا اللصوص وحازوا القافلة وما تحويه، ونجوت أنا راكباً فرسي وعجري، وأدركت حينئذ أن الحياة وحدها ملك عظيم، وأنها هي الأداة الإلهية، والباقي كله هو من أنفسنا لأنفسنا والأمر فيه هين والخطب يسير.

وقلت: لو أن اللصوص قد مروا بنا كما يمر الناس بالناس لما نكبونا، ولكنهم عرضوا لنا عروض اللص للمال والمتاع لا للناس، فوضعوا فينا الأيدي الناهية؛ ومن هذا أدركت أن ليس الشر إلا حالة يتلبس بها من يستطيع أن يتخلص منها. فإذا كان ذلك فاصل السعادة في الإنسان ألا يعا بهذه الحالات متى عرضت له؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا، تمثل الشر كما يراه واقعاً في غيره؛ فالمرأة العفيفة إذا عرضت لها حالة من الفجور، ونظرت إلى نفسها وحطت نفسها، فقد تعمى ونزل؛ ولكنها إذا نظرت إلى ذلك في غيرها وإلى أثره على الفاجرة، كانت كأنما زادت على نفسها نفساً أخرى تُريها الأشياء مجردة كما هي في حقائقها.

قال: ومضيت على وجهي تنقادفني البقاع والامكنة: وأنا أعاني الأرض والسماء، وأخشى الليل والنهار، وأكابد الألم والجوع، حتى دخلت البصرة دخول البعير الراحم، قطع الصحراء تاكل منه ولا يأكل منها، فأنضأ السفر وحسره الكلال ونحت الثقل الذي يحمله، فجاء بيثية غير التي كان قد خرج بها. وكأنت أيامي هذه عمراً كاملاً من الشقاء، جعلتني أوقن أن هؤلاء الناس في الحياة إن هم إلا

كالدُّوَابِّ تَحْتَ أَحْمَالِهَا: لَا تَخْتَارُ الدَّابَّةُ مَا تَحْمِلُ وَلَا مَنْ تَحْمِلُ، وَلَا يُتْرَكُ لَهَا مَعَ هَذَا أَنْ تَخْتَارَ الطَّرِيقَ وَلَا مَدَّةَ السَّيْرِ؛ وَلَيْسَ لِلدَّابَّةِ إِلَّا شَيْئَانِ: صَبْرُهَا وَقُوَّتُهَا؛ إِنَّ فَقْدَ تَهُمَا هَلَكَتْ، وَإِنْ وَهَنَّا فِيهَا كَانَ ضَعْفُهَا بِحَسَبِ ذَلِكَ.

إِنَّ هُنَاكَ أَوْقَاتًا مِنَ الشَّقَاءِ وَالْبُؤْسِ تَقْذِفُ بِالْإِنْسَانِ وَرَاءَ إِنْسَانِيَّتِهِ وَإِنْسَانِيَّةِ الْبَشَرِ جَمِيعاً، لَا تُبَالِي كَيْفَ وَقَعَ وَفِي أَيِّ وَادٍ هَلَكَ، فَلَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ حِينَئِذٍ إِلَّا أَنْ يَعْتَصِمَ بِأَخْلَاقِ الْحَيَوَانِ، فِي مِثْلِ رِضَاةِ الَّذِي هُوَ أَحْكَمُ الْحِكْمَةِ فِي تِلْكَ الْحَالِ، وَصَبْرِهِ الَّذِي هُوَ أَقْوَى الْقُوَّةِ، وَقَنَاعَتِهِ الَّتِي هِيَ أَغْنَى الْغِنَى، وَجَهْلِهِ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ الْعِلْمِ، وَتَوَكُّلِهِ الَّذِي هُوَ إِيْمَانٌ فَطَرَتْهُ بِفِطْرَتِهِ. لَا يُبَالِي الْحَيَوَانُ مَالاً وَلَا نَعِيمًا، وَلَا مَتَاعاً وَلَا مَنَزَلَةً، وَلَا حِفْظاً وَلَا جَاهًا، وَلَنْ تَجِدَ حِمَارَ الْمَلِكِ يَعْرِفُ مِنَ الْمَلِكِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُ حِمَارُ الشَّقَاءِ مِنَ السَّقَاءِ؛ وَلَعَلَّكَ لَوْ سَأَلْتَهُمَا وَأَطَاقَا الْجَوَابَ لَقَالَ لَكَ الْأَوَّلُ: إِنَّ الَّذِي فَوْقَ ظَهْرِي ثَقِيلٌ مَقِيَّتٌ بَغِيضٌ؛ وَلَقَالَ لَكَ الثَّانِي: إِنَّ الَّذِي يَرْكَبُهُ خَفِيفٌ سَهْلٌ سَمِعْ!

وَلَكِنْ بَلَاءُ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ حِينَ يُطَوِّحُهُ الْبُؤْسُ وَالشَّقَاءُ وَرَاءَ الْإِنْسَانِيَّةِ، لَا يَنْظُرُ لِغَيْرِ النَّاسِ، فَيَزِيدُهُ ذَلِكَ بُؤْسًا وَحَسْرَةً، وَيَمَحُوقُ فِي نَفْسِهِ مَا بَقِيَ مِنَ الصَّبْرِ، وَيَقْلِبُ رِضَاةً غِظًا، وَقَنَاعَتَهُ سَخَطًا، وَيَتْلِيهِ كُلُّ ذَلِكَ بِالْفِكْرَةِ الْمَهْلِكَةِ أَعْجَزَهَا أَنْ تُهْلِكَ أَحَدًا فَلَا تَجِدُ مَنْ تُدْمِرُهُ غَيْرَ صَاحِبِهَا؛ فَإِذَا هِيَ وَجَدَتْ مَسَاغًا إِلَى النَّاسِ فَأَهْلَكَتْ وَعَاثَتْ وَأَفْسَدَتْ، فَجَعَلَتْ صَاحِبَهَا إِمَّا لَيْصًا أَوْ قَاتِلًا أَوْ مُجْرِمًا، أَيُّ ذَلِكَ تَسِيرُ!

قَالَ: وَكُنْتُ أَعْرِفُ فِي الْبَصْرَةِ فَلَانًا التَّاجِرَ مِنْ سَرَائِهَا وَوَجْهَهُ أَهْلِهَا، فَاسْتَطَرَقْتُهُ؛ فَإِذَا هُوَ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى خُرَاسَانَ، وَلَيْسَ يَعْرِفُنِي أَحَدٌ فِي الْبَصْرَةِ وَلَا أَعْرِفُ أَحَدًا غَيْرَهُ؛ فَكَأَنَّمَا نَكِبْتُ مَرَّةً ثَانِيَةً بَغَارَةً شَرًّا مِنْ تِلْكَ، غَيْرَ أَنَّهُمَا قَطَعَتْ عَلَيَّ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ طَرِيقَ أَيَّامِي، وَسَلَبْنِي آخَرَ مَا بَقِيَ لِنَفْسِي، وَهُوَ الْأَمَلُ!

وَرَأَيْتُ أَنَّهُ مَا مِنْ نَزُولِي إِلَى الْأَرْضِ بُدَّ، فَأَكُونُ فِيهَا إِنْسَانًا كَالدَّابَّةِ أَوْ الْحَشْرَةِ: حَيَاتُهَا مَا اتَّفَقَ لَا مَا تُرِيدُ أَنْ يَتَّفِقَ؛ وَأَنَّهُ لَا رَأْيَ إِلَّا أَنْ أَسْخَرَ مِنْ الشَّهَوَاتِ فَأَزْهَدَ فِيهَا وَأَنَا الْقَوِيُّ الْكَرِيمُ، قَبْلَ أَنْ تَسْخَرَ مِنِّي إِذَا جِئْتُهَا وَأَنَا الطَّامِعُ الْعَاجِزُ!

وَفِي الْأَرْضِ كِفَايَةُ كُلِّ مَا عَلَيْهَا وَمَنْ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ بِطَرِيقَتَيْهَا هِيَ لَا بِطَرِيقَةِ النَّاسِ؛ وَمَا دَامَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا قَائِمَةً عَلَى التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ وَتَحَوُّلِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ،

فهذا الطَّيْبُ الذي يَأْكُلُهُ الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أَنَّهُ قد أَكَلْ ولا أَنَّهُ أَفْتَرَسَ ومُزَق، بلْ هو عندها قد تحوَّل قوَّة في شيءٍ آخَرَ ومضى؛ أمَّا عند الناسِ فذلك خَطْبٌ طويلٌ في حكاية أوهام من الخوف والوجل، كما لو اخترعتَ قصَّةً خرافيةً تحكيها عن أسدٍ قد زَرَعَ لحماً... فتعهذهُ فأنبتهُ فحصدتهُ فأكله، فذهب الزرعُ يحتجُّ على أَكَلِهِ، وجعل يشكو ويقول: ليس لهذا زرعتني أنت، وليس لهذا خرجتُ أنا تحتَ الشمس، وليس من أجل هذا طلعتِ الشمسُ عليَّ وعليك!

والإنسانُ يرى بعينه هذا التغيُّرَ واقعاً في الإنسانيةَ عامتها وفي الأشياءِ جميعها؛ فإذا وقع فيه هو ضُجٌّ وسُخْطٌ، كأنَّ له حقاً ليس لأحدٍ غيره، وهذا هو العجيبُ في قصة بني آدم، فلا يزالُ فيها على الأرضِ كلماتٌ من الجنة لا تُقالُ هنا ولا تُفهمُ هنا؛ بل محلُّ الاعتراضِ بها حينَ يكونُ الإنسانُ خالداً لا يقعُ فيه التغيُّرُ والتبدلُ. ومن هذا كان خيالُ اللذة في الأرضِ هو دائماً باعثُ الحماقة الإنسانية.

قال أبو عُبيد: وذهبتُ أعتَمِلُ بيديَّ وجسمي على آلامِ مَنْ الفاقة والضَّر، ومنَ الخيبة والإخفاق، ومنَ إلجاءِ المسكنة، وإحواجِ الخِصاصة؛ فلقد رأيتُني وإنَّ يدي كيدِ العبد، وظهري كظهِرِ الدَّابة، ورجلي كرجلِ الأسير، وغُثني كغُثني المغلول، ويطلعُ قرصُ الشمسِ على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتَمِلُ إلَّا بقرصٍ من الخبز، ولقد رأيتُني أبذلُ في صيانة كلِّ قطرةٍ من ماءٍ وجهي سحابةً من العرقِ حتى لا أسألَ الناسَ، وبأوسأ لي إنَّ سألتُ وإنَّ لم أسأل!

وما كان يُمكنني على هذه الحياة المُرْمَقَّة، تأتي رَمَقاً بعدَ رَمَقٍ في يومٍ يوم - إلا كلامُ الشعبي - الذي سمعتهُ في مسجدِ الكوفة، وقوله فيمنَ قتلَ نفسه؛ فكان كلامه نوراً في صدري يُشرقُ منه كلُّ يومٍ مع الصبحِ صبحٌ لإيماني. ولكن بقيتُ أيامَ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضَرَبَانٌ من الوجعِ كالذي يجدهُ المجروحُ في جرحه إذا ضَرَبَ عليه، فكان الشيطانُ لا يجدُ منفذاً إلَّيَّ إلَّا منها. وفقدتُ الصديقَ وعونه، فما كان يُقبِلُ عليَّ صديقٌ إلَّا في أحلامي من وراءِ الزمنِ الأول!

قال مُجاهد: والحبيبُ؟

فنبَّهَ الرجلُ وقال: إذا فرغتِ الحياةُ من الذي هو أَقلُّ من الممكن، فكيف يكون فيها الذي هو أَكثَرُ من الممكن؟ إنَّ جوعَ يومٍ واحدٍ يجعلُ هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شِعْرَ فيها، ويتركُ الزمنَ وما فيه ساعةً واحدةً مُعْطَرةً... والبؤسُ يَقْظَةُ مؤلمةً في القلبِ الإنساني تُحرِّمُ عليه الأحلامَ؛ وما الحُبُّ من أوَّلِهِ إلى آخرِهِ إلَّا أحلامُ القلوبِ بعضها ببعض!

قال أبو عُبيد: وَتَضَعُصْتُ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُخْزِيَةِ وَأَبْرَمْتُني أَيامُهَا، وَحَمَلْتُ فِي الْمَيْتِ وَالْحَيِّ، وَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ - لَعْنَةُ اللَّهِ - كَأَنَّمَا اتَّخَذَنِي وَعَاءً مُطْرَحاً عَلَى طَرِيقِهِ يُلْقِي فِيهِ الْقِمَامَةَ...، وَظَهَرَ لِي قَلْبِي فِي وَسَاوِيهِ كَالْمَدِينَةِ الْخَرِبَةِ ضَرَبَهَا الْوَبَاءُ، فَأَعْمَرَ مَا فِيهَا مَقْبَرَتُهَا؛ وَعَادَ الْبُؤْسُ وَقَاحَ الْوَجْهِ لَا يَسْتَحْيِي، فَلَا أَرَاهُ إِلَّا فِي أَرْدَلِ أَشْكَالِهِ وَأَبْرَدِهَا؛ وَلَقَدْ يَكُونُ الْبُؤْسُ لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَيَاءِ فَيَأْتِي فِي أَسْلُوبٍ مُعْتَذِرٍ كَالْمَرْأَةِ الدَّمِيمَةِ فِي نَقَابِهَا.

وَقُلْتُ لِنَفْسِي: مَا هُوَ - وَاللَّهِ - إِلَّا الْقَتْلُ، فَهَذَا عُمَرُ أَرَاهُ كَالْأَسِيرِ أَقِيمَ عَلَى النُّطْعِ وَسُلِّ عَلَيْهِ السَّيْفُ، فَمَا يَنْتَقِمُ مِنْهُ الْمُنْتَقِمُ بِأَفْظَعٍ مِنْ تَأْخِيرِ الضَّرْبَةِ، وَمَا يَرْحَمُهُ الرَّاحِمُ بِأَحْسَنَ مِنْ تَعْجِيلِهَا!

وَبِثُّ أَوَامِرُ هَذِهِ النَّفْسِ فِي قَتْلِهَا وَاحْدَتُهَا حَدِيثُ الْمَوْتِ، فَسَدَّدْتُ رَأْيِي فِيهِ وَقَالَتْ: مَا تَصْنَعُ بِجِسْمٍ كَالْمَتَعَفَّنِ أَصْبَحَ كَالْمَقْبُورِ لَا أَيَّامَ لَهُ إِلَّا أَيَّامُ انْقِرَاضِهِ وَتَفْتِيهِ؟ يَبْدُو أَنِّي ذَكَرْتُ كَلَامَ (الشَّعْبِيِّ) فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَأَنَا أَحْفَظُهُ كُلَّهُ، فَجَعَلْتُ أَهْذَهُ^(١) مَا أَتْرَكَ مِنْهُ خَرْفًا، وَاتَّخَذْتُهُ مُتَكَلِّمًا مَعَ نَفْسِي لَا كَلَامًا، كُنْتُ كُلَّمَا غَلَبَنِي الضَّعْفُ رَفَعْتُ بِهِ صَوْتِي وَأَصْغَيْتُ كَمَا أَصْغِي إِلَى إِنْسَانٍ يُكَلِّمُنِي فَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ بَعْدَ ذَلِكَ كَاللَّصِّ إِذَا طَمَعَ فِي رَجُلٍ ضَعِيفٍ مُنْفَرِدٍ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُ وَجَدَ مَعَهُ رَجُلًا ثَانِيًا قَوِيًّا فَهَرَبَ!

قال أبو عُبيد: وَنَالَنِي زَوْجٌ مِنَ الْأَطْمَثَانِ وَجَدْتُ لَهُ السَّكِينَةَ فِي قَلْبِي فَنَيْتُ، فَإِذَا الْفَرْغُ الْأَكْبَرُ الَّذِي لَا يَنْسَاهُ مَنْ سَمِعَ بِهِ، فَكَيْفَ الَّذِي رَأَاهُ بَعِينِيهِ؟

رَأَيْتُنِي مَيِّتًا فِي يَدِ غَاسِلِهِ يُقَلِّبُهُ وَيَغْسِلُهُ كَأَنَّهُ خِزْقَةٌ؛ ثُمَّ حُمِلْتُ عَلَى النَّعْشِ كَأَنَّ الْحَامِلِينَ قَدْ رَفَعُونِي يَقُولُونَ: انْظُرُوا أَيُّهَا النَّاسُ كَيْفَ يَصِيرُ النَّاسُ؛ ثُمَّ صَلَّيْ عَلَى الْإِمَامِ الشَّعْبِيِّ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، ثُمَّ ذُلِّتُ فِي قَفَرٍ مُظْلِمَةٍ وَهَيْلِ التَّرَابِ عَلَيَّ، وَتَرَكْتُ وَحِيدًا وَانْصَرَفُوا!

وَمَا أَدْرِي كَمْ بَقِيْتُ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّمَا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ وَبُغْثِرَتْ الْأَمْوَاتُ جَمِيعًا، فَطَرْنَا فِي الْفَضَاءِ، وَكَانَتْ النُّجُومُ غِبَارًا حَوْلَنَا كَثْرَابِ الْعَاصِفَةِ فِي الْعَاصِفَةِ؛ وَإِذَا نَحْنُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَفِي هَؤُلِ الْمَوْقِفِ!

وَتَوَجَّهْتُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ فِي جِسْمِي إِلَى الرَّجَاءِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ؛ وَرَأَيْتُ أَعْمَالِي

(١) الهذ: الإسراع في القراءة.

رؤية أحزننني، فهي كمدينة عظيمة كل أهلها صعاكك إلا قليلاً من المستورين، أرى منهم الواحد بعد الواحد في الساعة بعد الساعة نذروا وتبعثوا وضاعوا كأعمال الصالحة!

وذكرت أني كذت أقتل نفسي فراراً بها من العمر المؤلم؛ فنظرت فإذا الزمن قد ظهر في أبعديته، ورجع الماضي حاضراً بكل ما حوى كأنه لم يمض، وإذا عمري كله لا يكاد يبلغ طرفة عين من دهر طويل، فحمدت الله أني لم أفتد الم اللحظة القصيرة القصيرة، بعذاب الأبد الخالد الخالد.

وجيء على أعين الخلق بأنعم أهل الدنيا وأكثرهم لذات في تاريخ الدنيا كله، فصاح صائح: هذا أنعم من كان على الأرض منذ خلقها الله إلى أن طواها. ثم غمس هذا المنعم في النار غمسة خفيفة كنبضة البرق، وأخرج إلى المحشر، وقيل له والناس جميعاً يسمعون: هل دقت نعيماً قط؟ قال: لا - والله -.

ثم جيء بأنعم أهل الأرض وأشدّهم بؤساً منذ خلقت الأرض، فغمس في الجنة غمسة أسرع من النسيم تحرك ومر، ثم أخرج إلى المحشر وقيل له: هل دقت بؤساً قط؟ قال: لا - والله -.

وسمعتنا شقيق جهنم وهي تفور تكاد تميز من الغيظ؛ فأيقنت أن لها نفساً خلقت من غضب الله. وخرج منها عنق عظيم هائل، لو تضرمت السماء كلها ناراً لأشبهته، فجعل يلتقط صنفاً صنفاً من الخلق، وبدأ بالملوك الجبارة فالتقطهم مرة واحدة كالمغناطيس لثراب الحديد؛ وقذف بهم إلى النار؛ ثم انبعث فالتقط الأغنياء المفسدين فأطازهم إليهم؛ ثم جعل يأخذ قوماً قوماً، وقد الجمي العرق من الفزع؛ ثم طرث أنا فيه، ونظرت، فإذا أنا مختبئ في مظلمة نارية كالهواية، ليس حولي فيها إلا قاتلو أنفسهم. ولو أن يحار الأرض جعل فيها البحر فوق البحر فوق البحر، إلى أن تجتمع كلها فيكون العمق كبعيد ما بين الأرض والسماء، ثم تسجر ناراً تلتظي، لكأنت هي الهواية التي نحن في أعماقها؛ وكنت سمعت من إمامنا الشعبي: أن عصاة المؤمنين الموحدين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياء وجوارحهم موزة؛ لأن هذه الجوارح قد أطاعت الله وسبحته فكرمت بذلك حتى على جهنم، ثم يعذبون عذاباً فيه الرحمة، ثم يخرجون وينظرون إيمانهم على باب النار، فكان إلى جانبي رجل قتل نفسه، فسمع قائلاً من بعيد يقول لمؤمن: اخرج فإن إيمانك ينتظرك. فصاح الذي إلى جانبي: وأنا، أفلا ينتظرني إيماني؟ فقيل له: وهل جئت به؟

ورأيت رجلاً ذَبَحَ نفسه يُريدُ أن يصرخَ يسألُ الله الرحمة، فلا يخرجُ الصوتُ من خلقه، إذ كان قد قرأه وبقيَ مَقْرِيًّا! وأبصرتُ آخرَ قد طعنَ في قلبه بِمِدْيَةٍ، فهو هناك تَسْلُخُ الزبانيةَ قلبه تَبَحُّثُ هل فيه نيةٌ صالحة، فلا تزالُ تَسْلُخُ ولا تزالُ تَبَحُّثُ! ورأيتُ آخرَ كان تَحْسَى من السمِّ فماتَ ظمآنً يَتَلَطَّى جوفه، فلا تزالُ تَنشأُ له في النارِ سحابةٌ رَوِيَّةٌ تَبْرُقُ بِالماء، فإذا دَنَتْ منه ورَجَّاهَا، انفَجَرَتْ عليه بِالصواعِقِ ثُمَّ عَادَتْ تَنشأُ وتنفجرُ!

وقال رجل: إنما كُنْتُ مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقتُ نفسي. فنودي: أو ما علمتَ أن الله يُحاسبُكَ على أهلكَ عاقلٌ لا مجنونٌ، وقويٌّ لا ضعيفٌ، وقادرٌ لا عاجزٌ؟ كُنْتُ تعقِلُ بالأقلِّ أهلكَ ستموتُ، وكُنْتُ تَقْوَى على أن تصبرَ، وكُنْتُ تقدرُ أن تتركَ الشرَّ.

وقال رجلٌ عالمٌ قد حَزُّ في يده بسكينِ فمات: «لم يكن الكمالُ من الدنيا ولا في طبيعتها ولا هو شيءٌ يُدرك». فصرخَ فيه صوتٌ رهيب: «ولكن من عَظْمَةِ الكمالِ أن استمرارَ العملِ له هو إدراكه!».

* * *

قال أبو عبيد: ثُمَّ انتصبَ بإزائي شيطانٌ ماردٌ أحمر، يلتصِقُ التماخُ الزجاج فيه الخمر، فقام في وجهي وقال: بماذا جِئْتُ إلى هنا يا عدو الخمر؟ فما كان إلا أن سمعتُ النداء: شَفَعَتْ فيك الخمرُ التي لم تشربها، اخرج، إن إيمانَكَ ينتظرك.

فصيحْتُ: الحمدُ لِلَّهِ! وتحركَ بها لِساني، فانتبهتُ.

لقد علمتُ أن الصبرَ على المصائبِ نعمةٌ كبرى لا يُنعمُ الله بها إلا في المصائب.

وحي القبور (*)

ذهبتُ في صُبحِ يومِ عيدِ الفطرِ أحملُ نفسي بنفسي إلى المَقْبَرَةِ، وقد مات لي من الخواطرِ موتَي لا مَيِّتٌ واحدٌ؛ فكنتُ أمشي وفي جَنَازَةٍ بِمُشِيعِيهَا؛ من فِكْرٍ يَحْمِلُ فِكْرًا، وخاطرٍ يَتَّبِعُ خاطراً، ومعنى يَبْكِي، ومعنى يُبْكِي عليه .

وكذلك دأبي كلما انحدرتُ في هذه الطريقِ إلى ذلك المكان الذي تأتبه العيونُ بدموعِها، وتمشي إليه النفوسُ بأحزانِها، وتجيءُ فيه القلوبُ إلى بقاياها . تلك المقابرُ التي لا يُنَادِي أَهْلُهَا مِنْ أَهْلِيهِمْ بِالْأَسْمَاءِ وَلَا بِالْأَلْقَابِ، ولكن بهذا النداء: يا أحبابنا، يا أحزانتنا!

ذهبتُ أزورُ أمواتي الأعزاءِ وأتصلُ منهم بأطرافِ نفسي، لأخيا معهم في الموتِ ساعةً أغرضُ فيها أمرَ الدنيا على أمرِ الآخرة، فأنسى وأذكر، ثُمَّ أنظرُ وأعتبرُ، ثُمَّ أتعرفُ وأتوسمُ، ثُمَّ أَسْتَبْطِنُ مِمَّا فِي بطنِ الأرضِ، وأستظهرُ مِمَّا عَلَى ظَهِرِهَا .

وجلسْتُ هناك أشرفُ من دهرٍ على دهرٍ، ومن دنيا على دنيا، وأخرَجَتِ الذاكرةُ أفراسِها القديمةَ لتجعلها مادةً جديدةً لأحزانِها؛ وانفتحَ لِي الزَمَنُ الماضي فَرَأَيْتُ رَجْعَةَ الْأَمْسِ، وكانَ دهرًا كاملاً خُلِقَ بحوادثِهِ وإيَّامِهِ، وَرُفِعَ لِعَيْنِي كَمَا تُرْفَعُ الصورةُ المعلقةُ في إطارِها .

أعرفُ أَنَّهُمْ ماتوا، ولكنِّي لم أشعرُ قطُّ إِلَّا أَنَّهُمْ غابوا؛ والحبيبُ الغائبُ لا يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَلَا الْمَكَانُ فِي الْقَلْبِ الذي يُحِبُّ مِمَّا تَرَأَخَتْ بِهِ الْأَيَّامُ؛ وهذه هي بقيةُ الروحِ إذا امتزَجَتْ بِالْحُبِّ فِي رُوحٍ أُخْرَى: تتركُ فيها ما لا يُمْحَى لِأَنَّهَا هي خالدةٌ لا تُمحَى .

ذهبَ الْأَمْوَاتُ ذَهَابَهُمْ وَلَمْ يُقِيمُوا فِي الدُّنْيَا؛ ومعنى ذلك أَنَّهُمْ مَرُّوا بِالدُّنْيَا لَيْسَ بِغَيْرٍ، فهذه هي الحياةُ حينَ تَعَبَّرُ عَنْهَا النَّفْسُ بِلِسَانِهَا لَا بِلِسَانِ حاجَتِها وجِريَّها .

(*) أنشأها في صبيحة يوم العيد وانظر «عود على بدء» من كتاب حياة الراقعي .

الحياة مدة عمل، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات، إن هي إلا مصنع يسوّج كل إنسان جانباً منه، ثم يُقال له: هذه الأداة فاصنع ما شئت، فضيلتك أو رذيلتك.



جلستُ في المقبرة، وأطرقتُ أفكراً في هذا الموت. يا عجباً للناس! كيف لا يستشعرونه وهو يهدم من كل حي أجزاء تُحيط به قبل أن يهدمه هو بجملته؛ وما زال كل بُنيان من الناس به كالحائط المُسلط عليه خرابه، يتأكل من هنا ويتناثر من هناك؟!

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهي! كيف يجعلون الحياة مدة نزاع وهي مدة عمل، وكيف لا تبرخ تنزروا التوازي بهم في الخلاف والباطل، وهم كلما تدافعوا بينهم قضية من النزاع فضربوا خضماً بخضم وردّوا كيداً بكيد، جاء حكم الموت تكديباً قاطعاً لكل من يقول لشيء: هذا لي؟

أما - والله - إنه ليس أعجب في السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطى الناس ما يملكونه فيها لإثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئاً، إذ يأتي الآتي إليها لحماً وعظماً، ولا يرجع عنها الراجع إلا لحماً وعظماً، وبينهما سفاهة العظم واللحم حتى على السكين القاطعة. . . .

تأتي الأيام وهي في الحقيقة تفر فرازاها؛ فمن جاء من عمره عشرون سنة فأنما مضت هذه العشرون من عمره. ولقد كان ينبغي أن تصحح أعمال الحياة في الناس على هذا الأصل البين، لولا الطباغ المدخولة والنفوس الغافلة، والعقول الضعيفة، والشهوات العارمة؛ فإنه ما دام العمر مُقبلاً مُذبراً في اعتبار واحد، فليس للإنسان أن يتناول من الدنيا إلا ما يرضيه محسوباً له ومحسوباً عليه في وقت معاً؛ وتكون الحياة في حقيقتها ليست شيئاً إلا أن يكون الضمير الإنساني هو الحي في الحي.



وما هي هذه القبور؟ لقد رجعت عند أكثر الناس مع الموتى أبنية ميتة؛ فما قط رأوها موجودة إلا لينسوا أنها موجودة؛ ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحي المتغلغل في الحياة إلى بعيد؛ فما القبر إلا بناء قائم لفكرة النهاية والانقطاع؛ وهو في الطرف الآخر رد على البيت الذي هو بناء قائم لفكرة البدء والاستمرار؛ وبين الطرفين المغبّد وهو بناء لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي القبر، فهو على الحياة والموت كالقاضي بين خصمين يُصلح بينهما صلحاً أو يقضي.

القبرُ كلمةُ الصديقِ مبنيةٌ متجسِّمةٌ، فكلُّ ما حولها يَتَكَدَّبُ ويتأوَّل، وليس فيها هي إلا معناها لا يَدْخُلُهُ كَذِبٌ ولا يعتريه تأويل. وإذا ماتت في الأحياء كلمةُ الموتِ من غرورٍ أو باطلٍ أو غفلةٍ أو أثر، بقيَ القبرُ مُذَكِّراً بالكلمةِ شارحاً لها بأظهرِ معانيها، داعياً إلى الاعتبارِ بمدلولها، مبيِّناً بما ينطوي عليه أنَّ الأمرَ كُلَّهُ لِلنَّهائَةِ.

القبرُ كلمةُ الأرضِ لِمَنْ يَنْخَدِعُ فيرى العَمَرَ الماضيَ كأنَّهُ غيرُ ماضٍ، فيعملُ في إفراغِ حياتِهِ مِنَ الحَيَاةِ^(١) بما يملؤها من رذائله وخسائيسه؛ فلا يزالُ دَائِباً في معاني الأرضِ واستجماعِها. والاستمتاعُ بها، يتلو في ذلك تَلَوُّ الحيوانِ ويقتاسُ به، فشريعتُهُ جَوْفُهُ وأعضاؤُهُ، وترجعُ بِذلك حيوانيتُهُ مع نفسه الروحانيَّة، كالجمارِ مع الذي يملكُهُ ويعلفُهُ، ولو سُئلَ الحمارُ عن صاحبه مَنْ هو؟ لقال: هو جِماري...

القبرُ على الأرضِ كلمةٌ مكتوبةٌ في الأرضِ إلى آخرِ الدنيا، معناها أنَّ الإنسانَ حيٌّ في قانونِ نهايته، فلينظرُ كيف ينتهي.



إذا كان الأمرُ كُلُّهُ لِلنَّهائَةِ، وكان الاعتبارُ بها والجزاءُ عليها، فالحياةُ هي الحياةُ على طريقةِ السلامة لا غيرها؛ طريقةُ إكراهِ الحيوانِ الإنسانيَّ على مُمارَسةِ الأخلاقيَّةِ الاجتماعيَّة، وجعلها أصلاً في طباعه، ووزن أعماله بنتائجها التي تنتهي بها، إذ كانتُ روحانيَّةً في النهاياتِ لا في بداياتها.

في الحياةِ الدنيا يكونُ الإنسانُ ذاتاً تعملُ أعمالها؛ فإذا انتهتِ الحياةُ انقلبَتْ أعمالُ الإنسانِ ذاتاً يخلدُ هو فيها؛ فهو مِنَ الخيرِ خالدٌ في الخير، وَمَنِ الشرِّ هو خالدٌ في الشرِّ؛ فكانَ الموتُ إنَّه هو إلا ميلادٌ لِلروحِ من أعمالها؛ تُولَدُ مرتين: آتيةٌ وراجعةٌ.

وإذا كان الأمرُ لِلنَّهائَةِ فقدُ وجبَ أنْ تبطلَ من الحياةِ نهاياتٌ كثيرة، فلا يُتركُ الشرُّ يَمْضِي إلى نهايته بلْ يُخَسَمُ في بَذْيِهِ وَيَقْتُلُ في أولِ أنفاسِهِ، وكذلك الشَّأْنُ في كُلِّ ما لا يَحْسُنُ أَنْ يَبْدَأَ، فَإِنَّهُ لا يَجُوزُ أَنْ يَمْتَدَّ: كالعداوةِ والبغضاءِ، والبخلِ والأثرة، والكبرياءِ والغرورِ، والخداعِ والكذبِ؛ وما شابهَ هذه أو شابهَهَا، فَإِنَّهَا كُلُّهَا انبعاثٌ مِنَ الوجودِ الحيوانيِّ وانفجارٌ من طبيعته؛ ويجبُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ منها في الإرادةِ قَبْرٌ كي تَسْلَمَ لِلنفسِ الطيبةِ إنسانيتها إلى النِّهائَةِ.



(١) أي من إنسانية الحياة.

يا مَنْ لهم في القبور أموات!

إنَّ رؤيةَ القبرِ زيادةٌ في الشعورِ بقيمةِ الحياة، فيجبُ أن يكونَ معنى القبرِ من معاني السلامِ العقليِّ في هذه الدنيا.

القبرُ فَمَ يُنادي: أسرعوا أسرعوا، فهي مدَّةٌ لو صُرِّفَتْ كُلُّها في الخيرِ ما وَقَّتْ به؛ فكيف يضيِّعُ منها ضياعاً في الشرِّ أو الإثمِ؟ لو وُلِدَ الإنسانُ ومشى وأيقَعَ وشبَّ واكتَهِلَ وهَرِمَ في يومٍ واحدٍ، فما عساهُ كان يُضيِّعُ من هذا اليومِ الواحدِ؟ إنَّ أطولَ الأعمارِ لا يراهُ صاحبُه في ساعةِ موتهِ إلَّا أقصرَ من يومٍ.

يُنادي القبرُ: أصلِحوا عيوبَكم، وعليكم وقتٌ لإصلاحِها؛ فإنَّها إنَّ جاءتْ إلى هنا كما هي، بقيتْ كما هي إلى الأبدِ، وتركها الوقتُ وهرب.

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالك القبرُ أيضاً؛ فليس ينظرُ في هذا عاقلٌ إلَّا كان نظرهُ كأنَّه حكمٌ محكمةٌ على هذه الحياة كيف تنبغي وكيف تكون.

في القبرِ معنى إلغاءِ الزمان، فَمَنْ يفهمُ هذا استطاعَ أن ينتصرَ على أيَّامِهِ، وأن يُسْقِطَ منها أوقاتَ الشرِّ والإثمِ، وأن يُجِيتَ في نفسه خواطرَ السوءِ؛ فَمِنْ معاني القبرِ ينشأ للإرادةِ عقلُها القويُّ الثابت؛ وكلُّ الأيامِ المكروهة لا تجدُ لها مكاناً في زمنِ هذا العقل، كما لا يجدُ الليلُ محلاً في ساعاتِ الشمسِ.

ثلاثةُ أرواحٍ لا تصلُحُ روحُ الإنسانِ في الأرضِ إلَّا بها:

روحُ الطبيعةِ في جمالِها، وروحُ المعبدِ في طهارتهِ، وروحُ القبرِ في موعظتهِ.

عروسٌ تُرَفُّ إلى قبرها (*)

(١)

كان عمرُها طاقةً أزهارٍ تُسمى أياماً.

كان عمرُها طاقةً أزهارٍ يُنتسِقُ فيه اليومُ بعدَ اليومِ كما تَنبُتُ الورقةُ الناعمةُ في الزهرة إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثلها.

أيامُ الصَّبَا المَرِحَةِ حتى في أحزانها وهمومها؛ إذ كان مجيئُها من الزمن الذي خُصَّ بشبابِ القلبِ، تبدو الأشياءُ في مجاري أحكامها كالمسحورة؛ فإنَّ كائناً مُفْرِحَةً جاءتْ حاملةً فرحين، وإنَّ كائناً مُخْزَنَةً جاءتْ بنصفِ الحزن.

تلكَ الأيامُ التي تعملُ فيها الطبيعةُ لِشبابِ الجسمِ بِقُوَى مختلفة: منها الشمسُ والهواءُ والحركة، ومنها الفَرْحُ والنسيانُ والأحلامُ!

* * *

وَسَبَّتِ العذراءُ وأفرغتْ في قالبِ الأنوثة الشمسيِّ القمري، واكتسى وجهُها ديباجةً من الزَّهْرِ العُصَى، وأودعتها الطبيعةُ سِرُّها النسائي الذي يجعلُ العذراءَ فَنَّ جمالٍ لأنَّها فَنُّ حياةٍ، وجعلتها بَمثالاً لِلظُّرفِ: وما أعجَبَ سِحَرَ الطبيعةِ عندَ ما تُجَمِّلُ العذراءَ بظُرفِ كظُرفِ الأطفالِ الذينَ ستلِدُهم من بَعد! وأسبغتَ عليها معاني الرقة والحَنانِ وجمالِ النفسِ؛ وما أكرمَ يَدَ الطبيعةِ عندما تَمَهِّرُ العذراءَ من هذه الصفاتِ مَهَرُها الإنساني!

وخطبتِ العذراءُ لِزوجِها، وعَقِدَ له عليها في اليومِ الثالثِ من شهرِ مارسٍ في الساعةِ الخامسة بعدَ الظهرِ.

وماتتْ عذراءٌ بعدَ ثلاثِ سنينَ، وأُنزلتْ إلى قبرِها في اليومِ الثالثِ من شهرِ مارسٍ في الساعةِ الخامسة بعدَ الظهرِ!

(*) هي زوج ولده سامي. وانظر خبره وخبرها في «عود على بدء» من كتاب (حياة الرافعي).

وكانت السنوات الثلاث عُمرَ قلبٍ يُقَطِّعُهُ المرضُ، ينتظرون به العُرسُ،
وينتظرُ بنفسِه الرُّمسُ!

يا عجائب القَدَر! أذاك لحنٌ موسيقيٌّ لأينِ استمرَّ ثلاثُ سنواتٍ، فجاءَ آخرُه
موزوناً بأوَّله في ضبطٍ ودَقَّة؟

أكانت تلك العذراءُ تحملُ سرّاً عظيماً سيُغيِّرُ الدنيا، فردَّت الدنيا عليها يومَ
التهنئة والابتسام والزينة، فإذا هو يومُ الوَلُولَةِ والدموعِ والكفن؟

(٢)

وها لك أيُّها الزمن! مَنْ الذي يفهمُك وأنت مُدَّةُ أقدار؟
واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعددِ أهلِ الدنيا جميعاً، وبهذا يعودُ
لِكُلِّ مخلوقٍ سرُّ يومه، كما أنَّ لِكُلِّ مخلوقٍ سرُّ روجه، وليس إليه لا هذا ولا هذا.
وفي اليومِ الزمنيِّ الواحدِ أربعُمائة مليون يومٍ إنسانيٍّ على الأرض! ومع ذلك
يُحصيه عقلُ الإنسانِ أربعاً وعشرين ساعة؛ يا للغباوة...!

وكلُّ إنسانٍ لا يتعلَّقُ من الحياةِ إلَّا بالشعاعِ الذي يُضيءُ المكانَ المظلمَ في قلبه،
والشمسُ بما طَلَعَتْ عليه لا تستطيعُ أنْ تُنيرَ القلبَ الذي لا يُضيئُهُ إلَّا وجهُ محبوب.

وفي الحياةِ أشياءٌ مكذوبةٌ تُكَبِّرُ الدنيا وتُصَغِّرُ النفسَ، وفي الحياةِ أشياءٌ
حقيقيةٌ تُعْظِمُ بالنفسِ وتُصَغِّرُ بالدنيا؛ وذَهَبَ الأرضُ كُلُّه فقرٌ مُدَقِّعٌ حينَ تكونُ
المعاملةُ مَعَ القلبِ.

أَيُّها الدنيا؛ هذا تحقيرُك الإلهيُّ إذا أكبرُك الإنسان!



ويا عَجَباً لأهلِ السوءِ المغترِّينَ بحياةٍ لا بدَّ أنْ تنتهي! فماذا يرتقبونَ إلَّا أنْ
نتهي؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضةٌ؛ وهل أعجَبَ وأغمضُ من أنْ يكونَ انتهاءُ الإنسانِ إلى
آخرِها هو أولُ فكرِه في حقيقتها؟

فحينَما تحينُ الدقائقُ المعدودةُ التي لا تَرُقُّمُها الساعةُ ولكنْ يَرُقُّمُها صدرُ
المُختَضِر... عند ما يكونُ مُلكُ الملوكِ جميعاً كالترابِ لا يشتري شيئاً البتَّة...!

... ماذا يكونُ أيُّها المجرمُ بعدَما تَقْتَرِفُ الجِنَايةَ، ويقومُ عليك الدليلُ،
وترى حَوْلَكَ الجُنْدَ والقُضاةَ، وتَقِفُ أمامَكَ الشريعةُ والعدلُ؟



أعمالنا في الحياة هي وحدها الحياة، لا أعمالنا، ولا حُطوؤنا. ولا قيمة للمال، أو الجاه، أو العافية، أو هي معاً - إذا سُلِبَ صاحبها الأمن والقرار! والآمين في الدنيا مَنْ لم تكن وراءه جريمة لا تزال تجري وراءه. والسعيد في الآخرة مَنْ لم تكن له جريمة تُطارِدهُ وهو في السماوات.

كيف يُمكن أن تخدع الآلة صاحبها وفيها (العداؤ): ما تتحرك من حركة إلا أشعرته فَعْدَها؟ وكيف يُمكن أن يكذب الإنسان ربه وفي القلب: ما يعمل من عمل إلا أشعره فعْدَه؟

(٣)

ورأيت العروس قبل موتها بأيام.

أفرايت أنت الغنى عند ما يُدبر عن إنسانٍ ليرك له الحسرة والذكرى الاليمة؟ أرايت الحقائق الجميلة تذهب عن أهلها فلا تترك لهم إلا الأحلام بها؟ ما أتعب الإنسان حين تتحول الحياة عن جسده إلى الإقامة في فكره!

وما هي الهموم والأمراض؟ هي القبرُ يستبطنُ صاحبه أحياناً فينفضُ في بعض أيامه شيئاً من تراهيه...!

رايت القروس قبل موتها بأيام، فيالله من أسرار الموت ورهبتها! فرغ جسمها كما فرغت عندها الأشياء من معانيها! وتخلّى هذا الجسم عن مكانه للروح تظهر لأهلها وتقف بينهم وقفة الوداع!

وتحول الزمن إلى فكر المريضة؛ فلم تعد تعيش في نهارٍ وليل، بل في فكرٍ مُضيءٍ أو فكرٍ مظلم!

يا إلهي! ما هذا الجسم المتهذم المقبل على الآخرة؛ أهو تمثال بطل تعبيره، أم تمثال بدأ تعبيره؟

لقد وثقت أنه الموت، فكان فكرها الإلهي هو الذي يتكلم؛ وكان وجهها كوجه العابد: عليه طيف الصلاة ونورها. والروح الإنسانية متى عبرت لا تعبر إلا بالوجه.

ولها ابتسامة غريبة الجمال؛ إذ هي ابتسامة آلام أيقنت أنها مُوشِكة أن تنتهي! ابتسامة روح لها مثل فرح السجين قد رأى سجنائه واقفاً في يده الساعة برقب الدقيقة والثانية يقول له: انطلق!



ودخلتُ أعودُها فرأتُ كأنني آت من الدنيا... ! وتَسَمَّتُ مِنِّي هواءَ الحياة،
كأنني حديقةٌ لا شخص!

ومنَ غيرِ المريضِ المُذنبِ، يعرفُ أنَّ الدنيا كلمةٌ ليس لها معنى أبداً إلا العافية:
منَ غيرِ المريضِ المُشغفِ على الموتِ، يعيشُ بقلوبِ الناسِ الذينَ حوله لا بقلبه؟
تلكَ حالةٌ لا تنفعُ فيها الشمسُ ولا الهواءُ ولا الطبيعةُ الجميلةُ، ويقومُ مقامُ
جميعها للمريضِ أهلهُ وأحبَّاءُه!

وكانَ دُؤُوها من رهبةِ القدرِ الداني كأنهم أسرى حربٍ أجلسوا تحتَ جدارٍ
يُريدُ أنْ ينقضَ! وكانت قلوبُهُم من فزعِها تَنبُضُ نبضاً مثل ضَرَبَاتِ المَعاولِ.
وباقترابِ الحبيبِ المحتَضِرِ من المجهولِ، يُصيحُ مَنْ يحبهُ في مجهولٍ آخرِ،
فتختلطُ عليه الحياةُ بالموتِ، ويعودُ في مثلِ خيرةِ المجنونِ حينَ يُمْسِكُ بيدهِ الظلَّ
المتحركَ ليمتنعهُ أنْ يذهبَ وتُغروهُ في ساعةٍ واحدةٍ كأبَّةِ عمرٍ كاملٍ، تُهَيِّئُ له جلالَ
الجِسْنِ الذي يشهدُ به جلالُ الموتِ!



وحادث ساعةٌ ما لا يُفهمُ، ساعةٌ كُلُّ شيءٍ، وهي ساعةُ اللاشيءِ في العقلِ
الإنساني! فالتفتتِ العروسُ لأبيها تقول: «لا تحزنْ يا أبي...» ولأُمِّها تقول: «لا
تحزني يا أُمِّي...»!

وتبسَّمتِ للدموعِ كأنها تُحاولُ أنْ تُكَلِّمَها هي أيضاً؛ تقولُ لها: «لا
تبكي...»! وأشفقتُ على أحيائها وهي تموتُ، فاستجمعتُ روحها ليبقى وجهُها
حيّاً من أجْلهم بضغْ دقائق! وقالت: «سأغادرُكم مبتسمةً فعيشوا مبسمين، سأتركُ
تذكاري بينكم تذكارَ عروسٍ!...».

ثُمَّ ذَكَرَتِ اللهَ وذَكَرَتْهُمُ به، وقالت: «أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله». وكررتها
عشرًا! وتَمَلَّأتُ روحُها بالكلمة التي فيها نورُ السماواتِ والأرضِ، ونطقتُ من
حقيقةِ قلبِها بالاسمِ الأعظمِ الذي يجعلُ النفسَ منيرةً تتلألأُ حتى وهي في أحزانها.
ثُمَّ استقبلتُ خالقَ الرحمة في الآباءِ والأمهاتِ وفي مثل إشارةٍ وداعٍ من
مسافرٍ انبَعَثَ به القطارُ، أَلَقْتُ إليهم تحيةً من ابتسامتها وأسلمتِ الروح!

(٤)

يا لعجائبِ القدر! مشينًا في جنازةِ العروسِ التي تُزَفُّ إلى قبرِها طاهرةً

كالطفلة ولم يُبارك لها أحد! فما جاوزنا الدارَ إلّا قليلاً حتى أبصرتُ على حائطٍ في الطريقِ إعلاناً قديماً بالخَطِّ الكبيرِ الذي يصيحُ لِلأعينِ؛ إعلاناً قديماً عن (رواية) هذا هو اسمُها: «مبروك...!».

واخترقنا المدينةَ وأنا أنظرُ وأنقصي، فلم أرَ هذا الإعلانَ مرةً أخرى! واخترقنا المدينةَ كلّها، فلما انقطعَ العمرانُ وأشرقنا على المقبرة، إذا آخرُ حائطٍ عليه الإعلان: «مبروك...!»

موت أم (*)

رجعت من الجنازة بعد أن غُبِزَتْ قدمي ساعة في الطريق التي ترابها تراب وأشعة، وكانت في النعش لؤلؤة آدمية محطمة، هي زوجة صديق طَخَطَحَتْها الأمراضُ ففَرَّقَتْها بين عِلَلِ الموت، وكان قلبها يُحْيِيها فأخَذَ يَهْلِكُها، حتى إذا دنا أن يَقْضِي عليها رحمها الله فَقَضَى فيها قضاءه. وَمَنْ ذا الذي مات له مريضٌ بالقلب ولم يَرَهُ من قلبه في عِلْيَةِ كالمصفورة التي تَهْتَلِكُ تحت عيني ثعبانٍ سَلَطَ عليها سمومَ عينيه!

كانت المسكينة في الخامسة والعشرين من سنّها، أمّا قلبها ففي الثمانين أو فوق ذلك؛ هي في سنّ الشباب وهو مهتدمٌ في سنّ الموت.

وكانت فاضلةً نقيّةً صالحة، لم تتعلّم ولكنْ علّمها التقوى والفضيلة. وأكملُ النساءِ عندي ليست هي التي ملأت عينها من الكتب فهي تنظرُ إلى الحياة نظرات تجلّ مشاكل وتخلق مشاكل ولكنها تلك التي تنظرُ إلى الدنيا بعين متلألئة بنور الإيمان تُقِرُّ في كلِّ شيءٍ معناه السماوي، فتؤمِّنُ بأحزانها وأفراحها معاً، وتأخذ ما تُعطى من يد خالقها رحمةً معروفةً أو رحمةً مجهولة. هذه عندي تُسمّى امرأة، ومعناها المعبدُ القدسي؛ وتكونُ الزوجة، ومعناها القوةُ المُسعدة؛ وتُصيرُ الأم، ومعناها التكملةُ الإلهيةُ لصغارها وزوجها ونفسها.

ومهما تبلغ المرأة من العلم فالرجل أعظمُ منها بأثَرِ رجل، ولكنْ المرأةُ حتّى المرأة هي تلك التي خُلِقَتْ لتكونَ للرجل مادةً الفضيلة والصبر والإيمان، فتكونُ له حياً وإلهاماً وعزاءً وقوةً، أي زيادةً في سروره ونقصاً من آلامه.

ولنْ تكونَ المرأةُ في الحياة أعظمَ من الرجلِ إلّا بشيءٍ واحد، هو صفاتها التي تجعل رجُلها أعظمَ منها.

(*) هي زوج صديقنا الأستاذ حسين مخلوف. وانظر «عمله في الرسالة» من كتاب «حياة الراقعي».

ومشيئت من البيت الذي ألبسته الميتة معنى القبر، إلى القبر الذي ألبس الميتة معنى البيت وأنا منذُ مشيئت في جنازة أمي (رحمها الله) لا أسيرُ في هذه الطريق مع الأحياء، ولكن مع الموتى، فأتبعُ من الميت صديقاً ليس رجلاً ولا امرأة، لأنه من غير هذه الدنيا؛ وأمشي في ساعة ليستَ ستين دقيقة، لأنها خرجت من الزمن؛ ولا أرى الطريق من طرق الحياة، لأنني في ضجة ميت؛ وتصبح للأرض في رأيي جغرافية أخرى غمّي الناس عنها لشدة وضوحها، كاللوهية خفيت من شدة ما ظهرت.

يقولون: إن ثلاثة أرباع الأرض يغمرها البحر. أما أنا فأرى في تلك الساعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر الذي وصفوا، ولكن خضم آخر زخار مُضرب، هو ذلك البحر الترابي العظيم المسمى «المقبرة».

يقولون: إن الحياة هي... هي ماذا - ويحكم - أيها المغرورون؛ أفلا ترون هذه الصلة الدائمة بين بطن الأم وبطن الأرض؟

لغفري كيف تجعل هذه الحياة للناس قلوباً مع قلوبهم، فيجس المرأة بقلب، ويعمل بقلب آخر: يعتقد ضرر الكذب ويكذب، ويعرف مغرة الإثم ويأثم، ويوقن بعاقبة الخيانة ثم يخون؛ ويمضي في العمر منتهياً إلى ربه، ما في ذلك شك، ولكنه في الطريق لا يعمل إلا عمل من قد فر من ربه...؟

هبّ الريح في السحر على روضة غناء فطابت لها، فعقدت عقدتها أن تتخذ لها بيتاً في ذلك المكان الطيب لتقيم فيه... يا لها حكمة من التدبير! تزعم الريح الإقامة على حين كل وجودها هو لحظة مرورها، وتحلم بالقرار في البيت وهي لا تملك بطبيعتها أن تقف.

يا لها حكمة سامية، لا يسكنها من المعنى إلا أسخف ما في الحمق!

همد الحي وانطفأت عيناه، ولكنه تحرك في تاريخه مما ضيق على نفسه أو وسع، وأصبح ينظر بعين من عمله إما مبصرة أو كالعمياء؛ فلو تكلم يصف الحياة الدنيا لقال: إن هذه النجوم على الأرض مصابيح ماتم أقيم ليل. وما أعجب أن يجلس أهل الماتم في الماتم ليضحكوا ويلعبوا!

ولو نطق الموتى لقالوا: أيها الأحياء، إن هذا الحاضر الذي يمر فيكون ماضيك في الدنيا، هو بعينه الذي يكون مستقبلكم في الآخرة، لا تزيدون فيه ولا

تَقْصُونَ . وَإِنَّ الدُّنْيَا تَبْدَأُ عِنْدَكُمْ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى : مِنَ الْعِظَمَاءِ إِلَى الْفُقَرَاءِ ؛ وَلَكِنَّهَا تَنْقَلِبُ فِي الْآخِرَةِ فَتَبْدَأُ مِنَ الْفُقَرَاءِ إِلَى الْعِظَمَاءِ ؛ وَأَنْتُمْ تَرَسُمُونَهَا بِخُطُوطِ الْمَطَامِعِ وَالْحِفْظِ ، وَتَرَسُمُهَا اللَّهُ بِخُطُوطِ الْجَزْمَانِ وَالْمُجَاهِدَةِ ؛ إِنَّ التَّامُّ عَلَى الْأَرْضِ مَنْ تَمَّ بَمَتَاعِهَا وَلَذَائِهَا ، وَلَكِنَّ التَّامَّ فِي السَّمَاءِ مَنْ تَمَّ بِنَفْسِهِ وَحَدِّهَا .

يَا أَسَفًا ! لَنْ يَقُولَ الْمَيِّتُ لِلْحَيِّ شَيْئًا ، وَمَنْ يَدْرِي ؟ لَعَلَّنَا وَنَحْنُ نُلْجِدُ لِمَوْتِي وَنُنْزِلُهُمْ فِي قُبُورِهِمْ ، يَرَوْنَ بِأَرْوَاجِهِمُ الْخَالِدَةَ أَتُنَا نَحْنُ مَوْتَاهُمْ الْمَسَاكِينُ ، وَأَتُنَا مَدْفُونُونَ فِي الْقَبْرِ الَّذِي يَسْمُوهُ «الْكُرَّةُ الْأَرْضِيَّةُ» ! وَهَلِ الْكُرَّةُ الْأَرْضِيَّةُ مِنَ اللَّانِهَائِيَةِ إِلَّا حَفْرَةٌ بِرَجُلٍ نَمْلَةٍ لِيُذْفَنَ فِيهَا نَمْلَةٌ . . .

الحياة . . أَتُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا ؟ هِيَ الْمُبْنَهَامَاتُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا فِي الْآخِرِ إِلَّا تَفْسِيرٌ وَاحِدٌ : حَلَالٌ أَوْ حَرَامٌ .

وَرَجَعْنَا مَعَ الصَّدِيقِ إِلَى بَيْتِهِ ، وَلَهُ خَمْسَةُ أَطْفَالٍ صِغَارٍ لَوْ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ انْتَرَعُوا مِنْ أُمِّهِمْ لَتَرَكُوا كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى قَلْبِهَا مِثْلَ الْمِكْوَةِ الْمَحْمِيَةِ عَلَيْهَا فِي النَّارِ إِلَى أَنْ تَحْمَرَ ؛ وَلَكِنَّ أُمَّهُمْ هِيَ الَّتِي تُزَعَّتْ مِنْهُمْ ، فَكَانَ بَقَاؤُهُمْ فِي الْحَيَاةِ تَخْفِيفًا لِسُكْرَةِ الْمَوْتِ عَلَيْهَا . وَغَشِيَتْهَا الْعَشِيَّةُ فَمَاتَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ ، إِذْ تَرَاهُمْ نَائِمِينَ تَحْتَ جَنَاحِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَمْدُودِ ، وَقَالَتْ : إِنَّهَا تَسْمَعُ أَحْلَامَهُمْ . وَكَانُوا هُمْ عَقْلُهَا فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ !

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي قَلْبِ الْأُمِّ دُنْيَا مِنْ خَلْقِهِ هُوَ ، وَدُنْيَا مِنْ خَلْقِ أَوْلَادِهَا ! تَبَارَكَ الَّذِي أَثَابَ الْأُمَّ ثَوَابَ مَا تُعَانِي ، فَجَعَلَ فَرَحَهَا صُورَةً كَبِيرَةً مِنْ فَرَحِ صِغَارِهَا !

وَجَاءَ أَكْبَرُ الْأَطْفَالِ الْخَمْسَةِ ، وَكَانَتْ ثَمَانِيَةَ أَرْطَالٍ مِنَ الْحَيَاةِ لَا ثَمَانِيَةَ أَعْوَامٍ مِنَ الْعُمُرِ ؛ جَاءَ إِلَيْنَا كَمَا يَجِيءُ الْفَرْعُ لِقُلُوبٍ مَطْمَئِنَّةٍ ، إِذْ كَانَ فِي عَيْنَيْهِ الْبَاكِيتَيْنِ مَعْنَى فَقْدِ الْأُمِّ !

وَطَعَتْ عَلَيْهِ الدَّمُوعُ فَتَنَاوَلَ مِنْدِيلَهُ وَمَسَحَهَا بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ ، وَلَكِنَّ رُوحَهُ الْيَتِيمَةَ تَأَبَّى إِلَّا أَنْ تَرَسَّمَ بِهِذِهِ الدَّمُوعُ عَلَى وَجْهِهِ مَعَانِي يَتِيمِهَا !

وظَهَرَ الْانْكَسَارُ فِي وَجْهِهِ يَعْبرُ بِبَلَاغَةٍ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَسَ حَقِيقَةَ ضَعْفِهِ وَطُفُولِيَّتِهِ بِإِزَاءِ الْمَصِيبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِ ، وَجَلَسَ مُسْتَسْلِمًا تَتَرَجَّمُ هَيْئَتُهُ مَعَانِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ : «رَفَقًا بِي» ! .

ثُمَّ تَطِيرُ مِنْ عَيْنِيهِ نَظْرَاتٌ فِي الْهَوَاءِ ، كَأَنَّمَا يُحْسِنُ أَنَّ أُمَّهُ حَوْلَهُ فِي الْجَوِّ وَلَكِنَّهُ لَا يَرَاهَا!

ثُمَّ يُرْجِي عَيْنِيهِ فِي إِغْمَاضَةٍ خَفِيفَةٍ ، كَأَنَّمَا يَرْجُو أَنْ يَرَى أُمَّهُ فِي طَوِيلَتِهِ!
وَلَا يَصْدُقُ أَنَّهَا مَاتَتْ ، فَإِنَّ صَوْتَهَا حَيٌّ فِي أُذُنِيهِ لَا يَزَالُ يَسْمَعُهُ مِنْ أَمْسٍ!
ثُمَّ يَعُودُ إِلَى وَجْهِهِ الْإِنْكَسَارَ وَالْإِسْتِسْلَامَ ، وَيَتَمَلَّلُ فِي مَجْلِسِهِ ، فَيَنْطِقُ جَسْمُهُ كُلَّهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ : « يَا أُمِّي ! » .

* * *

أَحْسَنَ - وَلَا رَيْبَ - أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي الْوُجُودِ ، لِأَنَّ الْوُجُودَ كَانَ أُمَّهُ .
وَلَمَسَ خَشَوْنَةَ الدُّنْيَا مِنْذُ السَّاعَةِ ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَ الصَّدْرَ الَّذِي فِيهِ وَخَدَهُ لِيُنْ
الْحَيَاةَ لِأَنَّ فِيهِ قَلْبَ أُمِّهِ وَرُوحَهَا .
وَشَعَرَ بِالذَّلِّ يَنْسَابُ إِلَى قَلْبِهِ الصَّغِيرِ ، لِأَنَّ تِلْكَ الَّتِي كَانَ يَمْلِكُ فِيهَا حَقُّ
الرَّحْمَةِ قَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ وَتَرَكْتُهُ بِلا حَقٍّ فِي أَحَدٍ ؛ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَمَانٌ!
وَلِبَسْتُهُ الْمَسْكَنَةَ ، لِأَنَّ لَهُ شَيْئاً عَزِيزاً أَصْبَحَ وَرَاءَ الزَّمَانِ فَلَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ!
وَلِبَسْتُهُ الْمَسْكَنَةَ ، لِأَنَّهُ صَارَ وَحْدَهُ فِي الْمَكَانِ كَمَا هُوَ وَحْدَهُ فِي الزَّمَانِ!
وَارْتَسَمَ عَلَى وَجْهِهِ التَّعَجُّبُ ، كَأَنَّهُ يَسْأَلُ نَفْسَهُ : « إِذَا لَمْ تَكُنْ أُمِّي هُنَا ، فَلِمَ إِذَا
أَنَا هُنَا ؟ ! » .

ثُمَّ تَفَرَّغَتْ عَيْنَاهُ فَيُخْرِجُ مِنْدِيلَهُ وَيَمْسَحُ دَمْعَهُ بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ ، وَلَكِنْ رُوحَهُ
الْيَتِيمَةَ تَابَى إِلَّا أَنْ تَرَسَّمَ بِهَذِهِ الدَّمْعِ عَلَى وَجْهِهِ مَعَانِي يَتَّبِعُهَا!

* * *

وَنَهَضَ الصَّغِيرُ وَلَمْ يَنْطِقْ بِذَاتِ شَفَعَةٍ ؛ نَهَضَ يَحْمِلُ رَجُلَتَهُ الَّتِي بَدَأَتْ مِنْذُ
السَّاعَةِ!

انْتَهَتْ - أَيُّهَا الطِّفْلُ الْمَسْكِينُ - أَيَّامُكَ مِنَ الْآمِ ؛ هَذِهِ الْأَيَّامُ السَّعِيدَةُ الَّتِي كُنْتَ
تَعْرِفُ الْغَدَّ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ مَعْرِفَتَكَ أَمْسٍ الَّذِي مَضَى ؛ إِذْ يَأْتِي الْغَدُ وَمَعَكَ أُمُّكَ!
وَبَدَأَتْ - أَيُّهَا الطِّفْلُ الْمَسْكِينُ - أَيَّامُكَ مِنَ الزَّمَنِ ، وَسَيَأْتِي كُلُّ غَدٍ مُحِبِّباً
مَرْهُوباً ؛ إِذْ يَأْتِي لَكَ وَحْدَكَ ، وَيَأْتِي وَأَنْتَ وَحْدَكَ!
الْآمُ . . . ؟ يَا إِلَهِي ، أَيُّ صَغِيرٍ عَلَى الْأَرْضِ يَجِدُ كِفَايَتَهُ مِنَ الرُّوحِ إِلَّا فِي الْآمِ؟

قصة أب (*)

حدَّثني المسكينُ فيما حدَّث وهو يصفُ ما نزل به قال :

رأيتُ الناسَ قد أنعمَ الله عليهم أن يكونوا آباءَ فَنَسُوا بالوليد في آثارهم ، ومدَّ بالنسل في وجودهم ، وزادَ منه في أرواحهم أرواحاً ، وضَمَّ به إلى قلوبهم قلوباً ، ومَلَأَ أعينهم من ذلك بما تَقَرُّ به قُرَّةُ عين كَانَتْ لم تَجِدْ ثُمَّ وَجَدَتْ ؛ فهم بهؤلاءِ الأطفالِ يملكونَ القوَّةَ التي تُرْجِعُهُمْ أطفالاً مثلَهُمْ في كُلِّ ما يسرُّهم ، فيكَبِّرُ الفَرْحَ في أنفُسِهِمْ وإنْ كان في ذاتِ نفسِهِ ضئيلاً صغيراً ، ويعظُمُ الأملُ في أشياءِهِمْ وإنْ كان هو عن شيءٍ حقيرٍ لا يُؤْبَهُ له .

وتلك حقيقةٌ من حقائقِ السعادة لا أَسْمَى ولا أعظَمُ منها إلا الحقيقةُ الأخرى : وهي القوَّةُ التي يتحوَّلُ بها الكونُ في قلبِ الوالدين إلى كنزٍ من الحبِّ والرحمةِ وجمالِ العاطفةِ ، يسخرُ من ابتسامَةِ طفلٍ أو طِفْلةٍ ، أو بكلمَةٍ منهما أو حركةٍ ، على حين لا يتحوَّلُ مثل ذلك ولا قريباً منه بجمالِ الدنيا ، ولا بِمُلْكِ الدنيا .

رأيتُ الناسَ قد أنعمَ الله عليهم أن يكونوا آباءَ ، ولكئهِ ابتلاني بأنْ أكونَ أباً ، وأخرجَ لي من أفراحِ قلبي أحزانَ قلبي ! ولقد كنتُ كرجلٍ ملكَ داراً يستمتعُ بها ، فتمنَّى أن يُشْرِعَ^(١) في جانبٍ منها غرفةً يزخرُفُها ، فلما تمَّ له ذلك وبلغَ المقترَحَ ، انهدمتِ الدارُ وبقيتِ الغرفةُ قائمةً !

عَمَرَكَ الله ، أيشعرُ هذا الرجلُ في نكبتِهِ بالغرفةِ أم بالدارِ؟ وهل تراه زادَ أو نقص؟ ويا ليتَهما بيتٌ وغرفةٌ من بيتٍ ؛ فإنَّ الحِجَارَةَ تحيا بالبناءِ إذا ماتت بالهدمِ ، ولكنَّ مَنْ ذا يحيي الزوجةَ ماتت بعدَ أنْ وضعتْ بِكرَها الأولِ والآخرِ !
إنَّها طفلةٌ وُلِدَتْ وكأئِها أُخْرِجَتْ من تحتِ الرِّدمِ ، إذْ وُلِدَتْ تحتَ ماضٍ منْ

(*) هو الصديق الأديب عبد الله عمار . وانظر «عمله في الرسالة» من كتاب «حياة الرافي» .

(١) أي يفتح غرفة إلى الشارع .

الحياة منهدم، وهل فرق بين هذا وبين أن تكون أمها قد ولدتها في الصحراء ثم أكرهت أن تدعها وحدها في ذلك القفر تصرخ وتبكي! فالمسكينة على الحالين متقطعة أول ما انقطعت من حنان الأم ورحمتها.

طفلةٌ ولدت صارخةً، لا صرخة الحياة، ولكن صرخة النوح والنذب على أمها. صرخة حزينه معناها: ضعوني مع أمي ولو في القبر! صرخة ترتعد، كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يدفئها! صرخة تتردد في ضراعة، كأنها جملة مركبة من هذه الكلمات: «يا رب ارحمني من حياة بلا أم!».

قال المسكين وهو يبكي امرأته:

ولما ضربها المخاض، ضاعفت قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفة بمولودها، وستكون روحين لا روحاً واحدة، وتلد لي الحياة والحب الإلهي معاً، وتأتي لقلبي بمثل طفولته الأولى التي يستحيل أن تأتي الرجل إلا من زوجه. كل ذلك ضاعف قواها ساعة وشد منها؛ ولكن ما أسرع ما تبين أن الموت؛ إذ عضلت وعسر خروج مولودها.

وجاءها الجراحي بمبضعه، وكأنها رائة ذابحاً لا طبيباً، فجعلت تعبر بعينيها، إذ لم تملك في آلامها القاتلة غير لغة هاتين العينين.

كانت بنظرة تبكي علي وعلى بؤسي، وبأخرى تبكي على بؤس مولودها وشقاؤه؛ وبنظرة تؤدعني، وبأخرى تدعو الله لي جزاء ما أحسنت إليها؛ وبنظرة تتوجع لنفسها، وبأخرى تتألم من أنها تراني أكاذ أجن.

نظرات نظرات...

يا إلهي! لقد خيل إلي أن ملك الموت واقف بين عشرين امرأة تحيط به، فانا أراه مؤناً متعدداً لا مؤناً واحداً، وكل نظرة من عيني زوجتي إلي كانت منها هي نظرة، وكانت عندي أنا امرأة الروح للروح.

ولكنها لم تنس أنها تموت لوضع مولودها، وأن هذه الآلام الدموية الذابحة هي الوسيلة لأن تترك لي بقية حياة منها؛ فيا للرحمة والحنان والحب! لقد ابتسمت لي وهي تموت؛ وهي تلد؛ وهي تذبح!

ليست رحمۃ المرأة المحبّة خيلاً إلا إذا كانت حرارة الشمس التي تُحيي الدنيا خيلاً أيضاً؛ إن هذا القلب النُسوِيّ المستقرُّ فوق أحشاءِ تحملِ الجنين صابرة راضية فرحة بالأمها، وتغذوه وتقاسمه حياة نفسها - هذا القلب يحمل الحب أيضاً صابراً راضياً فرحاً بالأمه، ويغذوه ويقاسمه حياة نفسه.

وللرحمة الإلهية أدلة كثيرة تدلُّ الإنسان عليها دلالات مختلفة؛ فالشمس تدلُّ عليها بالضوء الذي تَطعمُهُ الحياة، والهواء يدلُّ عليها بالضوء الذي تننفسُهُ الحياة، والماء يدلُّ عليها بالضوء الذي تشربه الحياة، وهكذا إلى أن يأتي في الآخر قلب المرأة فيدلُّ على رحمة الله بالحب الذي تقوم به الحياة.

إيسامه الحب غالبت زفرات الموت التي تغتليج من تحتها حتى غلبتها، وأعادت الحياة لحظة إلى وجه زوجتي لأراها آخر ما أراها في صورة المحبة لي، فكان كل جمال نفسها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرت فيه روحها وعواطفها تودعني وداعاً حزيناً متمسكاً يتكلم؛ يتكلم بعجزه عن الكلام.

إيسامه لا ريب أن فيها أشياء ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقها؛ فكأنما التمتع بأشعة من الخلد ترف رقيقاً على وجه الحبيب ليظهر ساعة الموت أن حبه أقوى من الموت.



قال المسكين: ونثر الطبيب ذا بطنها فكانت طفلة، وما كانت زوجتي تقترح أن يكون الجنين غيرها، بل كانت مستيقنة أنها تضعها أنثى، وصنعت لها ثيابها، ووشتها بزينة الأنوثة، وعرضت أسماء البنات فاخترت اسمها أيضاً، وكنت أكره ذلك منها وأريد ولدأ لا بنتأ، فكانت تغابطني بعملها وإصرارها غيظ دُعابة لا غيظ جفاء.

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدة الحمل، ولا تتكلم إلا عن بنتها، وقد كنت أعجب لذلك؛ فلما قضى الله فيها قضاءه، علمت أن ذلك أمر من أمر الروح، فكان الإلهام فيها أنها على باب قبرها، وأنها لن ترى طفلتها، ولن تعيش لها، فعاشت أيام الحمل مع ذكراها: تضم ثيابها إلى صدرها وتحملها على يدها، وتناغيها وتقبلها، وتأخذها من الوهم وتردّها إليه؛ وكذلك نعتت المسكينة بالمسكينة!

للك الله يا معجزة الرحمة، يا نفس الأم!



ولمّا قيل : ماتت . جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل ؛ فإنّ الكلمة التي تأتي بالمصيبة المتوقّعة طال ارتقابها ، لا تأتي بمعانٍ لغوية كغيرها من الكلام ، بلّ بأسلحةٍ تُضربُ في النفس وفي العقل ، وتُشجّهُما جراحاً وفتكاً .

وجعلني موثقاً كأنّي ميتٌ يحملُ نفسه ، ما حوله إلّا المشيعون ؛ وأحسنتُ كأنّ قوّة أخذتُ بإحدى رجلَيّ فوضعتها في الآخرة وتركبُ الثانية في الدنيا ، ولجّفتني من الجزع ما الله عالمٌ به ، ووجدتُ أخرقَ الوجد ، وبكيتُ أحرّ البكاء ؛ وجعلتُ أفكاري تنحدرُ من رأسي إلى حلقي فأختنقُ بها ثمّ لا يُنفَسُ عني إلّا الدمع ، كأنّ أعضائي اختلّتُ ممّا ضَغَطَني من الحزن ، فأنا أنفَسُ برثتي وعيني .

بموتها شعزتُ بها ؛ ولعلّهُ من أجل ذلك لا يشعرُ الإنسانُ بلذّة الحبّ كاملةً إلّا في آلام الحبّ وحدها ، وكانت في حياتها تضعُ من روحها في سروري ، وهذا هو سرُّ المرأة المحبوبة : يجدُ مُحبّها في كلّ سرورٍ لمحاتٍ روحانيّةٍ ؛ وكذلك فعلتُ بعد موتها ، فجعلتُ روحها في أحزاني ؛ ولولا أنّ روحها في أحزاني لقتلني المصيبة .

وكنْتُ أدلّفُ وراء النعشِ وقد بَطَلُ في نفسي الشعورُ بالدنيا ، وكان الناسُ يمشون خولي بما فيهم من الحياة ، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنّهم سائرون كما يذهبون إلى كلّ مكان ؛ أمّا أنا فكُنْتُ أمشي بما فيّ من الحبّ منكسراً متخذلاً متضغصعاً ، لأنّي وحدي سائرٌ وراء ما لا يُلتَحَق .

ونَقُلُ الناسُ على قلبي ، ورجعَ كلّ أمرهم عندي إلى العيبِ والنقيصة ، إذ كان لي عقلٌ طارئٌ من الحالة التي أنا فيها ليس مثله لأحدٍ منهم ، وكنْتُ وحدي المصابُ بينهم ، فكُنْتُ وحدي بينهم العاقل .

أنا أمشي لأنتهى إلى آخرِ مُصِيبتي ، وهم يمشون لينتهوا إلى آخرِ الطريق ؛ وشَتَّانَ ما نحن وشَتَّانَ !

ولمّا رأيتُ قبرها ابتدّرتُ عيناّي تنظران بالدموع لا بالنظر ، ورأيتُ الترابَ كأنّه غيومٌ ملوّنةً بألوان السحبِ الداكنة تنهياً في سماءها تحت الظلام لِتُخَفِي كوكباً من الكواكب ؛ وظهرَ لي القبرُ كأنّه قَمُ الأرض يُخاطبُ الإنسانَ بحزم صارم ، يُخاطبُ الفقيرَ والغني ، والضعيفَ والقوي ، والملوكَ والصعاليك : «أَنْ كُلَّ قوّةٍ تُنَزَعُ هنا» .

قال المسكين : وكما يجدُ الإنسانُ في أيّامِ المطرِ رائحةَ النسيمِ المبتلِ بالماء ، كنْتُ أَسْتَرْوِخُ في رَجْعتي إلى الدارِ رائحةَ نسيمِ مبتلٍ بالدموع ؛ وحضرتُ الماتِمَ

وعزائي الناس، فكنتُ فيهم كالمأسورِ بينهم: لا أتمنى إلا أن يَدْعُونِي فأنجِرَ على وجهي، ولا أرى إلا أنهم يجبرُّونني الوجودَ غُصَصاً كما تجرُّعْتُ الفقدَ غُصَّةَ غُصَّة؛ إلى أن تفرقوا مع سوادِ الليل فانكفأتُ إلى الدار، فإذا كلُّ شيءٍ قد تغيَّرَ ولمسَهُ الموتُ لَمَسَةً، وإذا الدارُ نفسها كالعين المقروحة من آثارِ البكاء: ما تَمَّ شيءٌ إلا ليطلبَني بأنَّ مسراتي قد ماتت!

ولاحَ الصبحُ لعيني الساهرتين صُبْحاً فاتراً تبيَّنتُ فيه الخجل، كأنَّه يقول: «لم أطلعْ لك»، فانسَلَّتْ من البيت، وذهبتُ أمشي في دنيا هي الكأبةُ المضيئةُ سَجَزَتْ الأقدارُ منها بإظهارها في هذا الضوءِ مَظهرَ وجه العجوزِ المُتصايبةِ في زِينَةِ لا تزيدُها إلا قبحاً!

ومضيتُ على وجهي لا غايةَ لي، أضربُ في كلِّ جهةٍ كأنما أريدُ أنْ أهربَ من نفسي! وما خطرَ لي قطُّ أنَّني في يومٍ جديد، بل كنتُ عند نفسي لا أزالُ. أمس، وتغيَّرَ عندي الزمانُ والمكان: فأحدُهما ساعةُ موت لا تتركُ ما فيها، والآخرُ قبرٌ مَبْنِيٌّ لا يردُّ ما فيه.

آه من الوقتِ الذي ينتهي فيه الوجودُ ليعذبنا بالتذكُّرِ أنَّه كان موجوداً!



قال المسكينُ ثُمَّ أعادتنِي قداميَ إلى البيتِ لأرى طِفْلتي - وما كنتُ رأيْتُها - ولقد كَانَتْ ولادُتها أولَ الحياةِ لها، وأولَ الحياةِ لي أيضاً؛ إذ لولاها لانتحزْتُ غَيْرَ شَكٍّ. يا ويلتا! لم تلتقِ عيني بعين الطفلةِ حتى انفجرتُ تبكي. أتبيكين لي يا ابنتي أم علي؟

أهذا بكأؤكِ أينُها المسكينة، أم هو صوتُ قلبكِ اليتيم؟
أصوتُكِ أنتِ، أم هي رُوحُ أمِّكِ تصرخُ ترثي لي، وتتوجعُ لِعَظْمٍ ما قاسيتُ!
يا ابنتي، إنَّما أنتِ الحقيقةُ الصغيرةُ التي خرجتُ لي من كلِّ تلك الخيالاتِ الشعريَّةِ الجميلة، خيالاتِ الأيامِ السعيدةِ التي مرَّت!
يُخلَقُ المواليدُ من اللُّحمِ والدمِ! وأراكِ أنتِ يا مسكينة، خُلِقْتَ من اللحمِ والدمِ والدموعِ!

بقيةُ حياةٍ ماتت! فهل معنى ذلكِ إلا أنَّك بقيةُ موتٍ يحيا؟
مسكينة، مسكينة؛ لو أنَّ نواميسَ العالمِ متغيرةٌ لشيءٍ لتغيَّرتَ من أجلِ بؤسِكِ

فردت لك الأم؛ ولكنها لن تتغير، وما بكاؤنا وآلامنا وتعاسنا إلا ثراث الحياة في أجسامنا الأرضية، كل ذلك طبيعة ولكن بقعة أنظف من بقعة، وأراك يا ابنتي كالبيت الذي هديم أول ما بُني يملؤه تراثه!

لن تتغير التواميس، فلن تجدي عطف الأم، ولكن لن يتغير قلبي أيضاً، فلن تحرمي عطف الأب.

وإذا صبر الناس على الحياة فمن أجلك يا مسكينة! من أجل ضعفك وانقطاعك سأعاني الصبر لك، وأعاني الصبر لي، وأعاني الصبر عن أمك، سأصبر على الصبر نفسه!

يا ابنتي، يا ابنتي، لماذا وضعتك الأقدار من هذه الحياة في الناحية التي ليس فيها إلا قبر مظلم مقفل على أمك، وأب مسكين مقفل على آلامه؟

* * *

قال المسكين: وهكذا كُتبت من أهل البؤس والهم، فلم أتزوج إلا لتصنع لي حبيبتي دموعي، ثم لم تمت إلا بعد أن تركت لي حبيبة أخرى ستظل زمناً طويلاً تصنع لي دموعي!

السُّمُكَةُ

حَدَّثَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ الْفَقِيهَ الْبَغْدَادِيَّ قَالَ: حَصَلَتْ فِي مَدِينَةِ (بَلْخ) سَنَةٌ ثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَعَالِمُهَا يَوْمئِذٍ شَيْخُ خُرَاسَانَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ^(١) الزَّاهِدُ صَاحِبُ الْمَوَاعِظِ وَالْحِكَمِ؛ وَهُوَ رَجُلٌ قَلْبُهُ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ، وَنَفْسُهُ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَالْقَلْبُ الْأَعْلَى مِنْ وَرَاءِ نَفْسِهِ، كَأَنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ فِيمَا زَعَمُوا.

وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عِنْدَهُمْ: (لَقَمَانُ هَذِهِ الْأُمَّةِ)؛ لِأَنَّهُ يُعَجِّبُهُمْ مِنْ حِكْمِهِ فِي الزَّهْدِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَقَدْ حَضَرَتْ مَجَالِسَهُ وَحَفِظَتْ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئاً كَثِيراً، كَقَوْلِهِ: مَنْ دَخَلَ فِي مَذْهَبِنَا هَذَا (بِعَنِي الطَّرِيقِ) فَلْيَجْعَلْ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ خِصَالٍ مِنَ الْمَوْتِ: مَوْتُ أَبْيَضٍ، وَمَوْتُ أَسْوَدٍ، وَمَوْتُ أَحْمَرٍ، وَمَوْتُ أَخْضَرَ؛ فَالْمَوْتُ الْأَبْيَضُ الْجُوعُ، وَالْمَوْتُ الْأَسْوَدُ احْتِمَالُ الْأَذَى، وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ مُخَالَفَةُ النَّفْسِ، وَالْمَوْتُ الْأَخْضَرُ طَرَحُ الرِّقَاعِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ (بِعَنِي لَبَسَ الْمَرْقَعَةَ وَالْخَلْقَ مِنَ الثِّيَابِ).

وَقُلْتُ يَوْمًا لِصَاحِبِهِ وَتَلْمِيزِهِ (أَبِي تُرَابٍ) وَجَازَيْتُهُ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْكَلَامِ: قَدْ فَهَمْنَا وَجْهَ التَّسْمِيَةِ فِي الْمَوْتِ الْأَخْضَرِ مَا دَامَتِ الْمَرْقَعَةُ خَضِرَاءَ؛ فَمَا الْوَجْهُ فِي الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ؟ فَجَاءَ بِقَوْلٍ لَمْ أَرْضَهُ، وَلَيْسَ مَعَهُ دَلِيلٌ، ثُمَّ قَالَ: فَمَا عِنْدَكَ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَمَّا الْجُوعُ فَيُمِيتُ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا وَيَتْرَكُهَا بِيضَاءَ نَقِيَّةً، فَذَلِكَ الْمَوْتُ الْأَبْيَضُ؛ وَأَمَّا احْتِمَالُ الْأَذَى فَهُوَ احْتِمَالُ سُودِ الْوَجْهِ عِنْدَ النَّاسِ، فَهُوَ الْمَوْتُ الْأَسْوَدُ؛ وَأَمَّا مُخَالَفَةُ النَّفْسِ فَهِيَ كِلَا ضَرَامِ النَّارِ فِيهَا، فَذَلِكَ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ: وَكُنْتُ ذَاتَ نَهَارٍ فِي مَسْجِدِ (بَلْخ) وَالنَّاسُ مُتَوَافِرُونَ يَنْتَظِرُونَ (لَقَمَانَ الْأُمَّةِ) لِيَسْمَعُوهُ، وَشَغَلَهُ بَعْضُ الْأَمْرِ فَرَأَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَنْ يَعْظُنَا إِلَى أَنْ يَجِيءَ الشَّيْخُ؟ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَبُو تَرَابٍ وَقَالَ: أَنْتَ رَأَيْتَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، وَرَأَيْتَ بَشْراً الْحَافِيَّ وَفُلَاناً وَفُلَاناً، فَقُمْ فَحَدِّثِ النَّاسَ عَنْهُمْ،

(١) هُوَ حَاتِمُ بْنُ يَوْسُفَ خُرَاسَانَ وَوَاعَظَهَا، تَوَفِيَ سَنَةَ ٢٣٧ لِلْهِجْرَةِ.

فإنما هؤلاء وأمثالهم هم بقايا النبوة. ثُمَّ اخَذَ بيدي إلى الأسطوانة التي يجلس إليها إمامُ خُرَاسَانَ فأجلسني ثَمَّةً وقعدَ بين يدي.

وتطاوَلتِ الأعناق، ورماني الناسُ بأبصارِهِم، وقالوا: البَغْدَادِي! البَغْدَادِي! وكأنَّما ضَوْعِفَتْ عندهم بمجلسي مرةً وينسَبُني مرةً أخرى، فقلْتُ في نفسي: - والله - ما في الموتِ الأحمرِ ولا الأخضرِ ولا الأسودِ موعظة، ولو لَيسَ عزرائيلُ قَوَسَ قَرَحَ لأفسَدَ شعْرُ هذه الألوانِ معناه، وإنَّما يجبُ أن يكونَ كما يجبُ أن يكونَ؛ ولا موعظةٌ في كلامٍ لم يمتلئ من نفسِ قائلِهِ، ليكونَ عملاً فيتحوَّلَ في النفوسِ الأخرى عملاً ولا يبقى كلاماً؛ وإنَّه ليسَ الوعظُ تأليفُ القولِ للسامعِ يسمعه، لكنَّه تأليفُ النفسِ لِنفسٍ أخرى تراها في كلامِها، فيكونَ هذا الكلامُ كأنَّه قرابةٌ بينَ الفَسين، حتى لكأنَّ الدَّمَّ المتجاذِبَ يجري فيه ويدورُ في الفاظِهِ.



وكنْتُ رأيتُ رؤيا (ببلخ) تتصلُّ بقصةٍ قادمةٍ في بغداد، فقصصْتُها عليهم، فكانتِ القصةُ كما حكيتها: أَنِّي امْتَحِنْتُ بالفقرِ في سنةٍ تسعَ عشرةَ ومائتين؛ وانْحَسَمَتْ مادتي وَقِحَطَ منزلي قَحْطاً شديداً جمعَ عليَّ الحاجةُ والضَّرُّ والمسكنةُ؛ فلو انْكَمَشَتِ الصحراءُ المُجْدِبَةُ فَصَغُرَتْ ثُمَّ صَغُرَتْ حتى ترجعَ أدْرَعاً في أدْرَعٍ، لكانتْ هي دارِي يومئذٍ في محلَّةٍ بابِ البَصْرةِ من بغداد.

وجاءَ يومٌ صَحْراوِيٌّ كأنَّما طَلَعَتْ شمسُهُ من بينِ الرملِ لا من بينِ السُّحُبِ، ومَرَّتِ الشمسُ على دارِي في بغدادَ مروَّرها على الورقةِ الجافَّةِ المعلقةِ في الشجرةِ الخضراءِ؛ فلم يكنْ عندنا شيءٌ يُسَيِّغُهُ خَلْقُ آدميٍّ، إذ لم يكنْ في الدارِ إلا ترابُها وججارتُها وأجذاعُها؛ وليَ امرأةٌ وليَ منها طفلٌ صغير، وقد طَوَّيْنَا على جوعٍ يَخْثِفُ بالجوفِ خَسْفاً كما تَهْطُ الأرضُ؛ فَلْتَمَتْنِي حِينَئِذٍ لو كُنَّا جُرْذَاناً فَتَقَرَّضَ الخشبُ! وكانَ جوعُ الصبيِّ يزيِدُ المرأةَ ألماً إلى جوعِها، وكنْتُ بهما كالجانحِ بثلاثةِ بطونِ خاوية.

فقلْتُ في نفسي: إذا لم تأكلِ الخشبَ والجِجَارَةَ فلنأكلَ بِشَمَنِها. وجمَعْتُ نيتي على بيعِ الدارِ والتحوُّلِ عنها، وإنَّ كانَ خروجي منها كالخروجِ من جُلْدِي: لا يسمَّى إلا سَلْحاً وموتاً؛ وبِتُّ ليلتي وأنا كالمُتَخَنِّ حُبْلٍ من معركةٍ: فما يتقلَّبُ إلا على جِراحٍ تعملُ فيه عملُ السيوفِ والأسنةِ التي عملتُ فيها.

ثُمَّ خَرَجْتُ بَغْلَسٍ لِصلاةِ الصبحِ؛ والمسجدُ يكونُ في الأرضِ ولكنَّ السماءَ

تَكُونُ فِيهِ، فَرَأَيْتُنِي عِنْدَ نَفْسِي كَأَنِّي خَرَجْتُ مِنَ الْأَرْضِ سَاعَةً. وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ رَفَعَ النَّاسُ أَكْفَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ (تَعَالَى)، وَجَرَى لِسَانِي بِهَذَا الدَّعَاءِ: «اللَّهُمَّ بِكَ أَعُوذُ أَنْ يَكُونَ فَقْرِي فِي دِينِي، أَسْأَلُكَ النِّفْعَ الَّذِي يُصْلِحُنِي بِطَاعَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ بَرَكَةَ الرِّضَى بِقَضَائِكَ، وَأَسْأَلُكَ الْقُوَّةَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالرِّضَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

ثُمَّ جَلَسْتُ أَنَا مُلْ شَانِي، وَأَطْلُتُ الْجُلُوسَ فِي الْمَسْجِدِ كَأَنِّي لَمْ أَغْذُ مِنْ أَهْلِ الزَّمَنِ فَلَا تَجْرِي عَلَيَّ أَحْكَامُهُ، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الضُّحَى وَابْيَضَّتِ الشَّمْسُ جَاءَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ، فَخَرَجْتُ أَنْتَسِبُ لِبَيْعِ الدَّارِ، وَانْبَعَثْتُ وَمَا أَدْرِي أَيْنَ أَذْهَبُ، فَمَا سِرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى لَقِينِي (أَبُو نَصْرٍ الصَّيَادُ) وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ قَدِيمًا، فَقُلْتُ: يَا أَبَا نَصْرٍ! أَنَا عَلَى بَيْعِ الدَّارِ؛ فَقَدْ سَاءَتِ الْحَالُ وَأَخْرَجَتِ الْخِصَاصَةُ، فَأَقْرِضْنِي شَيْئًا يُمَكِّنُنِي عَلَى يَوْمِي هَذَا بِالْقَوَامِ مِنَ الْعَيْشِ حَتَّى أَبِيعَ الدَّارَ وَأَوْفَيْكَ.

فَقَالَ: يَا سَيِّدِي! خَذْ هَذَا الْمَنْدِيلَ إِلَى عِيَالِكَ، وَأَنَا عَلَى أَثَرِكَ لِأَجِزْ بِكَ إِلَى الْمَنْزَلِ. ثُمَّ نَاوَلَنِي مَنَدِيلًا فِيهِ رُقَاقَتَانِ بَيْنَهُمَا حُلُوى، وَقَالَ: إِنَّهُمَا وَ اللَّهِ بَرَكَةُ الشَّيْخِ.

قُلْتُ: مَنْ الشَّيْخُ وَمَا الْقِصَّةُ؟

قَالَ: وَقَفْتُ أَمْسٍ عَلَى بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ وَقَدْ انصَرَفَ النَّاسُ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَمَرَّ بِي أَبُو نَصْرٍ بِشَرِّ الْحَافِي^(١) فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟ قُلْتُ: مَا فِي الْبَيْتِ دَقِيقٌ وَلَا خَبِزٌ وَلَا دَرْهَمٌ وَلَا شَيْءٌ يُبَاعُ. فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ؛ إِحْمِلْ شَبَكَتَكَ وَتَعَالَ إِلَى الْخُنْدُقِ؛ فَحَمَلْتُهَا وَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى الْخُنْدُقِ قَالَ لِي: تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ. فَفَعَلْتُ، فَقَالَ: سَمِّ اللَّهَ - تَعَالَى - وَالْقِيَّ الشَّبَكَةَ. فَسَمَّيْتُهَا وَالْقِيَّتْهَا، فَوَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ ثَقِيلٌ، فَجَعَلْتُ أَجْرُهُ فَشَقُّ عَلَيَّ؛ فَقُلْتُ لَهُ: سَاعِدْنِي فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْقَطَعَ الشَّبَكَةُ، فَجَاءَ وَجَرُّهَا مَعِي، فَخَرَجْتُ سَمَكَةً عَظِيمَةً لَمْ أَرْ مِثْلَهَا سِمْنًا وَعَظْمًا وَفَرَاةً. فَقَالَ: خُذْهَا وَبِعْهَا وَاشْتَرِ بِسَمْنِهَا مَا يُصْلِحُ عِيَالَكَ. فَحَمَلْتُهَا فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ اشْتَرَاهَا، فَابْتَعْتُ لِأَهْلِي مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا أَكَلْتُ وَأَكَلُوا ذَكَرْتُ الشَّيْخَ فَقُلْتُ أَهْدِي لِي شَيْئًا، فَأَخَذْتُ هَاتَيْنِ الرُّقَاقَتَيْنِ وَجَعَلْتُ بَيْنَهُمَا هَذِهِ الْحُلُوى، وَأَتَيْتُ إِلَيْهِ فَطَرَقْتُ الْبَابَ، فَقَالَ: مَنْ؟ قُلْتُ: أَبُو نَصْرٍ! قَالَ: إِفْتَحْ وَضَعْ مَا مَعَكَ فِي الدَّهْلِيزِ وَادْخُلْ. فَدَخَلْتُ وَحَدَّثْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى

(١) هُوَ الزَّاهِدُ الْعَظِيمُ بَشَرُ بْنُ الْحَارِثِ الْمَعْرُوفُ بِالْحَافِي، تَوَفَّى سَنَةَ ٣٢٧ لِلْهِجْرَةِ وَكَانَ وَاحِدَ الدُّنْيَا فِي وَرَعِهِ وَتَقْوَاهُ؛ وَقِيلَ لَهُ: (الْحَافِي) لِأَنَّهُ كَانَ فِي حَدَاتِهِ يَمْشِي إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَافِيًا، إِنْجِلَالًا لِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ.

ذلك . فقلت : إني هياتُ للبيتِ شيئاً وقد أكلوا وأكلتُ ومعِي راقتانِ فيهما حلوى .
قال : يا أبا نصر ! لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجتِ السمكة ! اذهب كُلْهُ أنتِ
وعيالُكَ .



قال أحمدُ بنُ مسكين : وكثُتُ من الجوع بحيثُ لو أصبْتُ رغيماً لحسبتهُ
مائدةً أنزلتُ من السماء ، ولكنْ كلمةُ الشيخ عن السمكة أشبعتني بمعانيها شبعاً ليس
من هذه الدنيا ، كأنما طَعِمْتُ منها ثمرةً من ثمارِ الجنة ؛ وطففتُ أرذُها لنفسي
وأناملُ ما تُغْتَقُ الشهواتُ على الناس ، فأيقنْتُ أنَّ البلاءَ إنما يُصِيبُنا من أنْنا نُفسِرُ
الدنيا على طولِها وعرضِها بكلماتٍ معدودة ، فإذا استقرَّ في أنفسنا لفظٌ من ألفاظِ
هذه الشهوات ، استقرَّتْ به في النفسِ كُلُّ معانيه من المعاصي والذنوب ، وأخذتْ
شياطينُ هذه المعاني تحومُ على قلوبنا ، فنصبحُ مُهَيَّئِينَ لهذه الشياطين ، عاملينَ
لها ، ثُمَّ عاملين معها ، فتَدْخِلُنَا مَدَاجِلَ السُّوءِ في هذه الحياة ، وتُفْجِئُنَا في الوُرْطَةِ
بعدَ الوُرْطَةِ ، وفي الهَلَكَةِ بعدَ الهَلَكَةِ .

وما هذه الشياطينُ إلَّا كالذبابِ والبعوضِ والهوامِ ، لا تحومُ إلَّا على رائحةٍ
تجذبُها ، فإنْ لم تجذْ في النفسِ ما تجتمعُ عليه ، تفرقتْ ولم تجتمع ، وإذا ألْمَتِ
الواحدةُ منها بعدَ الواحدة لم تثبت . فلو أنْنا طرَدْنَا من أنفسنا الكلماتِ التي أفسَدَتْ
علينا رؤيةَ الدنيا كما خُلِقَتْ . لَكَانَ لِلدنيا في أنفسنا شكلٌ آخرُ أحسنُ وأجملُ من
شكلِها ، ولكانَتْ لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأطهرُ من أعمالِنا .

فالشَيْخُ لم يكنْ في نفسه معنىً لكلمة (التلذُّذ) ، وبطرده من نفسه هذا اللفظَ
الواحد ، طَرَدَ معانيَ الشرِّ كُلِّها ، وصَلَحَ له دينُهُ ، وَخَلَصَتْ نَفْسُهُ لِلخيرِ ومعاني
الخير . ولو أنَّ رجلاً وضعَ في نفسه امرأةً يعيشُها ، لصارتِ الدنيا كُلُّها في نفسه
كالمُخْذَعِ : ما فيه إلَّا المرأةُ وحَدها بأسبابِها إليه وأسبابِهِ إليها . . .

وقد كُنْتُ سمعتُ في درسِ شيخنا أحمدَ بنِ حنبلٍ هذا الحديثَ : «لولا أنَّ
الشياطينَ يحومون على قلوبِ بني آدمَ لَنَظَرُوا إلى مَلَكُوتِ السمواتِ» . فما فهِمْتُ -
والله - معناه إلَّا من كلمةِ الشيخ في السمكة ، وقد عَلَّمَنِيها هذا الصِّيَاةُ العامِّي ؛
فالشياطينُ تنجذبُ إلى المعاني ، والمعاني يُوجِدُها اللفظُ المستقرُّ في القلبِ
استقراراً غَرَضُ أو شهوةٍ أو طمع ؛ فإذا خلا القلبُ من هذه المعاني ، فقد أَمِنَ
مُنَازَعَتَها له وسُغْلَها إِيَّاه ، فيصْبِحُ فوقَها لا بينها ؛ ومتى صارَ القلبُ فوقَ الشهواتِ

ولم يجد من ألفاظها ما يُعْجِبه ويعترضُ نظرُهُ إلى الحقائق، انكشفت له هذه الحقائق فانكشف له المَلَكُوت؛ فإذا وَقَعَ بعدُ في واحدةٍ من اللذات ولو (كالرُفَاقَتين والحُلُوى)، استغلبت الأشياءُ عليه فحجبته، وعادَ بينُها أو تحتها، وعَمِيَ عمى اللذة؛ والجَبَابُ على البصرِ كأنَّهُ تعلّقُ العَمَى على البصرِ.

وكنْتُ لا أزالُ أعجِبُ من صبرِ شيخنا أحمدَ بنِ حنبلٍ وقد ضُربَ بين يدي المعتصم بالسيّاطِ حتّى غُشيَ عليه^(١) فلم يتحوّل عن رأيه؛ فعلمتُ الآنَ من كلمة السمكة أَنَّهُ لم يجعل في نفسه للضربِ معنى الضرب، ولا عرفَ للصبرِ معنى الصبرِ الآدمي؛ ولو هو صَبَرَ على هذا صَبَرَ الإنسانُ لَجَزَعَ وتحوّل، ولو ضُربَ ضربَ الإنسانِ لتألّم وتغيّر؛ ولكنَّهُ وَضَعَ في نفسه معنى ثباتِ السُّتَةِ وبقاؤِ الدين، وأَنَّهُ هو الأُمَّةُ كُلُّها لا أحمدُ بنُ حنبلٍ، فلو تحوّل لتحوّل الناسُ، ولو ابتَدَعَ لَابتَدَعُوا؛ فكان صبرُهُ صَبْرُ أُمَّةٍ كاملةٍ لا صَبْرُ رجلٍ فردٍ، وكان يُضْرَبُ بالسيّاطِ ونفسُهُ فوقَ معنى الضرب، فلو قَرَضُوهُ بالمقاريض ونشروه بالمناشيرَ لما نالوا منه شيئاً؛ إذ لم يكن جسْمُهُ إلا ثوباً عليه، وكان الرجلُ هو الفكرُ ليس غيرَ.

هؤلاء قومٌ لا يروُنَ فضائلهم فضائل، ولكنهم يرونها أمانات قد ائتمنوا عليها من الله ليتقى بهم معانيها في هذه الدنيا؛ فهم يُزْرَعُونَ في الأممِ زُرْعاً بيدِ الله، ولا يملكُ الزرعُ غيرَ طبيعته، وما كان المعتصمُ وهو يُريدُ شيخنا على غيرِ رأيه وعقيدته إلا كالأحمق يقولُ لِشجرة التفاح: أثمري غيرَ التفاح.



قال أحمدُ بنُ يسكين: وأخذتُ الرُفَاقَتين وأنا أقولُ في نفسي: لعنَ الله هذه الدنيا! إنَّ من هوانِها على الله أنَّ الإنسانَ فيها يَلْبَسُ وجهَهُ كما يلبسُ نعله. فلو أنَّ إنساناً كانَتْ له نظرةٌ ملائكيّةٌ ثُمَّ اعترضَ الخلقُ ينظُرُ في وجوههم، لرأى عليها وُحُولاً وأقذاراً كالتي في نعالهم أو أقذرَ أو أقبح، ولعلَّهُ كان لا يرى أجملَ الوجوه التي تَسْتَهيمُ الناسُ وتَتَصَبَّأُها من الرجالِ والنساءِ، إلا كالأحذية العتيقة...

ولكنّي أحسنتُ أنْ في هاتين الرُفَاقَتين سرَّ الشيخ، ورأيتُهما في يدي كالوثيقتين بخيرٍ كثيرٍ؛ فقلتُ: على بركة الله. ومضيتُ إلى داري؛ فلما كنْتُ في

(١) كان هذا في سنة ٢١٩ وقد أرادوا الإمام العظيم على القول بخلق القرآن فلم يقل به، فأنتى القاضي ابن أبي دؤاد بقتله وشغب عليه. ثم ضرب بين يدي المعتصم، فلما صمم ولم يجب أطلقه المعتصم وندم على ضربه.

الطريق لقيتني امرأة معها صبي، فنظرت إلى المندبل وقالت: يا سيدي، هذا طفل يتيم جائع ولا صبر له على الجوع، فأطعمته شيئاً - يرحمك الله - . ونظر إليّ الطفل نظرة لا أنساها؛ حينئذ فيها خشوع ألف عابد يعبدون الله (تعالى) منقطعين عن الدنيا؛ بل ما أظن ألف عابد يستطيعون أن يُروا الناس نظرة واحدة كالتي تكون في عين صبي يتيم جائع يسأل الرحمة. إن شدة الهم لتجعل وجوه الأطفال كوجوه القديسين، في عين من يراها من الآباء والأمهات، يعجز هؤلاء الصغار عن الشرّ الآدمي وانقطاعهم إلا من الله والقلب الإنساني، فيظهر وجه أحدهم وكأنه يضرخ بمعانيه يقول: يا رباه يا رباه!

قال أحمد بن مسكين: وخيل إليّ حينئذ أن الجنة نزلت إلى الأرض تغرض نفسها على من يشبع هذا الطفل وأمه، والناس غني لا يبصرونها، وكأنهم يمرون بها في هذا الموطن مرور الحميم بقصر الملك: لو سُئِلْتُ فضلت عليه الإضطبل الذي هي فيه . . .

وذكرت امرأتي وابنها وهما جائعان منذ أمس، غير أنني لم أجد لهما في قلبي معنى الزوجة والولد: بل معنى هذه المرأة المحتاجة وطفلها، فأسقطتهما عن قلبي ودفعتهما في يدي للمرأة وقلتُ لها: خذي وأطعمي ابنتك، و - والله - ما أملك بيضاء ولا صفراء، وإن في داري لمن هو أحوج إلى هذا الطعام؛ ولولا هذه الخلّة بي لتقدمت فيما يصلحك. قد معت عيناها، وأشرق وجه الصبي، ولكن طم على قلبي ما أنا فيه فلم أجد للدّعة معنى الدّعة، ولا للبسمة معنى البسمة.

وقلتُ في نفسي: أما أنا فاطوي إن لم أصب طعاماً، فقد كان أبو بكر الصديق يطوي ستة أيام، وكان ابن عمر يطوي، وكان فلان وفلان بمن حفظنا أسماءهم وزينا أخبارهم؛ ولكن من للمرأة وابنها بمثل عقدي ونيتي؟ وكيف لي بهما؟

ومشيئت وأنا منكسر متقبض، وكأنني كنت نسيئت كلمة الشيخ: «لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة». فذكرتها وصرفت خاطري إليها وشغلّت نفسي بتدبرها وقلتُ: لو أنني أشبعث ثلاثة بجوع اثنين لخرمت خمس فضائل^(١) وهذه الدنيا محتاجة إلى الفضيلة، وهذه الفضيلة محتاجة إلى مثل هذا العمل، وهذا العمل محتاج إلى أن يكون هكذا، فما يستقيم الأمر إلا كما صنعت.

(١) يريد: جوعه، وجوع امرأته، وجوع ابنه؛ ثم شبع هذه المرأة، وشبع ابنها. فهذه خمس فضائل.

وكانت الشمس قد انبسطت في السماء وذلك وقت الضحى الأعلى، فملت ناحية وجلست إلى حائط أفكر في بيع الدار ومن يبتاعها، فانا كذلك إذ مر أبو نصر الصياد وكأنه مُستَظَارٌ فرحاً، فقال: يا أبا محمد، ما يجلسك ههنا وفي دارك الخير والغنى، قلت: سبحان الله! من أين خرجت السمكة يا أبا نصر؟

قال: إني لفي الطريق إلى منزلك، ومعني ضرورة من القوت أخذتها ليعيالك، وذراهم استدثتها لك، إذا رجل يستبدل الناس على أبيك أو أحد من أهله، ومعه أثقال وأحمال، فقلت له: أنا أدلك. ومشيت معه أسأله عن خبره وشأنيه عند أبيك. فقال: إنه تاجر من البصرة، وقد كان أبوك أودعه مالا من ثلاثين سنة، فأفلس وانكسر المال ثم ترك البصرة إلى خراسان، فصلح أمره على التجارة هناك، وأيسر بعد الجحنة، واستظهر بعد الخذلان، وأقبل جده بالثراء والغنى؛ فعاد إلى البصرة، وأراد أن يتحلل، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنة، وإلى ذلك طرائف وهدايا.

قال أحمد بن مسكين: وأقبل إلى داري فإذا مال جم وحال جميلة! فقلت: صدق الشيخ: «لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة!» فلو أن هذا الرجل لم يلق في وجهه أبا نصر، في هذه الطريق، في هذا اليوم، في هذه الساعة، لما اهتدى إلي؛ فقد كان أبي مغموراً لا يعرفه أحد وهو حي؛ فكيف به ميتاً من وراء عشرين سنة؟

وآليت ليعلمن الله شكري هذه النعمة؛ فلم تكن لي همة إلا البحث عن المرأة المحتاجة وابنها، فكفيتها وأجريت عليها رزقا، ثم اتجرت في المال، وجعلت أربى بالمعروف والصنيعة والإحسان وهو مُقبل يزداد ولا ينقص، حتى تموت وتأنث.

وكانني قد أعجبته نفسي، وسرتني أنني قد ملأت سجلات الملائكة بحسناتي، ورجوت أن أكون قد كُتبت عند الله في الصالحين، فتمت ليلة فرائضتي في يوم القيامة والخلق يمجّ بعضهم في بعض، والهول هول الكون الأعظم على الإنسان الضعيف، يُسأل عن كل ما مسّه من هذا الكون. وسيُنت الصائح يقول: يا معشر بني آدم! سجدت البهائم شكراً لله أنه لم يجعلها من آدم. ورأيت الناس وقد وسعت أبدانهم فهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مخلوقة مجسمة، حتى لكان الفاسق على ظهره مدينة كلها مخزيات!

وقيل : وُضِعَتِ الموازينُ . وجيءَ بي لوزن أعمالي ، فُجِعِلْتُ سِنَاتِي فِي كِفَّةٍ
وَأَلْقَيْتُ سَجَلَاتُ حَسَنَاتِي فِي الْأُخْرَى ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَرَجَحَتِ السِّنَاتُ ،
كَأَنَّمَا وَزَنُوا الْجِبَلَ الصَّخْرِيَّ الْعَظِيمَ الضَّخْمَ بِلَفَافَةٍ مِنَ الْقَطَنِ . . .

بُئِمُ جَعَلُوا يُلْقَوْنَ الْحَسَنَةَ بَعْدَ الْحَسَنَةِ مِمَّا كُنْتُ أَصْنَعُهُ فَإِذَا تَحْتَ كُلِّ حَسَنَةٍ
شَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ : كَالزَّيَاءِ وَالْعُرُورِ وَحُبِّ الْمُحَمَّدَةِ عِنْدَ النَّاسِ
وغيرِهَا ، فَلَمْ يَسْلَمْ لِي شَيْءٌ ، وَهَلَكْتُ عَنِّي حُجَّتِي ، إِذِ الْحِجَّةُ مَا يُبَيِّنُهُ الْمِيزَانُ ،
وَالْمِيزَانُ لَمْ يَدُلْ إِلَّا عَلَى أَنِّي فَارِغٌ .

وسمعتُ الصوتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهْ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَذَا .

وَأَنْظَرُ لَأَرَى مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ ، فَإِذَا الرُّقَاقَتَانِ اللَّتَانِ أَحْسَنْتُ بِهِمَا عَلَى الْمَرْأَةِ
وَابْنِهَا ! فَأَيُّقُنْتُ أَنِّي هَالِكٌ ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أَحْسِنُ بِمِائَةِ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً فَمَا أَغْنَتْ
عَنِّي ، وَرَأَيْتُهَا فِي الْمِيزَانِ مَعَ غَيْرِهَا شَيْئًا مَعْلَقًا ، كَالْعَمَامِ حِينَ يَكُونُ سَاقِطًا بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ : لَا هُوَ فِي هَذِهِ وَلَا هُوَ فِي تِلْكَ .

وَوُضِعَتِ الرُّقَاقَتَانِ ، وَسَمِعْتُ الْقَاتِلَ : لَقَدْ طَارَ نَصْفُ ثَوَابِيهِمَا فِي مِيزَانِ أَبِي نَصْرِ
الصَّيَادِ . فَانْخَذَلْتُ انْخِدَالًا شَدِيدًا ، حَتَّى لَوْ كُسِرْتُ نِصْفَيْنِ لَكَانَ أَحْفَ عَلَيَّ وَأَهْوَنَ .
بَيَّدَ أَنِّي نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ كِفَّةَ الْحَسَنَاتِ قَدْ نَزَلَتْ مِنْزَلَةً وَرَجَحَتْ بَعْضَ الرُّجْحَانِ .

وسمعتُ الصوتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهْ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ بَقِيَ هَذَا .

وَأَنْظَرُ مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ ، فَإِذَا جَوْعُ امْرَأَتِي وَوَلَدِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ! وَإِذَا هُوَ
شَيْءٌ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ ، وَإِذَا هُوَ يَنْزِلُ بِكَفَّةٍ وَيَرْتَفَعُ بِالْأُخْرَى حَتَّى اعْتَدَلْنَا بِالسُّوِيَّةِ .
وَبُتِّ الْمِيزَانُ عَلَى ذَلِكَ فَكُنْتُ بَيْنَ الْهَلَاكِ وَالنَّجَاةِ .

وَأَسْمَعُ الصَّوْتِ : أَلَمْ يَبْقَ لَهْ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ بَقِيَ هَذَا .

وَنَظَرْتُ فَإِذَا دَمُوعُ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمَسْكِينَةِ حِينَ بَكَتْ مِنْ أَثَرِ الْمَعْرُوفِ فِي
نَفْسِهَا ، وَمِنْ إِثَارِي إِيَّاهَا وَابْنِهَا عَلَى أَهْلِي . وَوُضِعَتْ غُرْغُرَةٌ عَيْنِهَا فِي الْمِيزَانِ
فَفَارَتْ ، فَطُمْتُ كَأَنَّهَا لُجَّةٌ ، مِنْ تَحْتِ اللَّجَّةِ بَحْرٍ ؛ وَإِذَا سَمَكَةٌ هَائِلَةٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ
اللَّجَّةِ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا رُوحُ تِلْكَ الدَّمْعِ ، فَجَعَلْتُ تَعْظُمُ وَلَا تَزَالُ تَعْظُمُ ، وَالْكَفَّةُ
تَرْجَحُ وَلَا تَزَالُ تَرْجَحُ ، حَتَّى سَمِعْتُ الصَّوْتِ يَقُولُ : قَدْ نَجَا !

وَصَحْتُ صِيحَةً انْتَبَهْتُ لَهَا ، فَإِذَا أَنَا أَقُولُ : «لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ
السَّمَكَةُ !» .

(*) الزاهدان

(٢)

قال أحمد بن مسكين: انتشر حديث السمكة في أهل (بلخ). واستفاض بينهم، وكنت قصصته عليهم يوم السبت، فلما دار السبت من أسبوعه لقيني شيخهم حاتم بن يوسف (لقمان الأمة) ومعه صاحبه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لكأنك في هذه المدينة قمر طلع بليل فلا يعط الناس في يوم السبت غيرك؛ ومن سمع فكأنه عاين، وليس على السنة أهل بلخ منذ تحدثت إلا بشر و ابن حنبل، ولا على بال أحد منهم إلا موعظتك وحديثك.

والكلام عن الصالحين في مثل ما وصفت وحكى قريب من حقائقهم، وسمو إلى معانيهم، وليس في القول باب له موقع كموقع القصة عن هؤلاء الذين يخلقهم الله في البشرية خلق النور: يضيء ما حوله من حيث يرى، ويعمل فيما حوله من حيث لا يرى، وفي ظاهره الجمال والمنفعة، وفي باطنه القوة والحياة. ولست أقول لك اذهب فحدث الناس، ولكني أقول اذهب فأعط الناس عقلاً من الحديث.

قال ابن مسكين: فلما صلينا العصر، قدمني أبو تراب فجلست في مجلسي ذاك، وفتف بي الناس يريدون الحديث عن بشر الحافي وما سقط لي من أخباره، على الطريقة التي حدثتهم بها من قبل، فابتدأت بذكر موته (رحمه الله) وأن يومه كأنما اجتمع له أهل خمس وسبعين سنة^(١)، إذ خرجت جنازته بعد صلاة الصبح، فلم يحصل في قبره إلا في الليل مما احتشد في طريقه من الخلق، حتى لكأن في نعشه سراً من أسرار الجنة يطالعهم به الموت فخرجوا ينظرون إليه، وكانوا يصيحون في جنازته: هذا - والله - شرف الدنيا قبل شرف الآخرة.

(*) هذا هو الفصل الثاني من قصة السمكة.

(١) مات (رحمه الله) عن خمس وسبعين سنة.

ثُمَّ قُلْتُ: حَدَّثَنِي حَسِينُ الْمَغَازِلِيِّ^(١): أَنَّ بَشْرًا (رَحِمَهُ اللَّهُ) كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا الْخَبِزَ تَوَرُّعًا عَنِ الشَّبَهَاتِ وَاكْتِفَاءً لِبُضْرَةِ الْحَيَاةِ بِالْأَقْلَى الْأَيْسَرِ، وَكَانَ يَقُولُ فِي ذَلِكَ: يَدٌ أَقْصَرُ مِنْ يَدِي، وَلُقْمَةٌ أَصْغَرُ مِنْ لُقْمَةٍ. وَسُئِلَ مَرَّةً: بَأَيِّ شَيْءٍ تَأْكُلُ الْخَبِزَ؟ فَقَالَ: أَذْكُرُ الْعَافِيَةَ فَأَجْعَلُهَا إِدَامًا. وَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ، وَكَانَ يَرَى هَذَا نَقْصًا فِي نَفْسِهِ حَتَّى فَضَّلَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ بِأَشْيَاءَ: مِنْهَا أَنَّ لَهُ أَهْلًا؛ غَيْرَ أَنَّهُ قَبِيلٌ لَهُ ذَاتُ يَوْمٍ: لَوْ تَزَوَّجْتَ تَمَّ نُسُكُكَ. فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ تَقْوَمَ الزَّوْجَةُ بِحَقِّي وَلَا أَقْوَمَ بِحَقِّهَا. فَكَانَتْ هَذِهِ النِّيَّةُ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ مِنْ زَوَاجِهِ.

وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يُؤَاكِلُ أَحَدًا، وَلَا يَسْغَى إِلَى لِقَاءِ أَحَدٍ، حَتَّى أَنَّهُ لَمَّا رَغِبَ فِي مُوَاخَاةِ الزَّاهِدِ الْعَظِيمِ (مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ)، أَرْسَلَ إِلَيْهِ (الْأَسْوَدُ بْنُ سَالِمٍ) وَكَانَ صَدِيقًا لَهُمَا، فَقَالَ لِمَعْرُوفٍ: إِنَّ بَشْرَ بْنَ الْحَارِثِ يُرِيدُ مُوَاخَاةَكَ وَهُوَ يَسْتَحْيِي أَنْ يُشَافِهَكَ بِذَلِكَ، وَقَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلُكَ أَنْ تَعْقِدَ لَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ أَخُوَّةً يَحْتَسِبُهَا وَيَعْتَدُّ بِهَا؛ إِلَّا أَنَّهُ يَشْتَرِطُ فِيهَا شَرْطًا: أَوَّلُهَا أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَشْتَهَرَ ذَلِكَ، وَثَانِيهَا أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مُزَاوَرَةٌ وَلَا مَلَاقَاةٌ. فَقَالَ مَعْرُوفٌ: أَمَّا أَنَا فَإِذَا أَحْبَبْتُ أَحَدًا لَمْ أَحِبَّ أَنْ أَفَارِقَهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، وَأَزْوَرُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَأَوْثِرُهُ عَلَى نَفْسِي فِي كُلِّ حَالٍ؛ وَأَنَا أَعْقِدُ لِبَشْرِ أَخُوَّةَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَكِنِّي أَزْوَرُهُ مَتَى أَحْبَبْتُ، وَأَمْرُهُ بِلِقَائِي فِي مَوَاضِعٍ نَلْتَقِي فِيهَا إِذَا هُوَ كَرِهَ زِيَارَتِي.

قَالَ حَسِينُ الْمَغَازِلِيِّ: وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ أَمْرِ بَشْرِ مَعْرُوفًا فِي بَغْدَادَ، لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِبَغْدَادَ إِمَامٌ غَيْرُهُ وَغَيْرَ ابْنِ حَنْبَلٍ؛ فَمَا كَانَ أَكْثَرَ عَجَبِي حِينَ كُنْتُ عَنْدهُ يَوْمًا وَقَدْ زَارَهُ (فَتَحُ الْمُؤَصِّلِي)، فَقَامَ فَجَاءَ بِدِرَاهِمٍ مَلءَ كَفَّهُ وَدَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ: اشْتَرِ لَنَا أَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّعَامِ، وَأَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الْحَلْوَى، وَأَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا قَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ قَطُّ، وَهُوَ الَّذِي رَأَى الْفَاكِهَةَ يَوْمًا فَقَالَ: تَرَكُ هَذِهِ عِبَادَةً! وَهُوَ الْقَائِلُ لِأَبِي نَصْرِ الصِّيَادِ: لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ السَّمَكَةُ^(٢).

فَذَهَبْتُ فَاشْتَرَيْتُ وَانْتَقَيْتُ وَتَخَيَّرْتُ، ثُمَّ وَضَعْتُ الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، فَرَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مَعَهُ وَمَا رَأَيْتُهُ أَكَلَ مَعَ غَيْرِهِ، وَرَأَيْتُهُ مُنْبَسِطًا إِلَيْهِ وَمَا لِي عَهْدٌ كَانَ بِانْبِسَاطِهِ إِلَى

(١) نسبة إلى عمل المغازل، وكان حسين هذا صديقاً لبشر، وكان بشر يعمل المغازل ويعيش من ثمنها، ومن كلامه لابن أخته عمر: يا بني، اعمل بيدك؛ فإن أثره في الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين. هكذا كانوا رحمهم الله.

(٢) مر هذا في مقال (السمة).

أحد. وقد كُنْتُ أَخْبِرْتُهُ فِي ذَلِكَ النَّهَارِ بِخَبْرِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، عَلِمْتُهُ مِنْ إِدْرِيسِ الْحَدَّادِ: فَإِنَّهُ لَمَّا زَالَتِ الْمِحْنَةُ بَعْدَ أَنْ ضَرَبَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُعْتَصِمِ وَصُرِفَ إِلَى بَيْتِهِ، حُجِلَ إِلَيْهِ مَالٌ كَثِيرٌ مِنْ سَرَواتِ بَغْدَادَ وَأَهْلِ الْخَيْرِ فِيهَا، فَرَدَّ جَمِيعَ ذَلِكَ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ قَلِيلاً وَلَا كَثِيراً، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى أَيْسَرِهِ، وَإِلَى الْأَقْلَ مِنْ أَيْسَرِهِ، وَإِلَى الشَّيْءِ مِنْ أَقْلِهِ، فَجَعَلَ عَمَّهُ إِسْحاقُ يَحْسُبُ مَا وَرَدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَكَانَ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ: يَا عَمُّ، أَرَأَيْكَ مُشْغُولاً بِحَسَابِ مَا لَا يُفِيدُكَ. قَالَ: قَدْ رَدَدْتُ الْيَوْمَ كَذَا وَكَذَا أَلْفاً وَأَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَى حَبِيبَةٍ مِنْ دَانِقٍ. فَقَالَ الْإِمَامُ: يَا عَمُّ، لَوْ طَلَبْتَاهُ لَمْ يَأْتِنَا، وَإِنَّمَا أَنَا لَمَّا تَرَكْنَاهُ.



قَالَ الْمَغَازِلِيُّ: فَبِمَنْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَأَنَا أَفَكِّرُ فِي صَنِيعِ الشَّيْخِ، وَقَدْ تَعَلَّقَ خَاطِرِي بِهِ: كَيْفَ انْقَلَبَتِ الْحَالُ مَعَهُ، وَأَيُّ شَيْءٍ هَذِهِ الْحَالُ؟ وَجَعَلْتُ أَكِيدُ ذَهْنِي لِأَعْرِفَ الْحَقِيقَةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي سَلَطْتُ عَلَيْهِ هَذِهِ الضَّرُورَةَ فَتَسَلَّطَ النَّعِيمُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ لِلْقَوْمِ عُلُوماً وَرُوحَانِيَّةً لَيْسَتْ فِي الْكُتُبِ، فَمِنْهَا مَا لَا يَتَعَلَّمُونَهُ إِلَّا مِنَ الْفَقْرِ، وَمِنْهَا مَا لَا يَتَعَلَّمُونَهُ إِلَّا مِنَ الْبَلَاءِ، وَمِنْهَا، وَمِنْهَا؛ وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْهَا مَا يَتَعَلَّمُونَهُ مِنَ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ وَذَهَبَ قَلْبِي إِلَى أَوْهَامٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَ فِي جَمِيعِهَا طَائِلٌ وَلَا بِهَا مَعْرِفَةٌ، حَتَّى غَلَبَتْني عَيْنَايَ، وَأَنَا مِنْ وَهْجِ الْفَكْرِ نَائِمٌ كَالْمَرِيضِ، وَقَدْ ثَقُلَ رَأْسِي وَاخْتَلَطَ فِيهِ مَا يُعْقَلُ بِمَا لَا يُعْقَلُ.

فَرَأَيْتُ أَوَّلَ مَا رَأَيْتُ مَلِكاً جَبَّاراً يَحْكُمُ مَدِينَةً عَظِيمَةً، وَقَدْ أَطْلَقَ الْمَنَادِي فِي جَمْعِ كُلِّ أَطْفَالٍ مَدِينَتِهِ، فَجِيءَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ دَارٍ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ قَدْ جَلَسَ عَلَى سِرِيرِهِ وَفِي يَدِهِ مِقْرَاضٌ عَظِيمٌ، قَدْ اتَّخَذَهُ عَلَى هَيْئَةِ نُصْلَيْنِ عَرِيضَيْنِ لَوْ وُضِعَتْ بَيْنَهُمَا رَقَبَةٌ لَفَصَلَاها عَنْ جَسَمِهَا؛ فَكَانَ هَذَا الْجَبَّارُ يَتَنَاوَلُ الطِّفْلَ مِنْ أَوَّلِكَ فَيَضَعُ أَصَابِعَ إِحْدَى قَدَمَيْهِ فِي شِقْمِي الْمِقْرَاضِ فَيَقْرُضُهَا، فَإِذَا هِيَ تَتَنَاوَلُ أَسْرَعَ مِمَّا يَقْرُضُ الْبَقْصُ الْخِيطَ، ثُمَّ يَرْمِي بِالطِّفْلِ مَغْشِياً عَلَيْهِ، وَيَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ فَيَبْشُرُ أَصَابِعَهُ، وَالْأَطْفَالَ يَصْرُخُونَ؛ وَأَنَا أَرَى كُلَّ ذَلِكَ وَلَا أَمْلِكُ إِلَّا غِيظِي عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ مِنْ حَيْثُ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُنْصِي فِيهِ هَذَا الْغَيْظَ فَأَقْرُضَ عَنْقَهُ بِمِقْرَاضِهِ.

ثُمَّ رَأَيْتُهُ يَأْخُذُ طِفْلاً صَغِيراً، فَلَمَّا جَاءَتْ قَدَمُ الطِّفْلِ بَيْنَ شِقْمِي الْمِقْرَاضِ صَاحَ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ. فَإِذَا الْمِقْرَاضُ يَلْتَوِي فَلَا يَصْنَعُ شَيْئاً، وَكَأَنَّ فِيهِ حَجَراً صَلْدُاً لَا قَدَمًا رَخْصَةً. فَتَمَيَّزَ الْجَبَّارُ مِنَ الْغَيْظِ وَقَالَ: مَنْ هَذَا الطِّفْلِ؟ فَسَمِعْتُ هَاتِفاً يَهْتَفُ: هَذَا بَشَرُ الْحَافِي! لَا يَبْلُغُ تَأْجِ مَلِكٍ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لِقَدَمَيْهِ الْحَافِيَةُ نَعْلًا عِنْدَ اللَّهِ!

وكان إلى يميني رجلٌ يَتَوَضَّأُ وَجْهَهُ صلاحاً وتقوى، فقلتُ له: مَنْ هذا الطاغية؟ ولم اتَّخِذْ المِقْرَاضَ لِأقدامِ الأَطفالِ خاصَّةً؟ فقال: يا حُسين! إِنَّ هذا الجَبَّارَ هو ذُلُّ العيش، وهذا وَشْمُهُ لِأَهْلِ الحِياةِ على الأرض، يُحَقِّقُ به في الإنسان معنى البهيمية أول ما يَدِبُّ على الأرض، حتى كائنه ذو حافر لا ذو قَدَم.

قلتُ: فما بالُ هذا الطفل لم يعمل في المِقْرَاضِ؟ قال: إِنَّ لِهَ عِبَاداً استَخَصَّهم لِنَفْسِهِ، أولُ علامتهِ فيهم أَنَّ الذَّلَّ تحتَ أَقدامِهِم، وهم يجيئونَ في هذه الحِياةِ لِإثباتِ القُدرةِ الإنسانيَّةِ على حُكمِ طَبِيعَةِ الشَّهَوَاتِ التي هي نَفْسُها طَبِيعَةُ الذَّلِّ؛ فإذا اطَّرَحَ أَحَدُهُم لِلشَّهَوَاتِ وزَهَّدَ فيها، واستَقَامَ على ذلك في عَقْدِ نِيَّةٍ وقوةِ إرادة، فليس ذلك بِالزَّاهِدِ كما يَصِفُهُ النَّاسُ، ولكِنَّه رَجُلٌ قَوِيٌّ اختارَهُ القُدرةُ لِيَحْمِلَ أسلِحَةَ النَّفْسِ في مَعَارِكِها الطَّاحِنَةِ، كما يَحْمِلُ البَطْلُ الأَرَوُعُ أسلِحَةَ الجِسْمِ في مَعَارِكِهِ الدَّامِيَةِ: هذا يَتَعَلَّمُ مِنْهُ فَنٌّ، وَذاك يَتَعَلَّمُ مِنْهُ فَنٌّ آخَرُ، وكلاهما يُرْمَى به على المَوْتِ لِإِيجادِ النُّوعِ المُستَعْرَظِ مِنَ الحِياةِ، فأولُ فِضائِلِهِ الشُّعُورُ بالقُوَّةِ، وآخِرُ فِضائِلِهِ إِيجادُ القُوَّةِ.



قال المغازلي: وَضَرَبَ النُّومُ على رَأْسِي ضَرْبَةً أُخْرَى، فإذا أنا في أرضِ خَبِيثَةٍ دَاجِنَةٍ، قَدِ ارْتَفَعَ لَهَا دُخَانٌ كَثِيفٌ أَسْوَدُ يَتَضَرَّبُ بَعْضُهُ في بَعْضٍ وجعلتُ أَرَى شَعْلًا حُمْراً تَذْهَبُ وَتَجِيءُ كَأَنَّهَا أَجْسامٌ حَيَّةٌ، فَوَقَعَ في وَهْمِي أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الشَّيَاطِينُ: إِبْلِيسُ وَجَنُودُهُ، وَسَمِعْتُ صَارِخاً يَقولُ: يا بَشَرُ! قَلْبُكَ السَّمَاءُ على الأَرْضِ، لَقَدْ أَكَلَ بَشَرُ الحَافِي مِنَ أَطْيَبِ الطَّعامِ وَأَطْيَبِ الحَلْوَى بَعْدَ أَنْ اسْتَوَى عِنْدَهُ حَجَرُها وَمَذْرَها، وَذَهَبَها وَفِضَّتُها! فَعَارَضَهُ صائِغٌ أَسْمَعُ صَوْتَهُ ولا أَرى شَخْصَهُ: وِيلَكَ يا زَلَنْبُورٌ^(١)! إِنَّ هَذَا شَرُّ عَلَيْنَا مِنْ عَامَّةِ نُسُكِهِ وَعِبَادَتِهِ؛ فَهَذَا - وَيَحْكُ - هو الزَّهْدُ الأَعْلَى الَّذِي كان لا يُطِيقُهُ بَشَرٌ؛ إِنَّهُ إِعْناثٌ سَلَطَهُ على نَفْسِهِ، فَأَنِّي دَفَعْتُ هَذَا (المِغْزَالِي) الأَعْمَى القَلْبَ لِيُزَيِّنَ لَه ما فَعَلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ مِنْ رَدِّهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ على حاجَتِهِ، زَهْداً وَورَعاً، وقُوَّةَ عِزمٍ، وَنِفاذَ إِرادة؛ وَقُلْتُ: عسى أَن تَتَحَرَّكَ في نَفْسِهِ شَهْوَةُ الزَّهْدِ فَيَنخَسِدَ أو يَغَارَ، أو تُعْجِبَهُ نَفْسُهُ فيكونَ لي مِنْ ذَلِكَ لَمَّةٌ بِقَلْبِهِ فَأَوْسُوسَ لَه، فَإِنَّا نَاتي هَؤُلَاءِ مِنْ أَبْوابِ الثَّوابِ كما نَاتي غَيْرَهُمْ

(١) هذا اسم بعض ولد إبليس فيما يروى، وفي بعض النسخ التي بأيدينا أنه خنزير لازلنبور...

من أبواب المعاصي، وتوزع مع أهل الوزع كما تتسَخَفُ مع أهل السُخف؛ ولكن الرجل رجل وفيه حقيقة الزاهد، فقد أعطى القوة على جعل شهوات نفسه أشخاصاً حية يُعاديها ويُقاتِلُها، فإذا أنا جعلت شهوته في اللذة قتل اللذة، وإذا جعلتها في الكآبة قتل الكآبة، وليس الزاهد العابد هو الذي يتعَشَّفُ ويتعَفَّفُ، ويتخَفَّفُ ويتلَفَّفُ، فإن كثيراً ما تكون هذه هي أوصاف الذلِّ والحق، ويكون لها عملُ العبادة وفيها إثمُ المعصية. ولكن الزاهد حقُّ الزاهد من أدار في هذه الأشياء عيناً قد تعلَّمت النظر بحقه والإغضاء بحقه؛ فهذا لا يُخطئ معنى الشر إن لبسناه عليه في صورة الخير، ولا معنى الخير إن زورناه في صورة الشر، وبذلك يضع نفسه في حيث شاء من المنزل، لا في حيث شاءت الدنيا أن تضعه من منازلها الدنيئة.

وما أكل بشر هذه الطيبات إلا ليُبَادِرَ بها وسوستي ويردني عن نفسي وعن اللمة بقلبه، فلو أنه أعجبهُ زهدُ ابن حنبل ونظر من ذلك إلى زهد نفسه لحبِط أجره؛ فهذه الطيبات عالَجَ نفسه علاجَ مريض، وقد غيَّرَ على جوفه طعاماً بطعام، كما يبدل على جلده ثوباً بثوب؛ ولا شهوة للجلد في أحدهما.



قال المغازلي: وثقل النوم علي ثقله أخرى، فرأيتني في وادٍ عظيم، وفي وسطه مثل الطود من الحجارة قد رَكِمَ بعضها على بعض؛ ورأيتني مع بشرٍ أقص عليه خير أحمد بن حنبل؛ فقال: انظر - ويحك -؛ إن الناس يسمونها خمسين ألف دينار، وهي هنا في وادي الحقائق خمسون ألف حجرٍ لو أصابَتْ أحمد لقتلته ولكانت قبره آخر الدهر.

إن المال يا بُني هو ما يعملهُ المال لا جوهرة من الذهب والفضة، فإذا كثرت بمقاراة ليس فيها من يبيعك شيئاً بذهبك، فالتراب والذهب هناك سواء؛ والفضائل هي ذهب الآخرة؛ فهنا تجددُ بالمالِ دنياك التي لا تبقى أكثر من بقائك، وهناك تجددُ بالفضائل نفسك التي تخلقُ بخلودها.

ومعنى الغنى معنى مُلتبس على العقول الآدمية لاجتماع الشهوات فيه، فحين يرد أحمد بن حنبل خمسين ألفاً، يكون هذا المعنى قد صحَّح نفسه في هذا العمل وجهاً من التصحيح.



قال حسين المغازلي: وغطني النوم في أعماقه غطه أخرى؛ فإذا أنا في

المسجد في درس الإمام أحمد، وهو يُحدِّث بحديث النبي ﷺ: «إِذَا عَظَّمْتَ أَمْتِي الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ، نُزِعَ مِنْهَا هَبِيَّةُ الْإِسْلَامِ؛ وَإِذَا تَرَكَوْا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، حُرِّمُوا بَرَكَةُ الْوَحْيِ» وَهَمَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي تَفْسِيرِهِ^(١) وَلَكِنَّهُ رَأَى فَاْمَسَكَ عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: يَا حَسِينُ! إِذَا اجْتَزَأَ شَيْخُكَ بِالرَّغِيفِ فَهَذَا عِنْدَهُ هُوَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ؛ فَإِنْ أَكَلَ الطَّيِّبَاتِ فَقَدْ عَرَضَتْ حَالٌ جَعَلَتْ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ عِنْدَهُ هِيَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ؛ وَفِي هَذِهِ النَّفُوسِ السَّمَاوِيَّةِ لَا يَكُونُ الْجِزْءُ الْأَرْضِيُّ إِلَّا مُحْدُودًا، فَلَا يَكُونُ مُحْصُولُهُ إِلَّا مَا تَرَى مِنْ قَدْرِ الضَّرُورَةِ.

وَلَمَّا صَغُرَ الْجِزْءُ الْأَرْضِيُّ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ مَلَكَوْا الْأَرْضَ كُلَّهَا بِقُوَّةِ الْجِزْءِ السَّمَاوِيِّ فِيهَا، إِذْ كَانَتْ إِرَادَتُهُمْ فَوْقَ الْأَطْمَاعِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكَانَتْ بِذَلِكَ لَا تَذُلُّ وَلَا تَضَعُفُ وَلَا تَنْكَسِرُ؛ فَلَا دَمِيَّةَ كُلِّهَا تَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ صُورٍ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ مَحَلُّهُمْ فِي أَعْلَاهَا.

يَا حَسِينُ! أَلَا وَإِنْ رَدَّ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ هُوَ كَذَلِكَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ.

قَالَ حَسِينُ: وَذَهَبْتُ أَعْتَزُّ عَلَى الْإِمَامِ بِمَا كَانَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَالِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَسْبِهِ، فَقَدْ كَانَ يَتَحَوَّلُ فِي يَدِهِ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ؛ وَأَنْبِئْتُ أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ وَأَقْدَارُ نَفُوسِهِمْ، فَلَمْ أَكُذِّ أَفْتَحْ فَعَمِي حَتَّى رَأَيْتُ الْكَلَامَ يَتَحَوَّلُ طَبِئًا فِي فَمِي لِيَذْكُرَنِي بِهَذَا الْمَعْنَى؛ وَكَذْتُ أَخْتَنُّ فَانْتَفَضَتْ أَنْفُسُ، فَطَارَ النَّوْمُ وَالْجَلْمُ.

(١) سَيَّأَتِي تَفْسِيرُهُ فِي مَجْلِسِ آخَرٍ مِنْ مَجَالِسِ ابْنِ مَسْكِينٍ.

إِبْلِيسُ يُعَلِّمُ... (*) (١)

(٣)

قال أحمد بن مسكين: ودارَ السبُّ الثالثُ، وجلستُ مجلسي للناس وقد انتظمتُ خَلَقَتُهُمْ؛ فقامَ رجلٌ من عُرضِ المجلس فقال: إِنَّ الحَسَنَ بْنَ شُجاعِ البلخي تلميذَ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ^(٢)، كان منذُ قريبٍ يُحدِّثنا بأحاديثٍ عن الشيطان، حفظنا منها قوله ﷺ: «إِنَّ المؤمنَ يُنْضِي شيطانه كما يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ». وكان الحسنُ يقولُ في تأويلِهِ: إِنَّ شيطانَ الكافرِ ذَهَبٌ سَمِينٌ كاسٌ، وشيطانُ المؤمنِ مَهْزُولٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ عَارٍ. فهل يأكلُ الشيطانُ وَيَذْهَبُ وَيَبْلَسُ لِيَكُونَ لَهُ أَنْ يَجُوعَ مع المؤمنِ وَيَعْرِى وَيَتَشَعَّثَ وَيَغْتَبِرَ؟

قال ابنُ مسكين: فقلْتُ في نفسي: لا حول ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! ما أرى السائلَ إِلَّا شيطاناً هذا السائلُ؛ فَإِنَّ إبليسَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْخَرَ مِنَ الْعَالَمِ وَيُسَمِّعَهُ طَشْرَهُ وَتَهْكِمَهُ^(٣)، حَزَّكَ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْهُ مَا هُوَ وَكَيْفَ هُوَ؛ كَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ: تَنْبُئْ - وَيَحْكُ - عَلَى مَعْنَايَ، فَأَنْتَ تَتَكَلَّمُ وَأَنَا أَعْمَلُ، وَأَنْتَ صَوْرَةٌ مِنَ الرَّدِّ عَلَيَّ، وَلَكِنِّي حَقِيقَةٌ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْكَ، وَمَا أَنْتَ فِي مُحَارَبَتِكَ لِي بِالْوَعْظِ إِلَّا كَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَضْرِبَ عُقَّتِي عَدُوَّهُ بِمَاءَةِ اسْمٍ وَضِعَتْ لِلسَّيْفِ...

قال: وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ خَبيراً عَجيباً عَنْ أَبِي عَامِرٍ قَبِيصَةَ بْنِ عُقْبَةَ الْكُوفِيِّ الْمُحَدِّثِ الْحَافِظِ الثَّقَةِ أَحْمَدَ بْنَ شَيْخٍ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ^(٤)؛ وَهُوَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْعَابِدُ الَّذِي كَانَ يُقَالُ لَهُ: (رَاهِبُ الْكُوفَةِ)؛ مِنْ زَهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَاحْتِسَابِ نَفْسِهِ فِي دَاخِلِهِ

(*) انظر الفصلين السابقين.

(١) داعبنا إبليس (لعه الله) مداعبة ثقيلة في كتابة هذا المقال، وسنقتصم للقراء حكايته في مقالة: (دعابة إبليس).

(٢) توفي ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤هـ، وكان من حفاظ (بلخ).

(٣) الطنز: التهزؤ والتهمك، ولعل منه كلمة (طظ) عند العامة.

(٤) توفي سنة ٢١٥هـ.

كَأَنَّمَا جَسَدُهُ جِدَارٌ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا، فَقُلْتُ - وَاللَّهِ - لَا غِيْظَ لِّلْشَّيْطَانِ بِهَذَا الْخَبَرِ، فَإِنَّ أَسْمَاءَ الزَّهَّادِ وَالْعَبَادِ وَالصَّالِحِينَ هِيَ فِي تَارِيخِ الشَّيَاطِينِ كَأَسْمَاءِ الْمَوَاقِعِ الَّتِي تَنْهَزُمُ فِيهَا الْجِيُوشُ، وَمَا الرَّجُلُ الْعَابِدُ إِلَّا صَاحِبُ الْقَمَرَاتِ مَعَ الشَّيْطَانِ، وَكَأَنَّهُ يَحْتَمِلُ الْمَكَارَةَ عَنْ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ بَلْ عَنِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا حَيْثُ كَانَتْ مِنَ الْأَرْضِ، فَالنَّاسُ يَحْسِبُونَهُ قَدْ تَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا وَيُظَنُّونَ التَّرِكَ أَيْسَرَ شَيْءٍ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الزَّهْدَ لَا يَسْتَقِيمُ لِلزَّاهِدِ حَتَّى يَجْعَلَ جَسْمَهُ كَأَنَّهُ نَوْعٌ نِظَامٍ آخَرَ غَيْرَ نِظَامِ أَعْضَائِهِ؛ وَلَا أَشَقُّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى النَّفْسِ. وَمَعْجَزَةُ الزَّاهِدِ أَنَّهُ مَكْلَفَتْ أَنْ يُخْرِجَ لِلنَّاسِ أَقْوَى الْقُوَّةِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ عِنْدَ النَّاسِ أَوْعَفُ الضَّعْفِ؛ وَلَوْ أَنَّ مَلِكًا عَظِيمًا تَعَبَ فِي جَمْعِ الدُّنْيَا وَفَتَحَ الْمَمَالِكِ حَتَّى جِيزَتْ لَهُ جَوَانِبُ الْأَرْضِ، لَكَانَ عَمَلُهُ هَذَا هُوَ الْوَجْهَ الْآخَرَ لَتَعَبِ الزَّاهِدِ فِي مُجَاهَدَةِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَتَرْكِهَا.

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ: وَقَصَصْتُ عَلَيْهِمُ الْقِصَّةَ فَقُلْتُ: كَانَ أَبُو عَامِرٍ قَبِيصَةً بَيْنَ عُقْبَةٍ كَثِيرَةِ الْفِكْرِ فِي الشَّيْطَانِ، يُوَدُّ لَوْ رَأَاهُ وَنَاقَلَهُ الْكَلَامَ؛ وَكَانَ يَتَدَبَّرُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي صَحَّ وَرُودُهَا فِيهِ، وَيَفْسِّرُ مَعْنَى الشَّيْطَانِ بِأَنَّهُ الرُّوحُ الْحَيُّ لِلْخَطَا عَلَى الْأَرْضِ؛ وَالْخَطَا يَكُونُ صَوَابًا مَحْوَلًا عَنْ طَرِيقَتِهِ وَجَهَّتِهِ، وَلِهَذَا كَانَ إِبْلِيسُ فِي الْأَصْلِ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَتَحَوَّلَ عَنْ طَبِيعَتِهِ حِينَ خُلِقَ آدَمُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، أَيْ وُجِدَ فِي الْكَوْنِ رُوحُ الْخَطَا حِينَ وُجِدَ فِيهِ الرُّوحُ الَّذِي سَيَخْطِئُ.

فَلَمَّا هَبَطَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَحَرَّمَهَا هُوَ وَزَوْجَتُهُ، كَانَ إِبْلِيسُ (لَعَنَهُ اللَّهُ) هُوَ مَعْنَى بَقَاءِ هَذَا الْجَرْمَانِ وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَى الدَّهْرِ، فَكَأَنَّ هَذِهِ الْأَدَمِيَّةَ أُخْرِجَتْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأُخْرِجَتْ مَعَهَا قُوَّةٌ لَا تَزَالُ تُصَدِّدُهَا عَنْهَا، لِيَضْطَرِبَا فِي الْكِفَاحِ مَلِيًّا مِنْ زَمَنِ هُوَ عَمْرُ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ الْإِلَهِيُّ: لَمْ يَعْرِفْ آدَمُ حَقَّ الْجَنَّةِ، فَعُوقِبَ إِلَّا بِأَخْذِهَا إِلَّا بِحَقِّهَا، وَأَنْ يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ قُوَّةَ الشَّرِّ.

وَبَاتَ أَبُو عَامِرٍ ذَاتَ لَيْلَةٍ يُفَكِّرُ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَقِرَائَتِهِ، ثُمَّ هَوَّمَ فَكَانَ بَيْنَ الْبَقْظَةِ وَالنَّوْمِ، وَذَلِكَ حِينَ تَكُونُ الْعَيْنُ نَائِمَةً وَالْعَقْلُ لَا يَزَالُ مُتَنَبِّهًا، فَكَأَنَّ الْعَيْنَ مُتَرَاجِعَةً تُبْصِرُ مِنْ تَحْتِ أَجْفَانِهَا بَصْرًا يُشَارِكُهَا فِيهِ الْعَقْلُ.

فَرَأَى شَيْخُنَا أَبُو عَامِرٍ صُورَةَ إِبْلِيسَ جَاءَهُ فِي زِيٍّ رَجُلٍ زَاهِدٍ، حَسَنَ السَّمْتِ طَيِّبَ الرِّيْحِ، نَظِيفَ الْهَيْئَةِ، وَكَأَدَّ يُشَبِّهُ عَلَيْهِ لَوْلَا أَنَّهُ قَدْ عَرَفَهُ مِنْ عَيْنِهِ، فَإِنَّ عَيْنِي الْكَاذِبِ تُصَدِّقَانِ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْكَاذِبَ آدَمِيٌّ قَفَرَ كَالْمَتَاهَةِ مِنَ الْأَرْضِ، فَجَعَلَ عَيْنَهُ كَالْعَلَامَاتِ لِمَنْ خَاضَ الْفَلَاةَ.

وظهرَ الشيطانُ زاهداً عابداً تَقِيّاً نَقِيّاً كأنَّهُ دِينٌ صَحِيحٌ خُلِقَ بَشِراً، فَصَرَخَ فِيهِ أَبُو عَامِرٍ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ! أَمْعِصِيَّةٌ فِي ثَوْبِ الطَّاعَةِ؟

قال إبليس: يا أبا عامر! لو لم تقل المعصية إنها طاعة لم يُقَارَفْها أحد. وهل خُلِقَتِ الشهواتُ في نفس الإنسان وغريزته إلا لَتَقْرِبَ هذه المعاصي من النفس، وجعل كلَّ منها طاعةً لشيءٍ ما؛ فتقعُ المعصيةُ بأنها طاعةٌ لا بأنها معصية؟ أو لا ترى يا أبا عامر أنَّ الجيلةَ مُحْكَمَةً في الداخلِ من الجسم أكثرَ مِنَّا هي مُحْكَمَةٌ في الخارجِ عنه، وأنَّه لولا أن هذا الباطنَ بهذا المعنى وهذا العملَ لما كان لظواهرِ الوجودِ كلُّه في الإنسان معنى ولا عمل؟

قال الشيخ: عليك لعنة الله! فما أرى الموتَ قد خُلِقَ إلا رداً عليك أنت، لِيَتَبَيَّنَ النَّاسُ أَنَّكَ المَمْتَلِيُّ المَمْتَلِيُّ، ولكِنَّكَ الفَارِغُ الفَارِغُ؛ بل كلُّ شهواتِكَ سخريةً منك وردُّ عليك، فلا طعمٌ للذةٍ من لذاتِكَ إلا وهي تموت، وإنَّما تمامُ وجودِها ساعةٌ تنقضي؛ ومتى قالَتِ اللذةُ: قد انتهت. فقد وصفتَ نفسها أبلغَ الوصفِ.

قال إبليس: يا أبا عامر، ولكنَّ اللذةَ لا تموتُ حتى تَلِدَ ما يُبْقِيها حيَّةً، فهي تَلِدُ الحنينَ إليها، وهو لا يسكنُ حتى يعودَ لذةً تنقضي وتَلِدُ.

قال الشيخ: معاني التراب، معاني التراب؛ كلُّ نَبْتَةٍ فيها بذرتها، ولكنَّ (عليك لعنة الله) لماذا جئتنِي في هذه الصورة؟

قال إبليس: لأني لا ألبسُ إلا محبةَ القلبِ الآدمي، ولولا ذلك لطرَدْتَنِي القلوبُ كُلُّها وبَطَلَ عملي فيها، وهل عملي إلا التلبسُ والتزوير؛ أفندري يا أبا عامرٍ أنني لا أعترِي الحيوانَ قطً.

قال الشيخ: لأنَّ الحيوانَ لا ينظرُ إلى الشيءِ إلا نظرةً واحدةً، هي نظره وفهمه معاً، فلا محلَّ للتزوير مع هذه النظرة الواحدة؛ وصدق الله العظيم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَتَرَدَّدُ الشَّيَاطِينُ تَرَدَّدَ عَلَىٰ كُلِّ آفَالٍ أَثِيرٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. فأنت أيُّها الشيطانُ التزوير، والتزويرُ موضعهُ الكذب؛ فمَن لم يكذب في الفكرِ ولا في النظرِ ولا في الفهم ولا في الرجاء، فليس لك عندهُ عملٌ.

قال إبليس: يا أبا عامر! وهل ترى (رحمَكَ الله) أعجبَ وأغربَ وأدعى إلى الهُزءِ والسخرية من أن أعظمَ العقلاءِ الزهادِ العُبادِ، هو في جملة معانيه حيوانٌ ليس له إلا نظرةً واحدةً في كلِّ شيءٍ؟

قال الشيخ: عليك وعليك...؛ إنَّ الحيوانَ شيءٌ واحدٌ، فهو طبيعةٌ مسخرةٌ

بنظامها، ولكن الإنسان أشياء متناقضة بطبيعتها، فالوهيته أن يُقر النظام بين هذه المتناقضات، كأنما امتُحِنَ فأعطى من جسمه كونا فيه عناصر الاضطراب، وحوله عناصر الاضطراب، ثم قيل له دَبَّرْهُ.

فضحك إبليس. قال الشيخ: مِمَّ ضَحَكْتَ لَعْنَكَ الله؟

قال: ضَحَكْتُ مِنْ أَنَّكَ أَعْلَمْتَنِي حَقِيقَةَ الْإِبْلِسِيَّةِ، فَالزَّهَادُ هُمُ الصَّالِحُونَ لِأَن يَكُونُوا أَعْظَمَ الْأَبَالِسَةِ...

قال الشيخ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ، فَمَا هِيَ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي زَعَمْتَ؟

قال إبليس: - والله - يا أبا عامر، ما غلا إنسان في زَعْمِ التَّقْوَى والْفَضِيلَةِ إِلَّا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْإِبْلِسِيَّةُ؛ وَسَأَعْلَمُكَ يَا أبا عامر حَقِيقَةَ الزَّهْدِ وَالْعِبَادَةِ. فَلَا تَقُلْ إِنَّهَا الْوَهْيَةُ تُقَرُّ النِّظَامَ بَيْنَ مَتَنَاقِضَاتِ الْإِنْسَانِ وَمَتَنَاقِضَاتِ الطَّبِيعَةِ.

قال الشيخ: وَتَسَخَّرُ مِنِّي لَعْنَكَ اللَّهُ؟ فَمَتَى كُنْتُ تَعْلَمُ الْحَقِيقَةَ وَالْفَضِيلَةَ؟

قال إبليس: أَوْ لَمْ أَكُنْ شَيْخَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَمَنْ أَجَدُّ مِنْ شَيْخِ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَكُونَ عَالِمَهَا وَمَعْلَمَهَا؟

قال: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ؛ فَمَا هِيَ حَقِيقَةُ الزَّهْدِ وَالْعِبَادَةِ؟

قال إبليس: حَقِيقَتُهَا يَا أبا عامر، هِيَ الَّتِي أَعْجَزْتَنِي فِي نَبِيِّكُمْ.

قال الشيخ: ﷺ؛ فَمَا هِيَ؟

قال إبليس: هِيَ ثَلَاثٌ بِهَا نِظَامُ النَّفْسِ، وَنِظَامُ الْعَالَمِ، وَنِظَامُ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ: أَنْ تَكُونَ لَكَ تَقْوَى، ثُمَّ يَكُونَ لَكَ فِكْرٌ مِنْ هَذِهِ التَّقْوَى، ثُمَّ يَكُونَ لَكَ نَظَرٌ إِلَى الْعَالَمِ مِنْ هَذَا الْفِكْرِ. مَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الثَّلَاثُ فِي إِنْسَانٍ إِلَّا قَهَرَ الدُّنْيَا وَقَهَرَ إِبْلِيسَ.

فَإِنْ كَانَتْ التَّقْوَى وَحْدَهَا - كَتَقْوَى أَكْثَرِ الزَّهَادِ وَالرَّهْبَانِ - فَمَا أَيْسَرَ أَنْ أَجْعَلَ النَّظَرَ مِنْهَا نَظَرَ الْغَفْلَةِ وَالْجُبْنِ وَالْبَلَادَةِ وَالْفَضَائِلِ الْكَاذِبَةِ، وَإِنْ كَانَ الْفِكْرُ وَحْدَهُ - كَفِكْرِ الْعُلَمَاءِ وَالشُّعْرَاءِ - فَمَا أَهْوَنَ أَنْ أَجْعَلَ النَّظَرَ بِهِ نَظَرَ الزَّيْغِ وَالْإِلْحَادِ وَالْبَهْمِيَّةِ وَالرَّذَائِلِ الصَّرِيحَةِ.

قال الشيخ: صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿إِنَّكَ أَكْذِيبٌ أَتَقُولُ إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِنَّهُمْ مُّعْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قال إبليس: يَا أبا عامر! مَا يَضُرُّنِي وَاللَّهِ أَنْ أَفْسُرَ لَكَ، فَإِنَّ قَارُورَةَ مِنَ الصَّنِيعِ

لا تَضْبَعُ البحر، وأنا أعدُّ الزهاد والعلماء المصلحين فاضعُ في الناس بجانب كل واحدٍ منهم مائة ألف امرأة مفتونة، ومائة ألف رجل فاسق، ومائة ألف مخلوق ظالم، فلو أنك صَبَغْتَ البحرَ بملءِ قارورة حمراءَ لَمَا صَبَغْتَ البحرَ الإنسانيَّ بالزاهد والمصلح، ما دامَ المصلحُ شيئاً غيرَ السيف، وما دامَ الزاهدُ شيئاً غيرَ الحاكم.

قال الشيخ: لعنكَ الله مِنْ شيطانٍ عارِمٍ، فإذا وضعتَ المصلحَ بين مائة ألفٍ فاسدٍ، فهل هذه إلا طريقةً شيطانيةً لإفساده؟

قال إبليس: ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر، كل واحدٍ تحسبُ جسماً... .

فصرخَ الشيخ: أغرُبْ عني عليك لعنة الله!

قال إبليس: ولكنَّ الآيةَ الآيةَ يا أبا عامر. لقد لقينْتُ المسيحَ وجربتهُ وهو كان تفسيرَها.

قال الشيخ: عليه السلام! وعليكَ أنت لعنة الله! فكيفَ قال؟ وكيف صنع؟

قال إبليس: ألقينْتُ به جائعاً في الصحراء لا يجدُ ما يَطْعَمُهُ، ولا يظنُّ أنَّه يجدُ، ولا يرجو أن يظنَّ؛ ثُمَّ قُلْتُ له: إن كنتَ رُوْحَ الله وكلمتُهُ كما تزعمُ فمُرْ هذا الحجرَ ينقلبَ خبزاً. فكان متقياً، فتذكرُ فإذا هو مُبْصِرٌ، فقال: ليس بالخبزِ وحدهُ يحيا الإنسان، فمثلُ هذا لو ماتَ جوعاً لم يتحوَّلْ، لأنَّ الموتَ إتمامُ حقيقتهِ السامية فوقَ هذه الدنيا، ولو ملئتُ له الدنيا خبزاً وهو جائعٌ لم يتحوَّلْ، لأنَّ له بَصَراً من فوقِ الخبزِ إلى حقيقتهِ السماوية؛ فليس بالخبزِ وحدهُ يحيا؛ بل بمعانٍ أخرى هي إشباعُ حقيقتهِ السماوية التي لا شهوةَ لها.

ثم ارتقيتُ به إلى ذروة جبلٍ وأريتهُ ممالكَ الخافقين، كَشَفْتُها كُلَّها لِعَيْنَيْهِ وَقُلْتُ له: هذا كُلُّهُ لَكَ إذا أنت سجدتَ لي. فكان متقياً، فتذكرُ فإذا هو مُبْصِرٌ: أبصرَ حقيقةَ الخيالِ الذي جَسَمْتُهُ له، وَعَلِمَ أنَّ الشيطانَ يُعطي مثلَ معاني هذه الممالكِ في جرةِ خمرٍ، كما يُعطيها في ساعة لذة، كما يُعطيها في شِفَاءٍ غيظٍ بالقتلِ والأذى؛ ثُمَّ لا يَبْقَى من كُلِّ ذلكَ باقٍ غيرُ الإثمِ، ولا يصحُّ منه صحيحٌ إلا الحرام. وَمَنْ ملكَ الدنيا نفسها لم يبقَ لها إذا بقيتْ فهي خيالٌ في جرةِ الحياة، كما هي خيالٌ في جرةِ الخمر.

يا أبا عامر؛ إنَّ هذا النظرَ، الذي وراءَهُ التذكُّرَ، الذي وراءَهُ التقوى، التي وراءَهُ الله - هذا وحدهُ هو القوةُ التي تتناولُ شهواتِ الدنيا فتُصَفِّيها أربعَ مراتٍ حتى

تعودُ بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخَرُها القبر، وآخِرُ وجودها التلاشي .
فالبصُرُ الكاشفُ الذي يُجَرِّدُ الأشياءَ من سِحْرِها الوهميِّ، هذا هو كُلُّ السرِّ .

قال الشيخ : لَعَنَكَ الله ؛ فكيف مع هذا تَفْتَنُ المؤمن ؟
قال إبليس : يا أبا عامر ، هذا سؤالٌ شيطانيّ ثريدُ - ويحك - أن تحتال
على الشيطان ؟ ولكن ما يضرُّني أن أفسرها لك .

ليس الإيمانُ هو الاعتقادُ ولا العملُ ، ولو كان من هذين لَمَّا شَقَّ على أحدٍ
ولصَلَحَت الدنيا وأهلُها ؛ إنَّما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفيٍّ يكونُ مَعَ الغريزة في مَقَرِّها ،
ويصلُحُ أن يكونَ في مَقَرِّها لَتَصُدَّرَ عنه أعمالُ الغريزة ؛ وهذا اليقينُ لا يصلُحُ كذلك
إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبرُ من الدنيا ، فيرجعُ إليه الإنسانُ فيتذكرُ فيُبَصِّرُ .
هناك ميراثٌ من الآخرةِ للمؤمن ، فاليقينُ بهذا الميراثِ هو سِرُّ الإيمان .

والعملُ الشيطانيُّ لا يكونُ إلا في إفسادِ هذا اليقينِ ومُعارضةِ الخيالِ العظيمِ
الذي فيه بالحقائقِ الصغيرة التي تظهرُ للمغفلِ عظيمة ، كما تُثَبِّتُ نازَ أكبرُ من قُرصِ
الشمسِ ثُمَّ يُقالُ لِلأبله : انظرْ بعينيك ، فيُصدِّقُ أنَّها أكبرُ من الشمسِ .

ومتى صَغُرَ هذا اليقينُ وكانَتِ الحقائقُ الدنيويَّةُ أكبرَ منه في النفس ؛ فأيسرُ أسبابِ
الحياةِ حيثُ يُفَسِّدُ المعتقدَ وَيُسَيِّطُ الفضيلة ؛ ويدرهم واحدٌ يوجَدُ للصُّ حيثُ .

أما إذا ثَبَّتَ اليقينُ فالشيطانُ مَعَ الإنسانِ يصغُرُ ثُمَّ يصغُرُ ، وَيَعجزُ ثُمَّ يعجزُ .
حتى ليرجعُ مثلُ الدرهمِ إذا طمِعَ الطامعُ أن يجعلَ الرجلَ الغنيَّ الكثيرَ المالِ لُصّاً
من اللصوصِ بهذا الدرهمِ .

قال الشيخ : لَعَنَكَ الله ! فإن لم تستطعْ إفسادَ هذا اليقينِ فكيفَ تصنعُ في فتنة
المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، إن لم أستطعْ إفسادَ اليقينِ زِدْتُهُ يقيناً فيفسدُ ،
واستحسانُ الرجلِ لأعمالِهِ الساميةِ قد يكونُ هو أولُ أعمالِهِ السافلةِ ؛ وبأني عجيبٌ
يكونُ الشيطانُ شيطاناً إلا بمثلِ هذا ؟

قال أحمدُ بنُ مسكين : وغَضِبَ الشيخ ، فمَدَّ يَدَهُ فأخَذَ فيها عُنُقَ إبليسِ وقد
رَأَهُ دَقِيقاً ، ثُمَّ عَصَرَهُ عَصراً شديداً يُريدُ خَنَقَهُ ؛ فقَهَقَهُ الشيطانُ ساخراً منه . ويتنبَّهُ
الشيخُ ، فإذا هو يشدُّ بيده اليمنى على يده اليسرى

الدنيا والدرهم

(٤)

قال أحمد بن مسكين: وأزف ترخلي عن (بلخ)، وتهياث للخروج، ولم يبق من مدة مقيلي بها إلا أيام يجيء فيها السبت الرابع، وكان قد وقعت مَمَاراة بيني وبين مفتي (بلخ) أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف الباهلي^(١) تلميذ أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، ويزعمون أنه شحيح على المال، وأنه يتغللله من مُسْتَفْلَات كثيرة^(٢)، فكأنما غَشِيَتْهُ غمامتي، فهو لا يرى أن أتكلّم في الزهد، ويحسبُ هذا الزهد تَمَاوُت العُباد، ونَقْصُ الأيدي من الدنيا، وسوء المصاحبة لِمَا يُنْعِمُ الله به على العبد، وخذلان القوة في البدن، وما جرى هذا المجرى من تزوير الحياة بالأباطيل التي زَعَمَ أنها أباطيل الطاعات وما أَقْرَبُهَا مِنْ أباطيل المعصية. ولم يكن هذا المفتي قد سمعني ولا حضرَ مجلسي، ولولا الذي لم يعرفه من ذلك لقد كان عرف.

وجاذلتهُ فرأيتُهُ واهنَ الدليل، ضعيفَ الحُجّة، يُخَمِّنُ تخمينَ فقيه، وينظرُ إلى الخفايا من حقائق النفوس نظرَ صاحبِ النصِّ إلى الظاهر، كأنَّ الحقيقةَ إذا لقيتْ على الناسِ مضتْ نافذةً كفتوى المفتي... ويزعمُ أن الوعظَ وعظَ الفقهاء، يقولون: هذا حرام. فيكون حراماً لا يُقَارَفُهُ أحد، وهذا حلالٌ. فيكون حلالاً لا يتركُهُ أحد، وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومدّخله إلى النفس وسياسته فيها، ولا يعرفُ أنَّ الحقيقةَ كالأنثى: إنَّ لم تُزَيَّنْ بزینتها لم تُسْتَهَرِ أحداً؛ وأنَّ الموعظةَ إنَّ لم تُتَأَدَّ في أسلوبها الحيِّ كانتْ بالباطل أشبه، وأنه لا يُغَيِّرُ النفسَ إلّا النفسُ التي فيها قوةُ التحويلِ والتغيير، كنفسِ الأنبياءِ ومَن كان في طريقة رُوحهم، وأنَّ هذه الصناعةَ إنَّما هي وضعُ نورِ البصيرة في الكلام، لا وضعُ القِياسِ والحُجّة،

(١) توفي مفتي بلخ هذا سنة ٣٣٩هـ.

(٢) المستفلات: أصول الأموال، وتغلل واستغل بمعنى.

وَأَنَّ الرجلَ الزاهدَ الصحيحَ الزهد، إنما هو حياةٌ تلبسُها الحقيقةُ لِتَكُونَ به شيئاً في الحياة والعمل. لا شيئاً في القولِ والتوهم، فيكون إلهامُها فيه كحرارة النارِ في النار: مَنْ وَأَتَاهَا أَحْسَنُهَا.

ولعمري، كم من فقيهٍ يقول للناس: هذا حرام. فلا يزيدُ هذا الحرامَ إلا ظهوراً وانكشافاً ما دام لا ينطقُ إلا بنطقِ الكتب، ولا يُحسنُ أن يصل بين النفسِ والشَّرع، وقد خلا من القوة التي تجعلُهُ روحاً تتعلَّقُ الأرواحُ بها وتضعُهُ بين الناسِ في موضعٍ يكون به في اعتبارهم كأنَّهُ آت من الجنة منذ قريب، راجعٌ إليها بعد قريب.

والفقيهُ الذي يتعلَّقُ بالمالِ وشهواتِ النفس، ولا يجعلُ هَمَّهُ إلا زيادةَ الرزقي وحظَّ الدنيا - هو الفقيهُ الفاسدُ الصورة في خيالِ الناس، يُفهِمُهُم أول شيءٍ ألا يفهموا عنه؛ إذ جِزْصُهُ فوقَ بصيرتِهِ، ولهُ في النفوسِ رائحةُ الخبز، ولهُ معنى: خمسٌ وخمسونَ عشرة^(١)... . وكأنَّ دنياءَ وضَعَتْ فيه شيئاً فاسداً غربياً يُفْسِدُ الحقيقةَ التي يتكلَّمُ بها؛ ولستُ أدري ما هو هذا الشيء، ولكنِّي رأيتُ فقهاءً يعظونَ ويتكلمونَ على الناسِ في الحرامِ والحلالِ وفي نصِّ كتابِ الله وسُنَّةِ رسوله ﷺ، ثم لم أجدُ لِكَلَامِهِمْ نفعاً ولا رداً، إذ يُلْهِمُونُ الناسَ بأرواحهم غيرَ المعنى الذي يتكلمونَ فيه؛ وتَسَخَّرُ الحقيقةُ منهم - على حَظَرِهِمْ وجلالِ شأنيهم - بذاتِ الأسلوبِ الذي تسَخَّرُ به من لَصٍ يعظُ لصاً آخرَ فيقول له: لا تُسْرِق... .



قال ابنُ مسكين: فلما دارَ يومُ السبتِ أقبلَ الناسُ على المسجدِ أفواجا، وكانوا قد تَعَالَمُوا إِزْمَاعِي الرحيل عن بلدِهِم - وجاءَ (لِقَمَانِ الأُمَّة) في أشياعِهِ وأصحابِهِ، وجاءَ أبو إسحاقَ المُفتي في جماعتِهِ؛ واستقرَّ بِيَ المجلسِ فنَفَذَتْ الناسُ بنظري، فكانتُهُم من كثرتِهِم نَبَاتٌ غَطَى الأرض، فأذكرني هذا شيخنا السريُّ بِنُ مُغَلِّسِ السَّقَطِي^(٢)، وكان قد لَزِمَ دَاوَةَ في بغدادَ لا يخرجُ منها ولا يراهُ إلا من قَصَدَ إليه، وهمنَّتُ أن أجعلَ الموعظةَ في شرحِ كلمتِهِ المشهورة: «لا تَصِحُّ المحبةُ بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا». وما نقلوا عنه من أَنَّهُ قال مرةً

(١) يريد أنه في هذا الدنيا (عملية حسابية...) وفي أيام ضعفه الدين يكون الفقه استخراج الدراهم من النصوص...

(٢) السقط: رديء المتاع (روبايكيا)، وبانعه السقطي. وهذا الإمام العظيم كان أوحدهم أهل زمانه في الورع، وله كلام إلهي مشرق، وقد توفي عن سن عالية في سنة ٢٥٣هـ.

ليعض أصحابه: منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قلبي: (الحمد لله). فقال صاحبه: وكيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل فقال: نجا حانوتك. فقلت: الحمد لله فانا نادى من ذلك الوقت على ما قلت؛ إذ أردت نفسي خيراً من الناس!

قال ابن مسكين: ولكني أحييت أن أكلتم المفتي ومال المفتي؛ فحدثتهم حديث معرفتي بالسري: أني سمعت يوماً (غيلان الخياط) يقول: إن السري كان اشترى كُرْلُوز^(١) بستين ديناراً، وأثبت في رزنامجه^(٢) وكتب أمامه: ربعة ثلاثة دنانير^(٣)؛ فلم يلبث أن غلا السعر فبلغ تسعين ديناراً؛ فأناه الدلال الذي كان اشترى له فقال: أريد ذلك اللوز. قال الشيخ: خذه. قال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين ديناراً. وكان الدلال رجلاً صالحاً، فقال للشيخ: إن اللوز قد صار الكُرْ بتسعين. قال السري: ولكني عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله، فليست أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً. فقال الدلال: وأنا قد عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله، ألا أغش مسلماً، فليست أشتري منك إلا بتسعين؛ فلا الدلال اشترى منه، ولا السري باعه...!

قال أحمد بن مسكين: فلما سمعت ذلك لم تكن لي همة إلا أن ألقى الشيخ وأصحبته وأخذ عنه، فلم أعرج على شيء حتى كنت في المسجد الذي يصلي فيه، فأجدته في خلقتيه وعنده بمن كنت أعرفهم: عبد الله بن أحمد بن حنبل، وإدريس الحداد، وعلي بن سعيد الرازي، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نضرة روجه، وكأنما يمدّه بالنور عرق من السماء، فهو يتلأل للعين؛ ولا يملك الناظر إليه إلا أن يحس في ذات نفسه أنه الأدنى، من رؤيته في ذات نفسه أن هذا هو الإنسان الأعلى.

ورأيت على وجهه آلاماً تمسحه مسحاً الأشواق لا مسح الآلام، آثار ما يجده في روجه القوّة، لا كالآلام الناس التي هي آثار الجرمان في أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوههم إلا مسح الغم والكآبة.

وما يخطئ النظر في تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى، فإن الأولى تتندى على روح الناظر بمثل الطل إذا

(١) الكر (بضم الكاف): مكياك عظيم يقدر به في الحساب، وهو أربعون إردباً مصرياً.

(٢) أي دفتر حسابه.

(٣) خمسة في المائة.

قَطَرُهُ الفجر، والأخرى تَنْتَوِّرُ في روجه كما تَهيجُ الغَبْرَةُ إذا ضربَتِ الرِّيحُ الأرضَ .

كان الشيخُ في وجودٍ فوق وجودنا؛ فلا تتلوَّنُ له الأشياءُ ولا تعدو عندهُ ما هي في نفسها، ولا يحملُ الشيءُ له إلَّا معناه من حيثَ يَصْلُحُ أو لا يَصْلُحُ، ومن حيثَ ينبغي أو لا ينبغي . فإنَّما تتلوَّنُ الأشياءُ عند ما يضعُ الشيطانُ عينَهُ في عينِ الناظرِ إليها؛ وإنَّما تزيدُ وتنقصُ في القلبِ عندما يكون رُوحُ الشيطانِ في القلبِ؛ وإنَّما يشتَبُه ما ينبغي وما لا ينبغي عند ما يأتي الشيءُ من جهتين: جهته من طبيعته هو، وجهته من طبيعتنا نحن . وبهذا قد يجمعُ الإنسانُ المالَ ثُمَّ لا يجدُ في المالِ معنى الغنى، وقد تتَفَقَّ أسبابُ النعيمِ ولا يكون منها إلَّا الدُّلُّ . وكم من إنسانٍ يجدُ وكأنَّه لم يجدْ إلَّا عكسَ ما كان ينبغي، وآخرَ لم يجدْ شيئاً ووجدَ بذلك راحته .

* * *

قال ابنُ مسكين: وما كان أشدَّ عجبِي حينَ تكَلَّمُ الشيخُ، فقد أخذَ يُجيبُ عَمَّا في نفسي ولم أسأله، كأنَّ الذي في فكري قد انتقل إليه؛ فروى الحديث: «إذا عَظَّمْتَ أمتي الدينارَ والدرهمَ، نُزِعَ منها هبةُ الإسلامِ»؛ وإذا تركوا الأمرَ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، حُرِّموا بركةُ الوحي». ثُمَّ قال في تأويله:

إِنَّ مَلَكَ الوحي ينزِلُ بالأمرِ والنهي لِيُخَضِّعَ صَوْلَةَ الأرضِ بِصَوْلَةِ السماءِ، فإذا بقي الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، بقي عملُ الوحي إلَّا أَنَّهُ في صورةِ العقلِ، وبقيت رُوحانيَّةُ الدنيا إلَّا أَنُّها في صورةِ النظامِ، وكان مَعَ كُلِّ خَطَأٍ تصحيحُه؛ فيُصْبِحُ الإنسانُ بذلك تنفيذاً للشريعة بين أمرٍ مُطاعٍ وأمورٍ مُطيع، فيتعاملُ الناسُ على حالةٍ تجعلُ بعضهم أستاذاً لبعض، وشيئاً منهم تعديلاً لشيء، وقوةً سنداً لِقُوَّة؛ فيقومُ العزمُ في وجهِ التهاونِ، والشدةُ في وجهِ التراخي، والقُدرةُ في وجهِ العجزِ؛ وبهذا يكونون شركاءَ متعاونين، وتعودُ صفاتُهُم الإنسانيةُ وكأنَّها جيشٌ عاملٌ يُناصِرُ بعضُهُ بعضاً، فتكونُ الحياةُ مفسَّرةً ما دامت معانيها الساميةُ تأمرُ أمرها وتلهمُ إلهامها، وما دامت ممثلةً في الواجبِ النافذِ على الكلِّ .

والناسُ أحرارٌ متى حكمتهم هذه المعاني، فليست حقيقةُ الحريةِ الإنسانيةِ إلَّا الخضوعُ للواجبِ الذي يحكم، وبذلك لا يغيرُه يَتَّصِلُ ما بين الملكِ والسُّوقِ، وما بين الأغنياءِ والفقراءِ، اتصالُ الرحمةِ في كُلِّ شيءٍ، واتصالُ القسوةِ في التأديبِ وحده . فبركةُ الوحي إنما هي جعلُ القُوَّةِ الإنسانيةِ عملاً شرعياً لا غير .

أما تعظيمُ الأمةِ لِلدُّنيا والدرهمِ، فهو استعبادُ المعاني الحيوانيةِ في الناسِ

بعضها لبعض، وتقطع ما بينهم من التشابك في لُحمة الإنسانية؛ وجعل الكبير فيهم كبيراً وإن صغرَتْ معانيه، والصغير فيهم صغيراً وإن كَبُرَ في المعاني؛ وبهذا تموج الحياة بعضها في بعض، ولا يستقيم الناس على رأي صحيح؛ إذ يكون الصحيح والفساد في ملك الإنسان لا في عمل الإنسان، فيكنزُ الغني مالاً ويكنزُ الفقيرُ عداوةً، كأن هذا قتل مال هذا، وكأن أعمالاً قتلت أعمالاً، وترجع الصفات الإنسانية متعادية، وتباع الفضائل وتشتري، ويزيد من يزيد ولكن في القسوة، وينقص من ينقص ولكن في الحرية، وتكون المنفعة الذاتية هي التي تأمر في الجميع وتنهى، ويدخل الكذب في كل شيء حتى في النظر إلى المال، فيرى كل إنسان كأنما دِزْهُمُهُ ودينارُهُ أكبر قيمة من دينار الآخر ودرهمه، فإذا أعطى نقص ففش، وإذا أخذ زاد فسرق؛ وتصبح النفوس نفوساً تجارية تُساوم قبل أن تنبعث لفضيلة، وتماكس إذا دُعيت لأداء حق، ويتعامل الناس في الشرف على أصول من المَعْدَةِ لا من الروح، فلا يُقال حينئذٍ، إنَّ رَغِيفين أكثر من رَغِيف واحد. كما هي طبيعة العدد، بل يُقال: إنَّ رَغِيفين أشرف من رَغِيف. كما هي طبيعة النفاق.

أما التجارة - وهي التفسيرُ الظاهرُ لمعاني النفوس - فتصبح بين الغش والضرر والمماكرة، وتكون نقطة التاجر من غفلة الشاري، وتفسد الإرادة فلا تحدث إلا آثارها الزائفة. وما التاجر في الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصديق والخُلُق في الموضع المتقلب، فكلمته كالرقم من العدد لا يحتمل أزيد ولا أنقص مما فيه، ويمتحن بالدنيا والدرهم أشد مما يمتحن العابد بصلاته وصيامه. وقد شهد رجلٌ عند عمر بن الخطاب في قضية، فقال له عمر: إئتني بمن يعرفك. فأتاه برجلٍ أثنى عليه خيراً، فقال له عمر: أنت جازء الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: فكنت رفيقاً في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به وزع الرجل؟ قال: لا.

قال عمر: أظنك رأيته قائماً في المسجد يُهَمِّمُ بالقرآن، يخفيض رأسه طوراً ويرفعه أخرى؟ قال: نعم.
قال: فاذهب فلست تعرفه!

ولأما التاجر صورة من ثقة الناس بعضهم ببعض، وإرادة الخير واعتقاد الصدق، وهو في كل ذلك مظهرٌ توضع اليد عليه كما تجلس اليد مرض المريض وصحته.

فإذا عَظُمَتِ الأُمَةُ الدِّينَارَ والدرهم، فإنَّما عَظُمَتِ النِّفاقَ والطَّمعَ والكذِبَ والعداوةَ والقسوةَ والاستعبادَ؛ وبهذا تُقَيَّمُ الدنانيرُ والدراهمُ حُدُوداً فاصلةً بين أهلِها، حتَّى لَتَكُونُ المسافَةُ بين غنيٍّ وفقيرٍ كالْمَسافَةِ بين بلدين قد تَباعَدَ ما بينهما. وإنَّما هِيبَةُ الإسلامِ في العِزَّةِ بالنفسِ لا بِالمالِ، وفي بذْلِ الحِياةِ لا في الجِرْصِ عليها، وفي أخلاقِ الرُّوحِ لا في أخلاقِ اليَدِ، وفي وَضْعِ حُدُودِ الفِضائلِ بين النَّاسِ لا في وَضْعِ حُدُودِ الدِّراهمِ، وفي إِزالةِ النِّقائِصِ مِنَ الطَّباعِ لا في إِقامَتِها، وفي تَعاوُنِ صِفاتِ المُؤمِنينَ لا في تَعادِيها، وفي اعتِبارِ الغِنى ما يُغْمَلُ بِالمالِ لا ما يُجْمَعُ مِنَ المالِ، وفي جَعْلِ أولِ الثَّروةِ العقلَ والإرادةَ، لا الذَّهَبَ والفضةَ . . . هذا هو الإسلامُ الَّذي غَلَبَ الأُممُ، لأنَّهُ قَبْلَ ذلكَ غَلَبَ النِّفَسَ والطَّبِيعَةَ.

دُعَابَةُ إِبْلِيسَ (*) (١)

أَمَّا أَنِّي سَاقِصُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ كَمَا اتَّفَقْتُ، لَا أَزِيدُهَا بِخَيَالٍ، وَلَا أَتَزِيدُ فِيهَا بِخَبِيرٍ، وَلَا أَوْلَدُ لَهَا مَعْنَى؛ فَإِنَّمَا هِيَ حِكَايَةُ خُبْنِ الْخَبِيثِ: فَتُحَادِثُهُ وَدَهَاؤُهُ، وَرَقَّتُهَا غِلْظَتُهُ وَشَرُّهُ، وَمَعَانِيهَا بِلَاؤُهُ وَمِخْتَهُ؛ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

لَمَّا فَكَّرْتُ فِي وَضْعِ مَقَالَةِ (إِبْلِيسَ) مِنْ أَحَادِيثِ (ابْنِ مَسْكِينٍ)، وَأَدْرْتُ رَأْيِي فِي نَهْجِهَا وَحُدُودِهَا وَمَعَانِيهَا، جَعَلْتُ فِكْرِي يَتَقَطَّعُ فِي ذَلِكَ، يَذْهَبُ وَيَجِيءُ كَأَنِّي بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَنَازِعَةٌ، أَوْ كَأَنِّي فِي نَفْسِي شَيْئاً يَنْتَنِي وَيَقْطَعُنِي عَنِ الْعَزْمِ؛ وَخَيْلٌ إِلَيَّ حَيْثُذُ أَنْ (إِبْلِيسَ) هَذَا مَنْفَعَةٌ مِنَ الْمَنَافِعِ... وَأَنَّهُ هُوَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ الَّذِي نَصُّ مَادَّتِهِ الْأُولَى: مَا أَعْجَبَكَ فَهُوَ لَكَ. وَنَصُّ مَادَّتِهِ الْأُخْرَى: مَا احْتَجَّتْ إِلَيْهِ فَتَمُّهُ أَنْ تَقْدَرَ عَلَى اخْذِهِ...

وَهَجَسَ فِي نَفْسِي هَاجَسٌ: أَنَّ (إِبْلِيسَ) قَانِمٌ فِي لَفْظِ الْحَرِيَّةِ كَمَا هُوَ قَانِمٌ فِي لَفْظِ الْإِثْمِ، وَأَنَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ الْفُسَّاقِ فَهُوَ أَيْضاً فِي أَدْمَغَةِ الْفَلَّاسِفَةِ وَإِنْ كَانَ فِي سَقُوطِ أَهْلِ الرَّذِيلَةِ إِلَى الرَّذِيلَةِ، فَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمَوِّ أَهْلِ الْفَنِّ إِلَى الْفَنِّ... قَالَ الْهَاجِسُ: وَإِنَّ (إِبْلِيسَ) أَيْضاً هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِّيِّ، فَهُوَ مِنْ ثَمَّ حَقِيقٌ أَنْ يَلْقَبُوهُ «صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ».

وَلَكِنِّي لَمْ أَحْفَلُ بِهَذِهِ الْوَسَاوِسِ وَلَمْ أُعْجِخْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا، وَاسْتَعْنْتُ اللَّهَ وَأَمْضَيْتُ نَيْتِي عَلَى الْكِتَابَةِ، وَأَخَذْتُ أَقْلَبُ الْمَوْضُوعَ، وَأَنْبَتْهُ فِكْرِي لَهُ، وَاسْتَشْرِفْتُ لِمَا يُوْذِي إِلَيْهِ النَّظَرُ، وَأَتَطَلَّعُ لِمَا يَجِيءُ بِهِ الْخَاطِرُ، وَالتَّمَسُّ مَا أَبْنِي عَلَيْهِ الْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادَتِي؛ فَلَمْ يَقَعْ لِي شَيْءٌ أَلْبَتَ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوَّلُ ابْتِدَاءِ الْمَوْضُوعِ فَلَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا سَبِيلَ إِلَى اقْتِحَامِهِ، وَكَأَنَّمَا مِنْ وَرَاءِ الْعِلْمِ فَلَا يُبْلَغُ إِلَيْهِ، وَكَأَنَّمَا مِنَ التَّعَدُّرِ كَمَحَاوَلَةِ تَصْوِيرِ حِمَاةِ الْحَيَاةِ كُلِّهَا فِي كَلِمَةٍ. وَإِبْلِيسُ كَلِمَةٌ فِيهَا حِمَاةُ الْحَيَاةِ كُلِّهَا.

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

(١) الدعابة: المزاح واللعب، وكل ما سيرد في هذه المقالة فهو صحيح لم نخترع منه شيئاً.

ومن عادتي في كتابة هذه الفصول التي تنشرها (الرسالة)^(١)، أن أدع الفصل منها تقلبهُ الخواطرُ في ذهني أيامَ الثلاثاءِ والأربعاءِ والخميسِ، وأترك أمرَهُ للقوة التي في نفسي، فتتولدُ المعاني من كلِّ ما أرى وما أقرأ، وتنبثقُ من ههنا وههنا، ويكون الكلامُ كأنه شيءٌ حيٌّ أريدُ له الوجودُ فوجدُ.

ثم أكتبُ نهارَ الجمعة، ومن ورائه ليلُ السبتِ وليلُ الأحدِ كالمددِ من وراءِ الجيشِ إذا نالتني فترةٌ أو كثتُ على سفرٍ أو قطعني عن الكتابة شيءٌ مما يَغْرِضُ.

وفي أسبوعِ إبليس (لعنه الله)، مرَّت الأيامُ الثلاثةُ وفيها ثلاثةُ ألوانٍ: ضَجَرٌ لا رَوْحَ فيه، وكَسَلٌ لا نشاطَ معه، واضطرابٌ لا مِسَاكَ له. وأطلتُ التفكيرَ يومَ الخميسِ، فكأنتُ تعتريني خواطرٌ مضحكةٌ: فيعرضُ لي مرةً أنْ أصوِّرَ إبليسَ امرأةً ليكونَ إبليسُ الجميلُ... وتارةً أتوهمُ أنْ إبليسُ يُريدُ أنْ يكونَ شيخاً كبعضِ رجالِ الدين الذين لا تزالُ تُطْلَعُ على خائنةٍ منهم، يُقالُ إبليسُ التقِيُّ المصلِّي... وجيناً أظنُّ أنه يُريدُ أنْ يكونَ كاتباً مؤلفاً شهيراً يُقالُ إبليسُ المفكِّرُ المصلِحُ... وخطرَ لي أخيراً أنه يُريدُ أنْ يكونَ حاكماً مُلجداً فاجراً، ليكونَ إبليسُ التامَ لا إبليسُ الناقصِ...



ولما ذهبتُ الأيامُ الثلاثةُ باطلاً، حُيِّلَ إليَّ أنْ إبليسُ (أخزاه الله) يسألني عن المقالة: إلى أي شيءٍ انقلبتُ...؟ فسقُ ذلك عليّ واغتممتُ به، غيرَ أنني اطمأننتُ إلى يومِ الجمعة وأنْ ورائه ليلتين. وكأنتُ قد غرِبتُ شمسَ الخميسِ، فقلتُ: فلأخرجُ لأتفرَّجَ مما بي، وعسى أنْ أجمعَ نفسي للتفكيرِ إذا جلستُ في الندى، ولعلهُ يقعُ ما أستوحيه أو يفتحُ لي بابٌ في القراءة.

وخرجتُ، فلم أجاوزِ الدارَ حتى ابتدرني مَنْ هَبَطَ عليه الخبرُ من القاهرة أنْ نسيباً لنا من العظماءِ توفي أخوه اليوم. فقلتُ: لا حول ولا قوةَ إلا بالله؛ ضاعَ يومُ الجمعة. إذ لا بدَّ من السفرِ لتشييعِ الجنازةِ وحضورِ المأتمِّ ثم قلتُ: لعلَّ في هذا السفرِ استجماماً ونشاطاً فاستدركَ الأسبوعُ كلُّهُ في يومين، وإنما الاستكثارُ بالقوة لا بالزمن، ولا يدُ لإبليس في الموتِ والحياة، فليس إلا أطراحهُ وقلةُ المبالاة به، وإنما هي حَطَرَاتُ من وساوِيه.

وأصبحتُ في القاهرة، ومشيئتُ في الجنازة قبل الظهرِ مَسِيرَةً ساعةً كاملةً؛

(١) مجلة الرسالة، وكل مقالات هذا الجزء والجزء الأول كتبت لها ونشرت فيها، إلا فصلاً قليلاً.

وكانت الشمس ساطعةً تتلألأ، وأنا مُثَقِّلٌ بشبابِ الشتاءِ وكنتُ أتوقَّعُ أن يكونَ اليومُ من أيامِ الريحِ المجنونة، فلما انتهينا إلى الصحراء، هبَّتِ الريحُ هبوباً ليئناً، ثُمَّ زَفَّتْ فكانتُ إلى الشدَّةِ ما هي: ولكنها ماضيةٌ تُسْفِي الرملَ في الأعينِ فيأخذُ في أجفاني أكالاً وتُهَيِّجُ، وليس معي شيءٌ أنقيها به؛ غيرَ أنِّي شغلْتُ، فكري برؤيةِ المقابرِ، وجعلتها في نفسي كالمقالةِ المكتوبةِ سَطراً وراءَ سطرٍ؛ وقلتُ: ههنا الحقيقةُ في أولِ تفسيرِها، وغيرُ المفهومِ في الحياةِ يُفهمُ هنا.

ثُمَّ رجعتُ مُتَذَيِّ الجسمِ بالعرقِ وعلَيَّ نَضَجُ منه، وكان القميصُ من الصوفِ، ويصدرني أثرٌ من التزلةِ الشُعْبِيَّةِ، وإذا تَذَيَّ الصوفُ وجبَ نزَعُهُ وإلا فهي العِلَّةُ ما منها بُدُّ.

ثُمَّ لم تكنُ إلا ساعةً حتى انخرَقَتِ الريحُ وجعلتُ تَغْصِفُ وَبَرَدَ الجوُّ، فأيقنْتُ أنه الزكَّامُ، وقلتُ في نفسي: هذا بابٌ على جِدَّةٍ، والمقالةُ ذاهبةٌ لا محالة، فسيَتَخَلَّفُ الذهنُ ويتبدَّلُ؛ والشيطانُ كريماً في الشرِّ يُعطي من غير أن يُسال... .

وَتَقُلْ ذلكَ عَلَيَّ فكان الغمُّ به عِلَّةً جديدةً، بيدَ أنِّي لم أزلُ أرجو الفرصةَ في أحدِ اليومين: السبتِ والأحد. وقلتُ: إنَّ من البلاءِ الفكرَ في البلاءِ، ولعلَّ من السلامةِ الثِّقَّةَ بِالسلامةِ؛ فإذا نَبَهُتُ العزيمةَ رجوتُ أن يتغلغلَ أثرُها في البدنِ كله فيكونَ علاجاً في الدمِ يَحْدُثُ به النشاطُ ويُرَفِّقُ منه الطبعُ وتجمُّ عليه النفسُ. وفي قوةِ العَصَبِ كهربائيةٌ لها عملُها في الجسمِ إذا أحسنَ المرءُ بعَثَها في نفسه وأحكمَ إفاضتها وتصريفها على طريقةٍ رياضيةٍ؛ ولهيِّ الدواءُ حينَ يَعْجُزُ الدواءُ، وهيَّ القوَّةُ حينَ تُخْذَلُ القوَّةُ.

فاعتزلتُ وصممتُ، واحتللتُ على الإرادة، وتكثرتُ من أسبابِ الثقة وترصدتُ لها السوانحَ العقليةَ التي تُسَخِّجُ في النفسِ، وقلتُ لإِبْلِيسَ: إجهِدْ جُهدَكَ، فما تذهبُ مذهباً إلا كان لي مذهبٌ. ولكنَّ اللعينَ أخطَرَ في ذهني قولَ القائلِ يسخرُ فيه من ذلكَ الكاتبِ البغدادي^(١).

لو قيل: كم خمسٌ وخمسٌ؟ لا غَتَدِي يوماً وليلتهُ يَعدُّ وَيَحْصِبُ
ويقول: مُغْضِلَةٌ عجيبٌ أمرُها ولينٌ فهمتُ لها، لأمرِي أَحْجَبُ

(١) قيل هذا الشعر في وصف مروان الكاتب، وهو رجل من بغداد، وكان كاتباً على الخراج فسخر منه الشاعر بهذا الأسلوب البديع.

خَمْسَ وخَمْسَ سِتَّةً، أو سَبْعَةً قولان قالهما الخليلُ وتعلبُ

ثُمَّ أَجْمَعْتُ الرِّجُوعَ مِنْ يَوْمِي إِلَى (طَنْطَا)، لِأَتَقِيَّ الْبَرْدَ بِعِلَاجِهِ إِنْ نَالَنِي أَثَرُهُ، وَكَانَ عَلَيَّ وَقْتُ إِلَى أَنْ يَقُومَ الْقَطَارُ، فَذَهَبْتُ فَقَضَيْتُ وَاجِبًا مِنْ زِيَارَةِ بَعْضِ الْأَقَارِبِ فِي ضَاحِيَةِ (الْجِيزَةِ)، ثُمَّ رَكِبْتُ التَّرَامَ الَّذِي أَعْلَمُ أَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى مَحْطَةِ سَكَّةِ الْحَدِيدِ.

وَجَلَسْتُ أَفَكِّرُ فِي إِبْلِيسَ وَمَقَالَتِهِ، وَالتَّرَامُ يَنْبِيعُ فِي طَرِيقِهِ نَحْوَ ثَلَاثِ السَّاعَةِ، حَتَّى يَبْلُغَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْعَرُجُ مِنْهُ إِلَى الْمَحْطَةِ، وَهُوَ بِحِيَالِ (جَمْعِيَةِ الْإِسْعَافِ)، حَيْثُ تَنْشَعِبُ طَرَفٌ أُخْرَى؛ وَكُنْتُ مَنْصَرَفًا إِلَى التَّفَكُّيرِ مُسْتَعْرِفًا فِيهِ، طَائِفَ النَّظَرَاتِ عَلَى الْجَوِّ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا اخْتِلَافُ مَنْظَرِ الطَّرِيقِ؛ وَأَنْتَبَهُ، فَإِذَا التَّرَامُ يَمْرُقُ مَرُوقَ السَّهْمِ فِي تِلْكَ السَّبِيلِ الصَّاعِدَةِ إِلَى (الْجِيزَةِ)... مِنْ حَيْثُ جِئْتُ.

فَلَعُثْتُ الشَّيْطَانُ وَتَلَبَّثْتُ حَتَّى وَقَفَ هَذَا التَّرَامُ، فَغَادَزْتُهُ وَرَجَعْتُ مُهْزُولًا إِلَى ذَلِكَ الْمَنْشَعَبِ، فَصَادَفْتُ تَرَامًا آخَرَ، فَوُثِّتُ إِلَيْهِ كَأَنِّي أُحْمَلُ إِلَيْهِ حَمَلًا، وَدَفَعْتُ الْأَجْرَةَ، وَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا هُوَ مُنْضَبٌّ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ عَيْنِهَا الذَّاهِبَةُ إِلَى الْجِيزَةِ مِنْ حَيْثُ جِئْتُ.... وَلَا أَسْتَطِيعُ الْانْحِدَازَ مِنْهُ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ، فَتَسَخَّطْتُ وَلَعُثْتُ الشَّيْطَانُ مَرَّةً أُخْرَى، وَرَأَيْتُ أَنْ عَبَثَهُ قَدْ تَرَادَفَ؛ فَلَمَّا سَكَنَ التَّرَامُ رَجَعْتُ مَهْرُولًا إِلَى ذَلِكَ الْمَنْشَعَبِ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْوَقْتِ غَيْرُ قَلِيلٍ.

وَأَنْظَرْتُ ثُمَّ، فَإِذَا تَرَامٌ وَرَاءَ تَرَامٍ، وَإِذَا قَدْ وَقَعَتْ حَادِثَةٌ لِإِحْدَى السَّيَّارَاتِ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ وَسُدَّتِ الطَّرِيقَ... فَجَعَلْتُ أَغْلِي مِنَ الْغَيْظِ، وَلَعُثْتُ هَذَا الدَّعَابَةَ الْخَبِيثَ. وَأَذْكُرُنِي اللَّعِينُ نَادِرَةُ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي عَضُّهُ ثَعْلَبٌ، فَأَتَى رَاقِيًا، فَقَالَ لَهُ الرَّاقِي: مَا عَضُّكَ؟ فَاسْتَحَى أَنْ يَقُولَ ثَعْلَبٌ، وَقَالَ: كَلْبٌ. فَلَمَّا ابْتَدَأَ الرَّجُلُ بِرُقِيَّةِ الْكَلْبِ، قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ: وَاخْطِطْ بِهَا شَيْئًا مِنْ رُقِيَّةِ الثَّعْلَابِ...

ثُمَّ إِنِّي لَمْ أَرِ بُدًّا مِنْ بُلُوغِ الْمَحْطَةِ عَلَى قَدَمِي لِأَيِّمٍ عَلَى عَزِيمَتِي فِي مُرَاغَمَةِ اللَّعِينِ، فَاسْرَعْتُ أَطْوَى الْأَرْضِ وَكَأَنَّمَا أَخَوْضُ فِي أَحْشَانِهِ وَكَانَ بِصَدْرِي التَّهَابُ فَهَاجَ بِي، غَيْرَ أَنِّي تَجَلَّدْتُ وَاتَّسَعْتُ لِاحْتِمَالِهِ وَبَلَّغْتُ حَيْثُ أَرَدْتُ. ثُمَّ ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُ فِي الْقَطَارِ عَرَبَةً خَاصَّةً أَعْرِفُهَا، كَانَتْ مِنْ عَرَبَاتِ الدَّرَجَةِ الْأُولَى فَجَعَلُوهَا فِي الثَّانِيَةِ يَرْفَهُونَ بِهَا بَعْضَ التَّرْفِيهِ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمَسَافِرِينَ؛ وَأَصْبَحْتُ فِيهَا مَكَانًا خَالِيًا كَأَنَّمَا كَانَ مَهِيًّا لِي بِخَاصَّةٍ... فَانْحَطَطْتُ فِيهِ إِلَى جَانِبِ رَجُلٍ أَوْرُوبِيِّ أَحْسَبُهُ

المانيا لَتَقَاوَرَتْ خَلْقُهُ وَعُنْجُهِتِهِ؛ وجلسْتُ أَنْفُسَ عن صدري، ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَسْحَرَ من إبليس وبِكَائِيته، وجعلْتُ أتعَجَّبُ مِمَّا اتَّفَقَ من هذا التدبير.

وتحرَّكَ القِطَارُ وانبعث، وكان الأوروبيُّ إلى جانبي مِمَّا يَلِي النافذة وقد تركها مفتوحة، فأحسنتُ الهواءَ ينصبُّ منها كالماء البارد وأنا مُتَنَدُّ بالعرق؛ وترقبتُ أَنْ يُغْلِقَهَا الرجلُ فلم يفعل، فصَابِرَتُهُ قَلِيلاً فإذا هو ساكنٌ مطمئنٌ يَتَرَوَّحُ بالهواءِ وكأَنَّمَا يَشْرَبُهُ، وتأمَلْتُه فإذا شيخٌ في حدودِ الستينِ أو فوقها، غيرُ أَنَّهُ على بَقِيَّةٍ من قوةِ مصارعٍ في اكتنازِ عَضْلِهِ واجتماعِ قُوَّتِهِ وثَنَاقَةِ تَرْكِيبِهِ، فأيقنْتُ أَنَّ الهواءَ من حاجتِهِ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَتَبَهَّهُ أو أَقْوِمَ أَنَا فَأَغْلِقَ النافذة، ولو شئتُ أَنْ أفعلَ ذلكَ فعلتُ، غيرَ أَنَّ الشيطانَ (أخزاه الله) وسَّوَسَ لي: أَنَّ هذا رجلٌ أجنبيٌّ غَرِيبٌ، وَأَنْتَ مصريٌّ شرقيٌّ، فلا يَحْسُنُ بك أَنْ تُعَلِّمَهُ وتُعَلِّمَ الحاضرينَ أمامكما أَنَّكَ أَنْتَ الأضعفُ على حينِ أَنَّهُ هوَ الأسنُّ، وكيف لا تقومُ لِمَا يقومُ له وقد كُنْتَ تُبَاكِرُ الماءَ الباردَ في صميمِ الشتاء، وكُنْتَ لا تلبسُ في أشدِّ أيامِ البردِ غيرَ ثيابِ الصيف، وكُنْتَ تحملُ كَذَا وكَذَا ثِفْلاً لِلرياضة، وتُعاني كَذَا وكَذَا من ضروبِ القوة، وكُنْتَ تلوي بيديك عودَ الحديد، وكُنْتَ وكُنْتَ

فندمْتُ - والله - مِمَّا خَطَرَ لي؛ وَأَيْفْتُ أَنَّ أَنَبَّ الرجلِ، ورَأَيْتُ عملي هذا ضعفاً وفُسولةً، ولم أعبأَ بالهواءِ ولا بالعرقِ ولا بالنزلةِ الشعبية ولا بالزكام، وتركتُ الأوروبيَّ وشأنه، وأقبلْتُ على كتابٍ كَانَ في يدي، وتناسيتُ أَنَّ هذه النافذةَ جهةٌ من تدبيرِ إبليس؛ وكان القِطَارُ مزدجماً بالراجعينَ مِنَ المعرضِ الزراعيِّ الصناعي، وبعضُ الناسِ وقوفٌ فلا مطعم في مكانٍ آخر . . .

ولبثْتُ ساعةً ونصفَ ساعةٍ في تَيَّارٍ من هواءٍ (فبرابر) ينصبُّ انصباباً، وَيُغْصِفُ عَضْفاً، وكأَنِّي أسْبَحُ منه في نهرٍ تحتَ ظلمةِ الليلِ الماطر، والناسُ معجَبُونَ بي وبالأوروبيِّ، وهذا الأوروبيُّ معجَبٌ بي أكثرَ منهم، وقد رأى مكاني وعرفَ موضعي؛ وكان إلى يميني مجلسٌ بقي خالياً ولم يُقَدِّمَ أَحَدٌ على أَنْ يجلسَ فيه خوفاً من الهواءِ ومن الرجلِ الأوروبيِّ . . .

ثُمَّ تراءيتُ أنوارَ محطة (طنطا)، ولم يبقَ من هذه المحنةِ غيرُ دقيقتين؛ فوالله الذي لا يُخْلَفُ بغيرِ اسمه - عزَّ وجلَّ -، لقد كان إبليسُ رقيقاً جَلْفاً بارداً ثَقِيلَ المَزَاح؛ إذْ لم أَكْذُ أَنهيا لِلقيام، حتى رأيتُ الرجلَ الأوروبيَّ قد مَدَّ يَدَهُ فَأَغْلَقَ النافذةَ . . .



ورجعتُ إلى داري وأنا أقول: ثُمَّ ماذا يا إبليس؛ ثُمَّ ماذا أيُّها الدُّغْبُ^(١) وحاولتُ بجهدِي أنْ أَكْتُبَ أو أَقْرَأ فلم أَتَحَرَّكْ لِشيءٍ من ذلك، وكانتِ السَّاعَةُ العاشرةُ ليلاً، فَصَلَّيْتُ وأَوَيْتُ إلى مضجعي.

ثُمَّ أَصْبَحْتُ يَوْمَ السَّبْتِ، فإذا كُتَابٌ مِنَ الأَسَاتِذِ صَاحِبِ (الرسالة): أَنَّهُ سَيَطْبَعُ عِدَدِينَ مَعَاً فَيُرِيدُ لهُمَا مَقَالَتَيْنِ، إِذْ تُغْلَقُ المِطْبَعَةُ فِي أَيَّامِ عِيدِ الأَضْحَى. وَكَانَ أَمَلِي فِي المَقَالَةِ الوَاحِدَةِ مَخْذُولاً مِمَّا قَاسَيْتُ، فَكَيْفَ لِي بِاثْنَتَيْنِ؟

وَاخْتَلَطَ فِي نَفْسِي هُمٌّ بِهِمْ، وَمَا يُفْسِدُ عَلَيَّ أَمْرِي شَيْءٌ مِثْلُ الضَّيْقِ، فَإِذَا تَضَافَتْ كُتُبٌ غَيْرٌ مِنْ كُنْتُ؛ وَلَكِنِّي تَقَطَّطْتُ وَتَنَبَّهْتُ وَأُمِلْتُ العَافِيَةَ مِمَّا أَجَدُّهُ مِنْ ثِقَلَةِ البَرْدِ وَضَعْفَتِهِ، وَأَحْدَثْتُ طَمَعاً فِي النِّشَاطِ إِذَا جَلَسْتُ لِلْكِتَابَةِ فِي اللَّيْلِ، فَإِنِّي بِالنَّهَارِ أَعْمَلُ لِلْحُكُومَةِ.

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ لَمْ أَجِدْ أَمْرِي عَلَى مَا أَحَبُّ، وَجَلَسْتُ مُتَفَتِّراً مُغْتَلَّاً، وَثَقُلَ رَأْسِي مِنْ ضَرْبَةِ النَّافِذَةِ، وَتَسَلَّطَ عَلَيَّ ظَنُّ المَرَضِ والعَجْزِ عَنِ الكِتَابَةِ، وَانْتَقَضَ الأَمْرُ كُلُّهُ فَرَأَيْتُنِي أَشْغُو عَلَى نَفْسِي بِلا طَائِلٍ، فَكَأَنَّ مِنْ صَوَابِ التَّدْبِيرِ عِنْدِي أَنْ أُسْتَجِمَّ بِالنَّوْمِ ثُمَّ أَنَهَضُ فِي السَّحْرِ لِلْكِتَابَةِ؛ فَأَوْصَيْتُ مِنْ يَوْقَظُنِي؛ وَحَرَّرْنَا السَّاعَةَ المُنْبَهَةَ عَلَى تَعَامِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ.

وَأَحْسَنْتُ أَنِّي جَائِعٌ، وَأَنْ مَعْدَتِي مَشْحُودَةٌ، وَنَسِيتُ كُلَّ مَا أَعْرِفُ مِنَ الطَّبِّ؛ وَجَاؤُونِي بِشَوَاءٍ وَخَلَوَى وَمَا بَيْنَهُمَا، فَحَطَّطْتُ فِيهِ وَلَفَعْتُ الآخِرَ بِالأَوَّلِ، ثُمَّ قَمْتُ أَرِيدُ النَّوْمَ، فَإِذَا الطَّعَامُ كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَافِذَةِ القِطَارِ، وَكَانَ الَّذِي فِي الفِكْرِ مِنَ المَقَالَةِ أَثْقَلَ مِنَ الَّذِي فِي المَعْدَةِ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَاءَ الهَضْمُ فِي الدِّمَاغِ وَالبَطْنِ جَمِيعاً!

وَجَعَلْتُ أَتَنَاوَمُ وَأَرْخِي أَعْضَائِي وَأَتَوَهَّمُ الكَرَى وَأَسْتَذْنِيهِ بِكُلِّ مَا أَعْرِفُ مِنْ وَسِيلَةٍ، ثُمَّ لَا أَزْدَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَزْقاً، وَتَمَرَّدَ الفِكْرُ، وَأَحْسَنْتُ رَأْسِي يَكَادُ يَنْفَجِرُ، وَصِرْتُ أَتَمَلَّعُ وَلَا أَتَقَارُّ، وَتَوَهَّمْتُ أَنْ لَوْ كَانَ لِي عَقْلَانِ مَا اسْتَطَعْتُ كِتَابَةَ المَقَالَةِ عَنِ إبْلِيسَ - لَعْنَةُ اللَّهِ -؛ وَأَذْكُرُنِي الخَبِيثَ نَادِراً مُضْحَكَةً: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَرْكَبُ حِمَاراً ضَعِيفاً، وَكَانَ يَبْعَثُهُ فَلَا يَنْبَعثُ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ، فَقِيلَ لَهُ: ارْفُقْ بِهِ. فَقَالَ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ يَمْشِي فَلَيْمَ صَارَ حِمَاراً...؟

(١) الدُّغْبُ والمداعب والدعابة (بتشديد العين): كلها بمعنى .

وقد فُتُّ بنفسي من الفراش ونظرتُ في الساعة، فإذا هي موشكةٌ أن تبلغَ الثانيةَ ولم أجلسَ الرقادَ بعد، فأسرعتُ إلى المنبهةِ وحرَّرتها على تمام الساعة الرابعة صباحاً، وأيقنتُ أنَّ الشيطانَ يرهقُني طغياناً وكيداً، فطَفِقتُ العنهُ، وما أحسبه إلا قد رأى اللعنَ مذحاً فهو يستزيذني . . .

ثم رجعتُ أحاولُ النومَ، فما كان هذا الليلُ إلا شيئاً واحداً أولُهُ آخرُهُ إلى أن طلعَ الفجرُ.

وجاء يومُ الأحدِ وهو يومُ عطلةِ الأوروثيين، فما أشدُّ عجبِي إذ تركني فيه إبليسُ كأنهم لا يدعونَ له وقتاً في هذا اليوم . . .

والآنَ يُزِينُ لي الخبيثُ أن أختتمَ هذه المقالةَ بـ بـ ولكن لا . لا .

الشیطان...(*)

قال الشیخ أبو الحسن بن الدقاق: كان شیخي أبو عبد الله محمد الأزهری العجمي (رضي الله عنه) رجلاً صاحبَ آيات وخوارقٍ مِمَّا فوقَ العقل، كأنما هو سیرٌ من الأسرارِ الجارية في هذا الكون، قد بلغَ بنفسه رتبةَ النجم في أفقه البعيد؛ ففيه أهواء الإنسان وشهواته وطباعه، إلا أنها كنوز النجم في تالقه ولآلئه من إشراق روجه وصفائها؛ وقد ارتفعَ بآدميته فوقَ نفسه؛ فأصبحَ في الناسِ ومعه سماؤه، يجعلها بين قلبه وبين الدنيا.

والرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كان حياً كالحيَّة ساعة احتضاره: ينظرُ إلى كلِّ ما في الحياة نظرةً مَنْ يتركُ لا من يأخذ، ومَنْ يعتبرُ لا مَنْ يَغْتَرُّ، ومن يَلْفِظُ لا من يتذوق، ومَنْ يُدركُ السرَّ لا مَنْ يتعلَّقُ بالظاهر؛ ويرى الشهوات كأنها من لغةٍ لا يعرفها، فهي ألفاظٌ فيها معاني أهلها لا معانيه، وإنما تلبسُ كلماتنا معانيها من أنفسنا. وفي النفوس مثلُ الهشيم: إذا وَقَعَتْ فيه المعاني المشتعلة استطارَ حريقاً وتضرَّع، وفيها على المجاهدة مثلُ الماء؛ فإذا خالطته تلك المعاني انطفأت به وخمدت.

وقد سألتُ الشیخ مرة: كيف تحدثُ الكرامات والخوارق للإنسان؟ فقال: يا ولدي إنَّ الإنسانَ من الناسِ المحجوبين يتصرَّف في جسمه ولا يكاد يملكُ لروحانيته شيئاً، فإذا أبلَى في المجاهدة ووقَّع في قلبه النور، تصرَّف في روحانيته ولا يكاد يملكُ لجسمه شيئاً، فَمَنْ أطلق أن ينسلخَ من بشريته، واتسعت ذاته في معاني السماء بمقدار ما ضاقت من معاني الأرض، وكان مُعدّاً لأن يتحقَّق في روحانيته، مُعاناً على ذلك بطبيعة فوق الاعتدال - فقد شاعَ في الكون، وأصابَ له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التي تهديهم في العالم وتبني، وتُفرِّق وتُجمع، وتنقلُ الصُّورَ بعضها إلى بعض؛ فإنَّ الكونَ كلُّه جوهرٌ واحدٌ هو النور، حتى الجبلُ هو نورٌ صخري، وحتى البحرُ هو نورٌ مائي، وحتى الحديدُ

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافي».

والذهب والتراب، كل ذلك نور^(١) صرّفته القدرة الإلهية تصريفها المعجز، فكان، على ما نرى: ظاهراً مخبئاً يلائم نقصنا وعجزنا، وحقيقة فائزة على غير ما نرى. ومن ذا يعقل أن الصخر نور متجمد إذا لم يكن له إلا عقل عينه وحواسه؟ ومن ذا يطيق أن يفهم بحوايه وعينه قول الله - تعالى -: ﴿وَرَى الْجِبَالُ تَحْسَبُهَا جَاوِدًا وَهِيَ كَمَرٌ مَرَّتِ السَّحَابُ مَنَوعًا لِّلَّذِي أُنْفِثَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]؟ فالجبال جامدة ثابتة، غير أنها تمر بأرضها وتوَجُّ في نفسها؛ ومتى تأذن الله أن ينكشف نور كلامه للعقل الإنساني، فستكون هذه الآية علماً جديداً في الأرض، يُثبت أن السحاب والجبل مادة واحدة وصنع واحد.

ويا لها سُخرية بالإنسان وجهله! فإِنَّه إذا كانت الحقيقة غير ما نرى، فكل شيء في الدنيا هو ردٌّ على النظر الإنساني، ويكاد الجبل العظيم يكون كلمة عظيمة تقول للإنسان: «كذبت!»

فالشأن في الخوارق والكرامات راجع إلى القدرة أن يسلط الإنسان الروحاني ما فيه من سرِّ النور على ما في بعض الأشياء من هذا السرِّ، وتلك هي طاعة بعض الكون لمن ينصرف عن المادة ويتصل بخالقها.

فإذا بقي في الرجل الروحاني شيء من أمر جسمه يقول: «أنا...» لم يكن في الرجل من تلك القدرة ذرة؛ فإن هو حاول أن يخرق العادة، أبقى الكون أن يعرفه إلا كما يعرف حجراً ملقى يُحاول أن يتصرف بالجبل الذي هو منه فينقله أو يُرحّضه أو يُزلزله.

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أخذ من حقوق هذه الـ «أنا...» في إنسانها، ولا شر على الأرض مطلقاً إلا وهو إضافة حقوق إليها: فحين لا يبقى لها حق في شيء عند نفسها، يجب لها الحق عندئذ على كل شيء. وهذه هي الكرامة؛ تَكْرِيمُ الخليفة من أكرمه الخالق.

فمن أراد أن تتصل نفسه بالله، فلا يكن في نفسه شيء من حظ نفسه، ولا يؤمن إيمان هؤلاء العامة: يكون إيمانهم بالله فكرة تُذكر وتُنسى، أما عملهم فهو إيمانهم الراسخ بالجسم وشهوته يُذكر ولا يُنسى.

وأنت ترى رجال الروح يأكلون ويشربون ويلبسون، ولكن هذا كله ليس فيه ذرة من أرواحهم، على خلاف غيرهم من الناس؛ فهؤلاء كلُّ أرواحهم في مطاعهم ومناعهم؛ ومن ثم لا يجري الشيطان من الأولين إلا في مجارٍ ضيقة

(١) كلمة (النور) هذه هي التي يعبر عنها اليوم بالكهرباء، وقد ثبت أن الكون كله هو هذه الكهرباء متجمدة على ما شاء الله أن تكون.

أشدُّ الضيقِ لا يكادُ ينفذُ منها إلى فكر أو شهوةٍ أو حلمٍ من أحلام الدنيا، أمَّا الآخرون فالشيطانُ فيهم هو تيارُ الدم، يَغُبُّ غُبابُهُ في الأسفلِ والأعلى .

قال أبو الحسن: وكنا يومئذٍ في دمشق، فنبهني كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأته عن كثيرين ممن رأوا الشيطانَ أو حاوروه أو صارَّعوه؛ فقلتُ للشيخ: إنَّ من حقِّكَ عليَّ أن أسألكَ حقِّي عليك، وما في نفسي أحبُّ إليَّ ولا أعجبُ من أنَّ أرى الشيطانَ وأكلَّمَهُ وأسمعه؛ وأنت قادرٌ أن تنقلني إليه كما نقلتني إلى ما دخلت بي عليه من عوالم الغيب .

قال الشيخ: وماذا يردُّ عليك أن ترى الشيطانَ وتكلَّمَهُ؟

قلتُ: سبحانَ الله! لا يجدي عليَّ شيئاً إلا أن أسخَّرَ منه .

قال الشيخ: فإني أخشى يا ولدي، أن يكونَ الشيطانُ هو الذي يُريدُ أن تراه

وتسمعه . . . !

قلتُ: فإني فأريدُ أن أسأله عن سرِّه، فيكونَ علماً لا سُخْرية .

قال: لو كَشَفَ لك عن سرِّه لَمَا كانَ شيطاناً، فإنَّما هو شيطانٌ بسرِّه لا بغيره .

قلتُ: فأريدُ أن أرى الشيطانَ لأكونَ قد رأيتُ الشيطانَ!

قال الشيخ: لا حول ولا قوةَ إلا بالله! لو كنتُ يا أبا الحسن بأربعِ أرجلٍ

لهربتُ من الشيطان بثلاثٍ منها وتركتُهُ يجرُّك من واحدة!

قلتُ: يا سيدي، فلو كنتُ حماراً لبطلَ عملُ الشيطان في أرجلي الأربعِ

كلِّها؛ إذ لا حاجةَ به إلى إغواءِ حمارٍ!

فتبسَّم الشيخُ وقال: ولا بدَّ أن ترى الشيطانَ وتكلَّمَهُ؟

قلتُ: لا بدَّ .

قال: إنَّه هو يقولها، فقم!

قال أبو الحسن: وكان الشيخُ إذا مشى إلى أمرٍ خارقٍ بقيتُ معه غائباً عن

الحس، كأنَّه يَبْطُلُ مِنِّي ما أنا به أنا، فأصبحُ ظلاً آدمياً معلقاً به . ولا تقعُ الخوارقُ

إلا لِمَن وجدَ القوةَ المُكَمَّلةَ لِرُوحه، وهذه القوةُ تُستمدُّ من الشيخِ الواصل، فلا بدَّ

من إمام يأخذ عن إمام، كأنَّها سلسلةٌ نفسيةٌ متميزةٌ في الأرض، فتغيَّرُ الواحدةُ منها

بِالواحدة، إذ تقعُ في جَوْها فتورقُ وتثمرُ؛ كالشجرة: جَوْ يَكسوها، وجَوْ يُذْبِلُها،

وجَوْ يسلبُها سلباً؛ وكذلك تفعلُ النفسُ إذا كان لها جَوْ .

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول، فرأيتنا وقد أشرقتا على بناء عظيم، ورأيت أقواماً يتلقون الشيخ ويسلمون عليه ويتبركون بمقدمه؟ فأنكرتهم نفسي ووجدت منهم وخشة، فالتفت إلي الشيخ وقال: هؤلاء من الجن، وما إليهم قصداً، فلا تشتغل بما ترى واشتغل بي.

ثم انتهي إلى البناء العظيم، فتستقبلنا طائفة أخرى، ويدخلون الشيخ وأنا خلفه، ويمرون بنا على دنيا مخبوءة تُعجز الوصف، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت؛ فيقولون: هذه كنوز سليمان وذخائره، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً، فرأينا ثم نعيماً وملكاً كبيراً، ثم انتهينا آخراً إلى مغارة خسيفة كأنها عرق من عروق جسم الأرض، يتفجر منها دوي كالرعد القاصف، إلا أنه في السمع كخوار الثور، إلا أنه نور خيل إلي أن رأسه في قدر جبل عظيم، يتعلق به غيب^(١) في قدر جبل آخر، على جسم يسد الخافقين، فخواره كأنه صراخ الأرض، وإذا أنا بأقبح مكان منظر، وأنته ريحاً، كأنه سجن بناؤه من الجيب.

قلت: ما هذا؟ قالوا: هذا سجن إبليس، وهو هنا في هذه المغارة منذ زمن سليمان - عليه السلام -.

قلت: أقمسجون هو؟

قالوا: وإنه مع ذلك موقرٌ بأمثال الجبال حديداً يربض به في مخبئه، فلا يترحز ولا يتحلحل.

قلت: وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فساداً، فكيف به لو كان طليقاً؟

قالوا: فلو أنه كان طليقاً لاستحوذ على الناس كافة؛ فيجتمع أهل الأرض على شهوة واحدة لا شيء غيرها، فيبطل مع هذه الشهوة الواحدة كل تدبير بينهم، فلا تقوم لهم سياسة، ولا يكون بينهم وازع؛ فيرجعون كالكلاب أصابها الكلب وهاج بها، فأنيابها في لحمها، لا يزال يعض بعضها بعضاً، فليس لجميعها إلا عمل واحد يسلمها إلى الهلاك، ويصبح ظهر الأرض أغرى من سرا أديم.

وإنما يصلح الناس باختلاف شهواتهم وتنافرها وتنازعها: فبعضها يحكم بعضاً، وشيء منها يزغ شيئاً، ومن تخلص من نزوة قمع بها نزوة أخرى؛ كالمتزوج المحصن: يحكم بالجلد والرجم على من ليست له امرأة فزنا؛ وكالغني الواجد: يحكم على اللص الذي لم يجد فسرَق، وهلم جرا.

(١) غيب الثور وغيبه: ما تننى من لحم ذقنه من أسفل.

وما ينشأ الناس في ثلاثة أعمار، فيشبون ويكتهلون ويهرمون، إلا ليتخلف
شهواتهم وتختلف مقادير الرغبة فيها، فتتحقق من ثم تلك الحكمة الإلهية في
التدبير ويجد الشرع محلّه بينهم، كما يجد العصيان بينهم محلّه.

ولو أن أمة كلها أطفال أو كهول أو شبوخ، لبادت في جيل واحد؛ وإنه ليس
أسمح من الرذيلة تكون وحدها في الأرض إلا الفضيلة تكون وحدها، فلا بد من
شيء يظهر به شيء غيره كالضد والضد؛ والمعرفة إذا انتصر كل من فيها كانت
هزلاً وكانت شيئاً غير المعرفة.

قال أبو الحسن: وقلت لهم: فإذا كان الشيطان سجيناً قد ربيحت به أثقاله،
حتى لهو في سجن من سجن مبالغه في كفه والتضييق عليه - فكيف يقين الناس في
أرجاء الأرض ويوسوس في قلوبهم، حتى لهو يد بين كل يدين، وحتى لهو العين
الثالثة لعيني كل إنسان؟

قالوا: إن في روجه النارية قوة تفصل منها وتنتشر في الأرض، كشعاع الشمس
من الشمس: هذه كرة نارية مئة معلقة على الأجسام مُرَصَّدة لها، وتلك كرة نارية حية
معلقة على النفوس مُرَصَّدة لها، وبهذه وتلك عمارة الدنيا وأهل الدنيا.

قلت: لعلكم أردتم أن تقولوا: خراب الدنيا وأهل الدنيا. فغلطتم، فكان
ينبغي أن يجيء بدل الغلط...

فقال أحدهم: يا أبا الحسن، خرق الثوب المسمار. جاز هنا لأمن اللبس أن
يكون المفعول به - وهو الثوب - مرفوعاً وفاعله - وهو المسمار - منصوباً، هل
جئت - ويحك - تطلب النحر أو تطلب الشيطان...؟

قال أبو الحسن: فقطعتني الجنى - والله - وأخجلني، ونظرت جلست إلى
الشيخ أراه كيف يسخر مني، فإذا الشيخ وقد املس فلا أراه، وإذا أنا وحدي بين
الجن وبإزاء هذا الساهر وضعت عينه في جبهته وشق فمه في قفاه...! فسري عني
وزال ما أجده، وقلت في نفسي: الآن أبلغ أربي من الشيطان ويكون الأمر على ما
أريد، فلا أجد من احتشيم ولا تقطعني هبة الشيخ...!

ووقع هذا خاطر في نفسي، فاستعذت بالله ولعنث الشيطان وقلت: هذا أول
عبي به وجعلته إياي من أهل الرياء، كأن لي شأناً في حضور الشيخ وشأناً في غيابه،
وكأنني منافق أعلى غير ما أميز، وقلت: إنا لله! كذت يا أبا الحسن تشيطان!

ثُمَّ هَمْتُ أَنْ أَنْكَصَ عَلَى عَقْبِي، فَقَدْ أَبْقَيْتُ أَنَّ الشَّيْخَ إِنَّمَا تَخْلَى عَنِّي لِأَكُونَ
هنا بنفسي لا به، وما أنا هنا إلا به لا بنفسي، فَيُوشِكُ إِذَا بَقِيتُ فِي مَوْضِعِي أَنْ
أَهْلِكَ! يَبْدُ أَنَّ الْمَغَارَةَ انْكَشَفَتْ لِي فَجَاءَتْ فَمَا مَلَكَتُ أَنْ أَنْظُرَ؛ وَنَظَرْتُ فَمَا مَلَكَتُ
أَنْ أَقِفَ، وَوَقَفْتُ أَرَى، فَإِذَا دَخَانٌ قَدْ هَاجَ فَارْتَفَعَ يَثُورُ ثَوْرَانَهُ حَتَّى تَمَلَأَ الْمَكَانَ
بِهِ، ثُمَّ رَقَّ وَلَطَفَ.

وَأَسْتَضْرَمْتُ مِنْهُ نَارَ عَظِيمَةٍ لَهَا وَهَجَانٌ شَدِيدٌ يَتَضَرَّمُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ،
وَيُسْمَعُ مِنْ صَوْتِهَا مَعْمَعَةٌ قَوِيَّةٌ، ثُمَّ خَمَدَتْ.

وَانْفَجَرَ فِي مَوْضِعِهَا كَالسُّدِّ الْمُنْبِثِ مِنْ مَاءٍ كَثِيفٍ أبيضَ أَصْفَرَ أَحْمَرَ، كَأَنَّهُ
صَدِيدٌ يَنْفُتِحُ فِي دَمٍ، ثُمَّ غَاضَ.

وَتَبَيَّنَتْ فِي مَكَانِهِ حِمَاةٌ مَنِينَةٌ جَعَلَتْ تَرَبُّو وَتَعْظُمُ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَبْتَلَعَنِي
وَأَذْهَبَ فِيهَا، فَسَمِيتُ اللَّهَ - تَعَالَى - فَغَارَتْ فِي الْأَرْضِ.

ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا كَلْبٌ أَسْوَدُ مُحَرَّمُ الْحَمَالِيقِ، هَائِلُ الْخَلْقَةِ مُسْتَأْسِدٌ، قَدْ وَقَفَ
عَلَى جِيْفَةٍ قَلْبَرَةٍ غَابَ فِيهَا خَطْمُهُ يُعْبُ بِمَا تَسِيلُ بِهِ.

فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْكَلْبُ، أَنْتَ الشَّيْطَانُ؟

وَأَنْظُرْ فَإِذَا هُوَ مَسْنَخٌ شَائِهٌ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ فِي بَهِيمَةٍ قَدِ امْتَزَجَا وَطَقَى مِنْهُمَا شَيْءٌ
عَلَى شَيْءٍ، وَأَمَّا وَجْهُهُ فَأَقْبَحُ شَيْءٍ مَنْظَرًا، تَحْسَبُهُ قَدْ لَبَسَ صُورَةَ أَعْمَالِهِ..

وَنَظَرَ فَقَالَ: أَنَا الشَّيْطَانُ!

قُلْتُ: فَمَا تِلْكَ الْجِيْفَةُ؟

قَالَ: تِلْكَ دُنْيَاكُمْ فِي شَهَوَاتِهَا، وَأَنَا أَلْتَقِمُ قَلْبَ الْفَاسِقِ أَوْ الْآثِمِ مِنْكُمْ، كَمَا
أَلْتَقِمُ دُودَةً مِنْ هَذِهِ الْجِيْفَةِ.

قُلْتُ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَعَلَى الْفَاسِقِينَ وَالْآثِمِينَ، فَكَيْفَ كُنْتَ دَخَانًا، ثُمَّ
انْقَلَبْتَ نَارًا، ثُمَّ رَجَعْتَ قَيْحًا، ثُمَّ صِرْتَ حِمَاةً، ثُمَّ كُنْتَ كَلْبًا عَلَى جِيْفَةٍ؟

قَالَ: لَا تَلْعَنُ الْفَاسِقِينَ وَالْآثِمِينَ؛ فَإِنَّهُمْ الْعُبَادُ الصَّالِحُونَ بِأَحَدِ الْمَعْنِيِّينَ،
وَأَنْتَ وَأَمْثَالُكَ عُبَادُ صَالِحُونَ بِالْمَعْنَى الْآخَرِ، أَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا حَيَاةٌ وَوَقَاحَةٌ؟
فَأَوْلَشَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ هَمٌّ وَقَاحَتِي أَنَا عَلَى اللَّهِ! أَنَا مِنْكُمْ فِي زَهْدِكُمْ جِرْمَانُ
الْحَرَمَانِ، وَفَقْرُ الْفَقْرِ، وَلَقَدْ أَهْلَكْتُمُونِي بُؤْسًا؛ غَيْرَ أَنِّي مَعَهُمْ لَذَّةُ اللَّذَّةِ، وَشَهْوَةُ
الشَّهْوَةِ، وَغِنَى الْغِنَى، لَا تَتَمُّ لَذَّةٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَا تَحُلُو لَذَائِقَهَا وَإِنْ كَانَتْ حَلَالًا،

إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنى من معاني أو وقاحةٍ من وقاحتي! حتى لأجعلَ الزوجةَ لزوجها مثل الشعرِ البالغ إذا استعارَ لها معنى مِنِّي، وكلُّ ما فسدتُ به المرأةَ فهو مجازي واستعاري لها أجعلُها به بليغة . . .

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلها تُجاهدون إنَّهم ساعةٍ واحدةٍ من حياة عبَّادي، فانظُر - رحمك الله - لئن كانت ساعةٌ من حياتهم هي جهنُّكم أنتم، فكيف تكونُ جهنُّ هؤلاء المساكين؟

إنَّك رأيَنتي دُخاناً لأتَّي كذلك أنبعثُ في القلبِ الإنساني، فمتى تحرَّكتُ فيه حركةُ الشرِّ كنتُ كالاحتِبالِ لإضرام النارِ بالنفخِ عليها؛ فمِنَ ثمَّ أكونُ دُخاناً، فإذا غفلَ عني صاحبُ القلبِ تضرَّمتُ في قلبه ناراً تطلبُ ما يُطفئُها؛ ثمَّ يُواقعُ الإنثَم والمعضيةَ ويقضي نَهْمَتَهُ فأبرُدُ عن قلبه، فيكون في قلبه مثلُ الحرقِ الذي برَدَ فتأكلُ موضَعُهُ فتقشِجُ، ثمَّ يختلطُ قِيعُ أعماله بمادتهِ الترابيةِ الأرضيةِ، فيقلبُ هذا المسكينُ حماةً إنسانيةً لا تزالُ تربو وتتفخُّ كما رأيَنت.

قلتُ: أعوذُ بالله منك! أفلا تعرفُ شيئاً يردُّك عن القلبِ وأنت دُخانٌ بَعْدُ؟
فَقَهقه اللعينُ وقال: ما أشدَّ غفلتك يا أبا الحسن، إذ تسألُ الشيطانَ أنْ يخترعَ التوبةَ! أما لو أنْ شيئاً يخترعُ التوبةَ في الأرضِ لاخترعَها القبرُ الذي يَدْفنُ فيه بعضُكم بعضاً كلَّ طرفةٍ عينٍ من الزمنِ، فتَنزلونَ فيه الميتَ المسكينَ قَدِ انقطعَ من كلِّ شيءٍ وتركونَهُ لِآثامِهِ، وَحِسابِ آثامِهِ، والهلاكِ الأبديِّ في آثامِهِ؛ ثمَّ تعودون أنتم لاقرَاف هذه الآثامَ بعينها!

قلتُ: عليك وعليك أيُّها اللعين؛ ولكنْ ألا يتبدَّدُ هذا الدُخانُ إذا ضربتهُ الريحُ أو انطفأ ما تحته!

قال: أوَّه! لقد أوجعتني كأنما ضربتني بحبلٍ من نارٍ، إنَّ نبيكم عَرَفَها ولكئكم أغبياء؛ تأخذون كلامَ نبيكم كأنما هو كلامٌ لا عَمَل، وكأنَّه كلامُ إنسانٍ في وقته لا كلامُ النبوةِ للدهرِ كلِّهِ وللحياةِ كلِّها؛ ولهذا غلبتُ أنا الأنبياءَ على الناسِ، فأُني أضعُ المعاني التي تعملُ، لا الحِكْمَةَ المتروكةَ لِمَنْ يعملُ بها ومَنْ لا يعملُ.

أتدري يا أبا الحسن، لماذا أعجزني أسلافُكم الأولونَ مثل: عُمَرُ وأبي بكر؟ حتى كان إسلامُهم من أكبرِ مصائبِي، فتركوني زمناً - وأنا الشيطانُ - أرتابُ في أنِّي أنا الشيطانُ . . . ؟

قلتُ: لماذا؟

قال: أراك الآن لم تَلْعَن، فلست قائلها إلا إذا تَرَحَّمْتَ عليّ.

قلت: عليك وعليك من لعنات الله! قلّ لِمَذا؟

قال: أسأئِلُ ويأمرُ؟ وطُفِّلِي ويُفْتِرح؟ لا بدّ أن تترحم!

قلت: يرحمنا الله منك! قلّ لِمَذا؟

قال: وهذه لعنة في لفظة رحمة؛ لا، إلا تترحم عليّ أنا إبليس الرجيم!

قلت: فيُعني الله عن عِلْمِك؛ لقد ألهمّنيها روحُ النبي ﷺ: إنَّ النبوة كانت هي بأعمالها وصفاتها تفسيراً للإلفاظِ على أسمى الوجوه وأكملها، فكان روحُ النبي ﷺ لتلك الأرواح كالأمِّ لأبنائها؛ وقد رأوه لا يغضبُ لِنَفْسِهِ ولا لحظِّ نَفْسِهِ، وذلك لا يستقيمُ إلا بالقصدِ في أمرِ النفس، وجعل ناحية الإسراف فيها إسرافاً في العملِ لِسعادة الناس. وكلّما ارتدَّ الإنسانُ لِنَفْسِهِ وحظوظها ارتدَّ إليك - أيها اللعين - وأقبل على شقاءِ نَفْسِهِ، وكلّما عمل لِسعادة غيره ابتعدَ عنك - أيها الرجيم - وأقبل على سعادة نَفْسِهِ، وترك الغضبِ وحظوظِ النفس هو الصبر؛ وصبرُ الأنبياءِ والصدّيقين ليس صبراً على شيءٍ بعينه في الحياة، بل هو الصبرُ على حوادثِ العمر كله، كصبرِ المسافرين إن كان عزيمةً مدّة الطريقِ كلّها، وإلا كان فساداً في القوّة ووقع به الجذلان.

فهذا الصبرُ المُعْتَزَمُ المصمّم، الذي يُوطُن به الرجلُ نَفْسَهُ أن يكون رجلاً إلى الآخر - هو تعبُ الدنيا، ولكنه هو رَوْحُ الجَنَّةِ مَعَ الإنسان في الدنيا. والمؤمنُ الصابرُ رجلٌ مُقَفَّلٌ عليه بأقفالِ الملائكة التي لا يَفْتَحُهَا الشيطانُ ولا تَفْتَحُهَا مصائبُ الدنيا؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «إنَّ المؤمنَ يُنْضِي شيطانه كما يُنْضِي أحدكم بغيره في سفره». كأنه يقول: لو لم يصبر المسافرُ دائماً معتزماً مدّة سفره كلّها لَمَّا أنضى بغيره، ولو لم يصبر المؤمن دائماً معتزماً مدّة حياته كلها لَمَّا أنضى شيطانه.

فصاح الشيطان: أوّه، أوّه! ولكن قلّ لي يا أبا الحسن: ما صَبِرَ رجلٌ مؤمن قوياً الإيمان، قد استطاع بقوة إيمانه أن يَبْقِيَ من سُكْرِ الغنى، فتخلّص من نزواتِ الشياطينِ الذهبيّة الصغيرة التي تسمونها الدنانير؛ وقد أرذته على أن يكذب، فرأى الإيمان أن يَضْدُق؛ وجَهِدَتْ به أن يغضب، فرأى الحكمة أن يَهْدأ؛ وحاولت منه أن يطمع، فرأى الراحة أن يَرْضَى؛ وسوّلت له أن يَحْسُد، فرأى الفضيلة ألا يَبالي؛ وأخذ لِنَفْسِهِ من كلّ شيءٍ في الحياة بما يثِقُ أَنَّهُ الإيمانُ والصبرُ والهدوءُ والرضا والقناعة؛ وأحاط نَفْسَهُ من هذه الأخلاقِ بِالسعادةِ القلبيّةِ واجتزأ بها؛ وقصّر نظره على الحقيقة؛ ووجد الجمال في نَفْسِهِ الطيّبة الصافية؛ وأجرى ما يُولِمُهُ وما يَسُرُّهُ

مَجْرَى واحداً؛ ونظرَ إلى العمرِ كُلِّه كَأَنَّهُ يَوْمٌ واحدٌ يَزُقُّبُ مغربَ شمسِهِ؛ وأخذَ من إرادَتِهِ قوَّةً أنسَتْهُ ما لم تُعْطِهِ الدنيا، فلمْ يَحْفَلْ بِمَا أُعْطِيَ الدنيا وما مَنَعَتْ؛ وعاشَ على فقرِهِ بِكُلِّ ذلك كما يعيشُ المؤمنُ في الجَنَّةِ: هذا في قصرٍ من لؤلؤةٍ أو ياقوتَةٍ أو زَبَرْجَدَةٍ، وذلك في قصرٍ من الحكمةِ أو من الإيمانِ أو من العقلِ.

قال الشيطان: فلما أعجزني صلاحاً ورضى وصبراً وقناعةً وإيماناً واحتساباً، وكان رجلاً عالماً فقيهاً - سَوَّلْتُ له أن يخرجَ إلى المسجدِ ليعِظَ الناسَ فينتفعوا به، ويُبَصِّرَهم بدينِهِم - ويتكلَّمُ في نصِّ كلامِ الله؛ فَعَقَّدَ المجلسَ ووَغِظَ، وانصرفوا وبقيَ وحده.

فجاءت امرأةٌ تسألُهُ عن بعض ما يحتاجُ إليه النساءُ في الدين من أمرٍ طبيعَتِهِنَّ؛ وكانت امرأةً جَزَلَةً غَضَّةً رَابِيَةً، يَهْتَزُّ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلُهَا، وتمشي قصيرةَ الخُطْوِ مُتَأَقِلَةً كالمُتَضَايِقَةِ من حَمَلِ أسرارِ جمالِها وأسرارِ بَدَنِها الجميلِ؛ فَبَغِضَ بِشِيئِهَا يَقْظَةً وبعضُها نومٌ فاترٌ تُخالِطُهُ اليَقْظَةُ؛ ولا يراها الرجلُ الفَحْلُ التامُ الفُحُولَةَ إِلَّا رأى الهَوَاءَ نَفْسَهُ قد أصبحَ من حولِها أنثى، مِمَّا تُغْصِفُ به ريحُها العَظِيرَةُ عِطْرَ زِينَتِها وجسمِها.

وكان الواعِظُ قد تَرَمَّلَ من أشهر، وكانت المرأةُ قد تَأَيَّمَتْ من سنوات؛ فلما رآها غَضَّ طَرْفَهُ عنها؛ ولكنَّها سألَتْهُ بِالْفَاظِهَا العَذْبَةِ عن أمورٍ هي من أسرارِ طبيعَتِها، وسألَتْهُ عن طبيعَتِها بِالْفَاظِهَا؛ فسمعَ منها مثل صوتِ البُلُورِ، يتكسَّرُ بعضُهُ على بعضٍ.

وتحدَّثَتْ له وكأنَّها تتحدَّثُ فيه: فسمعَ بأذنيه ودميه، ثُمَّ كان غَضُّ عَيْنِهِ أَقْوَى لِرُؤْيَةِ قَلْبِهِ وَجَمْعِ خَوَاطِرِهِ.

ورأى صوتَها يَشْتَهِي؛ وعانقَتْهُ رائحتُها العَظِيرَةُ النَّفَّاذَةُ؛ وأحاطَتْهُ بِجَوْ كَجَوْ الفَرَّاشِ؛ وعادَتْ أنفاسُها كأنَّها وَسْوَسةٌ قَبْلُ؛ وصارتْ زَفَرَاتُها كَالْقَدْرِ إذا اسْتَجْمَعَتْ غَلِياناً؛ وَطَلَعَتْ في خيالِهِ غُرِيانَةً كما تَطْلُعُ لِلسَّكَرانِ من كأسِ الخمرِ حُورِيَّةٌ غُرِيانَةً، لها جِسْمٌ يبدو من اللَّيْنِ والبَضَاضَةِ والنَّعْمَةِ كَأَنَّهُ من زَبَدِ البحرِ؟

قال أبو الحسن: وكُنْتُ كالنائمِ، فما شعرتُ إِلَّا بصوتِ كَصَكِ الحجرِ بالحجرِ، لا كتكسُّرِ البُلُورِ بَغْيِهِ على بعضٍ، وسمعتُ شيخِي يقول:

أَفْسَقْتُ...؟

تاريخ يتكلم... (*)

أيعرفُ القراءُ أنَّ في الأحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاءِ محكمةُ الوضعِ مُتَّبِعةُ التركيبِ بديعةُ التأليفِ، تجعلُ المرءَ حينَ ينامُ كأنَّهُ أسلمَ نفسه إلى (شركةٍ من الملائكة)، تُسَيِّحُ به في عالمٍ عجيبٍ كأنما سَجَرَ فتحوَّلَ إلى قصة؟ إنَّ يكنُ في القراءِ مَنْ لا يعلمُ هذا فليعلمهُ مِنِّي؛ فإنِّي كثيراً ما أكتبُ وأقرأ في النومِ؛ وكثيراً ما يُلْقِي عَلَيَّ من بارعِ الكلامِ، وكثيراً ما أرى ما لو دَوَّنْتُهُ لَعُدَّ من الخوارقِ والمعجزاتِ.

وهذه القصةُ التي أرويتها اليومَ، كانتِ المعجزةُ فيها أنِّي مشيتُ في التاريخِ كما أمشي في طريقٍ ممتدةٍ؛ فتقدَّمتُ إلى أهلِ سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فعيشتُ معهم وتَحَبَّرْتُ من أخبارِهِم، ثُمَّ رجعتُ إلى زماني لأَقْصُ ما رأيتهُ على أهلِ سنة ١٣٥٣... (٢٢)

أُسيئتُ البارحةُ كالمغمومِ في أحوالٍ ثَقِيلَةٍ على النفسِ ما تَنَظَلَّقُ النفسُ لها، أَوَّلُها سوءُ الهضمِ؛ ومتى كان البدءُ من هُنا لم تكن الحركةُ في النفسِ إلَّا دائرةً: تذهبُ ما تذهبُ ثُمَّ لا تنتهي إلَّا في سوءِ الهضمِ عينه. فجلستُ في التَّدْيِ الذي أَسْمُرُ فيه أحياناً، فكان لِجَوْهٍ وَزَنٌ أَحْسَنُهُ كَمَا يُحَسُّ الغائِصُ في الماءِ يُغَلِّ الماءِ عليه؛ ودَخُنْتُ الكَرْكَرَةَ^(١) فلم تكن هواءٌ ودُخاناً يَتَرَوَّحُ، بَلْ كَانَتْ من يُغَلِّها كالطعامِ يَدْخُلُ على الطعامِ؛ ونَظَرْتُ ناحِيَةً فَأَخَذْتُ عَيْنِي رَجُلًا فِيلِي الخِلْفَةِ، مُنْطَاذَ البطنِ كأنما نَفَخَ بَطْنُهُ بِالآلاتِ، يَحْمِلُ منه مقدارَ أربعةٍ من بطونِ البديناتِ الحواملِ

(٢٢) يعني بهذه المقالة والتي بعدها (كفر الذبابة) تركيا الحديثة وزعيمها المغفور له - وانظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

(٢٢) تاريخ إنشائه هذه المقالة.

(١) الكركرة: اسم وضعناه (للشيشة) أو النارجيلة، أخذاً من صوتها، كما صنع العرب في تسميتهم (القطا) أخذاً من صوت هذا الطير، وكما هي طريقتهم؛ وتجمع الكركرة: كراكير، بالياء للخفة.

كُلُّ مَنْهَنْ فِي الشَّهْرِ التَّاسِعِ مِنْ حَمْلِهَا . . . وَكَانَ مَعِيَ إِلَى كُلِّ هَذَا الْبَلَاءِ خَمْسُ
صُحُفٍ يَوْمِيَّةٍ أَرِيدُ قِرَاءَتَهَا . . . !

ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الدَّارِ وَالْمَعْرَكَةِ حَامِيَةً فِي أَعْصَابِي؛ وَمَا كَانَ سُوءُ الْهَضْمِ مَثْوَمَةً
فِيدَعُو إِلَى النَّوْمِ، فَدَخَلْتُ بَيْتَ كُتُبِي وَأَرَدْتُ كِتَاباً أَيْ كِتَابَ تَنَالُهُ يَدِي، فَخَرَجَ لِي
كِتَابٌ فِي خُرَافَاتِ الْأَوَّلِينَ وَأَسَاطِيرِهِمْ وَهَذَيَانِهِمْ وَسُوءِ هَضْمِهِمْ الْعَقْلِيِّ . . .
كَالْكَلَامِ عَنْ أَدُونِيسٍ وَأَرْطَامِيسٍ وَدِيُونِيسٍ وَسَمِيرَامِيسٍ وَإِيسِيسٍ وَأَنْتَوِيسٍ
وَأَنْتَرْغِيسٍ . . . فَاسْتَعِذْتُ بِاللَّهِ وَقُلْتُ: حَتَّى الْكُتُبُ لَهَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَعْصَابٌ قَدْ
نَالَتْهَا الثَّقَلَةُ وَالْأَلَمُ؟

وَبَاتَ اللَّيْلُ يَقْطَانٌ مَعِيَ، وَبَقِيتُ مُتَمَلِّجَةً أَنْتَقَلِبُ حَتَّى أَخَذَ الصَّدَاعُ فِي
رَأْسِي، فَانْقَلَبَ التَّعَبُ نَوْمًا، وَجَاءَ مِنَ النَّوْمِ تَعَبٌ آخَرُ، وَقَذِفْتُ إِلَى عَالَمِ الْأَحْلَامِ
فِي قُنْبَلَةٍ تَسْتَقَرُّ بِي حَيْثُ تُرِيدُ لَا حَيْثُ أُرِيدُ:

وَرَأَيْتُنِي فِي قَوْمٍ لَا أَعْرِفُ مِنْهُمْ أَحَدًا قَدْ اجْتَمَعُوا جَمَاهِيرَ، وَسَمِعْتُ قَائِلًا
مِنْهُمْ يَقُولُ: «السَّاعَةُ يَمُرُّ مَوْلَانَا الْعَالِي». فَقُلْتُ لِمَنْ يَلِينِي: «مَنْ يَكُونُ مَوْلَانَا
الْعَالِي؟» قَالَ: «أَوَ أَنْتَ مِنْهُمْ؟» قُلْتُ: «يَمَنْ؟» فَالْهَاءُ عَنْ جَوَابِي تَشُوفُ النَّاسَ
وَانْصِرَافُهُمْ إِلَى رَجُلٍ أَقْبَلَ رَاكِبًا حِمَارًا أَشْهَبَ؟ فَصَاحُوا: «الْقَمَرُ الْقَمَرُ»^(١) وَرَفَعَ
الرَّجُلُ الَّذِي يُنَاكِبُنِي صَوْتَهُ يَقُولُ: «الْبَرَكَاتُ وَالْعَظَمَاتُ لَكَ يَا مَوْلَانَا الْعَالِي!».

قُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ! لَقَدْ وَقَعْتُ فِي قَوْمٍ مِنَ الزَّنَادِقَةِ، يُعَارِضُونَ «التَّحِيَّاتِ
وَالضَّلَوَاتِ وَالطُّيَّاتِ لِلَّهِ»؛ ثُمَّ مَرَّ صَاحِبُ الْحِمَارِ بِحَذَانِي، وَغَمَزَهُ الرَّجُلُ عَلَيَّ،
فَقَالَ: مَا بِأَنَّكَ لَا تَقُولُ مِثْلَهُ؟ قُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ. فَكَأَنَّمَا أَرَادَ أَنْ
يُلْطَمَنِي فَرَّقَ يَدَهُ، فَصَحَّتْ فِيهِ: كَمَا أَنْتَ - وَبِلَكَ - وَإِلَّا قَبِضْتُ عَلَيْكَ، وَأَسْلَمْتُكَ
لِلْبَوْلِيسِ، وَشَكْوَتُكَ إِلَى النِّيَابَةِ، وَرَفَعْتُكَ إِلَى مُحْكَمَةِ الْجُنْحِ!

قَالَ: مَاذَا أَسْمَعُ؟ الرَّجُلُ مَجْنُونٌ فَخَذُوهُ! وَأَحَاطَ بِي جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُ
تَرَجَّلَ عَنْ حِمَارِهِ وَأَخَذَ بِيَدِي وَمَشِينَا، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ يَا هَذَا؟ قَالَ: أَرَأَيْكَ مِنْ غَيْرِ
هَذَا الْبَلَدِ؟ أَمَّا تَعْرِفُ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ؟ فَأَنَا هُوَ. قُلْتُ: أَنْظُرْ - وَبِحَكَ - مَا تَقُولُ.
فَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا مَمْرُورًا؛ لَقَدْ كَتَبْتُ أَمْسٍ كِتَابًا إِلَى مَجَلَّةِ (الرَّسَالَةِ) أَرْخَتَهُ ١٣ مِنْ ذِي

(١) القمر: اسم ذلك الحمار، وسيمر ذكره في القصة.

الحجة سنة ١٣٥٣ و ١٨ من مارس سنة ١٩٣٥ ، وأرسلتُ به مقالة «الخروفين»^(١) . .

قال : ماذا أسمع؟ نحن الآن في سنة ٣٩٥؛ فالرجلُ مجنون، أولاً فانت أيها الرجلُ من معجزاتي . لقد جئتُ بك من التاريخ، فسترى وتكتب، ثم تعودُ إلى التاريخ فتكونُ من معجزاتي، وتقصُ عني وتشهدُ لي . . . !

قلتُ : فإني أعرفُ أعمالك إلى أن قُلتُ في سنة ٤١١ . . . !

قال : أو إله أنت فتخلقُ ست عشرة سنةً بحوادثها؟ لقد كذبتُ من أفنِكَ وغاوتِكَ تُفسدُ عليّ دعوى المعجزة!

وهاج الصداعُ في رأسي، وبلغَ سوءُ الهضم حدّه، واشتبكتُ سيناتُ إيسيس وأتوبيس الخ بسين إبليس، ومُرث بين كلِّ هذا حوادثُ الطاغية المعتوه المتجبر، فرائثُه يبتدعُ في كلِّ وقتٍ بدعاً، ويخترعُ أحكاماً يُكرهُ الناسُ على أن يعملوا بها، ويعاقبهم على الخروج منها، ثم يعودُ فينقضُ أمره، ويُعاقبُ على الأخذِ به، كأنَّ الذي نقضَ غيرُ الذي أبرم، وكأنَّه حينَ يتبلّدُ فيُعجزُه أن يَخترعَ جديداً - يجعلُ اختراعه يُبطال اختراعه .

ورأيتُه كأنما يعتدُّ نفسهُ مُح هذه الأئمة، فلا بُدَّ أن يكونَ عقلاً ليعقولها، ثم لا بُدَّ أن يَسْتَغْلِي الناسَ ويستبدُّ بهم استبدادَ الشريعة في أمرها ونهيها، فكانتُ أعمالُه في جملتها هي نقضُ أعمالِ الشريعة الإسلامية، وظنُّ أنَّه مستطيعٌ محو ذلك العصر من أذهان الناسِ وقُتل التاريخ الإسلامي بتاريخ قاتلٍ سفاك .

وسؤل له جنونهُ أنَّه خُلِقَ تكذيباً للنبوة؛ ثم أفرطَ عليه الجنونُ فحصل في نفسه أنَّه خُلِقَ تكذيباً للالوهية؛ وفي تكذيبه للنبوة والالوهية يحملُ الأئمة بالقهر والغلبة على ألا تصدقَ إلا به هو؛ وفي سبيلِ إثباته لنفسه صَنَعَ ما صَنَعَ، فجاء تاريخُه لا ينفي الالوهية ولا نبوة، بل ينفي العقل عن صاحبه؛ وجاء هذا التاريخُ في الإسلام ليتكلّم يوماً في تاريخ الإسلام . . .

رأيتُني أصبحتُ كاتباً لهذا الحاكم، فجعلتُ أشهدُ أعماله وأدوّنُ تاريخه، وأقبلتُ على ما أفرَدني به وقلتُ في نفسي : لقد وضعتني الدنيا موضِعاً عزيزاً لم يرتفعَ إليه أحدٌ من كتابها وأدبائها، فسأكتبُ عن هذا الدهرِ بعقلٍ بينه وبين هذا الدهرِ ٩٦٨ سنةً صاعدةً في العِلْم .

(١) مرت هذه المقالة في الجزء الأول .

ودَوَّنَتْ عشرةَ مجلِّدات ضخمَةٍ انتبهتُ وأنا أحفظُها كُلِّها، فإذا هي جُمْلٌ صغيرة، جعل الحُلُمُ كُلَّ نَبْذَةٍ منها سِفْراً ضخماً كما يُخَيَّلُ لِلنَّائِمِ أَنَّهُ عاشَ عمراً طويلاً وأحدثَ أحداثاً ممتدَّةً، على حين لا تكونُ الرُّوْيا إلا لحظةً.

وهذه هي المجلِّدات التي قُلْتُ: إن التاريخ يتكلَّمُ بها في التاريخ...

المجلد الأول

ابْتُلِيَ هذا الطاغيةُ بنقيصتين: إحداهما من نفسه، والأخرى من غيره؛ فأَمَّا التي من نفسه فإنِّي أراه قد خُلِقَ وفي مُحْه لُفَافَةٌ عَصَبِيَّةٌ من يهودية جدّه رأس هذه الدعوة؛ فهو الحاكمُ بَنُ العزيرِ بَنُ المعزِ بَنُ القاسمِ المهديِّ عبيدِ الله، ويقولون: إِنَّ عبيدَ الله هذا كان ابنُ امرأةٍ يهوديّةٍ من حدادٍ يهوديّ، فاتفقَ أنْ جرى ذكْرُ النساءِ في مجلسِ الحسينِ بنِ محمدٍ القدّاح، فوصفوا له تلك المرأةَ اليهوديّة، وأنها آيَةُ في الحسن؛ وكان لها من الحدادِ ولد، فتزوَّجها الرجلُ وأدّب ابنها وعلمه، ثُمَّ عرّفه أسرارَ الدعوة العلوية وعهدَ إليه بها.

ومن بعض اللغائف العصبية في المخ ما ينحدرُ بالوراثة مطبوعاً على خيره أو شرّه، لا يَدُ لِلْمَرْءِ فيه ولا جيلةٌ له في دفعه أو الانتفاء منه، فيكون قدراً يَتَسَلَّلُ في الخُلُقِ لِيُحْدِثَ غاياته المقدورة، فمتى وقعَ في مخِّ إنسانٍ فالدنيا به كالخُبلى ولا بدَّ أَنْ تَتَمَخَّضَ عنه.

هذه اللُفَافَةُ اليهوديّةُ في مخِّ هذا الطاغية ستَحَقِّقُ به قول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ [المائدة: ٨٢] فهو لن يكونَ العدوَّ للإسلام دونَ أَنْ يكونَ الأشدَّ في هذه العداوة، ولن يكونَ فيها الأشدَّ حتى يفعلَ بها الأفاعيلَ المنكَرةَ. وما أرى هذه المآذنَ القائمةَ في الجوّ إلا تخرقُ بمنظرِها عينَهُ من بغضه للإسلام وانطوائه على عداوته؛ فويلٌ لها منه!

وأما النقيصةُ الثانيةُ فقد ابْتُلِيَ بقومِ فتنةٍ بآرائهم ومذهبهم، وهم حمزةُ بَنُ عليٍّ، والأخرمُ، وفلان، وفلان... وقد لُفَّقُوا لِلدُّنْيَا مذهباً هو صورةُ عقولهم الطائشة، لا يجيءُ إلا للهدم، ثُمَّ لا يضعُ أولَ معاويله إلا في قُبّة السماءِ ليهدمها...! ولو أنا جمعتُ هذا المذهبَ في كلمةٍ واحدةٍ لقلْتُ: هو حماقةٌ حمقاء تُريدُ إخراجَ الله من الوجودِ لإدخالِ الله في بعضِ الطغاة!

ويتلقَّبون في مذهبهم بهذه الألقاب: العقل، الإرادة، الإمام، قائم الزمان، علة العلل...!

المجلد الثاني

أظهر الطاغية أن الله يؤيد به الإسلام، ليتألف الجند والشعب ويستميلهم إليه، وكان في ذلك لثيم الكيد، دنيء الجيلة، يهودي المكر؛ فأمر بعمارة المدارس للفقهاء والتفسير والحديث والفُتيا، وبذل فيها الأموال، وجعل فيها الفقهاء (والمشايخ)، وبالغ في إكرامهم، والتوسعة عليهم، والتخضع لهم، ودخل في ظلال العمامة... وأحضر لنفسه فقيهين مالكيين (اثنين لا واحد) يعلمانه ويقفهاونه، وكان أشبه بمرید مع شيخ الطريقة يتسعد به ويتيمن؛ أشرف القابله أنه خادم العمامة الخضراء، وأسعد أوقاته اليوم الذي يقول له فيه الشيخ: رأيتك في الرؤيا ورأيت لك...!

وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هذا الطاغية، هي بعينها ربا اللُفافة اليهودية في مُحه؛ تُضلع بإقراض مائة، وفيها نية الخراب بالستين في المائة...! فإنه ما كاذ يتمكن من الناس ويعرف إقبالهم عليه ويقتهم به، حتى طلبت اللُفافة اليهودية رأس المال والزبا؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخراؤها، وأبطل العيدين وصلاة الجمعة، وقتل الفقهاء وقتل معهم فقيهي وأستاذيه، وعاد كالمُرید المناق مع شيخ الطريقة، يقول في نفيه: إن هناك ثلاثة تعمل عملاً واحداً في الصيد: الفخ، والعمامة، واللحية...!

إن هذا الطاغية ملك حاكم، يستطيع أن يجعل حماقته شيئاً واقعاً، فيقتل علماء الدين بإهلاكهم، ويقتل مدارس الدين بإخراؤها، ولو شاء لاستطاع أن يشق من المسلمين كل ذي عمامة في عمامته. ويبلغ من كفره أن يتبجح ويرى هذا قوة، ولا يعلم أنه إلهوانه على الله قد جعله الله كالذبابة التي تُصيب الناس بالمرض، والبعوضة التي تقتل بالحمى، والقملة التي تضرب بالطاعون، فلو فخرت ذبابة، أو تبجحت قملة، أو استطالت بعوضة، لجاز له أن يطن طنينه في العالم. وهل فعل أكثر مما تفعل؟

لقد أزدى بأناس يقوم إيمانهم على أن الموت في سبيل الحق هو الذي يُخلدُهم في الحق، وأن انتراغهم بالسيف من الحياة هو الذي يضمهم في حقيقتها، وأن هذه الروح الإسلامية لا يطمسها الطغيان إلا ليجلوها.

إنه - والله - ما قتل ولا شق ولا عذب، ولكن الإسلام احتاج في عصره هذا إلى قوم يموتون في سبيله، وأعوذة ذلك النوع السامي من الموت الأول الذي كان حياة الفكر ومادة التاريخ، فجاءت القملة تحمل طاعونها...!

لقد أحياءهم في التاريخ، أما هم فقتلوه في التاريخ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين، أما هم فجأؤوه باللعة من المسلمين جميعاً!

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغية أن الدين الإسلامي خرافة وسُغوذة عن النفس، وأن محو الأخلاق الإسلامية العظيمة هو نفسه إيجاد أخلاق، وأن الإسلام كان جريئاً حين جاء فاحتل هذه الدنيا؛ فلا يطردّه من الدنيا إلا جراءة شيطان كالذي توقع على الله حين قال: ﴿فِعِزَّتِكَ لَأُغَيِّرَنَّ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. ولهذا أمر الناس بسب الصحابة، وأن يكتب ذلك على جيطان المساجد والمقابر والشوارع!

أخزاه الله! أهي رواية تمثيلية يُلصق الإعلان عنها في كل مكان؟ لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول: أخزاه الله....!

المجلد الرابع

هذا الفاسق لا يركب إلا حماراً أشهب يُسميه: (القمر)، وقد جعل نفسه مُحْتَسِباً لِيَاغِيَةِ خبيثة؛ فهو يدور على جماره هذا في الأسواق ومع عبد أسود، فمن وجدّه قد عُش؛ أمر الأسود ف...! ووقف هو ينظر ويقول للناس: انظروا...!

ومن غلبة الفسوق على نفسه وعلى شيعته أن داعيته (حمزة بن علي) نوة بالحمار في كتابه وأوماً إليه بالثناء، لخصال: منها أن...! وكتب حمزة هذا في بعض رسائله: أن ما يرتكبه أهل الفساد بجوار البساتين التي يمر بها (الفاسق) من المنكر والفحشاء - إنما يرتكب في طاعته...!

هذه طبيعة كل حاكم فاسق ملحد، يرى في نفسه رذائله غريبة، فلا يكون كلامه وعمله وفكره إلا فحشاً يتعري؛ وإن في هذا الرجل غريزة فسق بهيمية متصلة بطور الحيوان الإنساني الأول؛ فما من ريب أن في جسمه خلية عصبية مُهْتَاجَة، ما زالت تنبّخ بالوراثة في دماء الأحياء، متلفّة على خصائصها، حتى استقرت في أعصاب هذا الفاسق، فانفجرت بكل تلك الخصائص.

ولست أرى أكثر أعماله ترجع في مردها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه؛ فهو يحاول هدم الإسلام، لأنه دين العفة ودين صون المرأة، يلزمها حجاب عفتها وإياها، ويمنفها الابتذال والخلاعة، ويعينها أن تتخلص ممن يشتهيها، ولو كان الحاكم... إنه يمتد هذا الدين القوي، كما يمتد اللص القانون؛ فهو دين يتقل

على غريزته الفاسقة، ولكل غريزة في الإنسان شعور لا مَهَنَ لها إلا أن يكون حراً حتى في التوهم؛ وهل يُعجِبُ السَّكْرُ شيء أو يُرضيه أو يُلذِّه، كما يُعجِبُه أن يرى الناس كلهم سُكَّاراً؛ فَيَتَنَشَّى هو بالخمَر، وتسكُر غريزته برؤية السَّكْرِ؟

وما زال رأيُ الفُسَّاقِ في كلِّ زمنٍ أن الحرية هي حرية الاستمتاع، وأن تقييد اللذة إفسادٌ لِلذَّةِ.

المجلد الخامس

يزعمُ الطاغيةُ أَنَّهُ يُعزُّ قومه، وما أراه يُعزُّهم، لكنَّهُ يمتحنُ ذلَّهُم وضعفَهُم وهوانَهُم على الأمم؛ يتجرأ شيئاً فشيئاً، مُتَنَظِّراً ما يَتَسَهَّلُ، مترقباً ما يُمْكِنُ؛ وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا ذَنَبُوا أَنفُسَهُم فينا؛ فمن ذلك يهدمُ الأخلاقَ ويظنُّ عند نفسه أَنَّهُ يهدمُ قُبوراً لا أخلاقاً.

ولقد سَجَرَ منه المصريون بنكتةٍ من ظُفْرِهِمُ البديع، وجاؤوه من غريزته، فصنعوا امرأةً من الورق الذي يُشَبِّهُ الجلد، وألبسوها خُفَّها وإزارها، حتى لا يشكَّ مَنْ رآها أَنَّها آدمية، ثُمَّ وضعوا في يدها قَصَّةً وأقاموها في طريقه؛ فلَمَّا رآها عَدَلَ إليها وأخذ من يدها القَصَّةَ وقرأها، فإذا فيها سَبٌّ له ولآبائِهِ؛ وسخريةٌ من جنونه ورُعُونيته المضحكة؛ فغَضِبَ وأمرَ بقتلِ المرأة؛ فكانت هذه سخريةٌ أخرى حينَ تحقَّقَ أَنَّها من الورق، وأخذته النكتةُ الظريفةُ بمثل البرق والرعد؛ فاستشاط وأمرَ عبيده من السودان بتحريقِ الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسَبِّ النساءِ والفُجُورِ بهنَّ؛ حتى جاء الأزواجُ يشترون زوجاتهم من العبيد، بعد أن طَارَتِ الزوبعةُ السوداءُ في بياضِ الأعراضِ.

إندلَعَتْ ثورةُ الفُجُورِ في المدينة، لا مِن العبيد، ولكن من الحيوان العتيقِ المستقرِّ في هذا الطاغيةِ.

المجلد السادس

وهذه رُعوثةٌ من أقيع رُعوناتِهِ، كأنَّ هذا الحيوانَ لا يحسبُ نساءَ الأمةِ كُلَّها إلا نساءه، فيأمرهنَّ بأمرِ أَمَرَاتِهِ، وكأنَّ النساءَ في رأيه إنَّ هُنَّ إلا استجاباتٌ عصبيةٌ تُطلَقُ وتُرَدُّ.

إنَّ لِموجةِ الفِسْطِ في الغريزة الطاغيةِ جُزْراً ومدأً يقعان في تاريخِ الفُسَّاقِ؛ فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيه الموجة، فأمرَ أن يُمنَعَ النساءُ من الخروجِ ليلاً ونهاراً،

لا تطأ أرض المدينة قَدَمُ امرأة، وأمرَ الحَفَّافِينَ ألا يصنعوا لَهْنُ الأَخْفَافِ والأَحْذِيَّةِ؛ ولَمَّا عَلِمَ أَنَّ بَعْضَ النِّسَاءِ خَرَجْنَ إِلَى الْحَمَامَاتِ هَذَمَ الْحَمَامَاتِ عَلَيْهِنَّ! ولو مَدَّتِ الْمَوْجَةُ فِي تَفْسُقِ الْفَاسِقِ لَنَاضَ عَلَى النِّسَاءِ الْخُرُوجَ وَالْإِتِّصَالَ بِالرِّجَالِ وَالتَّعَرُّضَ لِلْإِبَاحَةِ.

إِنَّ الصَّلَاحَ وَالْفَسَادَ كِلَاهُمَا فَسَادٌ مَا لَمْ يَكُنِ الصَّلَاحُ نِظَافَةً فِي الرُّوحِ وَسَمُوًا فِي الْقَلْبِ.

المجلد السابع

يَزْعُمُ الطَّاعِيَةُ أَنَّهُ سَيَهْدُمُ كُلَّ قَدِيمٍ؛ وَإِنِّي لِأَخْشَى - وَاللَّهِ - أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ فِي بَعْضِ سَطَوَاتِ جَنُونِهِ: أَنْ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ أَبٌ أَوْ أُمٌّ بَلَغَ السَّبْتَيْنِ فَلْيَقْتُلْهُ، لِيَتَخَلَّصَ الْأُمَّةُ مِنْ قَدِيمِهَا الْإِنْسَانِيِّ...!

كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَسَلَّطُ عَلَى آيَّامِ مُعَاصِرِيهِ لَا عَلَى التَّارِيخِ؛ وَيَحْكُمُ عَلَى طَاعَةِ قَوْمِهِ وَعِصْيَانِهِمْ لَا عَلَى قُلُوبِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَمِيرَاثِهِمْ مِنَ الْأَسْلَافِ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَهْلِكَ حَتَّى يَنْبَعَثَ فِي الدُّنْيَا شَيْئَانِ: تَنْثَنُ رُمَّتِيهِ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، وَتَنْثُنُ أَعْمَالِهِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ. إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمُسَلَّطَ، كَالْغُبَّارِ الْمُسْتَطَارِ لَا يَكُنْشُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقَعَ... .

وَلَقَدْ رَأَى الْمَافُؤُونَ أَنَّ أَكْلَ النَّاسِ الْمُلُوحِيَّاءِ الْخَضِرَاءِ وَالْفُقَّاعِ، وَالثَّرْمَسَ وَالْجَزْجِيزَ، وَالزَّبِيبَ وَالْعَنْبَ - هُوَ قَدِيمٌ فِي طِبَاعِ النَّاسِ، فَهِيَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ، لَا يُبَاعُ وَلَا يُؤْكَلُ، وَظَهَرَ عَلَى أَنَّ جَمَاعَةً بَاغَوْا أَشْيَاءَ مِنْهَا فَضَرَبَهُمُ بِالسَّيَاطِ، وَأَمَرَ قَطِيفٌ بِهِمْ فِي الْأَسْوَاقِ، ثُمَّ ضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ؛ كَأَنَّ الَّذِي يَحْمِلُ الْمُلُوحِيَّاءِ الْخَضِرَاءَ عَلَى رَأْسِهِ لِيَبِيعَهَا يَلْبِسُ عِمَامَةً خَضِرَاءَ... .

أَهَذَا - وَيَنْحَ - تَجْدِيدٌ فِي الْأُمَّةِ، أَمْ تَجْدِيدٌ فِي الْمِعْدَةِ... ؟

المجلد الثامن

لَا يَرْضَى الطَّاعِيَةُ إِلَّا أَنْ يَمْتَحَنَ رُوحَانِيَّةُ الْأُمَّةِ كُلِّهَا، فَلَا يَتْرُكُ شَيْئًا رُوحَانِيًّا لَهُ فِي أَعْصَابِ النَّاسِ أَثَرٌ مِنَ الْوَقَارِ، وَيَمْنُنُ يَسْتَنْظِرُ - وَيَلْهَ - إِذَا مَجِئَتْ رُوحَانِيَّةُ الْأُمَّةِ وَأَشْرَفَتْ نَزْعَتُهَا الدِّينِيَّةُ عَلَى الْإِنْحِلَالِ؟ كَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَةَ الْوُجُودِ لِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا تُسْتَمَدُّ مِنْ إِيْمَانِهَا بِالْمَثَلِ الْأَعْلَى الَّذِي يَدْفَعُهَا فِي سَبْلِهَا إِلَى الْحَيَاةِ بِقُوَّةٍ، كَمَا يَدْفَعُهَا فِي حَرْبِهَا إِلَى الْمَوْتِ بِقُوَّةٍ؛ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ التَّارِيخَ كُلَّهُ تَقَرُّرُهُ فِي الْأَرْضِ بِضَعَةِ مَبَادِيءَ دِينِيَّةٍ.

هذا الحاكمُ الأخرقُ هو عندي كالذي يقولُ لِنَفْسِهِ: لم أستطع أن أفتحَ دولة،
فلأفتحَ دولةً في مملكتي... لقد أمرَ بهدمَ الكنائسِ والبِيعِ، حتى بلغَ ما هدمَ منها
ثلاثين ألفاً وثِبعاً.

أي مجنونٍ أسخفَ جنوناً من هذا الذي يحسبُ النفوسَ الإنسانيةة
كالأخشابِ؛ تقبّلُ كلُّها بغيرِ استثناءٍ أن تُدقَّ فيها المساميرُ...؟
سيعلمُ إذا نشبتَ حربٌ بينهُ وبين دولةٍ أخرى، أنه كسرَ أشدَّ سيوفه مضاء
حينَ كسرَ الدين!

المجلد التاسع

هذه هي الطامّةُ الكبّرى؛ فلا أدري كيف أكتبُ عنها: لقد تطاولَ المجنونُ
إلى الألوهيةِ فادّعاها، وصارَ يكتبُ عن نفسه: باسمِ الحاكمِ الرحمن!
لو كان أغبى الأغبياءِ في موضعه لانتفى شيئاً، لا أقولُ تقوى الدين والضميرِ،
ولكن تقوى الثّقاقِ السياسيّ؛ فكان يحملُ الناسَ على أن يقولوا عنه: «أبانا الذي
في الأرضين...!».

ولأ فأيّ جهلٍ وخَبْطٍ، وأي حُمقٍ ونَهْورٍ، أن يكونَ إلهٌ على حمارٍ، وإن
كان اسمُ حمارِهِ القمر!

المجلد العاشر

سيأخذهُ الله بامرأَةٍ؛ ولكلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسه؛ لقد بلغَ من وقاحةِ غريزته أن
اثتَقَكَ أخته الأميرةَ (ستُ المُلكِ)، ورمّاها بالفاحشةِ، وهي من أزكى النساءِ
وأفضلهنّ، واتّهمها بالأمير (سيف الدين بن الدّوّاس) وقد علمتُ أنها تُدبّرُ قتله،
وأنها اجتمعتُ لذلك بسيف الدين. فسأمسكُ عن الكتابةِ في هذا المجلد، وأدعُ
سائرته بياضاً حتى أذهبَ إليهما فأعيتهما بما عندي من الرأي، ثم أعودُ لتدوين ما
يقعُ من بعد...

ورأيتُ أنّي اجتمعتُ بهما واطمأنّا إليّ، فأخذنا نُديرُ الرأي:
قالتِ الأميرةُ لِسيف الدين فيما قالته: «والرأيُ عندي أن تُتبعَهُ غلماناً يقتلونهُ
إذا خرجَ في غِدٍ إلى جبلِ المقطّم، فإنّه ينفردُ بنفسه هناك!».
فقلتُ أنا: «ليس هذا بالرأي ولا بالتدبير».

قالت: «فما الرأي والتدبيرُ عندك؟».

قلت: «إن لنا علماً يسمونه (علم النفس)، لم يقع لِعلمانكم، وقد صَحَّ عندي من هذا العلم أن الرجل طائشُ الغريزة مجنونُها، وأن الأشعة اللطيفة الساحرة التي تنبعثُ من جسم المرأة هي التي تنفجرُ في مُحْه مرةً بعدَ مرةٍ؛ فإذا حَبَّت هذه الأشعة، وبَطَلَتِ الغريزة، بَطَلَتْ دواعي أعماله الخبيثة كلها، وكَفَّ عن محاولته أن يجعلَ الأمةَ مملوءةً من غرائزِ جسمه وشهوَاتِهِ، لا من فضائلها ودينها. فلو أخذْتُم برأيي وأمضيْتُموه فإنه سَيُنَكِّرُ أعماله إذا عرَضَها على نفسه الجديدة، وبهذا يُصلِحُ ما أفسد، وتكونُ حياته قد نطَقَتْ بكلمتها الصحيحة كما نطَقَتْ بكلمتها الفاسدة؛ فإذا».

قال الأمير: «فإذا ماذا؟».

قلت: «فإذا خُصِي».

فضحكت سيِّدُ الملكِ ضحكةً رثتُ رنيناً.

قلت: «نعم إذا خُصِي هذا الحاكم».

فغلبها الضحكُ أشدَّ من الأول، ورمثني بمنديلٍ لطيفٍ كان في يدها أصاب وجهي، فانتبهتُ وأنا أقول:

«نعم إذا خُصِي هذا الحاكم».

كُفْرُ الذُّبَابَةِ...(*)

قال كَلِيلَةُ^(١) وهو يَعِظُ دِمْنَةً وَحَذَرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ؛ وَكَانَ دِمْنَةً قَدْ دَاخَلَهُ الْغُرُورُ وَزَقَاهُ النَّصْرُ، وَظَهَرَ مِنْهُ الْجَفَاءُ وَالْغِلْظَةُ، وَلَقِيَ الشَّعَالِبَ مِنْ زَيْغِهِ وَالْحَادِيَةَ عَتَنًا شَدِيدًا.

... واعلم يا دِمْنَةُ أَنَّ مَا زَعَمْتَهُ مِنْ رَأْيِكَ تَأْمُّ لَا يَعْتَرِيهِ النِّقْصُ، هُوَ بَعِينُهُ النَّاقِصُ الَّذِي لَمْ يَتَمَّ؛ وَالْغُرُورُ الَّذِي تُثَبِّتُ بِهِ أَنَّ رَأْيَكَ صَحِيحٌ دُونَ الْآرَاءِ، لَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي يُثَبِّتُ أَنَّ غَيْرَ رَأْيِكَ فِي الْآرَاءِ هُوَ الصَّحِيحُ.

ولو كان الأمرُ على ما يَتَخَيَّلُ كُلُّ ذِي خِيَالٍ، لَصَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ، وَلَوْ صَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ، لَكَذَّبَ كُلُّ إِنْسَانٍ؛ وَإِنَّمَا يَدْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، لِيَجِيءَ حَقُّ الْجَمِيعِ مِنَ الْجَمِيعِ، وَيَبْقَى الصَّغِيرُ مِنَ الْخَطَأِ صَغِيرًا فَلَا يَكْبُرُ، وَيُثَبِّتُ الْكَبِيرُ مِنَ الصُّوَابِ عَلَى مَوْضِعِهِ فَلَا يُنْتَقِصُ، وَيَصْخُ الصَّحِيحُ مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ لَهُ، وَيَفْسُدُ الْفَاسِدُ مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ، وَمَا مَثَلُ هَذَا إِلَّا مَثَلُ الْأَرْنَبِ وَالْعُلَمَاءِ.

قال دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قال: زَعَمُوا أَنَّ أَرْنَأَ سَمِعَتِ الْعُلَمَاءُ يَتَكَلَّمُونَ فِي مَصِيرِ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَمَتَى يَتَأَذَّنُ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا، وَكَيْفَ تَكُونُ الْقَارِعَةُ؛ فَقَالُوا: إِنَّ فِي النُّجُومِ نَجُومًا مُدْثَبَةً، لَوْ التَّفَّ ذَنْبٌ أَحَدِهَا عَلَى جِزْمِ أَرْضِنَا هَذِهِ لَطَارَتْ هَوَاءً كَانَتْهَا نَفْخَةُ النَّافِخِ، بَلْ أَوْضَعُفَ مِنْهَا كَانَتْهَا زَفَرَةٌ صَدْرِ مَرِيضٍ، بَلْ أَوْهَى كَانَتْهَا نَفْثَةٌ مِنْ شَفَتَيْنِ. فَقَالَتِ الْأَرْنَبُ: مَا أَجْهَلُكُمْ أَيُّهَا الْعُلَمَاءُ! قَدْ وَاللَّهِ خَرَفْتُمْ وَتَكَذَّبْتُمْ وَاسْتَحَفَّمْتُمْ؛ وَلَا تَزَالُ الْأَرْضُ بِخَيْرٍ مَعَ ذَوَاتِ الْأَذْنَابِ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى جَهْلِكُمْ هُوَ هَذَا - قَالُوا: وَأَزَتْهُمْ ذَنْبُهَا...!

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

(١) كَلِيلَةُ ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعي، يعتمد إليه حين يريد تقرير المعاني بالتمثيل والمحاورة.

وانظر مقالة (فلسفة الطائشة) في الجزء الأول.

قال كليله: وكم من مغرورٍ يُنزَلُ نفسُهُ من الأنبياء منزلةً هذه الأرنب من أولئك العلماء؛ فيقول: كذبوا وصدقْتُ أنا، وأخطأوا جميعاً وأصبْتُ، والتَّبَسَ عليهم وانكشَفَ لي، وهم زعموا وأنا المستيقِن. ثُمَّ لا دليل له إلا مثل دليل الأرنب الخرقاء من هَنَةٍ تتحرَّك في ذنبها.

وكان يقال: إِنَّهُ لا يُجاهِرُ بالكفرِ في قومٍ إلا رجلٌ هانَ عليهم فلم يعبؤوا به، فهو الأذلُّ المستضعف؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم، فهو الأعزُّ الطاغية؛ ذاك لا يخشونه فيَدْعُونَهُ لِنَفْسِهِ وعليه شهادةٌ حُقمِه، وهذا يخشونه فيتركون مُعارضَتَهُ وعليه شهادةٌ ظَلَمِه؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا.

وقالَتِ العلماء: إِنْ كُنْتَ حاكماً تَشْتَقُّ مَنْ يُخالفُكَ في الرأي، فليس في رأسِكَ إلا عقلٌ اسمُهُ الحيل؛ وَإِنْ كُنْتَ تَقْتُلُ مَنْ يُنكِرُ عليك الخطأ، فليس لك إلا عقلٌ اسمُهُ الحديد؛ وَإِنْ كُنْتَ تَخْبِسُ مَنْ يُعارضُكَ بالنظر، ففِيكَ عقلٌ اسمُهُ الجدار؛ أَمَّا إِنْ كُنْتَ تُناظِرُ وتُجادِلُ، وتَقْنَعُ وتَقْتَنِعُ، وتدعو الناسَ على بصيرةٍ ولا تأخذُهم بالعمى - ففِيكَ العقلُ الذي اسمُهُ العقل.

قال كليله: وأنا يا دِمنة، فلو كُنْتُ قائداً مُطاعاً، وأميراً مُتَّبِعاً، لا يُعصى لي أمر، ولا يُرَدُّ عَلَيَّ رأيي، ولا يُنكِرُ مِنِّي ما يُنكِرُ من المخلوق إذا أخطأ، ولا يُقال لي دائماً إلا إحدى الكلمتين: أصبْتُ، ثُمَّ هي دائماً أصبْتُ؛ ولا يُلْقاني أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى، رَهْبَةً من سَخَطِي، رَهْبَةً الجُبْناء، أو رَهْبَةً في رِضاي رَهْبَةً المُنافقين، وزعموا أَنَّهُم على ذلك قد صَحَّتْ نَبَاتُهُمْ وخلصَ لي باطنُهُم جميعاً - فلو كُنْتُ وكانوا على هذا، لأحالي نَقْصُهُم إلى نَقْصِ العقل بعدَ كمالِه، وردُّني فُسولَتُهُم إلى فُسولة الرأي بعدَ جَوْدَتِهِ، فأُخلِقُ بِهِ أَنْ أَعْتَبِرَ وَضَعُهُم إِيَّاي في موضعِ الآلهة، هو إنزالُهُم إِيَّاي في منزلة الشياطين؛ وإلا كُنْتُ حَقِيقاً أَنْ يُصَيِّبَنِي ما أصابَ العَفَرَ التي زعموا لها أَنَّها أثنى الفيل . . .

قال دِمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أَنَّهُ كان في إحدى خَرَائبِ الهِنْدِ جماعةٌ منَ العظماء، وكان فيها عَصْرُ فُوطٍ كبير^(١)، فملَكْتُهُ الجماعةُ وذهبتْ تَأْتِمِرُ على أمرِهِ وتنتهي. فمرَ بهذه الحَرْبَةِ

(١) العطاء: جمع عطاءة وعظاية، وهي هذه الدويبة التي يقال لها (السحلية)، والمضرفوط: ضرب من العطاء يكون أكبر منها.

فَيْلٌ جَسِيمٌ مِنَ الْفَيْلَةِ الْهِنْدِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، لَمْ يُحْسَ بِالْعَطَاءِ، وَلَمْ يُعْمَزْ فَرْقًا بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَبَيْنَ الْحَصَى مَنْشُورًا يَلْتَمِعُ فِي الْأَرْضِ هُنَا وَهُنَا؛ قَالُوا فغَضِبَ الْعَضْرُفُوطُ، وَكَانَ قَانِدًا عَظِيمًا، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفَيْلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي مُدَافَعَتِهِ، وَكَيْفَ يَحْتَالُ فِي هَلَاكِهِ، فَرَأَاهُ لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِأَقْدَامِهِ يَنْقُلُهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً؛ فَقَدَّرَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ أزالَ قَدَمَ الْفَيْلِ عَنِ الْأَرْضِ زَالَ الْفَيْلُ نَفْسُهُ؛ فَجَاءَ فَاعْتَرَضَ الطَّرِيقَ، وَدَبَّ دَبِيهًا؛ فَلَمَّا رَفَعَ الْفَيْلُ قَدَمَهُ اهْتَبَلَ هَذِهِ الْغُفْلَةَ مِنْهُ. وَانْدَسَ تَحْتَهَا، فَاَنْدَسَ مَقْبُورًا فِي التُّرَابِ!

ثُمَّ إِنَّ الْعَطَاءَ افْتَقَدَتْ أَمِيرَهَا. فَلَمَّا مَضَى الْفَيْلُ لِسَبِيلِهِ وَرَأَتْ مَا نَزَلَ بِهَا، نَفَرَتْ إِلَى أَحْجَارِهَا، وَاسْتَكْنَتْ فِيهَا تَرْتَقِبُ وَتَتَرَبَّصُ، فَدَخَلَتْ إِلَى الْخَبْرَةِ عَنَزَتْ جَعَلَتْ تَتَقَمَّمُ مِنْهَا وَتَزْتَعُّ فِيهَا، وَرَأَتْهَا الْعَطَاءُ فَاجْتَمَعْنَ يَأْتِمِزْنَ...

فَقَالَ مِنْهَا قَائِلٌ: هَذِهِ أَنْتِ الْفَيْلُ. فَسَأَلَتْ عَطَاءً مِنْهُنَّ: وَأَيْنَ النَّابَانِ الْعَظِيمَانِ؟

قَالَتِ الْأُولَى: إِنَّ الْإِنَاثَ دُونَ الذَّكَوْرَةِ فِي خَلْقِهَا، وَالْأُنْثَى هِيَ الذَّكَوْرُ مَقْلُوبًا أَوْ مُخْتَصَرًا أَوْ مَشْوَهَا، وَلِذَلِكَ هُنَّ يُقَلِّبْنَ الْحَيَاةَ أَوْ يَخْتَصِرْنَهَا أَوْ يَشَوِّهْنَهَا، أَفَلَا تَرَيْنَ النَّابَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ الْبَارِزَيْنِ فِي ذَلِكَ الْفَيْلِ الْجَسِيمِ، كَيْفَ نَبَتَا صَغِيرَيْنِ مُنْقَلِبَيْنِ فَوْقَ رَأْسِ أُنْثَاهُ...؟

فَقَالَتْ وَاحِدَةً: إِنَّ جَاَزَ قَوْلُكَ فِي الرَّأْيِ فَأَيْنَ الْخُرْطُومُ؟

قَالَتِ الْآخَرَى: هُوَ هَذِهِ الزُّنْمَةُ الْمُتَدَلِّيَةُ مِنْ خَلْقِهَا، وَذَلِكَ خُرْطُومٌ عَلَى قَذْرِ أَنْوثة الْأُنْثَى...!

قَالُوا: ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيُهُنَّ عَلَى أَنَّ يُمْلِكَنَّ أَنْثَى الْفَيْلِ هَذِهِ؛ وَأَنَّ يَهْبَنَ لَهَا الْخَبْرَةُ وَأُنْثَاهَا. وَسَمِعَتِ الْمَاعِزَةُ كَلَامَهُنَّ فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: لَا جَرَمَ أَنَّ تَكُونُ الْعَنَزُ فَيْلَةً فِي أُنْثَى مِنَ الْعَطَاءِ، فَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ لَا كَبِيرَ إِلَّا بِصَغِيرٍ، وَلَا قَوِيَّ إِلَّا بِضَعِيفٍ، وَلَا طَاعِيَةً إِلَّا بِذَلِيلٍ؛ وَإِنَّ الْعِظْمَةَ إِنْ هِيَ إِلَّا شَهَادَةُ الْحَقَارَةِ عَلَى نَفْسِهَا، وَإِنَّهُ رُبُّ عَظِيمٍ طَاعِيَةٍ مُتَجَبِّرٍ مَا قَامَ فِي النَّاسِ إِلَّا كَمَا تَقُومُ الْجَبِيلَةُ، وَلَا عَاشٌ إِلَّا كَمَا يَعِيشُ الْكَذِّبُ، وَلَا حَكَمٌ إِلَّا كَمَا يَحْكُمُ الْجِدَاعُ. وَهَذِهِ الدُّنْيَا لِلْمَحْظُوطِ كَأَنَّهَا دُنْيَا لَهُ وَحْدَهُ، فَمَتَى جَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَدْ جَاءَتْ، وَلَوْ أَنَّهَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ مِنْ نَاحِيَةٍ لَرَجَعَتْ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، لِيُثْبِتَ الْحِظُّ أَنَّهُ الْحِظُّ.

وَتَقَدَّمَ الْعَطَاءُ إِلَى الْعَنَزِ، فَقُلْنَ لَهَا: أَيُّتُهَا الْفَيْلَةُ الْعَظِيمَةُ، إِنَّ قَرِينَكَ الْعَظِيمَ قَدْ مَسَّ أَمِيرَنَا الْعَضْرُفُوطُ بِقَدَمِهِ فَغَيَّبَهُ تَحْتَ سِنِّ أَرْضَيْنِ، وَأَنْتِ أَنْثَاهُ وَسَيِّدَتُهُ، فَقَدْ اخْتَرْنَاكِ مَلِكَةً عَلَيْنَا، وَوَهَبْنَا لَكَ الْخَبْرَةَ وَمَا فِيهَا.

قالت العنزة: فإنني أتُهبُ منكُنْ هذه الهبة، ونِعْمًا صَنَعْتُنْ؛ غير أنْ بينكُنْ وبينني ما بين العظاية والغيل. وما بين الحصاة والجبل، فإذا أنا قلتُ، فأنَا قلتُ؛ وإذا أنا أمرتُ، فأنَا أمرتُ؛ وإذا أنا فعلتُ، فأنَا فعلتُ. هنا في هذه الأمة كلها (أنا) واحدة ليس معها غيرها؛ لأنْ هُنا في هذا الرأس دماغٌ فيلة، وفي هذا الجسم قوة فيلة، وفي الخربة كلها فيلة واحدة؛ فلا أغرقنْ منكُنْ على الصواب والخطأ إلا الطاعة طاعة الأعمى للبصير. ألا وإنْ أول الحقائق أني فيلة وأنكُنْ عطاء؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سقط الخلاف من بيننا وبطل الاعتراض منكُنْ، وقوتي حق لأنها قوة، وباطلي كذلك حق لأنه من قوتي؛ وقد قال أسلافنا حكماء الفيلة: إنْ القوي بين الضعفاء مهيمنة مطلقة، فهو مُضِلِّحٌ حتى بالفساد، حكيمٌ حتى بالحمافة، إمامٌ حتى بالخرافة، عالمٌ حتى بالجهالة نبيٌ حتى بالشعوذة...!

قالوا: وتُنكرُ عليها عظاية صالحة عالمة كانت ذات رأيٍ ودينٍ في قومها، وكُنْ يُسميَنها: (العمامة)، لبياضها وصلاحها وطهارتها، فقالت: ولا كل هذا أيتها الفيلة؛ لقد تخرّضتِ غير الحق؛ فإنك تحكمتنا من أجلنا لا من أجلك، وما قولك إلا كلمات تُحَقِّقُها أعمالنا نحن؛ فلكِ الطاعة فيما يُضِلُّنا، وما كان من غيره فهو ردٌّ عليك، ورأيك شيء ينبغي أن تكونَ معه آراؤنا، لِتُبَيِّنَ الأسبابُ أسبابَ الموافقة والمخالفة، فناخذُ عن بيئَةٍ ونتركُ عن بيئَةٍ؛ وقد كان يُقالُ في قديم الحكمة: إنهُ يجبُ على مَنْ يُقدِّمُ رأياً للأمة الحازمة كي تأخذَ به، أو يضعُ لها شرعاً ليُخِلمها عليه، أو يسُنَّ لها سنةً لِتَتَّبِعَها - إنهُ يجبُ على هذا المتقدم لِتُحوِّلَ الأمة أو تحريرها أن يتقدّمَ لأهل الشورى وفي رأيه الرأي، وفي عنقه خيلٌ؛ ثم يتكلّم برأيه وينبسطه ويدفع عنه، ويُجادلهم ويُجادلونه؛ فإن كان الرأي حقاً أخذوا الرأي، وإن كان باطلاً أخذوا الحيل فشقوا فيه هذا المتهوّر.

وفي ديننا أن الطاعة في المعصية معصية أخرى؛ ولقد كان لنا عُضْرُ فوطٍ بحائِة في الأديان دُرَاسَةٌ لِكُتُبِها عَلامَةٌ نَقَابٌ؛ فكان يَمَّا عَلَمنا: أن المخلوق مَبْنِيٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء، فيجبُ ألا يتم منه شيء إلا بمقدار، وألا تكون القوة فيه إلا بمقدار؛ ولهذا كان العقل التام في الأرض هو مجموعُ العقول العظيمة كلها، وكان أتم الآراء وأصحها ما أثبتت الآراء نفسها أنه أصحها وأتمها. فلا الدين أتبع أيتها الفيلة، ولا أتبع فينا العقل، وليس إلا هذا (التفيل) الكاذب.

فلما سمعت العنزة ذلك تنقّشت وغضبت، وقالت: إياكم وهذه الترهات من السنتيكم، وهذه الأباطيل في عقولكم؛ لا أسمعن منكم كلمة الدين ولا كلمة

الأنبياء ولا العَصَافِيط... فذلك وَحْيٌ غَيْرُ وَحْيِي أَنَا؛ وإذا كَانَ غَيْرُ وَحْيِي أَنَا فَأَنَا لَسْتُ فِيهِ، وإذا لَمْ أَكُنْ أَنَا فِيهِ فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِلْحُكْمِ الَّذِي شَرَطُهُ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَنَا وَاحِدَةً. وذلك إِنْ لَمْ يَجْعَلْكُمْ غُرَبَاءَ عَنِّي جَعَلَنِي غُرَبَاءَ عَنْكُمْ، مَا بُدُ مِنْ إِحْدَى الْغُرَبَاتَيْنِ، فَهُوَ أَوَّلُ الْقَطِيعَةِ، وَالْقَطِيعَةُ أَوَّلُ الْفَسَادِ. وَمَا دَامَ فِي الدِّينِ أَمْرٌ غَيْرُ أَمْرِي، وَنَهْيٌ غَيْرُ نَهْيِي، وَتَحْلِيلٌ وَتَحْرِيمٌ لَا يَتَغَيَّرَانِ عَلَى مَشِيتِي - فَأَنَا مَجْنُونَةٌ إِنْ رَضِيتُ لَكُمْ هَذَا...!

فَصَحَّحَتْ (الْعِمَامَةَ) وَقَالَتْ لِلْمَاعِزَةِ: بَلْ قُولِي: أَنَا مَجْنُونَةٌ بـ (أَنَا)؛ أَفَلَا يَجُوزُ وَأَنْتِ خَلَقْتَ مِنَ الْخَلْقِ أَنْ يَغْتَرِبَ عَقْلُكَ شَيْءٌ مِمَّا يَعْتَرِي الْعُقُولَ؟ وَلَسْنَا نُكْزِرُ أُنْثَى قُوَّةُ الرَّأْيِ فِي نَاحِيَةِ الْقُوَّةِ، حَسَنَةُ التَّدْبِيرِ فِي نَاحِيَةِ الشَّجَاعَةِ، مُتَجَاوِزَةُ الْمِقْدَارِ فِي نَاحِيَةِ الْحَزْمِ وَالْجُرْأَةِ عَلَى مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ؛ وَلَكِنْ أَلَمْ يَقُلِ الْحُكَمَاءُ: إِنَّ الزِّيَادَةَ الْمُسْرِفَةَ فِي جِهَةٍ مِنَ الْعَقْلِ، تَأْتِي مِنَ النِّقْصِ الْمُتَحَيِّفِ لِجِهَةٍ أُخْرَى؛ وَإِنَّهُ رُبُّ عَقْلٍ كَانَ تَامًا غَبْرَقِيًّا فِي أُمُورٍ، لِأَنَّهُ ضَعِيفٌ أَبْلَهُ فِي غَيْرِهَا؛ يُحْسِنُ فِي تِلْكَ مَا لَا يُحْسِنُهُ أَحَدٌ، وَيُحْكِمُ مِنْهَا مَا لَا يُحْكِمُهُ أَحَدٌ، ثُمَّ يَغْلُطُ فِي الْأُخْرَى مَا لَا يَغْلُطُ أَحَدٌ فِيهِ؟

قَالُوا: فَجَاشَتْ الْعِزُّ وَفَارَتْ مِنَ الْغَضَبِ قُوَّةُ الْجَبَّارِ، وَخُيِّلَ إِلَيْهَا مِنْ عَمَى الْغَيْظِ أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَأَنْ زَنَمَتْهَا أَمْتٌ مِنْهَا خُرُطُومٌ طَوِيلٌ، وَأَنْ قَرَنِيهَا انْتَبَجَحَ مِنْهُمَا نَابَانِ عَظِيمَانِ؛ وَقَالَتْ: وَيُحْكِمُ! خَذُوا هَذِهِ (الْعِمَامَةَ) فَاسْتَقْوَاهَا؛ فَإِنَّهَا كَمَا قَالَتْ؛ تَقَدَّمَتْ إِلَيْنَا بِالرَّأْيِ وَالْحَبْلِ...!

وَكَانَ فِي الْعَطَاءِ ضِعَافٌ وَمَهَازِيلُ وَجُبْنَاءُ، وَمَأْكُولُونَ لِكُلِّ أَكَلٍ؛ فَتَشَبَّحَ^(١) لَهُمْ أَنْ أَنْشَى الْفِيلَ هَذِهِ... سَتَخْلُقُهُمْ قَيْلَةٌ إِنْ هُمْ أَطَاعُوهَا؛ فَإِذَا مَرَدُّوا عَلَيْهَا فَإِنَّهَا مِنْ صِرَاطَةِ الْبَاسِ بَحِيثٌ تَجْعَلُ كُلَّ ظُلْفٍ مِنْ أَظْلَانِهَا جِبَالًا فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ فَتَسُوخُ بِهِمُ الْأَرْضَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ انْخَزَلُوا وَتَرَجَّعُوا، وَأَخَذَتْ (الْعِمَامَةُ) الصَّالِحَةَ فَشَبَّحَتْ، وَحَمَدَ الرَّأْيَ مِنْ بَعْدِهَا، وَانْقَطَعَ الْخِلَافُ وَالذِّينُ وَالْعَقْلُ الْحَزْمُ...؛ وَأَقْبَلَتْ دَوْلَةُ الْعَطَاءِ عَلَى الْعِزِّ تُجَرِّزُ أَذْيَالَهَا.

قَالُوا: وَاغْتَرَبَتِ الْمَاعِزَةُ وَأَحْسَنَتْ لَهَا وَجُودًا لَمْ يَكُنْ، وَعَرَفَتْ لِنَفْسِهَا وَهِيَ مَاعِزَةٌ نَبَاطَةٌ شَأْنُ الْفِيلِ الْقَوِي، فَلَجَّتْ فِي عَمَائِيَّتِهَا وَكَفَّرَتْ بِجَنْسِهَا، وَقَالَتْ: لَمْ يَخْلُقْنِي اللَّهُ قَيْلَةً وَخَلَقْتُ نَفْسِي؛ فَأَنَا لَا هُوَ...!

(١) أَيِ خَيْلٍ إِلَيْهِمْ وَتَمَثَّلَ.

وَبُتَّ عَنْهَا أَنَّهُ لَيْسَتْ بِعَنْزٍ وَإِنْ أَشْبَهَتْهَا كُلُّ عَنْزٍ فِي الدُّنْيَا؛ وَذَهَبَتْ تُقْلَدُ وَتَعْمِشُ عَلَى مَذَاهِبِ الْفِيلَةِ بَيْنَ الْعِظَاءِ؛ فَإِذَا مَشَتْ ارْتَجَّتْ وَتَخَطَّرَتْ كَأَنَّهَا بِنَاءٌ يَتَقَلَّقُ، وَإِذَا اضْطَجَعَتْ أُنْذِرَتْ الْأَرْضُ أَنَّ تَمْسُكَ لَا تَذْكُهَا بِجَنِّهَا . . . !

وَمَرَّ ذَلِكَ الْفِيلُ بِهَذَا الْخَرَابِ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَاذَتْ الْعِظَاءُ كُلُّهُنَّ بِالْفِيلَةِ . . . وَتَأَهَّبَتْ هَذِهِ لِلْقِتَالِ، وَتَحَصَّنَتْ فِي الْمِبَارِزَةِ وَالْمَنَاجِزَةِ . . . (وَالْمَعَانِزَةِ) فَتَضَبَّتْ قَرْنِيهَا، وَحَزَنْتْ زَنْمَتَهَا، وَطَاطَأَتْ، وَشَدَّتْ أَظْلَافَهَا فِي الْأَرْضِ، وَثَبَّتْ قَوَائِمَهَا، وَصَلَبَتْ عِظَامَهَا، وَنَفَسَتْ شَعْرَهَا، وَتَشَوَّكَتْ كَالْقَنْفِذِ، وَأَصْرَتْ بِكُلِّ ذَلِكَ إِصْرَارَهَا، وَكَانَتْ عَنْزًا نَطِيحَةً مِمَّنْ كَانَتْ تَتَّبِعُ أُمَّهَا وَتَتْلُوهَا، فَكَيْفَ بِهَا وَقَدْ تَفَلَّتْ . . . ؟

ثُمَّ إِنَّهَا ثَبَّتَتْ فِي طَرِيقِ الْفِيلِ لِيَرَى بَعِينِهِ هَذَا الْهَوُولَ الْهَائِلَ . . . فَأَقْبَلَ فَمَدَّ خَرطُومَهُ، فَنَالَهَا بِهِ، فَلَفَّهَا فِيهِ، فَحَبَّضَهُ، فَرَفَعَهُ، فَطَوَّحَهَا، فَكَأَنَّمَا ذَهَبَتْ فِي السَّمَاءِ . . . !

وَتَهَارَزَتِ الْعِظَاءُ وَلُذْنَ بِأَجْحَارِهِنَّ، ثُمَّ عَدَوْنَ عَلَى رِزْقِهِنَّ؛ فَإِذَا جِيفَةُ الْعَنْزِ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَدَبَّيْنِ عَلَيْهَا وَارْتَعَيْنِ فِيهَا، وَعَلِمْنَ أَنَّهَا كَانَتْ مَاعِزَةً قِيلَهَا جَنُوتُهَا، وَأَدْرَكْنَ أَنَّ الْكَذِبَ عَلَى الْحَقَائِقِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ حَقَائِقَ أُخْرَى تَقْتُلُهُ، وَأَنَّ مَنْ غَلَبَ أُمَّةَ الْعِظَاءِ عَلَى أَمْرِهَا فَلَيْسَتْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي عِظَاءً فِيغْلِبُهَا؛ وَأَنَّ تَغْيِيرَ الْمَخْلُوقَاتِ، إِنَّمَا يَكُونُ بِتَحْوِيلِ بَاطِنِهَا لَا بِتَحْوِيلِ ظَاهِرِهَا، وَأَنَّ الْإِنَاءَ الْأَحْمَرَ يُرِيكَ الْمَاءَ مُحْمَرًا وَالْمَاءَ فِي نَفْسِهِ لَا حُمْرَةَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا انْكَسَرَ الْإِنَاءُ ظَهَرَ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ؛ وَكُلُّ مَا يُخْفِي الْحَقُّ هُوَ كَهَذَا الْإِنَاءِ: لَوْ عَلَى الْحَقِّ لَا فِيهِ؛ ثُمَّ أَيْقَنَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِخْرَاجِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ مِنْ نَزْعَاتٍ مَاعِزَةٍ مَافُوتَةٍ، هِيَ كَمُحَاوَلَةِ اسْتِيلَادِ الْفِيلِ مِنَ الْمَاعِزَةِ . . . !

قَالَ كَلِيلَةُ: وَاعْلَمْنَا يَا دِمْنَةُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْعَنْزَ الْحَمَقَاءَ قَدْ كَفَرَتْ كُفْرَ الذِّبَابَةِ، لَمَا أَخَذَهَا اللَّهُ أَخَذَ الذِّبَابَةِ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّ ذِبَابَةَ سُودَاءَ كَانَتْ مِنْ خَفَقَى الذُّبَابَانِ، فَذَرَبَتِ الْحَمَاقَةَ عَلَيْهَا أَبَدِيَّةً، فَلَمَّا انْقَلَبَتْ نَقْطَةً حَبِيرٍ فِي دَوَاةٍ لَمَّا كُتِبَتْ بِهَا إِلَّا كَلِمَةُ سَخَفٍ.

وَوَقَعَتْ هَذِهِ الذِّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ امْرَأَةٍ زَنْجِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، فَجَعَلَتْ تُقَابِلُ بَيْنَ نَفْسِهَا وَبَيْنَ الْمَرَأَةِ؛ وَقَالَتْ: إِنَّ هَذَا لِمِنْ أَدْلِ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ فُرُوسِي لَا يُنَظَّمُ فِيهِ، وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ كَيْفَ يَتَّقُو عَلَى مَا يَتَّقُ، عَبَثًا فِي عِبَثٍ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ كَذَّبُوا النَّاسَ،

إذ كيف يستوي في الحكمة خَلْقِي (أنا) وخلق هذه الذبابة الضخمة التي أنا فوقها... ؟
 ثم نظرت ليلة في السماء، فأبصرت نجومها يتلألأ وبينها القمر؛ فقالت:
 وهذا دليل آخر على ما تحقق عندي من فوضى العالم، وكذب الأديان، وعَبَثِ
 المصادفات؛ فما الإيمان بعينه إلا الإلحاد بعينه، ووضع العقل في شيء هو إيجاد
 الألوهية فيه، وألا فكيف يستوي في الحكمة وضعي (أنا) في الأرض ورفع هذا
 الذبان الأبيض وغسوه الكبير^(١) إلى السماء... ؟

ثم إنها وقعت في دار فلاح، فجعلت تمور فيها ذهاباً وجيئة، حتى رجعت
 بقرة الفلاح من مرعاها، فبهتت الذبابة وجمدت على غزتها من أول النهار إلى
 آخره، كأنها تزاوُل عملاً؛ فلما أمست قالت: وهذا دليل أكبر الدليل على فوضى
 الأرزاق في الدنيا، فهاتان ذبابتان قد ثقيتا ثَقْبَيْنِ في وجه هذه البقرة... واكتئبتا
 فيهما تأكلان من شحهما فتعظمان سمنا؛ والناس من جهلهم بالعلم الذبابي
 يسمونها عينين. وأنا قضيت اليوم كله أخيش وأعض والسَّع لأثقب لي ثقباً مثلهما
 فما انتزعث شعرة؛ فهل يستوي في الحكمة رزقي (أنا) ورزق هاتين الذبابتين في
 وجه البقرة... ؟

ثم إنها رأت خُنُفساء تدب دبيبها في الأرواث والأقذار؛ فنظرت إليها
 وقالت: هذه لا تَصْلُح دليلاً على الكفر؛ فلاني (أنا) خير منها؛ (أنا) لي أجنحة
 وليس لها، (وأنا) خفيفة وهي ثقيلة؛ وما كأنها إلا ذبابة قديمة من ذباب القرون
 الأولى، ذلك الذي كان بليداً لا يتحرك فلم تجعل له الحركة جناحاً^(٢). ثم إنها
 أضعت فسمعت الخنفساء تقول لأخرى وهي تحاورها: إذا لم يجد المخلوق أنه
 كما يشتهي فليكفر كما يشتهي؛ يا ويحنا! لِمَ لم نكن جاموساً كهذا الجاموس
 العظيم، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وجد من يتفخه ولم نجد... ؟

فقالت الذبابة: إن هذا دليل العقل في هذه العاقلة، ولعمري إنها لا تمشي
 مثاقلة من أنها بطيئة مرهقة بعجزها، ولكن من أنها وقورٌ مُثَقَلَةٌ بأفكارها، وهي
 الدليل على أي (أنا) السابقة إلى كشف الحقيقة... !

وجعلت الذبابة لا يُسمع من دذنتها إلا، أنا، أنا، أنا... من كفر إلى كفر
 غيره، إلى كفر غيرهما؛ حتى كأن السماوات كلها أصبحت في معركة مع ذبابة...

(١) اليعسوب: أمير النحل والذبان ونحوهما، خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض....

(٢) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما زعموا.

ثُمَّ جَاءَتِ الْحَقِيقَةُ إِلَى هَذَا الْإِلْحَادِ الْأَحْمَقِ تَسْمَى سَعْيَهَا؛ فَيَبِينَا الذَّبَابَةُ عَلَى
وَجْهِ حَائِطٍ، وَقَدْ أَكَلَتْ بَعُوضَةً أَوْ بَعُوضَتَيْنِ، وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا، فَوَقَفَتْ تَحْكُ
ذِرَاعَهَا بِذِرَاعِهَا - دَنَتْ بَطَّةً صَغِيرَةً قَدْ انْفَلَقَتْ عَنْهَا الْبَيْضَةُ أَمْسَ، فَمَدَّتْ مَنَاقِرَهَا،
فَالْتَقَطَتْهَا .

وَلَمَّا انْطَبَقَ الْمَنَاقِرُ عَلَيْهَا قَالَتْ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَ الْبَطَّةَ . . . !

يا شباب العرب! (*)

يقولون: إن في شباب العرب شيخوخة الهَمِّ والعزائم؛ فالشبان يمتدّون في حياة الأمم وهم ينكمشون.

وإنّ اللهو قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياة الجدِّ، فأهمّلوا الممكنات فرجعتْ لهم كالمستحيلات.

وإنّ الهزل قد هوّن عليهم كلّ صَغْبَةٍ فاختصروها؛ فإذا هزؤوا بالعدو في كلمة فكأنما هزموه في معركة...

وإنّ الشابّ منهم يكون رجلاً تامّاً، ورجولة جسمه تحتجّ على طفولة أعماله. ويقولون: إنّ الأمر العظيم عند شباب العرب ألا يحملوا أبداً تبعاً أمرٍ عظيم.

ويزعمون أنّ هذا الشباب قد تَمَّتِ الألفَةُ بينه وبين أغلاطه، فحياته حياة هذه الأغلاط فيه.

وأنه أبرع مُقلِّدٍ للغرب في الرذائل خاصّة؛ وبهذا جعله الغرب كالحيوَان محصوراً في طعائمه وشرابه، ولذاته.

ويزعمون أنّ الزجاجة من الخمر تعملُ في هذا الشرق المسكين عمل جنديٍّ أجنبيٍّ فاتح...

ويتواصّون بأنّ أول السياسة في استعباد أمم الشرق، أن يتركّ لهم الاستقلال التام في حرية الرذيلة...

ويقولون: إنّه لا بدّ في الشرق من آلتين للتخريب: قوة أوروبا، ورذائل أوروبا.

يا شباب العرب! من غيركم يُكذَّب ما يقولون ويزعمون على هذا الشرق المسكين؟

مَنْ غيرُ الشباب يضعُ القوةَ بإزاءِ هذا الضعف الذي وصفوه لتكونَ جواباً عليه؟

(*) أنشأها في إبان ثورة فلسطين لحقها سنة ١٩٣٦.

من غيركم يجعلُ النفوسَ قوانينَ صارمةً، تكونُ المادةُ الأولى فيها: قَدَرْنَا
لأننا أردنا؟

ألا إنَّ المعركةَ بيننا وبين الاستعمارِ معركةٌ نفسيةٌ، إنَّ لم يُقتلْ فيها الهزلُ قُتِلَ
فيها الواجبُ!

والحقائقُ التي بيننا وبين هذا الاستعمارِ إنما يكونُ فيكم أنتم بحثُها
التحليلي، تكذبُ أو تُصدقُ.

الشبابُ هوَ القوةُ؛ فالشمسُ لا تملأُ النهارَ في آخره كما تملؤه في أوله.
وفي الشبابِ نوعٌ من الحياةِ تَظهرُ كلمةُ الموتِ عندهُ كأنها أختُ كلمةِ النومِ.
وللشبابِ طبيعةٌ أولُ إدراكها الثقةُ بالبقاء، فأولُ صفاتها الإصرارُ على العزمِ.
وفي الشبابِ تَصْنَعُ كُلُّ شجرةٍ من أشجارِ الحياةِ أثمارها؛ وبعدَ ذلك لا تصنعُ
الأشجارُ كلها إلا خشباً...

يا شبابَ العربِ! إجعلوا رسالتكم: إما أن يحيا الشرقُ عزيزاً، وإما أن تموتوا.

أنقذوا فضائلنا من ردائلِ هذه المدنيةِ الأوروبية، تُنقِذُوا استقلالنا بعدَ ذلك،
وتنقذوه بذلك.

إنَّ هذا الشرقَ حينَ يدعو إليه الغربُ؛ «يدعو لمن ضَرَّهُ أقربُ من نفعِهِ؛
لبئسَ المولى ولبئسَ العشيرُ».

لبئسَ المولى إذا جاءَ بقوته وقوانينه، ولبئسَ العشيرُ إذا جاءَ برذائله وأطماعه.
أيُّها الشرقيُّ! إنَّ الدينارَ الأجنبيَّ فيه رصاصةٌ مخبوءة، وحقوقنا مقتولةٌ بهذه الدنانيرِ.
أيُّها الشرقيُّ! لا يقولُ لك الأجنبيُّ إلا ما قال الشيطانُ: «وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْنَكُمْ فَتُجِيبُنَّ» [إبراهيم: ٢٢].

يا شبابَ العربِ! لم يكن العسيرُ يَغْسُرُ على أسلافكم الأولين، كأنَّ في يدهم
مفاتيحَ من العناصرِ يفتحون بها.

أتريدونَ معرفةَ السرِّ؟ السرُّ أنَّهم ارتفعوا فوقَ ضعفِ المخلوق، فصاروا عملاً
من أعمالِ الخالقِ.

غَلَبُوا عَلَى الدُّنْيَا لَمَّا غَلَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَعْنَى الْفَقْرِ، وَمَعْنَى الْخَوْفِ،
وَالْمَعْنَى الْأَرْضِي .

وَعَلَّمَهُمُ الدِّينَ كَيْفَ يَعِيشُونَ بِاللَّذَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي وَضَعَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ
عَظَمَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ .

وَاخْتَرَعَهُمُ الْإِيمَانُ اخْتِرَاعاً نَفْسِيّاً، عَلَامَتُهُ الْمُسَجَّلَةُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ هَذِهِ
الْكَلِمَةُ: لَا يَذِلُّ .

حِينَ يَكُونُ الْفَقْرُ قِلَّةَ الْمَالِ، يَفْتَقِرُ أَكْثَرُ النَّاسِ، وَتَنْخِذِلُ الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةَ،
وَتَهْلِكُ الْمَوَاقِبُ .

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ فَقْرُ الْعَمَلِ الطَّيِّبِ، يَسْتَطِيعُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَغْتَنِي، وَتَتَبَعُ
الْقُوَّةُ وَتَعْمَلُ كُلَّ مَوْهَبَةٍ .

وَحِينَ يَكُونُ الْخَوْفُ مِنْ نَقْصِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَالْآمِيهَا، تَفْسُرُ كَلِمَةَ الْخَوْفِ مَائَةً
رَذِيلَةً غَيْرِ الْخَوْفِ .

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ مِنْ نَقْصِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَعَذَابِهَا، تُصْبِحُ الْكَلِمَةُ قَانُونٌ
الْفَضَائِلِ أَجْمَعِ .

هَكَذَا اخْتَرَعَ الدِّينُ إِنْسَانَهُ الْكَبِيرَ النَّفْسِ الَّذِي لَا يُقَالُ فِيهِ: انْهَزَمَتْ نَفْسُهُ .

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ! كَانَتْ حِكْمَةُ الْعَرَبِ الَّتِي يَعْمَلُونَ عَلَيْهَا: أَطْلُبِ الْمَوْتَ
تَوَهَّبْ لَكَ الْحَيَاةَ .

وَالنَّفْسُ إِذَا لَمْ تَخْشَ الْمَوْتَ كَانَتْ غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ أَوَّلَ غَرَائِزِهَا تَعْمَلُ .

وِلِلْكِفَاحِ غَرِيزَةُ تَجْعَلُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا نَصْراً، إِذْ لَا تَكُونُ الْفِكْرَةُ مَعَهَا إِلَّا
فِكْرَةٌ مُقَاتِلَةٌ .

غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ يَا شَبَابَ، هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ الْأَسَدَ لَا يُسَمَّنُ كَمَا تَسَمَّنُ الشَّاةُ
لِلذَّبْحِ .

وَإِذَا انْكَسَرَتْ يَوْماً، فَالْحَجَرُ الصُّلْدُ إِذَا تَرَضَّرَضَتْ مِنْهُ قِطْعَةٌ كَانَتْ دَلِيلاً
يَكْشِفُ لِلْعَيْنِ أَنَّ جَمِيعَهُ حَجَرٌ صُلْدٌ .

يا شباب العرب! إن كلمة (حقّي) لا تحيا في السياسة إلا إذا وضع قائلها حياته فيها.

فالقوة القوة يا شباب! القوة التي تقتل أول ما تقتل فكرة الترف والتخنث.
القوة الفاضلة المتسامية التي تضع للانصار في كلمة (نعم) معنى نعم.
القوة الصارمة النفاذة التي تضع للأعداء في كلمة (لا) معنى لا.
يا شباب العرب اجعلوا رسالتكم: إما أن يحيا الشرق عزيزاً، وإما أن تموتوا.

لَوْ...!

رَأَيْتُنِي جَالِسًا فِي مَسْرَحِ هَزْلِي بِمَدِينَةِ اسْكَندَرِيَّةِ، كَمَا يَجْلِسُ الْقَاضِي فِي جَرِيمَةٍ يَحْمِلُ أَهْلُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَثَامَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَيَحْمِلُ هُوَ عَقْلَهُ وَحُكْمَهُ.
وَقَدْ ذَهَبْتُ لِأَرَى كَيْفَ يَسَاحِفُ أَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ؛ فَكَانَ حُكْمِي أَنَّ السَّخَافَةَ عِنْدَنَا سَخِيفَةٌ جَدًّا... .

رَأَيْتُهُمْ هُنَاكَ يَنْقُدُونَ الْعِيُوبَ بِمَا يُنْشِئُ عِيُوبًا جَدِيدَةً، وَيَسْتَبَحُونَ بِأَيْدِيهِمْ سِبَاحَةً مَاهِرَةً؛ وَلَكِنْ عَلَى الْأَرْضِ لَا فِي الْبَحْرِ، وَتَكَادُ نَظَرَتُهُمْ إِلَى الْحَقِيقَةِ الْهَزْلِيَّةِ تَكُونُ عَمَى ظَاهِرًا عَمَّا هِيَ بِهِ حَقِيقَةُ هَزْلِيَّةٍ؛ وَلَا غَايَةَ لَهُمْ مِنْ هَذَا التَّحْشِيلِ إِلَّا الرُّقَاعَةَ وَالْإِسْفَافَ وَالْخَلْطَ وَالْهَذْيَانَ، إِذْ كَانَ هَذَا هُوَ الْأَشْبَهُ بِجُمْهُورِهِمْ الَّذِي يَحْضُرُهُمْ، وَكَانَ هُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى تِلْكَ الطَّبَاعِ الْعَامِيَّةِ الْبَلِيدَةِ الَّتِي اعْتَادَتْ مِنْ تَكْلُفِ الْهَزْلِ مَا جَعَلَهَا هِيَ فِي ذَاتِ نَفْسِهَا هَزْلًا يُسَخَّرُ مِنْهُ.

وَلَا أَسْخَفَ مِنْ تَكْلُفِ النِّكْتَةِ الْبَارِدَةِ قَدْ خَلَتْ مِنَ الْمَعْنَى، إِلَّا تَكْلُفُ الضَّحْكِ الْمَصْنُوعِ يَأْتِي فِي عَقِبِهَا كَالْبَرْهَانِ عَلَى أَنَّ فِي هَذِهِ النِّكْتَةِ مَعْنًى.

فَالْفَنُّ الْمَضْجُكُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ، إِنَّمَا هُوَ السَّخْفُ الَّذِي يُوَافِقُونَ بِهِ الرُّوحَ الْعَامِيَّةَ الضَّئِيلَةَ الْكَاذِبَةَ الْمَكْذُوبَ عَلَيْهَا، الَّتِي يَبْلُغُ مِنْ بَلَاهَتِهَا أحيانًا أَنْ تَضْحَكَ لِلنِّكْتَةِ قَبْلَ الْقَائِمِهَا، لِقَرْطِ خَفَّتِهَا وَزَعُونَتِهَا، وَطَوَّلِ مَا تَكْلُفَتْ وَاعْتَادَتْ. فَمَا ذَلِكَ الْفَنُّ إِلَّا مَا تَرَى مِنَ التَّخْلِيلِ فِي الْأَلْفَاظِ، وَالتَّضْرِيبِ بَيْنَ الْمَعَانِي، وَإِبْقَاعِ الْغُلْطِ فِي الْمَعْقُولَاتِ؛ ثُمَّ لَا تُؤْمَ بِعَدِّ هَذَا. فَلَا دَقَّةَ فِي التَّأْلِيفِ، وَلَا عُمُقَ فِي الْفِكْرَةِ، وَلَا سِيَاسَةَ فِي جَمْعِ النِّقَاطِصِ، وَلَا نَفَازَ فِي أَسْرَارِ النَّفْسِ، وَلَا جِدًّا يُؤْخَذُ مِنْ هَزْلِيَّةِ الْحَيَاةِ، وَلَا عِظَمَةً تُسْتَخْرَجُ مِنْ صَغَائِرِهَا، وَلَا فِلَسَفَةً تُعْرَفُ مِنْ حِمَاقَاتِهَا.

وَالْفَرْقُ بَعِيدٌ بَيْنَ ضَحْكِ هُوَ صِنَاعَةُ ذِهْنٍ لِتَحْرِيكِ النَّفْسِ، وَشَخْذِ الطَّبِيعِ، وَتَصْوِيرِ الْحَقِيقَةِ صُورَةً أُخْرَى، وَبَيْنَ ضَحْكِ هُوَ صِنَاعَةُ الْبَلَاهَةِ لِلْهَوَى وَالْعَبَثِ، وَالْمَجَانَةِ لَا غَيْرَ.



وكان معي قريبٌ من أذكىاء الطلبة المتخصصين لِلآدابِ الإنجليزية، فلم نلبث إلّا يسيراً حتى جاء ثلاثةٌ من ضباطِ الأسطولِ الإنجليزي، فجلسوا بحذائنا صفّاً تلوحُ عليهم مخايلُ الظفر، ولهم وقَارُ البطولة، وفيهم أرواحُ الحرب؛ وهم يبدون في ثيابهم البيضِ المطرأة^(١) كأنهم ثلاثةٌ تُسورُ هبطت من الغمام إلى الأرض، فلا عينها نظراتٌ تدورُ هنا وهناك تُنكرُ وتُعرف.

وأعجبني أن أراهم في هذا المكان الهزلي الممتلئ بالضعفاء، كأنهم ثلاث حقائق بين الأغلاط، أو ثلاث أغلاط كبيرة... وكان أبدع ما أراه على هيئة وجوههم وأسْرَ له، تواضعُ هذا الاستعدادِ الحربي وتحوُّله إلى استعدادٍ للسخرية..

ثم تأملتُهم طويلاً؛ فإذا صرامةً وشهامةً، وسكينةً ودّاعة، وحسنُ سَمْت وحلاوةٌ هيئةً في جلّسةٍ رزينةٍ متوقّرة، لا يُشبهها في حسنِ النفسِ التي تعرفُ معاني القوةِ إلّا وضعُ ثلاثة مدافعٍ مُصوّبة.

وجعلتُ أقلبُ عيني في الناسِ الموجودين ومَلامِجهم وهيئاتهم، ثم أرجعُ البصرَ إلى هؤلاء الثلاثة، فأرى المصري كالمقتنع بأنّه محدودٌ بمدينة أو قرية لا يعرفُ لنفسه مكاناً في غيرهما، فهو من ثم لا يرحل ولا يُغامر، ولا تتقاذفه الدنيا؛ وأرى الإنجليزي كالمقتنع بأنّ كل مكانٍ في العالم ينتظرُ الإنجليزي...

وخيل إليّ والله أن رجلاً من هؤلاء الإنجليز الأقوياء المعتقدين بأنفسهم لا يُهاجرُ من بلاده إلّا ومعهُ نفسه واستقلاله، وتاريخه وروح دولته، وطبيعته أرضه؛ فهو مستيقن أن الله لا يرزقه رزقاً أي الرزق كان على ما يتفق، بل رزقاً إنجليزياً: أي فيه كفايته.

ورأيت شيئاً عجيباً من الفرقِ بين طابع السُّلم على وجوه، وبين طابع الحرب على وجوه أخرى؛ ففي تلك معاني السهولة والملاينة والجزص على مادة الحياة، وفي هذه معاني العزم والمقاومة والجزص على مجد الحياة لا على ماديتها.

وتبينتُ أسلوبين من الأساليب الاجتماعية: أحدهما في فردٍ قد بنى أمره على أن أمةً تحمله، فهو يعيش بأضعف ما فيه: والآخر في فردٍ قد وضع الأمر على أنه هو يحمل أمةً فلا يدعُ في نفسه قوةً إلّا ضاعفها.

(١) أي المكوبة؛ والكلمة العربية التي استعملت قديماً في معنى (المكوجي) هي: المطري (بتشديد الراء).

وعرُفْتُ وجهين من وجوه التربية السياسية: أحدهما بالطنطنة، والتهويل والصُراخ، واستعارة ألفاظ غير الواقع للواقع، وتحميل الألفاظ غير ما تحمل؛ والآخر بالهدوء الذي يَهْفُهُ الحوادث، والصبر الذي يغلبُ الزمن، والعقيدة التي تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعلُ أعظم أجره عليها أن يقوم بها.

وميّزت بين أثرين من آثار الأرض في أهلها: أحدهما في المصري السُّنح الوداع الألف الحبي الذي هو كَرَم الطبيعة، والآخر في الإنجليزي العسير المغامِر الثَّور الملح على الدنيا كأنه تطفُل الطبيعة...



والتقى ابنُ العم الذي كان معي سمعه إلى هؤلاء الضباط، وهم من فلاسفة الرأي على ما يظهر من حديثهم، ثُمَّ نقل إليَّ عنهم، فقال كبيرهم: لقد فرغْتُ من بحثي الذي وضعته في فلسفة حُمُول الشرقيين، وأفضيتُ منه إلى حقائق عجيبة، أظهرها وأخفاها معاً أن أمة من هذه الأمم لا يُمْكِنُ للأجنبي فيها، ولا تنقُلُ وطائفة عليهم، ولا يطولُ ثَوَاؤُهُ في أرضهم، ولا يحتلها مَنْ يطمعُ فيها، ما لم يكن سادتها وأمرؤها وكبراؤها كأنهم فيها دولة محتلة.

وهؤلاء الكبراء هم أفَّة الشرق؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيد في تعظيمهم، وأن نمدَّ لهم في المال والجاه، ونَبْسُطَ لهم اليمين والشمال، ونُوهِمَهُمْ أَنْ عَظَمَتَهُمْ هكذا وَلِدَتْ فيهم وهكذا وَلَدُوا بها من أمهاتهم كما وَلَدُوا بأيديهم وأرجلهم... وخاصةً عظماء رجال الأديان المفتونين بالدنيا؛ فلأننا نصنعُ بغيرِ الجميع وسخافاتهم وجرصهم وطمعهم أشياء اجتماعية ذات خطرٍ لا يصنعُ لنا مثلها إلا الشياطينُ وَمَنْ لنا بالحكم على الشياطين؟ وهذا ما تنبَّه له (غاندي) ذلك المهزول الهندي الذي تُقَوِّمُ دنياه بأربعة شلنات، ولا يزنُ أكثر من بضعة أرطالٍ من الجلد والعظم، ولا بطش عنده ولا قوة فيه، وهو مع ذلك جبارٌ سماوي في يده البرق والرعد يرى ويسمعُ في أرجاء الدنيا.

قال ضابطُ اليمين: وبصناعة الكبرياء هذه الصناعة يكون رجلُ الشعب من هؤلاء الشرقيين رجل تقليدٍ بالطبيعة، ورجل ذُلٍّ بالحالة، ورجل خُضوعٍ بالجملة؛ فليس في نفسه أنه سيدٌ نفسه ولا سيدٌ غيره، بل أكبرُ معانيه أن غيره سيدٌ عليه فيكون معه دائماً خيالُ استعباده.

وتكلَّم ضابطُ اليسار: ولكنَّ المترجم لم يميز أقواله، لأن ثلاث عشرة امرأة كنَّ

يصرخُنْ في الرواية الهزلية بلحنٍ طويل يقلُنْ في أوله: «عاوزين رَجالة تَذَلُّعنا...»
وكانتِ الموسيقى تصرُخُ معهُنْ وتُولولُ كأنها هي أيضاً امرأة محرومة...

ثُمَّ أرهفَ المترجمُ أذنه فقال كبيرهم: إنَّ لهؤلاء الشرقيين سِتَّ حواسٍ:
الخمسةُ المعروفة، وحاسةُ الخمولِ الذي خدَعَتْهم عنه الطبيعةُ البليدةُ فسَمُوهُ الترفَ
والهزلَ واللهو؛ والامةُ الأوروبيةُ التي تحتلُ بلاداً شرقيةً تجدُ فيها لصغائرِ الحياةِ
جيشاً أقوى من جيشها؛ فعشرةُ آلاف جنديٍّ بَعَادِهِم وآلاتِهِم، لا يصنعون شيئاً إلا
الاستفزازَ والتحدِّي وإثباتَ أنَّهم غاصبون؛ ولكن ما أنت قائلٌ في عشرة آلاف مكانٍ
كهذا المسرحِ براقصاته وموسياته وخموره ورواياته، وبهؤلاء الرجالِ المخنثينِ
الهزليينِ الرُقعاءِ الذين هم وحدهم معاهدةٌ سياسيةٌ ناجحةٌ بيننا وبين شبابِ الأمة...؟
قال ضابطُ اليمين: نعم إنَّ فنَّ الاحتلالِ فنٌّ عسكريٌّ في الأول، ولكنَّهُ فنٌّ
أخلاقيٌّ في الآخر؛ ولهذا يجبُ تعيينُ نقطةِ اتجاهٍ للشبابِ تكونُ مضيئةً لامعةً جذابةً
مُغريةً؛ ولكنَّها في ذاتِ الوقتِ مُحْرِقةٌ أيضاً، وهذه هي صناعةُ إهلاكِ الشبابِ
بالضوءِ الجميل، وما على السياسي الحاذقِ في الشرقِ إلا أن يحميَ الرذيلةَ، فإنَّ
الرذيلةَ ستعرفُ له صنيعه وتحميه..

فنكلَّمُ ضابطُ اليسار، ولكنَّ صوتهُ ذهبَ في عشرين صوتاً من رجالِ المسرحِ
ونسائه يصبحون جميعاً: «يا حلوة يا خُفافي، يا مجنَّته الشبان...».

ولمَّا ألممتُ بحوارِ الضباطِ الثلاثة قلْتُ لصاحبي: استأذِنْ لي عليهم
أكلهم. ففعل وعزفني إليهم، وترجمَ لهم مقالةً (يا شبابِ العرب) وكان يحملُها.
فكأنما رماهم منها بالجيشِ والأسطول.

ثُمَّ قلْتُ لكبيرهم: لستُ أنكرُ أنَّ الإنجليزيَّ لو دخل جهنَّمَ لدخلها إنجليزياً.
ولا أجدُّ أنَّ له في الحياة مثلَ بدايةِ الحيوان، لأنَّهُ رجلٌ عمليٌّ: دليلُ منفعةٍ أنَّها
منفعةٌ وحسبُ، ثُمَّ لا دليلَ غيرَ هذا ولا يقبلُ إلا هذا. فإذا قال الشرقيُّ: حقِّي،
وقال الإنجليزيُّ: منفعتي، بطلَّت الأدلةُ كُلُّها، ورأى الشرقيُّ أنَّه معَ الإنجليزيِّ
كالذي يُحاولُ أن يُقنِعَ الذئبَ بقانونِ الفضيلةِ والرحمةِ.

وقد عرفنا أنَّ في السياسة عجائب، منها ما يُشبهُ أن يُلْقَى إنسانٌ إنساناً فيقول
له: يا سيدي العزيز، بكلِّ احترامٍ أرجو أن تتلقَّى مني هذه الصفعة... .

وفي السياسة مواعيدٌ عجيبة، منها ما يُشبهُ غرسَ شجرةٍ للفقراء والمساكين،
والتوكيدُ لهم بالآيمان أنها ستثمرُ رُغفاناً مخبوزة... ثم بعد ذلك تُطعمُ فتُشمرُ
الرغفانُ المخبوزة حشوها اللحم والإدام...

وفي السياسة محاربةُ المساجد بالمراقص، ومحاربةُ الزوجات بالمومسات،
ومحاربةُ العقائد بأساتذة حرية الفكر، ومحاربةُ فنون القوة بفنون اللذة. ولكن لو
فهمَ الشباب أن أماكنَ اللهو في كلِّ معانيها ليست إلا غُذراً بالوطن في كلِّ معانيه!
ولو عرفَ الشباب أن محاربةَ اللهو هي أولُ المعركة السياسية الفاصلة!

ولو أدركَ الشباب أن أولَ حقِّ الوطن عليه أن يحمل في نفسه معنى الشعب
لا معنى نفسه!

ولو رجَعَ الدينُ الإسلامي كما هو في طبيعته آلة حربية تصنع من الشباب
رجال القوة!

ولو عَلِمَ الشباب أن روحَ هذا الدين ليست: اعتقذ ولا تعتقذ. ولكن افعل
ولا تفعل!

ولو أيقنَ الشباب أن فرائضَ هذا الدين ليست إلا وسائلَ عملية لامتلاء النفس
بمعاني التقديس!

ولو فهمَ الشباب أن ليس في الكون إلا هذه المعاني تجعل النفس فوق المادة
وفوق الخوف وفوق الذل وفوق الموت نفسه!

ولو بحثَ الشباب النفسَ الإنجليزية القويّة ليعرفَ بالبرهان أنها نصفُ مسلمة
فكيف بها لو كانت مسلمة؟...



وكان المترجمُ ينقلُ إليهم كلامي، فما بلغتُ إلى حيثُ بلغتُ، حتى شدَّ
الضابطُ على يدي وهزّها؛ فنظرتُ، فإذا أنا قد كنتُ نائماً بعدَ سهرةٍ طويلةٍ في ذلك
المرح، وإذا يدُ المترجمِ نفسه هي التي تهزّني لانتبه... .

في محنة فلسطين

أيُّها المسلمون!

نهَضَتْ فِلَسْطِينُ تَحِلُّ العَقْدَةَ الَّتِي عُقِدَتْ لَهَا بَيْنَ السِّيفِ، وَالْمَكْرِ، وَالذَّهَبِ.
عَقْدَةُ سِيَاسِيَّةٍ خَبِيثَةٍ، فِيهَا لِذَلِكَ الشَّعْبِ الْحُرِّ قَتْلٌ وَتَخْرِيبٌ، وَفَقْرٌ.
عَقْدَةُ الْحُكْمِ الَّتِي يَحْكُمُ بِثَلَاثَةِ أَسَالِيبٍ: الْوَعْدِ الْكَذِبِ، وَالْفَنَاءِ الْبَطِيءِ،
وَمَطَامِعِ الْيَهُودِ الْمَتَوَحِّشَةِ.
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! لَيْسَتْ هَذِهِ مَحْنَةُ فِلَسْطِينِ، وَلَكِنَّهَا مَحْنَةُ الْإِسْلَامِ؛ يُرِيدُونَ
أَلَّا يُيَسَّرَ شَخْصِيَّتُهُ الْعَزِيزَةُ الْحَرَّةُ.
كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ الْآنَ لِفِلَسْطِينِ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيُجَاهِدَ هُوَ أَيْضاً.



أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُجَاهِدُونَ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ أَخْلَاقَنَا هِيَ خُلْفَاؤُهُمْ فِي هَذَا
الْجِهَادِ.
أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمَنْكُوبُونَ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي نَكْبَتِهِمْ امْتِحَانٌ لِّضِمَامِنَا
نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً.
أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمَضْطَّهَدُونَ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ السِّيَاسَةَ الَّتِي أَذَلَّتْهُمْ تَسْأَلُنَا
نَحْنُ: هَلْ عِنْدَنَا إِقْرَارٌ لِلذَّلِّ؟
مَاذَا تَكُونُ نَكْبَةُ الْأَخِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ اسْماً آخَرَ لِمَرْوَةِ سَائِرِ إِخْوَتِهِ أَوْ مَذَلَّتِهِمْ؟
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينِ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيُفَرِّضَ عَلَى
السِّيَاسَةِ احْتِرَامَ الشُّعُورِ الْإِسْلَامِيِّ.



يَتَلَوُّهُمْ بِالْيَهُودِ يَحْمِلُونَ فِي دِمَائِهِمْ حَقِيقَتَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ: مِنْ ذُلِّ الْمَاضِي
وَتَشْرِيدِ الْحَاضِرِ.

ويحملون في قلوبهم نِقْمَتَيْنِ طاغيتين: إحداهما من ذهَبِهِمْ، والأخرى من رذائلِهِمْ.

وَيُخَبِّتُونَ فِي أَدْمَغِيهِمْ فِكْرَتَيْنِ خبيثتين: أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ أَقْلِيَّةً، ثُمَّ أَنْ يَكُونُوا بَعْدَ ذَلِكَ خَدَمَ الْيَهُودِ.

فِي أَنْفُسِهِمْ الْحَقْدُ، وَفِي خِيَالِهِمُ الْجَنُونُ، وَفِي عَقُولِهِمُ الْمَكْرُ، وَفِي أَيْدِيهِمُ الذَّهَبُ الَّذِي أَصْبَحَ لَيْمًا لِأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ. أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينَ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيَتَكَلَّمَ كَلِمَةً تَرُدُّ إِلَى هَؤُلَاءِ الْعَقْلِ.

إِيْتَلَوْهُمْ بِالْيَهُودِ يَمْرُوءٌ مَرُورَ الدَّانِيَةِ بِالرَّبَا الْفَاجِشِ فِي أَيْدِي الْفُقَرَاءِ. كُلُّ مِائَةِ يَهُودِيٍّ عَلَى مَذْهَبِ الْقَوْمِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مِائَةً وَسَبْعِينَ...

حَسَابُ خَبِيثٍ يَبْدَأُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا يَنْتَهِي أَبَدًا وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَقْلِ. وَالسِّيَاسَةُ وَرَاءَ الْيَهُودِ، وَالْيَهُودُ وَرَاءَ خِيَالِهِمُ الدِّينِيَّ، وَخِيَالُهُمُ الدِّينِيُّ هُوَ طَرْدُ الْحَقِيقَةِ الْمُسْلِمَةِ. أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينَ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيُثَبِّتَ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يُرِيدُونَ طَرْدَهَا.

يَقُولُ الْيَهُودُ: إِنَّهُمْ شَعْبٌ مُضْطَهَّدٌ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ. وَيَزْعُمُونَ: أَنَّ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَعِيشُوا أَحْرَارًا فِي فِلَسْطِينَ، كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ... وَقَدْ صَنَعُوا لِإِنْجِلِيزِ اسْطُولاَ عَظِيمًا لَا يَسْبُحُ فِي الْبَحَارِ، وَلَكِنْ فِي الْخَزَائِنِ...

وَأَرَادَ الْإِنْجِلِيزُ أَنْ يَطْمِئِنُّوا فِي فِلَسْطِينَ إِلَى شَعْبٍ لَمْ يَتَعَوَّذَ قَطُّ أَنْ يَقُولَ: أَنَا. وَلَكِنْ لِمَاذَا كُنْتُمْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ أَرْضِهَا بِمَكْنَسَةِ أَيُّهَا الْيَهُودُ؟

أَجْهَلْتُمْ الْإِسْلَامَ؟ الْإِسْلَامُ قُوَّةٌ كَتَلَكِ الَّتِي تُوجِدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُخَالَبَ فِي كُلِّ أَسَدٍ.

قوة تُخرج سلاحها بنفسها، لأنَّ مخلوقها عزيزٌ لم يُوجد ليؤكل، ولم يُخلق لينذل.

قوة تجعل الصوت نفسه حين يُزْمَجِر، كأنَّه يعلنُ الأسدية العريضة إلى الجهات الأربع.

قوة وراءها قلبٌ مشتعلٌ كالبركان، تتحوَّل فيه كلُّ قطرة دم إلى شرارة دم ولِئِنْ كَانَتْ الحوافِرُ تُهَيِّئُ مخلوقاتِها ليركبها الراكب، إِنَّ المخالبَ وَالْأَنَابَ تُهَيِّئُ مخلوقاتِها لِمَعْنَى آخر.

لو سئَلْتُ ما الإسلامُ في معناه الاجتماعي؟ لسأَلْتُ: كم عددُ المسلمين؟ فإن قيل: ثلاثمائة مليون. قلتُ: فالإسلامُ هو الفكرةُ التي يجبُ أن يكونَ لها ثلاثمائة مليون قوة.

أيجوعُ إخوانكم أيُّها المسلمون وتشبعون؟ إِنَّ هذا الشَّبَعَ ذَنْبٌ يُعَاقِبُ الله عليه.

والغنى اليومُ في الأغنياءِ المُسيكينَ عن إخوانهم، هو وصفُ الأغنياءِ باللؤم لا بالفنى.

كلُّ ما يبذلُّه المسلمونُ لِفلسطين، يدلُّ دلالات كثيرة، أقلها سياسةُ المقاومة.

كان أسلافكم أيُّها المسلمون يفتحون الممالك، فافتحوا أنتم أيديكم... كانوا يرمون بأنفسهم في سبيلِ الله غيرِ مُكْتَرِثِينَ، فارمُوا أنتم في سبيلِ الحقِّ بالدنانيرِ والدراهم.

لماذا كَانَتْ القِبْلَةُ في الإسلامِ إِلَّا لِيَتَعَاذَ الوجوهُ كُلُّها أن تتحول إلى الجهة الواحدة؟

لماذا ارتفعت المآذنُ إِلَّا لِيَتَعَاذَ المسلمونَ رَفَعَ الصوتِ في الحقِّ؟ أيُّها المسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك مع إخوانكم بمعنى من المعاني.

لو صامَ العالمُ الإسلاميُّ كُلُّه يوماً واحداً وبذلَ نفقاتِ هذا اليوم الواحدِ لِفلسطين، لأغناها.

لو صامَ المسلمونَ كلَّهم يوماً واحداً لإعانة فلسطين، لقال النبيُّ مُفاخراً
الأنبياء: هذه أمتي!

لو صامَ المسلمونَ جميعاً يوماً واحداً لفلسطين، لقال اليهودُ اليومَ ما قاله
آباؤهم من قبل: إنَّ فيها قوماً جبارين...

أيُّها المسلمون! هذا موطنٌ يزيدُ فيه معنى المالِ المبدولِ فيكون شيئاً
سماوياً.

كلُّ قرشٍ يبذلُهُ المسلمُ لفلسطين، يتكلَّمُ يومَ الحسابِ يقول: يا ربِّ، أنا
إيمانُ فلان!

قصة الأيدي المتوضئة...

قال راوي الخبر: ذهبتُ إلى المسجد لصلاة الجمعة؛ والمسجدُ يجمعُ الناسَ بقلوبهم ليُخرجَ كلَّ إنسانٍ من دنياه، فلا يفكرُ أحدٌ أنه أسمى من أحد؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانعُ أو الأجيرُ أو الفقيرُ أو الجاهلُ، وأنتَ الرئيسُ أو العظيمُ أو الغنيُّ أو العالمُ، فتنظرُ إليه وإلى نفسك فتحسُّ كأنَّ خواطرَكَ متوضئةٌ متطهرةٌ، وترى كلمةَ الكبرياءِ قد فقدتْ روحها، وكلمةَ التواضعِ قد وجدتْ روحها؛ وتشعرُ بالنفسِ المجتمعةِ قد نصبتْ الحربَ للنفسِ المنفردةِ؛ ولو خطرَ لك شيءٌ بخلاف ذلك رأيتَ الفقيرَ إلى جانبك تويحاً لك، ونظرتَ إليه ساكناً وهو يتكلَّمُ في قلبك، وشعرتَ بالله من فوقكما، واستعلتْ لك روحُ المسجدِ كأنها تهُمُ بطردك منه، وخيلَ إليك أنَّ الأرضَ ستلطمُ وجهك إذا سجدتَ عليها، وأيقنتَ من ذاتِ نفسك أنَّ لستَ هناك في دنياك وليسَ صاحبُك في دنياه، وأتُما أنتما هناك في إنسانيةٍ ميزانها بيدُ الله وحده؛ فلا تدري أيكما الذي يخفُ وأيكما الذي يتقلُّ^(١).

قال: والعجيبُ أنَّ هذا الذي لا يجهلُهُ أحدٌ من أهلِ الدين، يعرفُهُ بعضُ علماءِ الدين على وجهٍ آخرٍ، فتراهُ في المسجدِ يمشي مختلاً، قد تحلَّى بحليتهِ، وتكلَّفَ لِرَؤُوه، فليسَ الحُجَّةُ تَسْعُ اثنين، وتطاولُ كأنه المُنذَنَةُ، وتَصَدَّرُ كأنه القِبلةُ، وانتفخَ كأنه ممتلئٌ بالفُروقي بينهُ وبين الناسِ؛ وهو بعدُ كلُّ هذا لو كشفَ الله توبيههُ لانكشفَ عن تاجرٍ عِلْمٍ بعضُ شروطه على الفضيلةِ أن يأكلَ بها، فلا يجدُ دنياه ذاتِهِ إلَّا في المسجدِ، فهو نوعٌ من كَذِبِ العالمِ الدينيِّ على دينِهِ.



قال الراوي: وصعدَ الخطيبُ المنبرَ وفي يده سيفُهُ الخشبيُّ يتوكأُ عليه؛ فما استقرَّ في الدُّرَّةِ حتى خيلَ إليَّ أنَّ الرجلَ قد دخلَ في سِرِّ هذه الخشبةِ، فهو يبدو كالمرِيضِ تُقيمُهُ عصاهُ، وكالهِرَمٍ يُمسكُهُ ما يتوكأُ عليه؛ ونظرتُ فإذا هو كَذِبٌ

(١) استوفينا الكلامَ عن فلسفةِ المسجدِ في مقالات كثيرة.

صريح على الإسلام والمسلمين، كهيئة سيفه الخشبي في كذبها على السيوف ومعديها وأعمالها.

وثالثه ما أدري كيف يستحل عالم من علماء الدين الإسلامي في هذا العصر، أن يخطب المسلمين خطبة جمعيتهم وفي يده هذا السيف علامة الدل والضعف والتراجع والانقلاب والإدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإضحاك؛ ومتى كان الإسلام يأمر بتجريد السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاق حذها الذي لا يقطع شيئاً، ثم وضعها في أيدي العلماء يفتلون بها ذؤابة كل منبر، لتتعلق بها العيون، وتشهد فيها الرمز والعلامة، وتستوجي منها المعنوية في الدينونة التي يجب أن تجسم إثرى؟

أفي سيف من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة، وبلاهة العقل وذلة الحياة، ومسوخ التاريخ الفاتح المنتصر، والرمز لخضوع الكلمة وصيانة الإرادة؟

قال: وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبي الذي صنعته وزاره أوقاف المسلمين، أنه في طول صمصامة عمرو بن مغديكرب الزبيدي فارس الجاهلية والإسلام^(١)، فكان إلى صدر الخطيب، ولولا أنه في يده لظهر مقبضه في صدر الرجل كأنه وسام من الخشب...

قال: وكان الخطيب إذا تكلف وتصنع وظهر منه أنه قد حمي وثار ثائرته، ارتج وغفل عن يده، فتضطرب فيها قبضة السيف فتلكزه في صدره كأنما تذكره أن في يده خشبة لا تصلح لهذه الحماسة...! ^(٢)

قال: وخطب العالم على الناس، وكان سيفه الخشبي يخطب خطبة أخرى: فأما الأولى فهي محفوظة معروفة ولا تنتهي حتى ينتهي أثرها، إذ هي كالقراءة لإقامة الصلاة؛ وكانت في عهدها الأول كالدرس لإقامة شأن من شؤون الاجتماع والسياسة، فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى. وأما الخطبة الثانية فقد عقلتها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها، وهذه هي عبارتها:

ويحكم أيها المسلمون! لو كنث بقية من خشب سفينة نوح التي أنقذ فيها

(١) كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضها شبر.

(٢) القاعدة الشرعية: أن البلد الذي يفتح بالسيف يخطب فيه بالسيف. ولما ضعف المسلمون السيف منهم وأطاعهم الخشب...!

الجنسَ البشري، لما كان لكم أن تضعوني هذا الموضع؛ وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتُموني حيث أنا، تكاذُ شرارةٌ تذهبُ بي وبكم معاً، لأنَّ في وفِكمُ المادَّةَ الخشبيَّةَ والمادَّةَ المتخشبَةَ.

ويحكم! لو أنَّه كان لخطيبيكم شيءٌ من الكلامِ النَّاريِّ المضطرم، لما بقيتِ الخشبَةُ في يده خشبة. وكيف يمتلئ الرجلُ إيماناً بإيمانه، وكيف يصعدُ المنبرَ ليقول كلمةَ الدين من الحقِّ الغالبِ، وكلمةَ الحياة من الحقِّ الواجب - وهو كما ترونه قد انتهى من الدَّلِّ إلى أن فقد السيفُ روحَه في يده؟

أيُّها المسلمون! لن تُفلحوا وهذا خطيبيكم المتكلمُ فيكم، إلا إذا أفلحتم وأنا سيفُكم المدافعُ عنكم. أيُّها المسلمون، غَيِّروهُ وغَيِّروني.



قال راوي الخبر: ولَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ مَاجَ النَّاسُ إِذْ انبَعَثَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الشَّبَانِ يَصِيحُونَ بِهِمْ يَسْتَوْفُونَهُمْ لِيُخْطِبُوهُمْ؛ ثُمَّ قَامَ أَحَدُهُمْ فَخَطَبَ، فَذَكَرَ فَلَاسْطِينَ وَمَا نَزَلَ بِهَا، وَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ أَهْلِهَا، وَنَكِبَتْهُمْ وَجَهَاذُهُمْ وَاجْتِلَالُ أَمْرِهِمْ، ثُمَّ اسْتَجَدَّ وَاسْتَعَانَ، وَدَعَا الْمُؤَيَّزَ وَالْمُخَفَّضَ إِلَى الْبَذْلِ وَالتَّبَرُّعِ وَإِقْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَتَقَدَّمَ أَصْحَابُهُ بِصَنَادِيقٍ مَخْتُومَةٍ، فَطَافُوا بِهَا عَلَى النَّاسِ يَجْمَعُونَ فِيهَا الْقَلِيلَ وَالْأَقْلَ مِنْ دَرَاهِمٍ هِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ دَرَاهِمُ أَصْحَابِهَا وَضَمَائِرُهُمْ.

قال: وكان إلى جانبي رجلٌ قَرَوِيٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفَلَاحِيْنَ الَّذِينَ تَعْرِفُ الْخَيْرَ فِي وَجُوهِهِمْ، وَالصَّبْرَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَالْقَنَاعَةَ فِي نَفْسِهِمْ، وَالْفَضْلَ فِي سَجَايَاهُمْ؛ إِذَا امْتَرَجَتْ بِهِمْ رَوْحُ الطَّبِيعَةِ الْخَصْبَةِ فَتُخْرِجُ مِنْ أَرْضِهِمْ زُرُوعاً وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ زُرُوعاً أُخْرَى - فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ مَعَهُ: إِنَّ هَذَا الْخَطِيبَ خَطِيبَ الْمَسْجِدِ قَدْ غَشَّنَا وَهَؤُلَاءِ الشَّبَانُ قَدْ فَضَحُوهُ؛ فَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خُطْبَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي أَخْصَ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ.

قال: ونَبَّهَنِي هَذَا الرَّجُلُ السَّادِجُ إِلَى مَعْنَى دَقِيقٍ فِي حِكْمَةِ هَذِهِ الْمَنَابِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَمَا يُرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَمَحَطَاتِ الْإِذَاعَةِ، يَلْقُطُ كُلُّ مَنْبَرٍ أَخْبَارَ الْجِهَاتِ الْأُخْرَى وَيُذَيِّعُهَا فِي صِيغَةِ الْخُطَابِ إِلَى الرُّوحِ وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، فَتَكُونَ خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ هِيَ الْكَلِمَةُ الْأُسْبُوعِيَّةُ فِي سِيَاسَةِ الْأُسْبُوعِ أَوْ مَسْأَلَةُ الْأُسْبُوعِ؛ وَبِهَذَا لَا يَجِيءُ الْكَلَامُ عَلَى الْمَنَابِرِ إِلَّا حَيًّا بِحَيَاةِ الْوَقْتِ، فَيُصْبِحُ الْخَطِيبُ يَنْتَظِرُهُ النَّاسُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ يَنْتَظَرُ الشَّيْءَ الْجَدِيدَ؛ وَمَنْ ثُمَّ يَسْتَطِيعُ الْمَنْبَرُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ عَمَلٌ.

قال: وَخُيِّلَ إِلَيَّ بَعْدَ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ خُطِيبٍ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ نَاقِصٌ إِلَى النِّصْفِ، لِأَنَّ السِّيَاسَةَ تُكْرَهُ أَنْ يَخْلُقَ إِسْلَامِيَّةً الْوَاسِعَةَ قَبْلَ صُعُودِهِ الْمَنِيرِ، وَالْأَيُّ يَصْعَدُ إِلَّا فِي إِسْلَامِيَّةٍ الضَّيِّقَةِ الْمَحْدُودَةِ بِحُدُودِ الْوَعِظِ هُوَ مَعَ ذَلِكَ نِصْفٌ وَعَظٌ... فَالْخُطْبَةُ فِي الْحَقِيقَةِ نِصْفُ خُطْبَةٍ، أَوْ كَأَنَّهَا أَثَرُ خُطْبَةٍ مَعَهَا أَثَرُ سَيْفٍ...

قال: وَأَخْرَجَ الْقُرُوبِيُّ كَيْسَهُ فَعَزَلَ مِنْهُ دِرَاهِمَ وَقَالَ: هَذِهِ لِيُطْعَمَ أَتَبَلَّغُ بِهِ وَلِأُؤْتِيَ إِلَى الْبَلَدِ، ثُمَّ أَفْرَغَ الْبَاقِي فِي صُنَادِيْقِ الْجَمَاعَةِ؛ وَاقْتَدَيْتُ أَنَا بِهِ قَلَمٌ أَخْرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى وَضَعْتُ فِي صُنَادِيْقِهِمْ كُلِّ مَا مَعِيَ؛ وَلَقَدْ حَسِبْتُ أَنَّهُ لَوْ بَقِيَ لِي دِرْهَمٌ وَاحِدٌ لَمْضَى يَسْبُغِي مَا دَامَ مَعِيَ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ عَنِّي.



قال الراوي: ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَى ضَرِيحِ صَاحِبِ الْمَسْجِدِ أَزُورُهُ وَأَقْرَأُ فِيهِ مَا تَبَيَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَإِذَا هُنَاكَ رِجَالٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، إِثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ: (الشُّكُّ فِي ثَالِثِهِمْ لِأَنَّهُ حَلِيقُ اللَّحِيَةِ). ثُمَّ تَوَافَى إِلَيْهِمْ آخَرُونَ فَتَمَّوْا سَبْعَةً؛ وَرَأَيْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا بَأَنْفُسِهِمْ صَاحِبَ (الْإِلَاحِيَةِ)، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنْهُمْ عَلَى الْمَذْهَبِ الشَّائِعِ فِي بَعْضِ الْعَصْرِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْقَضَاةِ الشَّرْعِيِّينَ، أَحْسَبُهُمْ يَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؛ وَكُلُّ أَمْرٍ فَإِنَّمَا تُبْصِرُهُ مِرَاتُهُ كَيْفَ يَظْهَرُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، أِبْلَاحِيَةٍ أَمْ بِلَا لِحِيَةٍ...؟

وَأَذْرْتُ عَيْنِي فِي وُجُوهِهِمْ، فَإِذَا وَقَارٌ وَسَمْتٌ وَنُورٌ لَمْ أَرِ مِنْهَا شَيْئاً فِي وَجْهِ صَاحِبِ (الْإِلَاحِيَةِ)؛ وَأَنَا فَمَا أَبْصَرْتُ قَطُّ لِحِيَةً رَجُلٍ عَالِمٍ أَوْ عَابِدٍ أَوْ فِيلَسُوفٍ أَوْ شَاعِرٍ أَوْ كَاتِبٍ أَوْ ذِي فَنٍّ عَظِيمٍ، إِلَّا ذَكَرْتُ هَذَا الْمَعْنَى الشَّعْرِيَّ الْبَدِيعَ الَّذِي وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ، مِنْ أَنَّ لِلَّهِ (تَعَالَى) مَلَائِكَةً يُقْسِمُونَ: وَالَّذِي زَيْنَ بَنِي آدَمَ بِاللَّحَى.

وَكَانَ مِنَ السَّبْعَةِ رَجُلٌ تَرَكَ لِحِيَتَهُ عَافِيَةً عَلَى طَبِيعَتِهَا؛ فَامْتَدَّتْ وَعَظُمَتْ حَتَّى تَشَرَّتْ حَوْلَهَا جَوًّا رُوحَانِيًّا مِنَ الْهِيَةِ تَشْعُرُ النَّفْسُ الرَّقِيقَةَ بِتَيَّارِهِ عَلَى بُعْدٍ، فَكَانَ هَذَا أَبْلَغَ رَدٍّ عَلَى ذَلِكَ.



قال: وَأَنْصَتَ الشَّبُوحُ جَمِيعاً إِلَى خُطْبِ الشَّبَانِ، وَكَانَتْ أَصْوَاتُ هَؤُلَاءِ جَافِيَةً صُلْبَةً حَتَّى كَأَنَّهَا صَخَبٌ مَعْرَكَةٌ لَا فَنٌّ خُطَابَةٍ، وَعَلَى قَدْرِ ضَعْفِ الْمَعْنَى فِي كَلَامِهِمْ قُوَّةِ الصَّوْتِ؛ فَهَمَّ يَصْرُخُونَ كَمَا يَصْرُخُ الْمُسْتَغِيثُ فِي صِيْحَاتِ هَارِبَةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

فقال أحدُ الشيوخ الفضلاء: لا حول ولا قوة إلا بالله! جاء في الخبر: «تَمَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ تَمَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ». ووالله ما تَمَسَّ المسلمون إلا منذُ تعبدوا لِهَذهينِ جِزْصاً وشُحاً: ﴿وَمَنْ يُوَقِّ شَيْئاً تَقْسِمُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، ولو تَعَارَفَتْ أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَوَادِثِ لَمَا أَنْكَرْتَهُمُ الْحَوَادِثُ.

فقال آخر: وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ»، ولكن ما بَالُ هَؤُلَاءِ الشَّبَانِ لَا يُورِدُونَ فِي خُطْبِهِمْ أَحَادِيثَ مَعَ أَنَّهَا هِيَ كَلِمَاتُ الْقُلُوبِ؟ فلو أَنَّهُمْ شَرَحُوا لِلْعَامَةِ هَذَا الْحَدِيثَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ» لَأَسْرَعَ الْعَامَّةُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ.

قال الثالث: ولكنْ جَاءَنَا الْأَثَرُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: «إِنَّهَا فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ يَتَعَلَّمُ صِغَارُهَا مِنْ كِبَارِهَا، فَإِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ تَعَلَّمَ كِبَارُهَا مِنْ صِغَارِهَا». فنحن في آخِرِ الزَّمَانِ، وَقَدْ سُلِّطَ الصِّغَارُ عَلَى الْكِبَارِ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْقُلُوهُمْ عَنْ طِبَاعِهِمْ إِلَى صِبْيَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

قال الراوي: فَقُلْتُ لِصَدِيقٍ مَعِيَ: قُلْ لِهَذَا الشَّيْخِ: لَيْسَ مَعْنَى الْأَثَرِ مَا فَهَمْتُ، بَلْ تَأْوِيلُهُ أَنَّ آخِرَ الزَّمَانِ سَيَكُونُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ زَمَنُ جِهَادٍ وَاقْتِحَامٍ، وَعَزِيمَةٍ وَمُغَالَبَةٍ عَلَى اسْتِقْلَالِ الْحَيَاةِ؛ فَلَا يَصْلُحُ لِرِقَابَةِ الْأُمَّةِ إِلَّا شِبَابُهَا الْمُتَعَلِّمُ الْقَوِيُّ الْجَرِيءُ، كَمَا نَرَى فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ، فَيَنْزِلُونَ مِنَ الْكِبَارِ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ؛ إِذْ تَكُونُ الْحِمَاسَةُ مُتِمَّةً لِقُوَّةِ الْعِلْمِ. وفي الحديث: «أُمْتِي كَالْمَطَرِ: لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ».

قال الراوي: وَلَمْ يَكِدِ الصَّدِيقُ يَحْفَظُ عَنِّي هَذَا الْكَلَامَ وَيَهْمُ بِتَبْلِيغِهِ، حَتَّى وَقَعَتِ الصَّبِيحَةُ فِي الْمَكَانِ؛ فَجَاءَ أَحَدُ الْخُطْبَاءِ وَوَقَّفَ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ الرَّعْدُ: لَا يَكْزُرُ إِلَّا زَمْجَرَةً وَاحِدَةً؛ وَكَانَ الشُّيُوخُ الْأَجْلَاءُ قَدْ سَمِعُوا كُلَّ مَا قِيلَ، فَأَطْرَقُوا يَسْمَعُونَهُ مَرَّةً رَابِعَةً أَوْ خَامِسَةً؛ وَفَرَّغَ الشَّابُّ مِنْ هَدِيرِهِ فَتَحَوَّلَ إِلَيْهِمْ وَجَلَسَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مُتَادِباً مُتَخَشِعاً وَوَضَعَ الصَّنَدُوقَ الْمُخْتَوِمَ.

فقال أحدُ الشُّيُوخِ: لَمْ يَخَفْ عَلَيْنَا مَكَائِكَ، وَقَدْ بَذَلْتُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ؛ فَبَارَكَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ.

وَسَكَتَ الشَّابُّ، وَسَكَتَ الشُّيُوخُ، وَسَكَتَ الصَّنَدُوقُ أَيْضاً... ثُمَّ تَحَرَّكَتِ النَّفْسُ بُوخِي الْحَالَةِ؛ فَمَدَّ أَوَّلُهَا يَدَهُ إِلَى جَبِيهِ، ثُمَّ دَسَّهَا فِيهِ، ثُمَّ عَيَّثَ فِيهِ قَلِيلاً^(١)؛ ثُمَّ... ثُمَّ أَخْرَجَ السَّاعَةَ يَنْظُرُ فِيهَا.

(١) أي بحث بأصابعه.

وانتقلت العدوى إلى الباقين، فأخرج أحدهم مبدله يتمخبط فيه، وظهرت في يد الثالث سُبحة طويلة، وأخرج الرابع سبواكاً فمر به على أسنانه، وجرّ الخامس كُراسة كانت في قبائه، ومدّ صاحب اللحية العريضة أصابعه إلى لحيته يُخلّلها؛ أنا السابع صاحب (اللاحية)، فثبتت يده في جيبي ولم تخرج، كأنّ فيها شيئاً يستحي إذا هو أظهره، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة.

وسكت الشاب، وسكت الشيوخ، وسكت الصندوق أيضاً...

قال الراوي: ونظرْتُ فإذا وجوههم قد لبست للشاب هيئة المدرّس الذي يُقرّر لتلميذه قاعدة قرّرها من قبل ألف مرة لألف تلميذ؛ فخلج الشاب وحمل صندوقه ومضى...



أقول أنا: فلما انتهى الراوي من (قصة الأيدي المتوضئة)، قلت له: لعلك أيها الراوي استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء هذا الصندوق، وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل إلا بما كدّدت فيه ذهنك من فلسفة تحوّل السيف إلى خشبة؛ ولو قد امتدّ بك النوم لسمعت أحدهم يقول لسايرهم: بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصلون؟ لهذا قال رسول الله ﷺ: «جاهل سخّي أحب إلى الله من عالمٍ بخيل». ثم يملؤون الصندوق....

نجوم التمثال (١)

أيها المفترسُ الصخرة يشدُّ ذراعيه أقوى الشدِّ كأنما يريدُ أن يقطعَ الصخرةَ فيهما، مُتَناهِضاً بصدريه ليدلَّ على أنَّه وإن رُبِضَ فإنَّ الوثبةَ في يديه، مُتَمَطِّياً بصلْبِهِ لِيُشِيرَ من جِسْمِهِ الهادئِ إلى معانيه المفترسةِ، مُقْعِياً على ذَنْبِهِ ومتحفِزاً بسائِرِهِ كأنَّه قوَّةٌ اندفاعٌ نَهْمٌ أنْ تُفْلِتَ من جاذبية الأرض.

وَأَنْتِ أَيُّهَا الهيفاءُ تمثلُ الإنسانيةَ المتمدِّنةَ في نَحَافَتِها وهي كهذه الإنسانيةُ ضاربةٌ بذراعَيْ أسدٍ في غِلْظٍ مِذْفَعِينَ

حكيمةٌ في النظرِ كأنما تُمدُّ في سرائِرِ الأممِ نظرةَ المتأملِ، ولكنَّ يدها كَيِّدِ الحِكمةِ السياسيَّةِ على تركيبِ عقليِّ تحتَه المخالبُ . . .

ساکنةٌ كأنَّها تمثالُ السلامِ على أنَّها في جِوارِ الأسدِ كالسلامِ بين الشعوبِ: تَلْمُحُ فيه إنسانَ العالمِ ووحشَ العالمِ . . .

يا أبا الهول .

أَنْتِ جوابٌ عن ذلك اللُّغزِ القديمِ الذي هو كلامٌ لا يتكلَّمُ وسكوْتُ لا يسكُتُ .

والذي أشارَ برأسِ الإنسانِ على جِسمِ اللَّيْثِ أنَّه قوَّةٌ عمياءُ كالضرورةِ ولكنها مُبْصِرةٌ كالاختيارِ .

والذي أخرجَ من قُفَى الغريزةِ والعقلِ فتاً ثالثاً لا يزالُ في الأرضِ ينتظرُ المرأةَ التي تَلِدُ إنساناً عِظامُهُ من الحجرِ؟

وَأَنْتِ يا مصرُ:

أواقفةٌ ثَمَّةٌ لِلشرحِ والتفسيرِ، تقولينَ لِلمصريِّ: إِنَّ أَجدادَكَ يسألونَكَ مِنْ

(١) تمثال نهضة مصر الذي صنعه الممثل مختار رمزاً لهذه النهضة، وهو أبو الهول متحفزاً تقف إلى جانبه امرأة .

آلاف السنين بهذا الرمز: ألا معجزة من القوة تمطّ عضلات الحجر؟

ألا بسطة من العلم تجعلك أيها المصري وكأنك رأس لجسم الطبيعة؟ ألا فنّ جديد ترفع به أبا الهول في الجو فتزيده على قوة الوحش وذكاء الإنسان خفة الطير؟

أم تقولين للمصري: إن أجدادك يُوصونك بهذا الرمز أن تكون كالظهير الأسدي لا يركب مطاء، وكالرأس الإنساني لا تُقيد حريته، وكالرُبضة الجبلية لا تُسهل إزاحتها، وكالإبهام المركب من غامضين لا يتيسر به عبث العابث، وكالصراحة المجتمعة من عنصر واحد لا يغلط في حقيقتها أحد؟

أم تقولين يا مصر: إن تفسير أبي الهول الأول أن النهضة المصرية إنما تكون يوم تُخرج البلاد من يصنع أبا الهول الثاني؟

تمثال النهضة أم صفحة من الحجر قد صوّر الشعب فكره عليها، ودوّن فيها إحساسه بتاريخه، ووصف بها إدراكه حياة المعاني السامية؟

أم هو كتابة فصل من التاريخ بقلم الحياة وعلى طريقة من بلاغتها، خشيت عليه الفناء فدوّنته في أسلوب من أساليب البقاء الحجري الصلد؟

أم ذاك يوم من أيام الأمة أحالة الفن من زمن إلى مادة؛ ومن معنى إلى حس، ومن خير إلى منظر، وكانوا يتكلمون عنه فجعله الفن يتكلم عن نفسه؟

أم هو تعبير عن تلك المعاني التي خلقتها نفوس هذا الجيل تُخاطب به النفوس الآتية لِتُتَمِّمَ عليها، وتُضَيَّفَ فيه إلى المعنى سرّ المعنى، وتضع الكلمة الإنسانية على لسان الطبيعة تتكلم بالتمثال كما تتكلم بالجيل؟

أم تركيب سياسي إذا فسرته اللغة كان معناه أن الثابت إذا احتاج إلى من يُثبت... فلن يحويه من يُنكره، وأن الظاهر إن احتاج إلى من يدلّ عليه... فلن يخفيه من لا يراه؟

بل أراك لا هول فيك يا أبا الهول الجديد.

أفذاك من رقة داخلتك ورحمة جاءتك من مس يد المرأة...؟

أم الهول اليوم قد أصبح في العقل والعاطفة ومذ العين النسائية إلى

بعيد...؟

أَمْ لَا يَتَمُّ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ رَأْسُ رَجُلٍ وَجَسْمُ سَبْعٍ إِلَّا . . . إِلَّا بِأَنَامِلِ امْرَأَةٍ؟
أَلَا مَنْ يُعَلِّمُنِي أَهَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْكَ هِيَ تَهْدِيكَ لِلْإِنْسَانِ وَالْوَحْشِ أَمْ تَكْمَلُهُ
عَلَيْهِمَا؟

أَلَا مَنْ يَأْتِينِي بِالْحِكْمَةِ فَيْكَ مَنْ وَضَعَ الرَّجُلَ الْقَوِيَّ رَأْسًا وَلَا جِسْمًا، وَالْأَسَدَ
الْمَفْتَرِسَ جِسْمًا وَلَا رَأْسًا، ثُمَّ لَا يَكْمَلُ دُونَهُمَا إِلَّا الْمَرْأَةُ وَحْدَهَا.
إِنَّمَا كُنْتُ يَا أَبَا الْهَوْلِ لُغَزَ الصَّفْتِ، فَلَمَّا أَضِيفَتِ الْمَرْأَةُ إِلَيْكَ أَصْبَحْتَ لُغَزَ
النَّطْقِ . . . فَيَا لِلْهَوْلِ!

فاتح الجو المصري (١)

يا طيرَ المثل الأعلى!

لقد انفلتت من رذيلة الخوف وتركتها في التراب مؤطية القدم، وقلت لها: ويحك، لقد آن للشباب المصري؛ فهو مُغامِسٌ في ماء الصواعق^(٢)، مُتَطَوِّحٌ في اللجة الأزلية التي تغوص فيها الكواكب^(٣)، يطيرُ بروح الشّارة، وينهبُ بروح الغيث، ويلجِمُ الجوَّ ويسرجه، ويتعلمُ كيف يشوي عدوه في عين الشمس.

وكنّت بطلاً مُغامراً فخطوت في طريق الملائكة بهذه الفضيلة وحملك الجو؛ ولو أنك خفت وكنّت على جناحي جبريل لا على طيارة، لخاف جبريلُ على جناحيه من خطمة هذا المعنى الترابي الطاغية الذي يحكم على الأحياء بالموت بلا موت، لأنه الذل والخضوع والرذيلة.

وحملك الجو إلى قبة السماء، وهناك نظّر العالم فرأى ليمصر الناهضة علمها الإنساني يتنفّس تحت الكواكب.

وحملك الجو إلينا، فلما رفعت أروؤنا ليرك، رفعتها في الوقت بين شعوب الأرض.

* * *

وضربت يا جناح مصر في الهواء، وأغنان السماء^(٤) مملوءة بالزُّعْزَع والهوجاء والعاصف، والسماء في فصلها المكفهر الذي تخلع فيه كل ساعة وتلبس وتمزق^(٥) وتطوي، فزدت بجراثيك في براهين القضية المصرية برهان قوة المخاطرة، وأضفت إلى منطقتها ضعاً جديداً مُفجِماً من روح التضحية.

(١) كتبت في أول طيار مصري قدم إلى مصر من أوروبا على طيارته، في شهر فبراير سنة ١٩٣٠، وهو الطيار صدقي وطيارته فائزة، وكان مقدمه يوماً مشهوداً.

(٢) كناية عن السحاب.

(٣) كناية عن أجواز الفضاء.

(٤) نواحيها، جمع عنان (بالفتح).

(٥) كناية عن طبيعة الشتاء، من الغيم والصحو وما بينهما.

وِطِرَتْ بَيْنَ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ فَجَعَلْتُهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي اعْتِقَادِكَ؛ إِذْ وَصَلْتُ فِكْرَةَ
الْمَوْتِ بِسَرِّ الْإِيمَانِ، وَالْحَيَاةِ بِسَرِّ الْعَزِيمَةِ.

وَكُنْتُ رَجُلٌ أَمْتِكُ بِإِنْكَارِ ذَاتِ نَفْسِكَ مِنْ أَجْلِهَا.

وَاتَسَعْتُ لِلتَّارِيخِ بِوَضْعِكَ عُمُرَكَ الْمَحْدُودَ عَلَى الطَّيَّارَةِ، وَقَذَفَكَ بِهَا وَبِهِ فِي
مَسْنَحِ الْأَجْلِ.

وَتَجَرَّدْتَ لِلْأَبَدِيَّةِ لِتُعْطِيَ بِلَاذِك: إِمَّا شَهِيدَ مَجْدٍ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا شَهِادَةَ فَخْرٍ
فِي الدُّنْيَا.

وَكُنْتُ عَلَى طَيَّارَتِكَ الصَّغِيرَةِ الْمُتَطَارِدَةِ تَحْتَ الرِّيحِ، وَحَوْلَكَ رُوحُ الْهَرَمِ
الْأَكْبَرِ الْقَائِمِ بِإِرَادَةِ مِصْرَ وَكَأَنَّهُ مِسْمَارٌ مَدْقُوقٌ فِي كُرَّةِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْقُطْبِ وَالْقُطْبِ.



وَأَنْتَ يَا «فَائِزَةٌ» يَا هَذِهِ الصَّغِيرَةُ الْخَارِجَةُ مِنْ مَالٍ صَاحِبِهَا وَجْهِيهِ وَعَزِيمَتِهِ
كَمَا تَخْرُجُ الْقُوَّةُ مِنْ ضَعْفٍ، أَعْلَمْتُ إِذْ أَنْتِ تَرْتَفِعِينَ وَتَهْبِطِينَ بَيْنَ السُّحُبِ كَمَا
تَتَوَائِبُ الْفَرَّاشَةُ عَلَى النَّوَارِ فِي رَوْضَةِ مُزْهَرَةٍ، وَإِذَا أَنْتِ تَفْتَقِينَ وَتُحَوِّكِينَ فِي مَلَاءَةِ
السَّحَابِ كَأَنَّكَ بِمُحَرِّكِكَ الدَّوَارِ تَنْسِجِينَ فِي السَّمَاءِ بِمَغْزَلٍ، وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ صَفْحِي
الرِّيحِ الْهَوَّاجِ^(١)، تَحْتَ السَّمَاءِ الْمُدْجَّجَةِ^(٢)، فِي كَبَةِ الشَّاءِ^(٣)، كَأَنَّكَ مَنَاطِرَةٌ
تَجْرِي بَيْنَ الْعَزِيمَةِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْعَزِيمَةِ فِي الطَّبِيعَةِ، وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ ذَنَابِ الْأَعَاصِيرِ،
وَتُمُورِ السَّحَابِ^(٤) وَسِبَاعِ الْغَيْمِ ذَوَاتِ اللَّبَدَةِ الْكثِيفَةِ الْمُتَشَعِّقَةِ، كَأَنَّكَ بِصَوْتِكَ
وَأَزِيرِكَ تُطَلِّقِينَ عَلَى وَحُوشِ الْجَوِّ مِدْفَعًا رَشَاشًا يَتْرُكُهَا صَرَغَى.

وَإِذْ تَرَاكِ الرِّيحَ فَتَقُولُ عَنْكِ: رِيحٌ صَنَعَهَا الْإِنْسَانُ. وَتَرَاكِ النِّجْمَ فَيَقُولُ: نَجْمٌ
أَفْلَتَ مِنَ الثُّنْجَامِ الْأَرْضِيِّ. وَتَرَاكِ الْمَلَانِكَةَ فَتَقُولُ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، كَأَنَّكَ بِمَا
خَلَقَهُ الْعَقْلُ تَطْمَعُ مِثْلًا فِي سَجْدَةِ أُخْرَى كَالَّتِي سَجَدْنَاهَا لِآدَمَ يَوْمَ خَلْقِهِ اللَّهُ.

... أَعْلَمْتُ إِذْ أَنْتِ كَذَلِكَ يَا «فَائِزَةٌ»، أَنَّ التَّارِيخَ الْمِصْرِيَّ سَيَحْوِلُكَ مِنْ

(١) اضطراب الرياح المتقلبة.

(٢) المتخيمة.

(٣) كبة الشاء: شدته ودفعته.

(٤) يقال: ريح متذبة؛ إذا كانت تجميء من هنا مرة ومن هنا مرة كما يساور الذئب، فوضعنا من
هنا كلمة ذناب الرياح، والنمر من السحاب: قطع صغار متدان بعضها من بعض، تشبيهاً
بجلد النمر، فوضعنا منها نمور السحاب.

طيارة إلى آية كآية بذء الخلق، لأن فيك بذء الطيران في مصر؟

سلاماً يا فاتح الجو المصري . لقد أجالت الأيام قداخها فخرجت القرعة عليك، وأوحى إليك الواجب آية: بسم الله مضعدها ومجراها .

وطرئت فإذا أنت بها عابر فوق الحاضر لتجيئنا من جانب المستقبل .

وهبطت علينا كأنك في برید السماء كتاب مجید حي للوطنية الظافرة .

بل كتاب قصة رائعة ألفتها العواصف من فئين: ثورة الجو وثورة نفسك المصرية . وحكتها في صوتين: زفيف الطيارة وضرخة ضميرك الوطني . وجعلتها فصلين: أنت والمجهول . ألا حسبك مجدداً أن يحيا الشعب كله بضعة أيام في قصتك !

فعلى مهد الجو، وفي حرير الشعاع، وتحت كيلة السحاب - وُلِدَ لمصر يوم تاريخي .

وخرجت التهاني التي طال احتباسها في القلوب المصرية لا يُفرج عنها لأن سجانها ظلّم السياسة .

واتجهت أفرأح شعب كامل إلى الفتى الجريء الذي رمت به هيئته فوق هاوية الموت فتخطاها .

وتلقى شعور الأمة رسوله المقدام الذي لم يكن له ملجأ في خطاره إلا شعوره بهذه الأمة .

وارتج الوادي كله كأنه غند يتقلقل حين يسئل منه السيف .

ثم أهديت كلمة مصر لأينها الذي كتب في جوها الكلمة السماوية الأولى . وكاث ساعة تلاشى عندها الزمن فارتفعت منه أربعة آلاف سنة وهتف معنا الفراعنة: بوركت يا «صديقي» !

لله درك إيماء ابن عزيمة ! كأنما كشفت أهويل الوحي وهبطت في سحابة مُجلجلة إن لم تحمل كتاباً مُنزلاً فكأنما حملت شخصاً منزلاً .

ولعلك رسول القيم العايس لهذا الجو المصري الذي يضحك دائماً ضحكة الفيلسوف الساحر في حين أصبحت الحياة قوة لا فلسفة . . .

ولعلَّكَ مبعوثُ البرقِ والرعدِ لهذا السكونِ النائمِ الذي يطوى كلُّ يومٍ في طيِّ
النسيانِ ما حَدَثَ في اليومِ الذي قبله . . .

ولعلَّكَ نبيُّ الجَذِيَّةِ والمرارةِ لهذه الحلاوةِ النيليَّةِ المُفْرِطَةِ التي كاذَ منها
الشعبُ أنْ يكونَ سَكْرَ أخلاقٍ يُذابُ ويُشرب . . .

ولعلَّكَ تفسِيرَ مصحَّحٍ لعقيدتنا المغلوطةِ في القضاءِ والقدرِ، أنْ القضاءُ أنْ
تُقَدِّمَ بلا خوفٍ، وأنْ القدرَ أنْ تُثَبِّتَ بلا مُبالاةٍ.

أما - والله - لقد غَمَزَتِ الشعبَ بموجةِ هواءٍ جديدةٍ جِثَّتْ بها في جناحَيْكَ،
ونفختَ رُوحَ طيَّارَتِكَ المجيدةِ في القلوبِ فجعلتها كلُّها ترفرفُ كأنَّ لك في ضلُوعِ
كلِّ مصريٍّ طيَّارةٍ.

أجنحة المدافع المصرية (١)

إِسْتَجْنَحِي^(٢) يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي، إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرْقِيَّ. لَقَدْ مَدَّتْ لُغَةُ الْقُوَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَدَّهَا حَتَّى أَصْبَحَ الطَّيْرَانُ بَعْضَ مَعَانِي الْمَشْيِ، وَلَمْ يَعِدِ الْعَالَمُ يَدْرِي كَيْفَ تَكُونُ الصُّورَةُ الْآخِرَةُ الَّتِي يَسْتَقَرُّ فِيهَا مَعْنَى إِنْسَانِهِ.

فَلْتَتَمَجَّدْ مِصْرُ بِإِنْسَانِهَا الْبَرْقِيِّ الَّذِي تَخْرُجُ النَّارُ بِيَدِهِ مِنْ أَغْرَاضِ السَّحَابِ، وَتُفَرِّقُ فِي أَصَابِعِهِ هَزَاتِ الرُّعْدِ، وَيَجْعَلُ فِي قُبَّةِ السَّمَاءِ صَلَاصِلَةً وَجَلْجَلَةً، وَيَحْمِلُ الْأَسْمَ الْمِصْرِيَّ إِلَى مُعَلَقِ النَّجْمِ، فَيَضَعُ لَهُ هُنَاكَ التَّعْرِيفَ النَّارِيَّ الَّذِي وَضَعَتْهُ الدُّوَلُ الْعَظْمَى لِأَسْمَائِهَا.

وَلْتَتَمَجَّدْ مِصْرُ بِإِنْسَانِهَا الْبَرْقِيِّ الَّذِي يُشْعِرُهَا حَقِيقَةُ الْعُلُوِّ الْعَالِيِّ، وَالْعُمَقِ الْعَمِيقِ، وَالسَّعَةِ الَّتِي لَا تُحْدُ؛ وَيزِيدُ فِي مَعَانِي أَحْيَانِنَا مَعْنَى جَدِيداً لِأَحْيَاءِ الشُّحْبِ، وَفِي مَعَانِي أُمُوتِنَا مَعْنَى جَدِيداً لِمُوتَى الْكَوَاكِبِ.

إِنْسَانٌ بَرْقِيٌّ يُتَمِّمُ بِشَجَاعَتِهِ فِي السَّمَاءِ بُطُولَةَ فَلَّاحِنَا الْإِنْسَانِ الشَّمْسِيِّ فِي الْأَرْضِ، وَيَعْلُو بِكِبْرِيَاءِ مِصْرَ فِي دُزُورِ الْعَالَمِ، فَتَظْهَرُ طَيَّارَاتُهَا الْعَظِيمَةُ قُدْرَةً فِي الْجَوِّ كَمَا ظَهَرَتْ آثَارُهَا الْعَظِيمَةُ قُدْرَةً فِي الثَّرَى.

إِنَّهَا مِصْرُ، مِصْرُ الْقَادِرَةِ الَّتِي سَحَرَتِ الْقِدَمَ بِقُوَّتِهَا وَفَتْهَا، فَبَقِيَ فِيهَا عَلَى حَالِهِ وَجَلَالَتِهِ، وَانْهَزَمَ الدَّهْرُ عَنْهُ كَأَنَّهُ قُوَّةٌ عَلَى قُوَّةِ الزَّمَنِ نَفْسِهَا. فَاسْتَجْنَحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرْقِيَّ.

وَلَمَّا فُتِحَ السَّجَلُ ذَاتَ صَبَاحٍ لِنَكْتَبَ مِصْرَ أَسْمَاءَ الْفَوْجِ الْأَوَّلِ مِنْ نُشُورِهَا الْحَرَبِيِّينَ، صَاحَ مَجْدُهَا الْخَالِدُ مِنْ أَعْمَاقِ التَّارِيخِ:

(١) كَتَبْتُ فِي احْتِرَاقِ أَوَّلِ طَيَّارَةِ حَرَبِيَّةٍ مِصْرِيَّةٍ فِي قُدُومِهَا إِلَى مِصْرٍ مِنْ أُرُوبَا، وَقَدْ احْتَرَقَ فِيهَا الشَّهِيدَانِ: (حُجَّاجٌ وَدُوسُ)، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ دَيْسَمْبَرِ سَنَةِ ١٩٣٣.

(٢) أَيْ اتَّخَذِي الْأَجْنَحَةَ، وَلَمْ تَأْتِ الْكَلِمَةُ فِي اللُّغَةِ بِهَذَا الْمَعْنَى، وَلَكِنَّا اسْتَعْمَلْنَاهَا فِيهِ قِيَاساً عَلَى كَلَامِهِمْ.

«أضرمي الشعلة الآدمية الأولى يا مصر، وافتحي القبر الجوي الأول، والجدي فيه من عنصريك المسلمين والأقباط، وضعي الحياة في أساس الحياة، واستقبلي عنصرك الجديد بأذان المسجد ودق الناقوس ليباركه الله، ولتلق الشعب أول طياريه بقلوب فيها روح المعركة، وأكباد عرفت مس النار؛ ولا ينظرن إلى طياراته الأول إلا بعد أن ينظروا التعشين فيرى مجد الموت في سبيل الوطن، فتسطع نظراته ببريق الكبرياء، ولمعة العزيمة، وشعاع الإيمان؛ ويأتلق فيها النور السماوي الذي يجعل الناس في بعض ساعاتهم كواكب نور صلاة الشعب على موتاه الشهداء».

واستجاب القدر لصوت المجد، فالتج الظلام في وضح الصباح، وانطفأ سراج النهار في قبة الفلك، وأطبقت نواحي الجو أطباق ليلة تساقطت أركانها وأقبل الضباب يعترض اعتراض جبل عائم يتذبذب في بحر، واستأرض السحاب فتحلى عن طبيعته السماوية الرقيقة، وتذامرت العناصر على القتال يحض بعضها بعضاً، وتغشيت السماء بوجه الموت: كلح فازبد وانتفخ، وتكسرت فيه الغضون كل غضن كسفة ظلام، وعاد أوسع شيء أضيق شيء، فكان الفضاء كصدر المحتضر: ليس معه إلا عمر ساعة وأنفاسها.

وابتذرت إلى مجد الموت الطائرة المصرية الأولى؛ وكان فيها إنكليزيان يقودانها فأباهما الموت، فذهبت فانتحرت أسفاً وتردّت متحطمة، وانسل الرجлан من مخالِب الردي، وكانا في الطائرة كورقتين من الثبب في قم جرادة همت تقضمهما...

وتسبب الثانية فإذا فيها ودبعة الكرم من عنصر مصر: «حجاج ودوس»^(١) وكان سراً من أسرار مصر اجتماعهما في مداخض الغمام ومزاليقه، ليكونا هدية مصر الأولى إلى مجدها الحربي، ثم ليكونا هدية المجد إلى إحساس هذا الشعب يحس منهما العالم المنطوي له في مستقبل النصر.

واعتسفت طائرة الشهيدين طريق الفناء ومناهة الحياة، فذهبت عنها معارف الأرض، وعمت عليها معالم السماء، وخرجت من تصريف أيدي البطلين إلى تصريف أجليهما، وأصبحت كأنها تطير في الأنفاس الباقية لهما؛ فما تتقدم ولا تتأخر؛ ولم تكن طائرة تحملهما، بل جناحاً ممدوداً لهما من رحمة الله.

(١) هما فؤاد حجاج، وشهدي دوس؛ وكان في الطائرة الأخرى التي تحطمت المستر بليت، والمستر سميث.

ثُمَّ اجْتَرَّهَا الْمَوْتُ إِلَى غَوْرٍ، فَانْحَطَّتْ مِنَ الْهَوَاءِ جَانِحَةً كَالطَّائِرِ يَطْلُبُ مَلْجَأً فِي الْعَاصِفَةِ، ثُمَّ انْتَهَضَتْ وَائِبَةً، وَتَمَطَّرَتْ مُنْقَلِبَةً، فَاسْتَعْلَتْ فَاسْتَعْرَتْ فَانْضَجَتْ رَاكِبِيهَا، رَحِمَهُمَا اللَّهُ!

وكثيراً ما يكون منظرُ الحزن في الحياة هو انهماكُ الحياة في عملٍ جديدٍ تُبدعُ منه السرورَ والقوة. احترقَ البطلانُ لِتَسَلَّمَ مصرُ في نعيهما رماداً لَنْ يُبْنَى تاريخُ العِزَّةِ الوَطَنِيَّةِ إِلَّا بِهِ.

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مَثَا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي.



صَنَعَتِ النَّارُ الْآدَمِيَّةَ الْحَقِيقَةَ، وَوَضَعَتْ لَنَا الْاسْمَ الْبَدِيعَ الَّذِي نُطْلَقُهُ عَلَى طَيَّارِنَا الْأَبْطَالِ، فَلَا تُسَمُّوهُمْ تُسَوِّرُ الْجَوَّ، وَلَكِنْ سَمُّوهُمْ «جَمَرَاتِ الْجَوِّ».

صَنَعَتِ نَارُنَا الْحَقِيقَةَ، وَأَوْحَتْ إِلَيْنَا أَنْ نَسْتَبْدِلَ مِنْ أَنْفُسِنَا حَالَةً بِحَالَةٍ، وَأَنْ نَفْاجِيءَ شَعُورَنَا الْحَالِمَ فَنَصْدُمَهُ بِآلَامِ الْيَقْظَةِ الْمَرَّةِ، وَأَنْ نَغَيِّرَ قَاعِدَةَ الْحَيَاةِ فِي التَّرْبِيَةِ الْمِصْرِيَّةِ فَلَا تَكُنْ: الْعَيْشُ الْعَيْشُ، وَلَكِنْ الْقُوَّةُ الْقُوَّةُ.

صَنَعَتِ النَّارُ الْحَقِيقَةَ، وَاثْبَتَتْ لَنَا أَنَّ الْحَيَاةَ إِنْ هِيَ إِلَّا أَدَاةٌ لِلْحَيِّ، وَلَيْسَ الْحَيُّ أَدَاةً لِلْحَيَاةِ، فَلْيَتَصَرَّفْ بِهَا عَلَى قَوَانِينِ الرُّوحِ وَأَمَالِيهَا فَيَسْمُوَ وَتَسْمُو، وَلَا يَدْعُهَا تَتَصَرَّفْ عَلَى مَذَاهِبِ أَفْدَارِ الْمَادَّةِ وَتَصَارِفِهَا فَيَذَلُّهَا وَتَذَلُّهُ. وَفِي قَانُونِ الرُّوحِ: لَا قِيَمَةَ لِعَالَمِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا كَمَا تَصْلُحُ لَنَا؛ وَفِي قَانُونِ الْمَادَّةِ وَضْعُطَةُ الْحَيَاةِ: كَمَا تَصْلُحُ لَنَا وَكَمَا نَصْلُحُ لَهَا...

بَلَى، قَدْ صَنَعَتِ النَّارُ الْآدَمِيَّةَ الْحَقِيقَةَ، وَأَعْطَتْنَا قِصَّةَ الْحُرِّيَّةِ كَامِلَةً فِي مَعْنَى وَاحِدٍ: وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ لِعَاشِقِيهَا كَأَجْمَلِ الْجَمِيلَاتِ لِلْمَتَنَافِسِينَ عَلَيْهَا: جَمَالُهَا مُتَوَحِّشٌ، وَخَلَاعَتُهَا مُفْتَرِسَةٌ، وَظَرْفُهَا سَفَّاكٌ لِلْدَّمِ.

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مَثَا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي.



وَالِى السَّمَاءِ يَا «جَمَرَاتِ الْجَوِّ»، فَإِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَى السَّحَابِ، فَلْيَسِّتِ الطَّيَّارَةُ ثَمَّ طَيَّارَةً، بَلْ حَقِيقَةً حَيَّةً عَامِلَةً لِلْمَجْدِ، فَلْتَحْمِلْ مَعْنَاهَا الْمِصْرِيَّ مِنْ بَطْلِيهَا الْمِصْرِيَّ.

وَإِذَا سَبَخْتُمْ فِي مَهَيْطِ الْقَدَرِ، فَلَيْسَ الطَّيَّارُ ثَمَّ طَيَّاراً، بَلْ حَيَاةٌ عَبْرِيَّةٌ أَرْسَلَتْهَا مِصْرُ تَسْتَنْزِلُ لِلْحَيَاةِ أَقْدَاراً سَعِيدَةً.

وإذا خُضْتُمْ في المَفْرَكِ الضَّنَكِ تَبَعَتْهُ فِيهِ الآجَالُ عَلَى الرِّيحِ، فَلَيْسَ الْجِسْمُ
الْمِصْرِيُّ هُنَاكَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ، بَلْ نَامُوساً طَبِيعِياً مَاضِياً إِلَى غَايَةٍ.
وإذا تَقَادَفْتُمْ فِي بَحْرِ الشَّمْسِ، فَأَنْتُمْ هُنَاكَ عَلَى شِبَاكِ طَرَحْتُمُوهَا لِصَيْدِ أَيَّامٍ
مُضِيَّةٍ تَلْتَمِعُ فِي تَارِيخِ مِصْرٍ.
وإذا نَفَذْتُمْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ، فَانظُرُوهَا بِأَعْيُنِكُمْ مَعَالِي مِصْرٍ، وَافْهَمُوهَا
بِقُلُوبِكُمْ ذَاتِيَّةَ الْوَطَنِ الْمِصْرِيِّ تَعْلُو وَتَعْلُو وَلَا تَزَالُ أَبَداً تَعْلُو.
إنَّما الطَّيَّارَةُ وَسَلاخُهَا وَطَيَّارُهَا تَأَلِيفٌ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْعَنَاصِرِ، مَعْنَاهُ فِي
الْعَزِيمَةِ «لَا بَدْ». وَمَتَى هَدَرَتِ الطَّيَّارَةُ هَدِيرَهَا فَإِنَّمَا تَقُولُ لِلْبَطْلِ مِنْكُمْ: قَلَمٌ مِنْ
عَالٍ إِلَى أَعْلَى، إِلَى أَكْثَرِ عُلُوءٍ، إِلَى أَقْصَى حُدُودِ الْوَاجِبِ عَلَى النَّفْسِ حِينَ يَأْخُذُ
الْوَاجِبُ الْكُلَّ وَحِينَ تُعْطِي النَّفْسُ الْكُلَّ.
فَاسْتَجْنَحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مَثَا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي.

أحاديث الباشا

الطباطم السياسي...

كان (م) باشا^(*) رحمه الله - داهية من ذُهاة السياسة المصرية، يلتوي مرة في يدها التواء الحبل، ويستوي في يدها مرة استواء السيف، ولا يرى أبداً إلا منكشاً مُحَرَّزاً كأن له عدواً لا يدري أين هو ولا متى يقتجم عليه، ولكنه كغيره من الرؤساء الذين كانوا آلاتٍ للكذب بين طالب الحق وغاصب الحق - يعرف أن عدوه كامنٌ في أعماله.

وكان ذكياً أريباً، غير أن مُلابسته للسياسة الدائرة على محورها، جعلت نصف ذكائه من الذكاء ونصفه من المكر؛ فكان في مُراوغته كأن له ثلاثة عقول: أحدها مصري، والآخر إنجليزي، والثالث خارج من الحالين.

وبهذا تقدّم وعاش أثيراً عند الرؤساء من الإنجليز، واستمرت مجاريه مُطردةً لديهم حتى بلغوا به إلى الوزارة، إذ كان حسن الفهم عنهم، سريع الاستجابة إليهم؛ يفهم معنى ألفاظهم، ومعنى النية التي تكون وراء الألفاظهم، ومعنى آخر يتبرع هو به لألفاظهم... فكان هو وأمثاله في رأي تلك السياسة القديمة، رجالاً كالأنكار: يوضع أحدهم في مكانه من الحكم كما توضع صيغة الشك لإفساد اليقين، أو صيغة الوهم لتوليد الخيال، أو صيغة الهوى لإيجاد الفتنة.



وكان صديقي (فلان) - رحمه الله - صاحب سرّه (السكرتير)، وقد وثق به الباشا حتى أنه كان يُعاليه بما في نفسه، ويثقه همومه وأحزانه، ويرى فيه دنيا حرة يخرج إليها كلما ضاقت به دنيا وظيفته، ويستعير منه اليقين أحياناً بأنه لا يزال مصرياً لم يتم بعد تحويله في الكرسي...

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافي».

فحدثني الصديق بعد موت هذا الباشا قال: إِنَّهُ دعاه يوماً لِيُفَاتِحَهُ الرَّاي فِي أمرٍ من أمورِهِ، ثُمَّ قال له: إِنَّ الرئيسَ الإنجليزِيَّ غَيْرُ مطمئنٍ إِلَيْكَ لِأَنَّ حَقِيقَةَ من الحقائقِ الصَّريحَةِ ظاهِرَةٌ على وجهِكَ، فَأنتَ تنظرُ إِلَيْهِ وَكأنَّكَ تقولُ له بعينِكَ إِنَّكَ مصريٌّ مستقلٌّ.

قال صاحبُ السَّرِّ: لئنْ كانَ ذلكَ ما يُغْضِبُهُ إِنَّ الخُطْبَ لَهَيِّنٌ، فَلستُ أنظرُ إِلَيْهِ بعدَ اليومِ إِلَّا من وراءِ نَظَّارَةِ سوداءِ...

فضحكُ الباشا وقال: يا بُني، هذا الإنجليزِيُّ عندنا كالشيطان: ﴿إِنَّكُمْ يَرْتَكِبُوهُ وَيَقُولُونَ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ووالله يا بُني إني لأشدُّ أنفةً منك، وإنَّ صَدْرِي لَشَجِيٌّ مِمَّا أنا فِيهِ من هذا الكَرْبِ، وَلَكُنَّا - نحنُ الشرقيينَ - قد ضِغْنَا منذُ فَقَدْنَا الشَّخْصِيَّةَ الاجتماعيَّةَ.

أثراكَ تفهَمُ شيئاً لو قلْتُ لك: رجلٌ، أسدٌ، جبلٌ، مدينةٌ، أسطولٌ؟ إِنَّ تَرْكِيبَنَا الاجتماعيَّ شيءٌ كهذا الكلام: فِيهِ من ضَخامةِ اللَّفْظِ بقدرٍ ما فِيهِ من انحلالِ المعنى واضمحلالِهِ. وَلِكُلِّ كلمةٍ إذا أفردتْ معنىً صحيحاً يَقُومُ بها وتقومُ بِهِ، غَيْرُ أَنَّهُ يتحوَّلُ فِي الجملةِ إِلَى معنىٍ كَلَّا معنىٍ.

أصبحَ الشرقيُّ يعيشُ فِي أُمِّتِهِ على قاعدةٍ أَنَّهُ منفردٌ لا صِلَةَ بَيْنَهُ وبين الأطرافِ لا فِي الزمانِ ولا فِي المكانِ، وَنَسِيَ معنىَ الحديثِ الشريفِ: «إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا». فَمَاذَا كانَ يُريدُ أعظمُ المصلحينَ الاجتماعيينَ من قوله: «كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا»؟ إِلَّا أَن يَقَرَّرَ لِأُمِّتِهِ أَنَّ الفردَ ينبوعُ الأجيالِ المُقبِلَةِ كُلِّهَا، فَلْيَعْمَلْ لَهَا وَلِنَفْسِهِ كَأَنَّها موقوفةٌ عليه وَكَأَنَّهُ مستمرٌّ فِيها.

هذه حِكْمَةُ إسلاميَّةٌ دقيقةٌ، عندنا نحن لفظُها وَلستُنا نعرفُ معناها، وعند الإنجليزِ معناها ولا يعرفون لفظُها. أَهْمُ المسلمون أم نحن؟

وعلى قاعدةِ الانفرادِ انفردَ كُلُّ شيءٍ؛ فَأَثَرُ الشرقيِّ حَيَاتُهُ على وطنِهِ، وَقَدَّمَ لِدُنْيَتِهِ على واجِبِهِ، وتعاملَ بالمالِ فِي مواضعِ المُعاملةِ بالأخلاقِ؛ وَكانَ طبيعيًّا مع هذا أَن يَخْتَصِرَ الدينَ اختصاراً يجعلُهُ مقدَّراً بينَ مقدارين، فلا هو دينٌ ولا هو غيرُ دينٍ؛ وبذلك يَناسبُ فردِيَّتَهُ ويقعدُ تحتَ حُكْمِهِ وهو خارجٌ عليه؛ فترى الرجلَ من هذه الملايينَ يؤمِّنُ باللهِ وهو يَحْلِفُ بِهِ كَذِباً على درهمٍ، وَيُصَلِّي وَيُفْجِرُ فِي يومٍ واحدٍ، ويتعبَّدُ فِي نَفْسِهِ ويخونُ سِوَاهُ فِي وقتٍ معاً.

ومتى كانتِ الحالةُ النفسِيَّةُ لِلأُمَّةِ هي هذه الفرديةُ ومُصالحُها ودواعيها،

كان الكذبُ أظهرُ خلالِ هذه الأمة، إذ هو انفرادُ الكاذبِ بحظه ومصلحته وداعيته؛ ولا يكذبُ عليك إلا مَنْ يرجو أن تكونَ مغفلاً، أو من قدَّرَ في نفسه أن المعاملةَ العامَّةَ في الأمة هي على قاعدةِ المغفلين . . ويكذبونَ في هذا أيضاً فيسمونهُ جذاقاً وبراعةً (وشطارة).

وإذا عَمَّ الكذبُ فشا منه الهزل؛ فكلُّ كاذبٍ هازل، وهل يجِدُ الكاذبُ وهو يكذبُ إلا إذا كان مجنوناً؟ ومن الهزلِ ضَرْبٌ هو المباشطةُ بالكذب، ومنه ضَرْبٌ من كذبِ الحقائق، ومنه من كذبِ الخيال، وكيفما دارتِ الحال لا تجذُّه إلا كذباً.

ومتى صارَ الكذبُ أصلاً يغفلُ عليه، تفرَّزَ عند الناس أن الكلامَ إنما يُقالُ ليُقَالَ فقط. أفلسَت ترى الرجلين إذا أخبرَ أحدهما صاحبه بالخبر فيه شيء من الغرابة أو البعد، لا يكلمُهُ الآخرُ أول ما يتكلَّمُ إلا أن يسأله: صحيح؟ صدق؟

ولا أضُرَّ على الأمة من هذه العقيدة - عقيدة أن الكلامَ يُقالُ ليُقَالَ فقط - فإنها هي طابعُ الهزلِ على أخلاقِ الأمة، وعلى كلِّ أحوالها، وعلى حكومتها أيضاً.

ومن الهزلِ والكذبِ ترانا مبالغينَ في كلِّ شيء، حتى ليكونَ لنا الواحدُ كالآحادِ في غيرنا فنجعلُهُ مائةً بصفرين، نجيءُ بأحدهما من اعتيادنا الكذبَ على الحقيقة، ونجيءُ بالآخرِ من حقيقةِ إفلاسينا.

هذه مبالغةٌ خطيرة، وأخطرُ ما فيها أننا نريدُ المبالغةَ في الدلالةِ على الأشياء، فتقلُّبُ مبالغةٍ في الدلالةِ علينا نحن، وعلى كذبِ طباعنا، وعلى قوضى العقلِ فينا. نعم وحتى تُثبتَ أننا لا عزمَ لنا، من كونها مبالغةٌ لا تدقيقٌ في معناها؛ وأن لا صبرَ لنا، من أنها لا ثباتَ لحقيقتها المهزومة؛ وأن لا شِدَّةَ لنا في طلبِ الحقِّ، لأننا بها من أهلِ الغفلةِ في وصفِ الحقِّ؛ وأننا لا نتمثلُ العواقبَ إذ تُرسلُ الكلامَ إرسالاً ولا نخشى ما يكون من عاقبته.

وأيسرُ ما يُفهمُ من هذه المبالغاتِ التي أصبحت طريقةً من طرقِ الشعبِ في التعبير، أن هذا الشعبَ لا يصلحُ في شيءٍ إلا بالحُكومة، فهو نفسه كالمبالغة، والحكومةُ له كالتصحيح؛ وهذه هي العلَّةُ في أن الشعبَ الكذوبُ يلجأُ إلى حُكومته في كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في العمل، كما أنها هي العلَّةُ في أن حُكومته تُكذبُ عليه بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في السياسة.

ومن أثرِ الكذبِ الشعبيِّ والمبالغةِ الشعبِيَّةِ، ما نراه من اهتمام كلِّ فردٍ بما يقولُ الناسُ عن أعماله، فيُديرُها على ذلك وإن قلَّتْ منفعتها، وإن فسدتْ

حقيقتها، وإن جَلَبَتْ عليه من الضرر في ماله ونفسه ما هي جالبة؛ فقاعدتهم هي هذه: ليس الشأن في الحياة للعمل في نفسه، ولكن فيما يُقال عنه؛ فإن لم يُقل شيء فلا تعمل شيئاً...

هذه يا بُني أُمَّة لا يكون حكامها إلا مبالغات أيضاً...

قال صاحب السر: وارتفع من الطريق صوتُ بائع يُنادي على سيلته: أحسن من التفاح يا طماطم...

فضحك الباشا وقال: هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسيِّ العَفِين: إنه ليس تفاحاً وحَسْبُ، بل هو أحسن من التفاح...

إن الأُمَّة لن تكون في موضعها إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها، وإن أول ما يدلُّ على صِحَّةِ الأخلاق في أُمَّة كلمة الصدق فيها، والأُمَّة التي لا يحكمها الصدق لا تكون معها كلُّ مظاهر الحكم إلا كذباً وهزلاً ومبالغة.

البك والباشا

وحدثني صاحب سرّ (م) باشا قال: جاء يوماً إلى زيارة الباشا رجل دخل عليّ متهللاً مشرق الوجه كأنه مُضاء من داخله بشمعة . . . وبترونج عطفاه كأنما تهزه أسرار عظمته؛ ويمشي متخلعاً كالمرأة الجميلة التي أثقلها لحمها وأثقلتها المعاني الكثيرة من أعين الناظرين إليها، وعلى شفثيه خيال من فكرة هؤلاء الكبراء المغرورين الذين لا يأمر أحدهم رجلاً صغيراً إلا ليُعلمه أنه هو كبير، فيكون في الأمر شيئان: الأمر واللوم؛ وأقبل عليّ في هيئة شامخة لو نطقَتْ لقلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾. سبح الله الذي خلق في الأسد شعرة جبارة خرج منها الأسد كله.

سبحان الله ولا إله إلا الله. هذا (فلان باشا) الذي قرأت في الصحف أمس أنهم أنعموا عليه برتبة الباشوية؛ خلقه الله من تراب وحولت الرتبة هذا التراب الذي فيه إلى ذهب خالص . . . ينظر إليّ وبرغمة أن تقيف عيناه عليّ وعلى الحائط؛ ولا تجد نفسه المزهوة سبيلاً إلى التعبير عن الرتبة إلا هذا الازدراء المنبعث من شخصه العظيم لِمَنْ لم يكن كشخصه. ما بين أمس واليوم زاد هذه الزيادة الآدمية، أو كأنما كانت صورته خطوطاً فقط فوضعت فيها الألوان . . .

(باشا)! هذه الباء وهذه الألف وهذه الشين الممدودة ليست حروفاً خارجة من الأبجدية العامة؛ فإن الأبجدية قد تجعل الباء في بليد مثلاً، والألف في أبله، والشين الممدودة في شاهد زور مثلاً . . . بل تلك حروف من حروف الدولة، منتزعة من قوة قادرة على أن تجعل لحياة صاحبها من الشكل ما يُنبِغُه الفن على الحجر من شكل تمثال يُنصب للعظيم.

قال: وكنت أعرف هذا الرجل، وهو رجل أمي لا يُحسن إلا كتابة اسمه كما تكتب الدجاجة في الأرض . . . فكانت الرتبة عليه كإطلاق لفظ الحديقة على صخرة من الصخور الصلدة؛ وهذا بما يحتمله المجاز بعلقة ما؛ ولكن الذي لا يسوغ في المجاز، ولا في مبالغ الاستعارة، ولا في خرافات المستحيل، أن تزعم الصخرة

لِلنَّاسِ أَنَّ لَفْظَ الْحَدِيقَةِ الَّذِي أُطْلِقَ عَلَيْهَا قَدْ أَنْبَتَ فِيهَا أَشْجَارَ الْحَدِيقَةِ . . .

قال صاحب السر: واستأذنتُ له على الباشا فسَهِّلَ له الإذنَ وقال: هذا رجلٌ أصبحَ كالورقةِ المبسوِّمةِ بخاتمِ الدولة، فَلَتَكُنْ ما هي كائنه فإنَّ لها اعتبارَها. ثُمَّ تَلَفَّاهُ تَلَفِّيَ الهازلِ المتهكِّمِ وقال له: اهْنُتْكَ بِالتَّخْوِي . . . مُبَارَكُونَ يَا بَاشَا. وأقبلَ عليه وَبَسَطَ له وَجْهَهُ.

وكان في الباشا دُعابةٌ ظريفةٌ يُعرفُ بها، وهو كثيرُ النوادرِ والمُلح، وله خَصِيصَةٌ عجيبةٌ، فيكون بين يديه كُذْسٌ من الأوراقِ التي تُعرضُ عليه ينظرُ فيها ويقرؤها ويتدبَّرُها، وهو في ذلك يستمعُ إلى محدِّثِهِ وِرَاجعُهُ ويردُّ عليه، فيُصرفُ النَّاسَ والأوراقُ في وقتٍ واحدٍ، ويستعملُ ناحيتين من فكرِهِ استعمالاً واحداً لا يُخلُ بالإصابةِ في شيءٍ من هذه ولا من تلك.

ثُمَّ قال لِلْبَاشَا الحَدِيثَ وعيَّنهُ إلى ما بين يديه: هذه أوراقُ سرقةِ ثورٍ عظيمٍ، فكم يُساوي الثورُ العظيمُ الآن . . . ؟

قال صاحبنا الذكيُّ القَطِنُ: إذا كان من الثيران التي تُعرضُ في المعارضِ وتَنالُ المِدايِلَ الذهبيةَ فَقَدْ يَنْغُدُ سَعْرُهُ وَيُعَالِي بِهِ.

قال الباشا: نعم نعم، إنَّ من الثيران ثيراناً يُنْعَمُ عليها بالأوسمة، ولكنَّ هذا الثور الذي سألتُكَ عنه يا باشا هو ثورٌ محراثٍ لا ثورٌ معرض . . .

قال الآخر: إذا كان ثورٌ محراثٍ فمثلهُ كثيرٌ فلا يكون ثوراً عظيماً كما قلتَ وليسَتْ له إلَّا قِيمَةٌ مثله.

قال الباشا: أراني أخطأتُ، ولَعَنَ اللهُ العَجَلَةَ، فهذه أوراقُ سرقةِ حمارٍ!

قال صاحب السر: وانصرفْتُ عنهما بأوراقِي، وقد رأيتُ يَدَ الباشا مملوءةً لِصاحبنا بِتَحِيَّاتٍ كُلِّهَا صَفْعَاتٍ؛ فلم يكنْ إلَّا يَسِيرُ حَتَّى خَرَجَ مَبْتَهَجاً يَمِيدُ السُرُورِ بِعَظْفِيهِ. ثُمَّ دَعَانِي الباشا ودَفَعَ إِلَيَّ بِطَاقَةً بِالحَاجَةِ التي جَاءَ فِيهَا الرَّجُلُ، ثُمَّ قال:

يا ليتَ لنا في ألقابِ الدولةِ لِقَبَ (رَحِمَهُ اللهُ) . . . يُنْعَمُ بِهِ عَلَى مِثْلِ هَذَا. أتَدْرِي يا بُنَيَّ أَنَّ هَذِهِ الرَّتَبَ وَهَذِهِ الألقابَ لم تَكُنْ في القَدِيمِ إلَّا كَوَضْعِ علامةٍ الشَّرِّ عَلَى أَهْلِ الشَّرِّ لِيَهَابَهُمُ النَّاسُ، حَتَّى كَأَنَّمَا يُكْتَبُ عَلَى أَحَدِهِمْ مِنْ لِقَبٍ بِكَ أَوْ بِأَشَا: مُلْحَقٌ بِالدولةِ . . .

وكان الشعب أمياً جاهلاً لا يستطيع الإدراك ولا يحسن التمييز، فكانت الألقاب كالقوانين الشخصية الموضوعية في صيغة موجزة مفهومة متعينة الدلالة، وكان كل من يحمل لقباً من الحكومة يستطيع أن يقول للناس: لقد وضعت الحكومة كلمة الأمر في شفتي... .

وكان اللقب إعلاناً من الحكومة المستبعدة لشعبها الجاهل: إن هذا البك والباشا من يحق له أن يحترم.

من الهزل أن يشتري اسم النصر الحربي أو يوهب أو يُعار؛ وأقبح منه في باب الهزل أن يُنعم على مثل هذا الأمي بلقب باشا. وأنا أعرف أنه قد بذل في سبيله ما بذل، وأضاع ما أضاع، فكان الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئاً إلا وضع توقيعهم على أخذ الثمن.

ولقد أصبح الرجل تحت تأثير الكلمة العظيمة مخبولاً بسخرها الوهمي، فحسب ذلك إدخالاً له في وظيفة كل حاكم، وإشراكاً له في الحكم متى اقتضته مجاري أموره وأحواله، أو حاجات أسبابه وأتباعه؛ وها هو ذا قد جاء يطلب حقه، فإن مثله لا يفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكومة قد سوّغت سلطته الظهور والعمل، فمدّت باعه وقوت أمره ونوّعت باسمه لمصالحها وعُمّالها؛ فهو عند نفسه قد التّخّم منذ اليوم بالنسب الحكومي، وفي كلمة واحدة، هو قد وُلد من بطن الحكومة... .

ألا ترى أن الشعب لو استرد سلطته الكاملة، وأن الناس لو أيقنوا أن الألقاب الفاظ فارغة من الأمر والنهي والوسيلة والشفاعة، لما بقي من يعبا بها، وكان حاملها هو أول من يسخر منها؟

فهي إذن شُعْبَةٌ^(١) من الحكومة وتضليل في مثل هذا الرجل الأمي، وهي ضرب من التهويل والمبالغة في سواء من الكبراء والعظماء، كأن الوزير الذي يُلقب بالباشا، يجعل في لقبه وزيرين، وكأن مثل هذا الأمي المغفل، يجعل في لقبه شخصاً، آخر غير الأمي المغفل... .

أنا قلماً رأيت رجلاً يحتاج إلى القاب يتعظم بها إلا وهو لا يستحقها، وقلما رأيت رجلاً يستحقها إلا وهو لا يحتاج إليها؛ فأين يكون موضع هذه الرتب والألقاب؟

(١) الشعبة والشعوة بمعنى واحد.

ساكنو الثياب..

قال صاحب سرّ (م) باشا: وجاءني يوماً اثنان من شيوخ الدين من ذوي هياتهم وأصحاب المنزل فيهم، كلاهما هامة وقامة، وجبة وعمامة، وذرجة من الإمامة؛ ولهما نسيم ينفخ عطرأ حسيته من ترويح أجنحة الملائكة؛ وعليهما من الوقار كظل الشجرة الخضراء في لهب الشمس تفيء به بمنة ويسرة. فتوجهت إليهما بنظري، وأقبلت عليهما بنفسي، ووضعْتُ حواسي كلها في خدمتهما؛ وقلت: هؤلاء هم رجال القانون الذي مادته الأولى القلب.

ما أسخفت الحياة لولا أنها تدل على شرفها وقدرها ببعض الأحياء الذين نراهم في عالم التراب كأن مادتهم من السحب، فيها لغيرهم الظل والماء والنسيم، وفيها لأنفسهم الطهارة والعلو والجمال؛ يُثبتون للضعفاء أن غير الممكن ممكن بالفعل، إذ لا يرى الناس في تركيب طباعهم إلا الإخلاص وإن كان جرماناً، وإلا المروءة وإن كانت مشقة، وإلا محبة الإنسانية وإن كانت ألماً، وإلا الجِدُّ وإن كان عناء، وإلا القناعة وإن كانت فقراً.

هؤلاء قوم يؤلفون بيد القدرة، فهم كالكتب قد انطوت على حقائقها وختمت كما وضعت، لا تستطيع أن تُخرج للناس من حقيقة نصف حقيقة ولا شبه حقيقة ولا تزويراً على حقيقة.

وما أعجب أمر هذه الحياة الإنسانية القائمة على النواميس الاقتصادية! فالسماء نفسها تحتاج فيها إلى سماسرة لعرض الجنة على الناس بالثمن الذي يملكه كل إنسان وهو العمل الطيب.

قال: ونظرْتُ إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوة العاملة فيها شريعة نفسها. تلك الشريعة التي لا تتغير ولا تبدل كيلا يتغير الناس ولا يتبدلوا. ثم سألتُهما عن حاجتهما، فإذا أحدهما قد عمل أبياتاً من الشعر جاء يمدح بها

الباشا ليزدلف إليه؛ فقلتُ في نفسي: «ما أشبهَ حَجَل الجبالِ»^(١) بألوان صخرها! هذا عالمٌ دنيا يحدثها من الشرقيِّ الرغيثُ، ومن الغربِ الدينار، ومن الشمالِ الجاه، ومن الجنوبِ الشيطان... .

ثُمَّ نَشَرَّ ورقةً في يده وأخذَ يَسْرُدُ عَلَيَّ القصيدةَ، وهي على رَوِيِّ الهاء، تنتهي أبياتها: ها. ها. ها. فكان يقرؤها شعراً - أو كما يُسميه هو شعراً - وكُنْتُ أسمعُها أنا قهقهةً من الشيطان الذي رَكِبَ أَكْتَافَ هذا العالمِ الديني: ها. ها. ها. ها. . .



قال صاحبُ السرِّ: وأدخلْتُهما على الباشا، فوقَفَ المذْأَحُ يمدحُ بقصيدتي، وأخذتُ لِحِيَّتَهُ الوافرةَ تهتِزُّ في إنشاده كأنَّها يَنْفُضَةُ يَنْفُضُ بها المللُ عن عواطف الباشا. . . وكان لِأَخَرِ صمْتٌ عامِلٌ في نفسه كصمْتِ الطبيعةِ حينَ تَنْفَطِرُ البذرةُ في داخلِها، إذ كَانَتْ الحاجةُ حاجتَهُ هو، وإنَّما جاءَ بِصاحِبِهِ رافِداً وظَهِيراً يحملُ الشمسَ والقمرَ والليثَ والغَيْثَ، لِتَتَقَلَّبَ الأشياءُ حولَ الممدوحِ فيأخذُه السحرُ، فيكونُ جوابُ الشمسِ على هذه اللغةِ أنْ تُضيءَ يومَ الشيخ، وجوابُ القمرِ أنْ يملأَ ظلامه، وجوابُ الليثِ أنْ يفتَرِسَ عدوّه، وجوابُ الغيثِ أنْ يَهْطِلَ على أرضه.

والباشا لا يدعُ ظَرْفَهُ ودُعابته، وكان قد لَمَحَ في أشدِّاقِ العالمِ المتشاعِرِ أسناناً صناعية، فلمَّا فرَغَ من نظميهِ الركيكِ قالَ لهُ: يا أستاذ، أحسبني لا أكونُ إلَّا كاذباً إذا قلتُ لك: لأفُضُّ فوك.

ثُمَّ ذَكَرَ الآخِرُ حاجتَهُ: وهي رجاؤهُ أنْ يكونَ عمدةَ القريةِ من ذوي قَرَابَتِهِ لا من ذوي عداوتِهِ. فقال له الباشا: ولِقَرِيتِكُم أيضاً أبو جهل... ؟



ولمَّا انصرفا قال لي الباشا: لأمرٍ ما جعل هؤلاء القومُ لأنفسيهم زبياً خاصاً يتميِّزون به في الناس، كأنَّ الدينَ بابٌ من التحرفِ والتصرفِ، بعضُ آلتِهِ في ثِيَابِهِ؛ فهؤلاءِ يسكنون الجُبَبَ والقفاطينَ وكأنَّها دواوينُهُم لا ثيابُهُم... .

قد أفهمُ لهذا معنىً صحيحاً إذا كان كلُّ رجلٍ منهم محصوراً في واجباتِ عملِهِ كالجنديِّ في معاني سِلاحِهِ، فيكونُ التعظيمُ والتوقيرُ لِثوبِ العالمِ الدينيِّ

(١) هذا مثل عربي، والحجل: الطائر المعروف، يكون في الجبل من لون صخره لليلة المقررة في التاريخ الطبيعي.

كأداءِ التحيةِ للثوبِ العسكري: معناه أن في هذا الثوبِ عملاً سامياً أولُهُ بيعُ الروحِ وبذلُ النفسِ وتركُ الدنيا في سبيلِ المجتمع؛ هذا ثوبُ الموتِ يُفرضُ على الحياةِ أن تُعظمَهُ وتُجلَّهُ، وثوبُ الدفاعِ تجبُ له الطاعةُ والانقيادُ، وثوبُ القوةِ ليس له إلا المهابةُ والإعزازُ في الوطنِ.

ولكن ماذا تصنعُ الجبةُ اليوم؟ إنها تُطعمُ صاحبها...

أثر الجيشِ معروفٌ في دفاعِ الأممِ العدوِّ عن البلادِ، فأين أثرُ جيشِ العلماءِ في دفاعِ المعانيِ العدوِّ عن أهلِ البلادِ، وقد احتلَّت هذه المعانيِ وضُرِيتْ وتملكتْ وتركتْ هذا العالمَ الدينيَّ في ثوبه كالجندِيِّ المنهزمِ: يحملُ من هزيمتهِ فضيحةً ومن ثوبه فضيحةً أخرى؟

أنت يا بني قد رأيتَ (الشيخ محمد عبده) وعرفته؛ فرحم الله هذا الرجل، ما كان أعجبَ شأنه! لكأنته - والله - سحابةٌ مطويةٌ على صاعقة. ولو قلتُ إنه قد كان بين قلبه ورأيه طريقٌ لبعضِ الملائكة. لأشبهُ أن يكونَ هذا قولاً.

كان يزورني أحياناً فأراني مُرغماً على أن أقدمَ له مجلسين أحدهما قلبي. وكان له وجهٌ يأمرُ أمراً، إذ لا تراه إلا شعرتُ به يرفعُك إلى حقيقةٍ سامية^(١).

رجلٌ نبتَ على أعراقٍ فيها إبداعُ المبدعِ العظيمِ الذي هيأه لرسالته، فعواصفُهُ كالعطرِ في شجرةِ العطرِ الشذيةِ، وشمائلُهُ كجمالِ السماءِ في زُرقةِ السماءِ الصافيةِ، وعظمتُهُ كزُورَةِ البحرِ في منظرِ البحرِ الصاحبِ. وكثيراً ما كان يتعجبُ من هذا أستاذه (السيد جمال الدين الأفغاني) فيسأله مندهشاً: بالله قل لي: ابنُ أيِّ ملكٍ أنت؟

لم يكن ابنَ ملكٍ ولا ابنَ أميرٍ، ولكنه ابنُ القوَّاتِ الروحيةِ العاملةِ في هذا الكونِ؛ فهي أعدته، وهي ألهمته، وهي أنطقته، وهي أخرجته في قومه إعلاناً غيرِ كتمانٍ، ومُصارحةً غيرِ مُخادعةٍ، وهي جعلت فيهِ أسديَّةَ الأسدِ، وهي ألقت في كلامه تلكَ الشهوةَ الروحيةَ التي تُذاقُ وتُحبُّ، كالحلاوةِ في الحلوى.

هذا هو العالمُ الدينيُّ: لا بدُّ أن يكونَ ابنُ القوَّاتِ الروحيةِ، لا ابنُ الكتُبِ وحدها، ولا بدُّ أن يخرجَ بعمله إلى الدنيا، لا أن يدخلَ الدنيا تحتَ سقفِ الجامعِ... وأنا فما ينقضي عجبِي من هؤلاءِ العلماءِ الذين هم بقايا تنضاءٍ بجانبِ

(١) وصفنا الشيخ (رحمه الله) في كتابنا (السحاب الأحمر) واستهلماً روحه فصلاً طويلاً تجده هناك.

الأصل؛ يبحثون في سُنَنِ النَّبِيِّ ﷺ: كيف كان يأكلُ ويشربُ ويلبسُ ويمشي ويتحدثُ؛ كأنهم من الدنيا في قانون المائدة، وآدابِ الولائم، ورُسُوم المجتمعات؛ أمَّا تلك الحقيقةُ الكبرى، وهي كيف كان النبي ﷺ يُقاتلُ ويُحاربُ لهداية الخلق، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها؟ وكيف كان يطبِّعُه القُوَّة الصريحة تعديلاً فعلاً في هذه الإنسانية للنواميسِ الجائرة؟ وكيف كان يحملُ الفقرَ ليُكَيِّرَ به شِرَّةَ النواميسِ الاقتصادية التي تُقضي بجعلِ الأخلاقِ أثراً من آثارِ السَّعة والضيق، فتُخرجُ من الغنى مُتَعَفِّفاً ومن الفقرِ لِبَاصاً؟ وكيف استَطَاعَ ﷺ بفقره السامي أَنْ يُحوِّلَ معنى الغنى في نفوسِ أصحابه، فيجعله ما استغنى عنه الإنسان من شهواتِ الدنيا وتَرَكْ، لا ما نال منها وَجَمَعَ؟ أمَّا هذا ونحوه من حقائقِ النبوة العاملة في تنظيم الحياة، فقد أهملوه، إذ هو لا يُوجدُ في الكتبِ وشروحها وحواشيها، ولكن في الحياة وأثقالها وأكدارها؛ وبذلك أصبحَ شيوخُنا من الأُمَّة في مواضعٍ لم يضعُهم فيها الدينُ ولكن وضعَتْهم فيها الوظيفة.

ألا لِيَتَّهَمُوا يَكْتَبُونَ على أبوابِ الأزهرِ هذه الحكمة: سئل بعضُ العرب: بِمَ ساءَ فلانٌ فيكم؟ قالوا: احتجنا إلى علمه واستغنى عن دُنيانا...

الأخلاق المطربة

وحدثني صاحبُ سرِّ (م) باشا بهذا الحديث قال: كُنا في ثورة سنة ١٩١٩ سنة الهزاهزِ والفتن، وقد تفاقمَت الثورة، وأخذَ الشبابُ يعملُ ويُفكرُ فيما يستطيعُ أن يعمل، وما يجبُ أن يعمل؛ وكان السُّخْطُ العامُّ هو ميراثُ الوقت، فكانت قلوبُ الشعبِ تُلهِمُ واجباتها إلهاماً، إذ لم يكن في هذه القلوبِ كلُّها إلا لدعةُ الدم تُعيِّنُ اتجاهَ أعمالها وتُحدِّده.

كانتِ الثورةُ زلزلةً وقعت في التاريخ، فجاءت تحتَ زمنٍ راكِدٍ لا يتغيَّرُ إلا بأن يُنْسَف، ولا ينسِفُ إلا مادةُ إلهية كالحركة الكونية التي تُخْرِجُ اليومَ الجديدَ من اليوم القديم؛ فكان القَدَرُ يعملُ بأيدي الإنجليزِ عملاً مِصرياً، ويعملُ بأيدي المصريينِ عملاً آخر.

وتعلَّم الشعبُ من دفنِ شُهادته كيف يَسْتَنْبِثُ الدَمَ فيُنْبِثُ به الحرية، وكيف يزرعُ الدمعَ فيُخرِجُ منه العزمَ، وكيف يستثيرُ الحزنَ فيُثْمِرَ له المجد.

وكان رصاصُ الإنجليزِ يُصيبُ هُدفين معاً: فيصرِّعُ شُهداءنا، ويقتلُ الموت السياسي الذي احتلَّ معهم هذه البلاد. وقد أنعموا على الشعبِ بالصدمة الأولى، فنشبتِ المعركةُ التي تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القوميةُ لِتُنْتَصِرَ؛ وشعرَت مصرُ في جهادها بأنها مصرٌ، فالتَمَسَ رُوحها التاريخي رمزه العظيم في الأمة ليظهرَ فيه عاتياً جباراً؛ فكان هذا الرمزُ الجليلُ العظيمُ هو سعد زغلول.



قال صاحبُ السرِّ: وكان الطلبةُ قد غَدَوْا من أوَّلِ النهارِ يتظاهرونَ، وقد جعلتْهُمُ الثورةُ كالأرواحِ تَخَلَّصَتْ من الموتِ بِالموتِ فلا تخشاه ولا تُباليه، واستقلَّت عن العقلِ بتحوُّلِها إلى شعورٍ مَخْض، وخرجت عن القوانينِ كُلِّها إلا القانونَ الخفي الذي لا يُعلَمُ ما هو.

كانوا في معاني قلوبِهِم لا في غيرها، فلست تراهم إلا عظماء في عظمة

المبدأ الذي ينتصرون له، أقوياء في قوة الإيمان الذي يعملون به، أجلاء في جلال الوطن الذي يحيون ويموتون في سبيله.

وكانوا في الشعب هم خيال الأمة العامل المدرك، وشعورها الحي المتوثب، وقواها البارزة من أعماقها، وأملها الزاحف ليتقهر الصعوبة.

يقادون بأنفسهم الغالية ويؤثرون عليها، وليس في أحد منهم ذاته ولا أغراض شخصه. فما أجل وما أعظم! وما أروع وما أسمى! أيُّها الحياة! هل فيك أشرف من هذه الحقيقة إلا حقيقة النبوة؟



قال: وكان أخي هو زعيم هؤلاء الطلبة في مدينتنا؛ قوي على الزعامة وفي بها؛ يحمل قلباً كالجمرة الملتهبة، وله صوت بعيد تحسب الرعد يفتقع به. إذا مشى في جهاده كان كل ما على الأرض تراباً تحت قدميه، فلا يمشي إلا مُحْتَقِراً هذه الدنيا وما فيها، غير مقدس منها إلا دينه ووطنه؛ وسلاحه أن كل شيء فيه هو سلاح على الظلم وضد الظلم.

وكان في ذلك اليوم يقود «المظاهرة»، وحوله جماعة من خالصته وصفوة إخوانه، يمشون في الطليعة تحت جو متقد كأن فيه غضب الشباب، عنيف كأنما امتزج به السخط الذي يفورون به، رهيب كأنه متهى لينفجر؛ فلما بلغوا موضعاً من الطريق ينطفون عنده انصب عليهم المدفع الرشاش...

قال: فلأني لجالس بعد ذلك في الديوان إذ دخل علي أخي هذا ينتفض غضباً كأن المعاني تنبعث من جسده لتقاتل، ورأيت له عينين ينظر الناظر فيهما إلى النار التي في قلبه؛ فخشيت أن يكون القوم أطلقوا عليهم الجنون والرصاص معاً.

واستنبأته خبر أصحابه فقال: إن الدين كانوا حوله وقموا يتسخطون في دمايهم، فوقفت هو شاخصاً إليهم كأنه ميت معهم، وقد أحسن كأنما خلع عن جسمه نواويس الطبيعة، فلا يعرف ما هي الحياة ولا ما هو الموت؛ وكان الرصاص يتطاير من حوله كأن أرواح الشهداء تلتقاه وتبعثره لا يناله بسوء. قال: وما أنس لا أنس ما رأيته في تلك الساعة بين الدنيا والآخرة؛ فلقد رأيت بعيني رأسي الدم المصري يسلم على الدم المصري، ويسعى إليه فيعانقه عناق الأحياب.

ثُمَّ قَالَ: أَيْنَ هَذَا الْبَاشَا؟ وَمَا بِالْأَلَمِ يَصْنَعُ شَيْئاً فِي الْإِحْتِيَاظِ لِهَذِهِ الْقُوَّةِ؟
يَكَاذُ الْخَزْيِ - وَاللَّهِ - يَكُونُ فِي هَذِهِ الْوُظَانِفِ عَلَى مِقْدَارِ الْمَرْتَبِ ...

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَلَمْ يُتِمَّ كَلِمَتُهُ حَتَّى خَرَجَ عَلَيْنَا الْبَاشَا مُتَكَسِّرَ الْوَجْهِ مِنَ الْحُزَنِ قَدْ تَغَرَّعَتْ عَيْنَاهُ، فَأَخَذَ يَبْدُو أَخِي إِلَى غُرْفَتِهِ وَتَبَعْتُهُمَا، ثُمَّ قَالَ: هَوْنًا مَا يَا بُنَيَّ، إِنَّ الْعِلَّةَ فِيكُمْ أَنْتُمْ يَا شَبَابَ الْأُمَّةِ، فَكُلُّ مَا ابْتَلَيْنَا أَوْ نُبْتَلَى بِهِ هُوَ مِمَّا يَسْتَدْعِيهِ خَمُولُكُمْ وَتَسْتَوْجِبُهُ أَخْلَاقُكُمْ الْمُتَخَاذِلَةُ؛ إِنَّا مِنْ غَيْرِكُمْ كَالْمَدَافِعِ الْفَارِغَةِ مِنْ دُخَانِهَا: لَا تَصْلُحُ إِلَّا سُكُلًا، وَبِهَذِهِ الْعِلَّةَ كَانَ عِنْدَنَا سُكُلُ الْحُكُومَةِ لَا الْحُكُومَةَ.

أَتَدْرِي يَا فَتَى مَا هِيَ الْحُكُومَةُ الصَّحِيحَةُ فِي مِثْلِ حَالَتِنَا؟ هِيَ أَنْ تَحْكُمُوا أَنْتُمْ فِي الشَّعْبِ حُكُومَةً أَخْلَاقِيَّةً نَافِذَةً الْقَانُونِ، فَتَضْبِطُوا أَخْلَاقَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، وَتَرْدُّوهُمَا كُلَّهَا أَخْلَاقًا مُحَارِبَةً لَا تَعْرِفُ إِلَّا الْجِدَّ وَالْكَرَامَةَ وَصِرَامَةَ الْحَقِّ؛ وَإِلَّا فَكَمَا تَكُونُونَ يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ ...

هَذَا وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُعِيدُ الْأَجَانِبَ إِلَى رُشْدِهِمْ وَإِلَى الْحَقِيقَةِ، فَمَا أَرَاهُمْ يُعَامِلُونَنَا إِلَّا كَأَنَّا ثِيَابٌ مَعْلَقَةٌ لَيْسَ فِيهَا لَابِسُوهَا ...

كَيْفَ يَتَصَلَّكَ الْمِصْرِيُّ لِلْأَجْنَبِيِّ لَوْ أَنَّ فِي الْمِصْرِيِّ حَقِيقَةَ الْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ؟
أَتَرَى بَارِجَةً حَرِيَّةً تَتَصَلَّكَ لِزُرُوقِ صَيْدٍ جَاءَ يَرْتَزِقُ؟

إِنَّ فِي بِلَادِنَا الْمِسْكِينَةَ الْأَجَانِبَ، وَأَمْوَالَ الْأَجَانِبِ، وَغَطْرَسَةَ الْأَجَانِبِ؛ لَا لِأَنَّ فِيهَا الْإِحْتِلَالَ، كَلَّا، بَلْ لِأَنَّ فِيهَا ضَعْفَ أَهْلِهَا، وَغَفْلَةَ أَهْلِهَا، وَكَرَمَ أَهْلِهَا ... بَعْضُ هَذَا يَا بُنَيَّ شَبِيهُ بَعْضٍ، وَإِلَّا فَمَا هُوَ كَرَمُ الشَّاةِ الضَّعِيفَةِ إِلَّا لَذَّةً لَحْمِهَا ...؟

نُرِيدُ لِهَذَا الشَّعْبِ طَبِيعَةً جَدِيدَةً صَارِمَةً، يَنْظُرُ مِنْ خِلَالِهَا إِلَى الْحَيَاةِ فَيَسْتَشْعِرُ ذَاتَهُ التَّارِيخِيَّةَ الْمَجِيدَةَ فَيَعْمَلُ فِي الْحَيَاةِ بِقَوَانِينِهَا؛ وَهَذَا شَعُورٌ لَا تُحْدِثُهُ إِلَّا طَبِيعَةُ الْأَخْلَاقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي لَا تَسَاهَلُ مِنْ ضَعْفٍ، وَلَا تَسْمَحُ مِنْ كَذِبٍ، وَلَا تَتَرَخَّصُ مِنْ غَفْلَةٍ. وَالْحَقِيقَةُ فِي الْحَيَاةِ كَالْحَقِيقَةِ فِي الْمَنْطِقِ: إِذَا لَمْ يَصْدُقِ الْبِرْهَانُ عَلَى كُلِّ حَالَاتِهَا، لَمْ يَصْدُقْ عَلَى حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِهَا؛ فَإِذَا كُنَّا ضَعْفَاءَ كُرَمَاءَ، أَعِزَّاءَ، سَادَةً عَلَى التَّارِيخِ الْقَدِيمِ، فَنَحْنُ ضَعْفَاءُ فَقَطْ ...

إِنَّ الْكِبْرِيَاءَ فِي الشَّرْقِ كُلُّهُ لَا يَصْلُحُونَ إِلَّا لِلرَّأْيِ، فَلَا تُسْمُوهُمْ غَيْرَ هَذَا، فَهَمْ قَدْ تَلَقَّوْا الدَّرْسَ مِنْ أَغْلَاطِهِمُ الْكَثِيرَةِ، وَبِهَذَا لَنْ تُفْلِحَ حُكُومَةٌ سِيَاسِيَّةٌ فِي

الشرقي الناهض ما لم يكن شبابها حكومة أخلاقية يُمدّها من نفسه ومن الشعب في كلّ حادثة بالأخلاق المحاربة .

يا بُنيّ، إنّ القويّ لو اتفق مع الضعيف على كلمة واحدة لا تتغيّر، لكان معناها للأقوى أكثر ممّا هو للأضعف؛ فإنّ هذا القويّ الذي يعمل مع الضعيف يكون فيه دائماً شخص آخر مختلف، هو القويّ الذي يعمل مع نفسه .

هكذا هي السياسة؛ أمّا في الإنسانية فلا، إذ يكون الحق دائماً بين اثنين أقوى من الاثنين .

خضع يخضع...

وقال صاحبُ سرٍّ (م) باشا فيما حدثني به: جاء ذات يومَ قنصلُ (الدولة الفلانيّة) من هذه الدولِ الصغيرة؛ التي لو عَلِمَ الذبابُ في بلادها أنَّ في مصرَ امتيازات أجنبيّة، لطبعت كلَّ ذبابة أن يكونَ لها في بلادنا اسمُ الطيّارة الحربيّة. . . .

ورأيتُه قد دخل عليّ شامِخاً باذخاً متجبراً، كأنه قبل أن يجيء إلى هذا الديوانِ لمُقابلة الحاكمِ المصريّ - قد تكلم في (التلفون) مع إسرافيل يأمُرُه أن يكونَ مستعداً للتّخفُّع في الصُّور. . . .

جنّى ضُلعوك من رعايا دولته على مصريّ، فأخذَ كما يُؤخذُ أمثاله، وقضى ساعةً أو ساعتين بين أيدي المحققين يسألونه الأسئلةَ الهيئَةَ اللَّيئنة التي تُحيطُ بتعريفه من ظاهره، ولا يُشبهُها في سَخافة المعنى إلّا أن يسألوه عن ثيابه من أيّ مصنع هي في أوروبا. . . . فزعمَ القنصلُ أنّه كان يجبُ أن يكونَ حاضراً يشهدُ التحقيقَ، لأنَّ جُنابةَ أجنبيّ على مصريّ تقعُ أجنبيّة. . . . فلها شأنٌ ورعايةٌ وامتياز، وادّعى أنَّ المُحقّقين ضايقوا المجرمَ وعاسروه وتجهّموه بالكلام، ولهذا جاءَ يحتجّ.

ورأيتُه جلسَ متوقّراً كأنما يشعرُ في نفسه أنّه أنقلُ من مدفعِ ضخّم، لأنَّ في نفسه وهَمَّ القوّة؛ وخيّلَ إليّ أنّه يرى موضِعَهُ بين السقف والأرض؛ إذ يحملُ في رأسه فكرةً أنّه الأعلى، وكانت له هيئةٌ صريحةٌ في أنّ الأجنبيّ المُقيمَ هنا ليس هو كلُّ الأجنبي، بل لا تزالُ منه بقيّةٌ تُتمّمها دولته، وفي الجملة كان الرجلُ كلمةً واضحةً مفسّرةً تنطقُ بأنَّ للقانونَ المصريّ قانوناً يحكمُه في بلادِهِ!

وأنا قد درستُ القانونَ الدوليّ، وعرفتُ ما هي الامتيازات وما أصلُها، وهي لا تعدو كَرَمَ الأرنبِ التي زعموا أنّها كانت تملكُ حماماً وتركبُهُ وترتقيقُ به، فسألْتُها أرنبٌ أخرى أن تُزِدَها خلفها، فلمّا اندفعَ بهما الحمامُ استوطّأته، فقالت لِصاحبتِهِ: يا اختي، ما أفرّة جِمارك! ثمّ سكنتُ مدةً وأعجبَها الحمامُ فقالت: يا اختي، ما أفرّة حمامنا! . . .

وكنا - نحن الشرقيين - من الضعف والغفلة؛ بحيثُ لم نبلغْ مبلغَ الأرنبِ في

حِكْمَتِهَا وتَدْبِيرِهَا وحِذْرُهَا، فَإِنَّهَا أَسْرَعَتْ وَدَقَّعَتْ صَاحِبَتَهَا وَقَالَتْ لَهَا: إِنِّ زِلِي - وَيَلِكْ - قَبْلَ أَنْ تَقُولِي: مَا أَفْرَةَ جِمَارِي.

قال: غَيْرَ أَتَيْ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ نَسِيتُ الْقَانُونَ الدَّوْلِيَّ وَكُنْتُ فِي إِلْهَامٍ مِصْرِيَّ وَحَدَّهَا، فَظَهَرَ لِي ظَهْورًا بَيِّنًا أَنَّ لَا شَيْءَ اسْمُهُ الْقَانُونَ الْحَقُّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ وَلَكِنْ هُنَاكَ اتِّفَاقًا بَيْنَ كُلِّ خَضُوعٍ وَكُلِّ تَسْلُطٍ، هُوَ قَانُونُ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ بِخُصُوصِهِمَا. وَأَسْرَعْتُ إِلَى الْبَاشَا فَأَنْبَأْتُهُ، وَأَسْرَعَ الْبَاشَا فَغَيَّرَ وَجْهَهُ، وَتَبَسَّطَ، وَتَهَلَّلَ، وَتَهَيَّأَ بِهَذَا لِاسْتِقْبَالِ الْقَادِمِ الْعَزِيزِ، كَأَنَّهُ أَحْصَى مُحِبِّهِ يَتَطَلَّعُ إِلَى مَوَاسِمِهِ، وَقَدْ جَاءَ يَزُورُهُ فِي دَارِهِ. ثُمَّ دَخَلَ الْقَنْصُلُ، وَلَمْ أَسْمَعْ مِمَّا دَارَ بَيْنَهُمَا إِلَّا الْكَلِمَةَ الْأُولَى، وَهِيَ قَوْلُ الْبَاشَا: لُنْبِدَا يَا سَيِّدِي مِنَ الْآخِرِ...



وَكَانَتْ فِي الْبَاشَا مَوْهَبَةٌ عَجِيبَةٌ فِي اخْتِلَابِ الْأَجَانِبِ خَاصَّةً، يُدِيرُهُمْ بِلَبَاقَةٍ كَالخَاتَمِ فِي إِصْبَعِهِ؛ حَتَّى قَالَ لِي أَحَدُهُمْ: إِنَّ لِهَذَا الْبَاشَا حَاسَةً زَائِدَةً، لَوْ سُمِّيتْ حَاسَةُ الْإِرْضَاءِ لَكَانَ هَذَا اسْمَهَا الطَّبِيعِيُّ، وَإِنَّهُ يَعْمَلُ بِهَا كَمَا يَعْمَلُ الْمُفَكِّرُ بِتَفْكِيرِهِ؛ فَهُوَ يَبْتَكِرُ الْأَسَالِيبَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي يَصْعَدُ وَيَهْبِطُ بِهَا مِيزَانَ الْحَرَارَةِ النَّفْسِيَّةِ، وَإِنَّ جَلِيسَهُ يَكَاذُ يَشْفُرُ مِنْ مَهَارَتِهِ فِي التَّمْثِيلِ أَنَّ فِي جَوْ الْمَكَانِ سِتَارًا يُرْفَعُ وَسِتَارًا يُسَدَّلُ بَيْنَ الْفُصُولِ.

فَمَا لَبِثَ الْقَنْصُلُ أَنْ خَرَجَ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي دَخَلَ بِهِ، وَلَكِنَّهُ عَسَى فِي وَجْهِهِ أَنَا وَتَكَرُّهُ لِي كَأَنَّهُ أَضْغَرَ شَأْنِي؛ فَازْدَرَنْتِي عَيْنُهُ، فَوُثِّبْتُ إِلَى رَأْسِهِ فِكْرَةُ الْاِمْتِيَازَاتِ.

وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الظَّالِمَةُ (الْاِمْتِيَازَاتِ)؛ لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ قُوَّةً قَاهِرَةً نَافِذَةً، وَأَعِينَ بِهَا طُفْلِي لِيَقْتَحِمَ دُورَ النَّاسِ أَمْنًا مَطْمَئِنًّا - لَاسْتَحَى هَذَا الطُّفْلِيُّ أَنْ يَأْكُلَ بِهَا؛ إِذْ تَجْمَعُ عَلَيْهِ التَّطَفُّلُ وَالْمَقْتُ مَعًا، وَلَوْ قِيلَ لِحُسَامِ بَثَّارٍ: إِنَّ لَكَ اِمْتِيَازًا عَلَى بَعْضِ السِّيفِ أَلَّا تَقَارِعَكَ، وَإِنَّكَ مُحِمِّيٌّ أَنْ تَنَالَكَ سَطَوْتُهَا إِذَا قَارَعَتْهَا - لَأَبْفَ أَنْ يَسْمَى سَيْفًا بِهَذَا أَوْ بِمِثْلِ هَذَا، فَإِنَّ الْقُوَّةَ الظَّالِمَةَ الَّتِي يُعَيِّرُونَهُ إِيَّاهَا، لَيْسَتْ إِلَّا مَهَانَةٌ لِشَرَفِ الْقُوَّةِ الْعَادِلَةِ الَّتِي هِيَ فِيهِ.



قال صاحبُ السَّرِّ: وَوَصَفْتُ لِلْبَاشَا هَيْئَةَ الْقَنْصُلِ الَّتِي انْصَرَفَ بِهَا، وَتَقْطِيبَهُ فِي وَجْهِهِ، وَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الذُّبَابَةَ وَقَعَتْ فِي صَحْفَتِي أَنَا مِنْ هَذِهِ الْوَلِيمَةِ... فَضَحَكَ بِمَلْءٍ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ:

ستبطل هذه الامتيازات، وليس بيننا وبين نهايتها إلا أن ينتهي الشعب إلى حقيقته القومية، فما تركها في مكانها إلا نزول الشعب عن مكانته، وتالله لكأن هؤلاء الأجانب يسألونا بهذه الامتيازات: أين مكانكم في بلادكم...؟

أتدري ما قاله هذا القنصل حين تجاذبنا الحديث فيها، بعد أن وضعت نفسي منه في موضع المحامي الذي يخذله الدليل، فيحاول أن يستنزل كرم القضاة بعرض بؤس المتهم على شفقتهم، ليستعطف القانون الذي في أيديهم بالقانون الذي في أنفسهم؟

إنه قال: لا يلومن الشريون إلا أنفسهم، فهم علموا الأجانب أن تنف ريش الطير أول أكله. وهذه الامتيازات إن هي إلا معاملة بيننا وبين طبيعة الخضوع في الشعب. نعم إنها مضرّة ومفرّة، وظلم وقسوة؛ ولكنها على ذلك طبيعيتي في الطبيعة؛ فما دام هذا الشعب لين المأخذ، فإن هذا يوجد له من يأخذه؛ وما دامت الكلمة الأولى في معجم لغته السياسيّة هي مادة (خَضَعَ يَخْضَع)، فهذه الكلمة تحمل في معناها الواحد ألف معنى، منها: ظلم يظلم، وركب يركب، وملك يملك، واستبد يستبد، ودجل يدجل، وخدع يخدع؛ فهل يكثر أن يكون منها للأجانب امتاز يمتاز؟



قال صاحب السر: ثم زم الباشا فمه وسكت: ففهمت الكلمات التي انطبق فمه عليها وإن لم يتكلّم بها، ثم غلب الضحك فقال: - والله - يا بني لو أن بزغوثاً طمر من ثوب صعلوك أجنبي، فوقّع في ثوب صعلوك وطني، فتقاتلا فقبض عليهما، فأخذنا - لما رضي بزغوث الأجنبي أن يحاكم إلا في المحاكم المختلطة... -

ثم سكّت الباشا مرة أخرى كأنه يقول كلاماً آخر لا يجوز نشره، ثم قال: يا بُني، إن الأجانب لا يضعون الجمل إلا على من يحمل؛ فإذا نحن توخينا مرادهم أرادوا لأنفسهم لا لنا؛ وإذا وافقنا لهم غرضاً جعلوه كالدينار فيه مائة قرش، وأبوا إلا أن نصارىهم عليه بمائة. هم - ويحك - يمتازون في معاملتنا لا في سطور القوانين والمعاهدات، فلنبطل هذه المعاملة نبطل هذا الامتياز.

إن الحق يا بُني استحقاق لا دعوى؛ وهذا التنازع على الحياة يجعل وسائله الطبيعيّة الانتزاع والمطالبة والتجرد له والدأب فيه والإصرار عليه. وكل الأقوياء يعلمون أن موضع الاعتدال بين غضب الحق وبين استرداده موضع لا مكان له في الطبيعة: والأجنبي يعتمد علينا نحن في جعله أكبر منا وأوفر خرمه؛ فإذا أسقط

الشعبُ هذه الامتيازات من فكرِهِ وروحِهِ وأعصابِهِ، وثارت فيه كبرياءُ الوطنيَّة فاستنكَفَ من الاستخذاء، ونَفَرَ من الاختضاع، وأبى أن يُعْلِنَ كرامته، وصرفَ اهتمامَهُ إلى حقوقِ هذه الكرامة، وأصرَّ ألا يُعَامِلَ أجنبيًّا يرى لِنَفْسِهِ امتيازاً على وطنيٍّ، وقرَّرَ ذلك في نَفْسِهِ، ومكَّنَهُ في رُوحِهِ، وأجمع عليه إجماعُهُ على الدين - إذا جاءتْ (إذا) هذه بشرطِها من الشعب، جاءَ جوابُ الشرطِ من الأجانبِ بنزولِهِم عن الامتيازاتِ وانحلَّت المشكلة. إننا يا بُنَيَّ لا نملكُ ضغطَ السياسة، ولكنَّا نملكُ ما هو أقوى؛ نملكُ ضغطَ الحياة.

لَهُمُ الامتيازُ بأنَّهُم أجنبيُّ عِنا، فليَكُنْ لنا الامتيازُ الآخرُ بأننا أجنبيُّ عنهم في المعاملة، مثلاً بمثل، وما يَقُلُّ الحديدُ إلَّا الحديدُ.

يقولون: النظامُ الاقتصاديُّ والمالُ الأجنبيُّ. ولكنَّ أرايتَ المالَ في يدِ الأجنبيِّ إلَّا مالاَ وتدبيراً وسُلْطَةً وسيادة، من أنَّه في يدِ الوطنيِّ دينٌ وإسرافٌ ورقٌ وذلٌّ؟

لم يظهزْ لي إلَّا الساعةُ أنَّ من حِكْمَةِ تحريمِ الربا في شريعتِنَا الإسلاميَّة، وقايةُ الأُمَّة كُلِّها في ثروتيها وضياعِها ومُستَغْلَاتيها، وحِمايةُ الشعبِ وملوكِهِ من الإسرافِ والتخريقِ والكرمِ الكاذبِ، وردُّ الاستعمارِ الاقتصاديِّ، وشُلُّ النفوذِ الأجنبيِّ.

أما لو أنَّنا كَتَبْنَا من الأولِ على أبوابِ «البنكِ العقاريِّ» وأبوابِ ذَرِيَّتِهِ: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦] فهلْ كَانَتْ تُقْرَأُ هذه الكلماتُ الثلاثُ على أبوابِ تلكِ البنوكِ الأجنبيَّةِ إلَّا هكذا: «محالٌ خاليةٌ لِلإيجارِ»...؟

فلنتعصب...!

وقال صاحبُ سرِّ (م) باشا: جاءني يوماً صَحفيٌّ إنجليزيٌّ من هؤلاءِ الكتَّابِ المتعصبين الذين تُطلقُهم إنجلترا كما تُطلقُ مدافِعُها؛ غيرَ أنَّ هذه ليلبارودِ والرصاصِ والقنابلِ وأولئك لِلْكَذِبِ والثُّمِّ والمُغالطاتِ.

وهو أدُنُّ وعينٌ ولسانٌ وقلَمٌ لجريدةٍ إنجليزيةٍ كبيرة، معروفةٌ بِثَقَلِ وطائِها على الشرقِ والإسلام؛ تُضلِّحُ بِإفساد، وتُداوي الحُمى بالطاعون، وتعملُ في نهضة الشرقينِ واستقلالِهم ما يُشبهُ قطعَ نُدَيِ الأمِّ وهو في شفتي رضيعِها المسكينِ.

ودخل عليّ هذا الكاتبُ في الساعة التي خرجَ فيها من غرفتي صاحبُ جريدةٍ أسبوعيَّةٍ في مدينتنا؛ كان قد نفخَ الضُّفدَعَ ليجعلها ثوراً، فحوَّلَ صحيفتَهُ إلى جريدةٍ يوميَّةٍ، وهو لا يجدُ مادَّتها ولا يستطيعُ أسبابَها، إلَّا أنَّه كدَّابِ الناسِ عندنا كان يحسبُ الكَذِبَ في العملِ سَهْلاً مَهْلاً^(١) كالكَذِبِ في القولِ، فلم يَتَعَاضِمْهُ الأمرُ العظيم، واقترضَ لِعَمَلِهِ كُلِّ ألفاظِ النجاحِ من اللغة...

وظنُّ عند نفسه أنَّه سيُخَوِّفُ بجريدتهِ الكُبراءَ والأعيانَ والُمياسيرَ حتى يَغْلِبَ على جميعِهِم، ويُشْرِكَ أَصَابِعَهُ مع أَصَابِعِهِم في استخراجِ ما يحتاجُ إليه من جُيوبِهِم؛ فلم تَعِشْ جريدتُهُ إلَّا أَيَّاماً وأتلفَ ما جمع، ورهنَ فيها دَارَهُ التي لا يملكُ غيرَها؛ وعَلِمَ آخرًا أنَّ الذي يكذبُ فيسمي الخروفَ جملاً، لا يقبَلُ منه أنْ يكذبَ على الكذبِ نفسه، فيزعمُ أنَّ الناقَةَ هي التي تَنجُبُ هذا الخروف... .

ولمَّا انقَلَبَتْ هذه الجريدةُ يوميَّةً كان الباشا هو ملجأُ الرجلِ ووَزَره، وكان لِكُلِّ يومٍ في الجريدة أخبارٌ عن الباشا لا تَقَعُ في الدنيا ولا تُجمَعُ من الحوادثِ، ولكن تَقَعُ في ذَهْنِ الكاتبِ، وتُجمَعُ من صناديقِ الحروفِ؛ حتى قال لي الباشا مرة: إنَّ اسمي قد أصبحَ موظِّفاً في هذه الجريدة لِمَجْمَعِ الاشتراك... .

(١) هذا الاستعمالُ مما وضعناه نحن وليس في اللغة، وهو من بابِ الاتِّباعِ كقولهم: حسن بسن، وشيطان ليطان الخ.

وتحرى هذا الصحفي أن يستأذن يوماً على الباشا وفي مجلسه حشد عظيم من السراة والأعيان والمُعد، وكان جَمَعَهُم لأمر، فما هو إلا أن دخل الصحفي حتى ابتدأه الباشا بهذا السؤال: يا أستاذ، ما هي تلغرافات أوروبا عن الحوادث التي ستقع غداً...؟

فضج المجلس بالضحك، وفقد المسكين بهذه النكتة أربعين ديناراً كان يؤمل أن يخرج بها، وأعلن الباشا في أطرف إعلان وأبلغه كذب الرجل ونفاقه وإسفافه، وأنه من رجال الصحافة المدوّرة تدوير الرغبة...



قال: ونظرْتُ إلى الصحفي الإنجليزي نظرةً أكشفهُ بها، فإذا أول الفرق بينه وبين أمثاله عندنا - شعوره أن بلاده قد ربّته (للخارج)، فهو عند نفسه كأنه إنجليزي مرتين؛ ويأتي من ذلك إحساسه بعزة المالك وقوة المستعمر، فلا يكون حيث يكون إلا في صراحة الأمر النافذ، أو غموض الحيلة المبهمة؛ ويستحكم بهذا وذاك طبعه العملي، فهو بغريزته مُقاتِل من مقاتلة الفكر، يلتمس ميدانه بين القوى المتضاربة لا يُبالي أن يكون فيه الموت ما دام فيه العمل؛ وبهذا كله تراه نافذ البصيرة قائماً على سواء الطريق، لأنَّ الإنجليزي الباطن فيه يوجّه الإنجليزي الظاهر منه ويُسانده؛ وفي أعماق الاثنين تجد إنجلترا، وليس غير إنجلترا.

ثم تفرّست في الرجل أريدُ كنهه وحقيقته، فإذا له نفس مفتوحة مقلّة معاً، كغرف الدار: الواحدة يُفتح بعضها لِمَا فيه كيما يرى، ويُقفل بعضها على ما فيه كيلا يرى.

وله وجه عملي يكاد يُحاسبك على نظراتك إليه؛ تدور في هذا الوجه عينا قديعتادنا وزن الأشياء والمعاني؛ يتلألأ في هاتين العينين شعاع النفس القويّة الممرّنة، قد نمت الثقة بها نصف هموم الحياة عن صاحبها، تُمدّ هذه النفس طبيعة مؤمنة بأن أكبر سرورها في أعمالها، فواجبها في الحياة أن تعمل كل ما يحسن بها وكل ما يحسن منها.

لقد خيل إلي، وأنا أنظر إلى نفسيّة هذا الإنجليزي أن كلمة الخيبة عند هؤلاء الإنجليز غير كلمة الخيبة عندنا - نحن الشرقيين -، فإن خيبة النفس لا تبيّن معانيها أبداً في النفس العاملة الدائبة، التي يشعرها الواجب أنه شيء إلهي لا يخيب، وأن ما يُرفض على هذه الأرض من العمل الطيب لا يُرفض في السماء.

وكان الرجل قد أدرك غرضي بملكته الصحافية الدقيقة، فأجابني عن السؤال الذي لم أسأله، وقال لي مبتدئاً: إن أساسنا الشخصية وحاسه الواجب؛ وإن فيكم أنتم كل شيء إلا هذين؛ فأخلاقنا تظهر دائماً في العمل، وأخلاقكم تظهر دائماً في الكلام الفارغ؛ ونحن نطلب الحقيقة، وأنتم تطلبون الألفاظ، حتى أنه لو خسر المصري ألف دينار، ثم أعلن أنها مائة فقط، وصدق الناس أنها مائة؛ لكان عند نفسه كأنه ربح تسعمائة...

قال صاحب السر: واستأذنت له على الباشا فسهل ورحب؛ ثم هممتُ بالانصراف عنهما، ولكن الإنجليزي قال: يا باشا! إنه قد تمكن في روعي أن صاحب سرك هذا متعصب ديني، وقد علمت أنه ابن فلان القاضي الشرعي، فطربوشه ابن الإمامة؛ ولقد كان ينظر إلي، وكأنه يتأمل من أين يذبخني...

فضحك الباشا وقال لي: يا فلان! إن هذا الكاتب من تلاميذ برناردشو، فهو كأستاذه يجعل لكل حقيقة ذنباً كذيل الهر، ثم يمسكها منه فإذا هي تعض وتلوى...

والتفت بعد ذلك إلى الإنجليزي ثم قال له: جاءني كتابك فإذا كنت تريد رأيي فيما تسميه التعصب الديني عند المسلمين، فعجيب أن تضعوا أنتم الغلطة ثم تسألونا نحن فيها! إنك لتعلم أن هذا التعصب الكذب الذي أكثرتم الكلام فيه، إنما هو لفظ من ألفاظ السياسة الأوروبية، أرسلتموه إلينا ليقابل لفظ التعصب الحقيقي؛ ومن قبل هذا اخترعتم لفظة (الأقليات)، وأجريتموها في لغتكم السياسية، لتجعلوا بها لتعصبنا الوطني شكلاً آخر غير شكله فتفسدوه علينا بهذه المادة المفسدة؛ وبذلك تضربون اليد اليمنى من غير أن تلمسوها، إذ تضربونها بشل اليد اليسرى.

إن الإسلام في نفسه عدو شديد على التعصب الذي تفهمونه، فهو يقول لأهله في كتابه العزيز: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

فإذا كان العدل في هذا الدين عدلاً صارماً، وحقاً مخضاً لا يميز بشيء البتة، لا ذات النفس التي فيها اشتهاؤ الدم، ولا أصلها من الأبوين اللذين جاءت منهما وراثته الدم، ولا أطرافها من الأقربين الذين يلتفون حول نسب الدم - إذا كان هذا، فأين في هذا العدل محل الظلم؟

لعلَّكَ تُشيرُ إلى هذه الرُّعونة التي تعرفُها في الأغمارِ والأغفالِ من العائمة، فهذه ليست من أثرِ الدين، بل هي أثرُ الجهلِ بالدين؛ إنَّ هذا ليس تعصباً، بل هو معنى من معاني الحجيّة النفسية الخرقاء لم تجدوا أنتم له لفظاً، وكان أقرب الألفاظِ إليه عندكم هو التعصبُ، فأطلقتموه عليه للمعنى الذي في نفسه والمعنى الذي في أنفسكم. ألا فاعلم أنَّ إسلامَ العائمة اليوم هو كالدعوى المقبولة شكلاً والمرفوضة بعد ذلك.

قال الإنجليزِيُّ: ولكنَّ هؤلاءِ العلماءَ دينيين يُدبرونهم من ورائهم. وهم عندكم ورثةُ النبي ﷺ أي منبعُ الفكرة وقوتها.

قال الباشا: غيرَ أنَّ هؤلاءِ قد أصبحوا كلُّهم أو أكثرهم لا يَنُدَسُ فيهم عِرْقُ من تلك الوراثة، وذلك هو الذي بلغ بنا ما ترى؛ فالقومُ إلّا قليلاً منهم كالأسلاكِ الكهربائية المعطلة: لا فيها سَلْبٌ ولا إيجاب؛ ولو أنَّ هؤلاءِ العلماءَ كانت فيهم كهرباءُ الثبوتِ، لكهربوا الأممِ الإسلامية في أقطارها المختلفة. إذن لقام في وجه الاستعمارِ الأوروبيِّ أربعمئة مليون مسلم جَلَدٌ صارم شديد، متظاهرين متعاونين، قد أعدوا كلَّ ما استطاعوا من قوة العِلْمِ، وقوة النفس، وهم لو قَذَفَ كلُّ منهم بحجرين لردموا البحرَ.

أتريدُ معنى التعصّبِ في الإسلام؟ إنَّه بعينه كتعصّبِ كلِّ إنجليزِيٍّ لِلأسطولِ؛ فهو تَشابُكُ المسلمين في أرجاء الأرضِ قاطبةً، وأخذهم بأسبابِ القوةِ إلى آخرِ الاستطاعة، لدفعِ ظُلمِ القوةِ بآخرِ ما في الاستطاعة.

وهو بذلك يعملُ عملين: استكمالُ الوجودِ الإسلامي، والدفاعُ عن كماله.

وإذا أنت ترجفتُ هذا إلى معناه السياسي، كان معناه إصرارَ جميعِ المسلمين على نوعِ الحياة وكرامتها، لا على استمرارِ الحياة ووجودها فقط. وذلك هو ميدوكم أنتم أيُّها الإنجليز: لا تقبلون إلّا حياةَ السيادة والحكم والحرية، فأنتم مسلمون في هذا المبدأ لو عدّلتُم.

أليس من البلاءِ أنَّ المسلمين اليوم لا يَدْرُسُ بعضهم بلادَ بعض إلّا على الخريطة... مع أنَّ الحجَّ لم يُشرَعْ في دينهم إلّا لتعويدهم دراسةَ الأرضِ في الأرضِ نفسها لا في الورق، ثُمَّ ليكونَ من مبادئهم العملية أنَّ العالمَ مفتوحٌ لا مقفلٌ؟

إنَّ التعصّبَ في حقيقته هو إعلانُ الأمة أنَّها في طاعة الشريعة الكاملة، وأنَّ

لها الروح الحادة لا البليدة، وأن أساسها في السياسة الاحترام الذاتي لا تقبل
غيره، وأن أفكارها الاجتماعية حقائق ثابتة لا أشكال نظرية، وأن مبدأها هو الحق
ولا شيء غير الحق، وأن قاعدتها «لا يضرّكم من ضلّ إذا هتديتم». فالهداية أولاً
والهداية آخراً: الهداية في القوة، والهداية في السياسة، والهداية في الاجتماع.
فقل لي بحياتك وحياة إنجلترا: أيعاب ذلك على المسلمين إلّا بالألفاظ التي يعيب
اللص بها أهل الدار لأنهم يَحْكُمُونَ في وجهه إقبال الباب...؟

قال: فوجم الإنجليز حتى ذهل عن نفسه وصاح:

إذا كان هذا فلنتعصّب، فلنتعصّب.

وَنُ الْمَاضِي

وقال صاحبُ سرِّ (م) باشا: إني لجالسٌ ذاتَ يومٍ وفي يدي كتابٌ لبعضِ المتفلسفة من مَلَاجِدَةِ أورُوبَا الذين يُريدون أن يفهموا ما لَا يُفهم؛ وكان الباشا قد رأيَ مرةً أنظرُ فيه وأتدبُرُ مسائلهُ الغامضة، فقال لي: يا بُني، إنَّ أحدَ الكلابِ كان شاعراً فيلسوفاً، فنظرَ ليلةً في النجوم فراغتهُ وحيزته؛ فآلى أن يفهمها بعقله وتفرغَ لدرسيها مدةً طويلة، ثُمَّ وَضَعَ فيها كتاباً نفيساً ضخماً، كان أعظمَ كتبِ الفلسفة وأشدّها غموضاً عند الكلاب، وكان اسمه: العظامُ المبعثرةُ فوقنا^(١).

قال: فأنا جالسٌ أقرأ هذا الكلامَ الذي لا صحيحٌ فيه إلّا أنّه غيرُ صحيح. إذ دخل عليّ كاتبٌ متفليفٌ مُلجِدٌ من هؤلاء المدخُولين في عقولهم، المفتونين بأورُوبَا ومذاهبها وعُلُوبَاتِها وسُفُلِيَّاتِها... وهو يكتبُ في الصحف، ويؤلفُ الرسائل، وقد جاءَ يَسْتَضِرِّخُ الباشا على فلاحِ شاركةٍ في زراعة أرضه، فزرعهُ الفلاحُ فيها وَحَصَدَهُ، وَدَهاهُ بِكَيْدِهِ، وابتلاه بِغِلْظَتِهِ، وتهدّدهُ بِالنَقْمَةِ.

وكان هذا الفلاحُ الساذجُ الغريرُ قد سبقهُ إليّ وعَرَّفَهُ لي تعريفاً قاموسياً محيطاً من مادة كَفَرٍ يَكْفُرُ... ثُمَّ قال بعد ذلك: إِنَّهُ (بياعُ كلام) يَصْدُقُ وَيَكْذِبُ حسبَ الطلب... والذِّمَّةُ نَفْسُهَا لَيْسَتْ عِنْدَهُ إلّا (عمليةٌ حسابية)؛ وهو في أقوى جهاتِهِ لا ينفعُ الدنيا بما تنفعُها به البهيمةُ من أضعفِ جهاتِها.

أما الكاتبُ فيقولُ عن هذا الفلاح: إِنَّهُ لا يدري أهو يُنَمُّ بهائمُهُ أم بهائمُهُ هي التي تُنَمُّهُ، وإنَّ الذي يرفعُ القضيةَ على مثل هذا المخلوقِ إلى محكمةٍ لا يكون إلّا كالذي يُقَفِّعُ بالعصا على جُحْرِ فيه الحيةُ السامةُ.

ورأى المتفلسفُ الكتابَ على يدي، فتهلَّلَ واستبشَرَ وقال لي: هذا نَسَبٌ بيننا... فأدرَكْتُ من كلمتهِ هذه جملتهُ وتفصيله، وَخَيَّلَ إليّ أَنِّي أرى فيه نفسَهُ.

(١) لا ريب أن المؤلف... قد بحث في كتاب (الوسائل العملية) للانتفاع بهذه العظام المبعثرة...

الشرقية كالمرأة المطلقة... فقلتُ له: أنا اشتريتُ هذا الكتابَ من أوروبا، ولكني لم أشتري منها دماغِي.
وكلمتُهُ أستخرجُ ما عنده؛ فإذا هو في قومه وتاريخِ قومه كالسائحِ في بلادِ أجنبية: يفتحُ لها عينه ولا يفتحُ لها قلبه.

وكان جريئاً في كلامه مع الباشا: يطرُدُ القولَ حيثُ شاء حقاً وباطلاً، ثم لإسنادِ لبرايه ولا تشيبتُ لِحُجَّتِهِ إلا قولَ فلانٍ ورأيَ فلان، كأني في رأيه عقلاً شخاضاً... ثم ذكر آخر الأمرِ ما جاء له، فخجله الباشا وقال: هذه مسألة ككلِّ مسائلِك: تحتاجُ إلى رأيِ فيلسوفٍ أوروبي... وأعرضُ عنه ولم يدخلِ في شيءٍ من أمره.

ولما انصرفَ قال الباشا: يحسبُ هذا نفسه عالماً، وهو صعلوكٌ عِلْمِي... وإنما يكون دماغُهُ وأدمغَةُ أمثاله عند الفلاسفة والعلماء الذين يذكرونهم كما تكونُ سلَّةُ المهملاتِ عند الصحافيين.

إن هذا الرجل يُتَمَّ ضعفَ عقله في الرأي بقوةِ عناده فيه، ليجعل له ثبات الحقيقة فيظنُّ حقيقة، كأنَّ خَضْخَضَةَ الماءِ باليدِ في وعاءٍ صغيرٍ يُنْقَلُ إلى هذا الوعاءِ طبيعة الموج؛ وعند أمثالِ هذا المفتون من الصعاليك العلميين، أنك إذا تناولتَ مسألة فإخطأتَ فيها خطأً جريئاً، فقد جعلتها بخطئك الجريءِ مسألة من العِلْمِ... وأنتَ إذا عانَدتَ فثبتَ الخطأ في وجه الناقلين سنة، كان حقيقةً مدةً سنة...

هم مفتونون زائفون، ومن فتنتهم أنهم يرونَ البعدَ بينهم وبين أهلِ الفضائلِ الشرقية، كالبعدِ بين العالمِ والجاهل؛ ولو حقَّقوا لرأَوْهُ بُعْداً في الغرائزِ لا في العقل، أي كالبعدِ بين الفجورِ وما أشبهه الفُجورَ، وبين التقوى وما أشبهه التقوى.

زعمَ الأحقُّ أنَّ خصمَهُ الفلاحَ رجلٌ راسخٌ في الماضي، كأنه باقٍ في أمسِّ لم ينتقلَ منه، مع أنَّ أمسَّ قَدِ انقطعَ من الزمن، ثم خرجَ من ذلك إلى أنَّ الأُمَّةَ يجبُ أنْ تَبْدَأَ ماضِيَهَا، ثم ادَّعى أنَّ الإسلامَ يتعصَّبُ لِلماضي. هذه ثلاثُ كلماتٍ تخرجُ منها الرابعةُ التي سكَّتَ عنها...^(١)

وأن لو شئتُ أنْ أسخَرُ من مثلي هذا الصُّعلوكِ العِلْمِي، لما وجدْتُ في

(١) الرابعة التي يستلزمها هذا السياق المنطقي: هي تجرد الأمة من الدين، وذلك ما يعمل له بعض الصعاليك العلميين.

أساليب السخرية أبلغ من أن أبعث إليه بضرورة فارغة وأقول له: املأها لي من آراء الفلاسفة .

يَغْفُلُ هذا وأمثاله عن أن الدين الإسلامي لا يعرف الماضي بمعنى ما مضى على إطلاقه؛ بل هو يشترط فيه ألا يخالف العقل ولا العلم، وألا يناقض الهداية؛ ﴿قَالُوا بَلْ نَحْنُ عِبَادُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَهْلَاءُ نَأْتُوا نَوْمًا لَا يَسْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِمُ آيَاتُ اللَّهِ وَلَا يَسْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]؟ وفي الثالثة: ﴿قَالُوا بَلْ نَحْنُ عِبَادُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَهْلَاءُ نَأْتُوا نَوْمًا لَا يَسْتَدُونَ﴾ [لقمان: ٢١]؟ وفي الرابعة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِمُ آيَاتُ اللَّهِ وَلَا يَسْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤]؟

فانظر كيف صَوَّرَ ما نُسِم به بالجمود في قوله: (حسبنا)، وكيف صَوَّرَ ما نُسِم به بالرجعية في قوله (نستج)، وتأمل كيف رفض الجمود والرجعية معاً في العلم والعقل والهداية، أي في آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل الإنسانية، وكيف أبطل في تلك الثلاث الاحتجاج بالماضي بهذا الأسلوب الدقيق العالي، وهو قوله في كل آية أولو، أولو. لم يغيّرها؛ بل كررها بلفظها أربع مرات.

فالمعجز هنا مجيء الآيات بهذه الصورة المنطقية لإسقاط حُجَّتِهِمْ، ونفي معنى التقديس عن الماضي فيهن؛ إذ كان العلم دائم التغيير، وكان العقل دائم التجديد والإبداع، وكانت الهداية شديدة على الطبيعة الحيوانية التي هي ماضي النفس؛ فكانها جديدة على النفس عند كل شهوة.

إن الإنسان بماضيه وحاضره كائنه مقسوم قسمين، يقول أحدهما: أريد أن أكون. ويقول الآخر: أنا قد كنت. فالإسلام بهذه الآيات قد أوجب وزن الكلمتين في كل زمن بما هو الأصح، وبما هو الأنفع، وبما هو الأهدى؛ وبإشراطه الهداية في جميعها أشار إلى أن الكمال النفسي للفرد يجب أن يكون مرتبطاً بالكمال الإنساني للجنس.

وهذا معنى عجيب، وأعجب منه ما ترى من أن الإسلام قد أصلح فكرة الماضي؛ فنقلها من معنى الآباء والأجداد للناس، إلى المعاني التي هي كالأباء والأجداد لإنسانية الناس. والأخذ (بالأهدى) في اجتماع أئمة من الأمم، إنما هو بعينه ناموس الترقى والتطور.

ومن أدق الأسرارِ قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا نَبَاكَ نَاعِلًا شَرًّا﴾ [الزخرف: ٢٣] فكلمة (أمة) هذه لم يعرفها أحدٌ على حقيقتها، ولم تفسرها إلا علومُ هذا الزمن، فهي المشاعرُ النفسيةُ التي يتكوّن منها مزاجُ الشعب، وفيها يستقرُّ الماضي؛ كأن الآية قد عبّرت بأخِرٍ ما انتهى إليه علماء النفس: من أن الإنسان ابنُ أبويه وابنُ شعبه أيضاً. فالتعصّبُ في الإسلام هو للعلم النافع، وللمجدي الصحيح، وللهداية الباعثة على الكمال؛ وتعصّب الجيلِ لمثلِ هذا في ماضيه، هو في اسمه تعصّب، غير أنه في معناه إنما هو العملُ لتسليم مجدي الأمة إلى الجيلِ التالي.

المعجم السياسي

وحَدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: كُتِّبَ في سنة ١٩٢٠، وهي بنتُ سنة ١٩١٩^(١)؛ وقد اجتمعَت الأُمَّةُ على مُقاطعة لجنة (ملنر) لا تُكَلِّمُها، فجعلتِ السكوتُ ثورة، وأعلنَ الشعبُ أنَّ كلمتَهُ في لسانِ الوفدِ ينطقُ الوفدُ بها نطقَ النبيِّ بِمَا يُوْحَى إليه، فما يكون لأحدٍ غيرِهِ أن يقولها، ولا أن يقول أوحى إليّ. وأبى اللورد ملنر أن يصدّق أن للمصريين إجماعاً يُعْتَدُّ به، وأنهم دخلوا في السياسة دخولاً ثابتاً فَرَسَخُوا فيها، وأنهم أصبحوا مَعَ الإنجليز كالإنجليز الذين يقولون عن أنفسهم في مثلهم السائر: ينبغي أن نكون أحراراً مثل أعمالنا.

وزعمَ اللورد لنفسه، أنَّ هذه الأحزاب المصرية لا يتفقُ منها اثنان أبداً إلا كان بينهما ثالثٌ يختلفان عليه، وهو الطمعُ في مناصبِ الحكم؛ واستخرجَ من ذلك أنَّ المصريِّ والمصريِّ كشقي المقرض: لا يتحركان في عملٍ إلا على تمزيقِ شيءٍ بينهما؛ فإنَّ لم يكن بينهما (الشيء) لم يكن منهما شيء.

وذهب الرجلُ يَتَطَلَّي وَيَحْدِسُ على ما يُخَيَّلُ له الظنُّ، وقد حَسِبَ أن إنجلترا يحقُّ لها أن تقول في المصريين ما يقول الله في خَلْقِهِ كما ورد في الأثر: «إنما يتقلبون في قبضتي». وكما تقول اليوم لأهل فلسطين من العرب: «إِنْ بَشَأَ يَذْهَبُ بَكُم وَيَأْتِ بِخَلْقِي جَدِيدٍ» [إبراهيم: ١٩]... وكان اللوردُ هذا رجلاً مُمارِساً لمشاكل السياسة، دَخَلَ فيها، ذاهيةً من ذهاة القوم، له في قلبه عينان وأذنان غير ما في وجهه كحذائقي السياسيين؛ وهو يعرفُ أنَّ سياسة قومه لا تدخلُ في شيءٍ إلا دخول الإبرة بخيطها في الثوب، إن خرجت هي تركت الخيطَ وقد جَمَعَ وشدَّ... فأراد أن يمتحنَ مذهبَ المصريين في إجماعهم على الاستقلال، وقدَّرَ أنَّه واجدٌ من الفلاحين عوناً له ومادةً لمكرِهِ السياسيِّ، وحسبَ الوفدَ صورةً جديدةً من طبقة (الباشوات) القديمة، ينزلون من الشعبِ منزلة اليد التي تُعَمِّكُ القيدَ، من الرجلِ التي فيها القيد، ويضعون

(١) سنة الثورة المصرية، وقد مر وصفها في مقالة (الأخلاق المحاربة).

معنى كلمة الحاجة في كلمة السياسة، ويقولون: الوطن وهم يُريدون الجاه، ويُقيمون الشعب كالسُّلَم ينتصب قائماً بأيديهم ليحمل أرجلهم الصاعدة عليه.

فجاء اللورد إلى مصر، فوجد الأمة كلها قد حذرت منه وتيقظت له، حتى نصحه رشدي باشا بأنه لن يجد في مصر هزة تُفاوضه؛ ولكنه كان مستيقناً أن أدن السياسة الإنجليزية (كالرديو) لصوتين: صوت الدنانير وصوت الجماهير، فمر في البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام، وانصَفَق عنه الناس وأهملوه، وكان يسير في دائرة الصمت التي مركزها أبو الهول، فبدأ وظلَّ يبدأ حتى انتهى وما زال يبدأ... وساح في البلاد سباحة طويلة، وكأنه لم يسافر إلا من شقة أبي الهول السفلى إلى شقته العليا.



قال صاحب السر: وجاء الورد لمقابلة الباشا، فمر علي مرور كتاب مقفل: لا أعرف منه إلا العنوان؛ غير أنه رجل بمقدار الرجل الذي يخالف أمة كاملة تكاد تحسبه مطويًا على زوبعة، وترى له قوتين تُجس من أثرهما الرهبة والإعجاب، وإذا تأملتُه قلت إن اللطف والطرف أضعف شمائله، وإن الدهاء والحيلة أقوى مواهبه.

فلما لقيتُ الباشا من الغد، سألتني: كيف رأيت اللورد ملنر؟ فقلت: والله يا باشا إنه كالضرورة: ما يتمناها أحد ولكننا تجيء...

فضحك الباشا وقال: يا ليت لنا - نحن الشرقيين - كل يوم ضرورة تصنع ما صنع اللورد؛ إنه كشف لنا في ذات أنفسنا عن حقيقة من أسمى الحقائق السياسية: وهي أن الشعب الذي يُصر ولا يزال يُصر يجعل الإغراء لا يُغري والخوف لا يُخيف.

ويا ليت الأمم الشرقية تتعلم هذا الصمت السياسي عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحياناً؛ فإن صمت الأمة المصرية عن جواب (ملنر) كان معناه أن قدرة الأمة هي المتكلمة كلانها بذا الصمت، تُعلن للعالم أن الواجب الشعبي قد وضع قفله على كل فم.

وقد فسر اللورد هذا السكوت بتفسيره السياسي، فأدرك منه أن في الشعب أنفة وحمية وقوة، وأن حساب الضمير الوطني أصبح لهذه الأفئدة كالحساب الإلهي للنفوس المؤمنة: كلاهما مُستعلن يُخاف ويُتقى، وكلاهما كلمة محرمة.

أية معجزة هذه التي جعلت كلمة الأجنبي تُخذ في أذهان أمة كاملة شكل قائلها، فاجتمعت لها البلاد على معنى الرفض، وأصبح كل فرد يعرف محله من الكل،

وخضعتِ الطوائفُ بجمليتها لقانون العزة القومية، الذي يلزمها ألا تخضع للأجنبي؟
إن الأممَ بعضُ مسائلَ نفسيةٍ كهذه المسألة؛ فلو أن لنا خمسةَ دروسٍ سياسيةٍ
مختلفةٍ كدرسٍ (ملنر)، لكأنتَ لنا في الإيمان الوطني كالصلوات الخمس.
والآنَ تعلّمتِ الأمةُ أن الشعبَ العزيزَ هو الذي ينظرُ في قضٍ مشاكلِهِ إلى الحلِّ
وإلى طريقة الحلِّ أيضاً، وقد كان (ملنر) هو أولُ أساتذتنا في تعليمنا الطريقة.
وهذا الدرسُ يجبُ أن يكونَ درساً للشرقِ كلّهُ، فإن السياسةَ الاستعماريةَ
قائمةٌ فيه على خداعِ الطريقةِ في حلِّ مشاكلِهِ، فيحلونها ويُعقّدونها في نصٍّ واحدٍ؛
ويُثبتُ الكلامُ الذي يتفقون عليه أن المرادَ منه زوالُ الخلافِ، ويُثبتُ العملُ بعدَ
ذلك أن المرادَ كان زوالُ المقاومة.

وفي السياسةَ الأوروبيةَ موافقاتٌ دميعةٌ كالنساءِ المشوهاتِ، فإذا عرضوا
واحدةً منها على مَنْ يريدون أن يزوجه... فأبأها وفتح لها عينيه بكلِّ ما فيهما من
قوةِ الإبصارِ، أعفوه منها وقالوا له: سنأتيك بالجميلة، ثم يذهبون بها إلى معهدِ
التجميلِ اللغوي، فيصقلونها ويصبغونها، ويضعون لها أحمرَ السياسةِ وأبيضها، ثم
يعرضونها جديدةً على صاحبهم ذاك، وما صنعوا ما به صارتِ الدميعةُ غيرَ دميعة،
ولكن ما به رجعَ غيرُ الأعمى كالأعمى.

ولهم عقولٌ عجيبةٌ في اختراعِ الألفاظِ، حتى لتَكونَ شدةُ الوضوحِ في عبارة،
هي بعينها الطريقةُ لإخفاءِ الغموضِ في عبارةٍ أخرى. وكثيراً ما يأتونَ بالألفاظِ متنفخةٍ
تُحسَبُ جزلةً بادرةً قد ملأها معناها، وهي في السياسةِ ألفاظٌ خبالي، تستكملُ
حملها مدةً ثم تُلد.

ولهم من بعضِ الكلماتِ السياسيةِ، كما لهم من بعضِ الرجالِ السياسيين؛
فيكون الرجلُ من ذهائهم رجلاً كالناسِ، وهو عندهم يسمازُ دقوةً في أرضٍ كذا أو
مملكة كذا، ويكون اللفظُ لفظاً كاللغة، وهو يسمازُ دقوةً في وثيقةٍ أو مُعاهدة.

ثم ضحك الباشا وقال: إن أرضنا تُخرجُ القطنَ، وسياستنا تُخرجُ الألفاظَ
كالقطن: لا توضعُ في المِغزَلِ إلا مدّت وتحوّلت. وإذا ذهبنا نُخالفهم في التأويلِ
والتفسيرِ، لم نجدَ عندنا المعجمَ السياسيَّ الذي يُعَلِي النصَّ. أتدري يا بُني ما هو
المعجمُ السياسيُّ؟

أما إنّه لو كان كتاباً يتألفُ من مليون كلمة، لذهبَت كُلُّها عبثاً وباطلاً وهراء،
ولكنّه ذلك المعجمُ الحيُّ، ذلك المعجمُ الذي يتألفُ من مليون جندي...

اللسانُ المَرْقَع

وقال صاحبُ سرٍّ (م) باشا: جاء «حضره صاحبُ السعادة» فلانٌ لزيارة الباشا؛ وهو رجلٌ مصريٌّ وُلِدَ في بعضِ القرى، ما نعلمُ أن الله (تعالى) ميّزه بجوهرٍ غيرِ الجواهر، ولا طَنعٍ غيرِ الطنّيع، ولا تركيبٍ غيرِ التركيب، ولا زادَ في دمه نقطةَ زهٍ، ولا وضعه موضعَ الوسطِ بينِ فئتين من الخليقة. غيرَ أنّه زارَ فرنسا، وطافَ بإنجلترا، وساحَ في إيطاليا، وعاجَ على ألمانيا، ولوّنَ نفسه ألواناً، فهو مصريٌّ ملوّن. ومن ثمّ كان لا يرى في بلاده وقومه إلّا الفروقَ بين ما هنا وبين ما هناك. فما يظهرُ له دينُ قومه إلّا مُقابلاً لِشبهواتِ أحبّها وغامرَ فيها، ولا لغةَ قومه إلّا مقرونةً بلغةٍ أخرى ودّ لو كان من أهلها، ولا تاريخَ قومه إلّا مغمى عليه. . . كالميتِ بين تواريخِ الأمم.

هو كغيره من هؤلاء المترفينِ المنعمين: مصريٌّ المالِ فقط، إذ كانت أسبابهم ومستغلاتهم في مصر؛ عربيّ الاسم لا غير، إذ كانت أسماؤهم من جنابةِ أهلهم بالطبيعة؛ مُسلمٌ ما مضى دون ما هو حاضر، إذ كان لا جيلةَ في أنسابهم التي انحدرُوا منها.

هو كغيره من هؤلاء المترفينِ المنعمينِ المفتونينِ بالمدنيّة: لِكُلِّ منهم جنسُهُ المصريُّ ولِفكرِهِ جنسٌ آخر.

قال: وكان حضره صاحبُ السعادة يُكلِّمُ الباشا بالعربية التي تلعنّها العربية، مرتفعاً بها عن لغة الفصحى ارتفاعاً منحطاً. . . نازلاً بها عن لغة السوقة نزولاً عالياً. . . فكان يرضخُ لُكنةً أعجميةً، بينا هي في بعضِ الألفاظِ جرّسٌ عالٍ يطنُّ، إذا هي في لفظٍ آخرٍ صوتٌ مريضٌ يثنّ، إذا هي في كلمةٍ ثالثةٍ نغمٌ موسيقيٌّ يرنّ. ورأيتُهُ يتكلّفُ نسيانَ بعضِ الجُمَلِ العربيّة ليلوي لِسَانَهُ بغيرها من الفرنسيّة، لا تظرفاً ولا تملحاً ولا إظهاراً لِقدرةٍ أو عِلْمٍ، ولكن استجابةً لِشعورِ الأجنبيّ الخفيّ المتمكن في نفسه. فكانتُ وطنيّةُ عقله تآبى إلّا أن تُكذّبَ وطنيّةُ لِسَانِهِ، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه، وبالأخرى زائفٌ على غير قومه.



فلما انصرف الرجل قال الباشا: أف لهذا وأمثال هذا! أف لهم ولما يصنعون! إن هذا الكبير يُلقبونه «حضرة صاحب السعادة»، ولأشرف منه - والله - رجل قروي ساذج يكون لقبه «حضرة صاحب الجاموسة»... نعم إن الفلاح عندنا جاهل عليم، ولكن هذا أقيح منه جهلاً، فإنه جاهل وطنية.

ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن؛ فما هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرفع) هذا؟ إن عمله أن يعلن برطانيته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مهينة، وأنه متجرد من الروح السياسي للغة قومه؛ إذ لا يظهر الروح السياسي للغة ما، إلا في الجزر عليها وتقديمها على سيواها.

كان الواجب على مثل هذا ألا يتكلم في بلاده إلا بلغته، وكان الذي هو أوجب أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها في أرضها، فترك هذا وكان هو المزاحم بنفسه؛ فهو على أنه «حضرة صاحب سعادة»، لا ينزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبي في حانة.

أتدري ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السراة الذين يُطمطمون إذا تكلموا فيما بينهم؟ إنهم عندنا طبقات:

أما واحدة، فإنهم يصنعون هذا الصنيع منجذبين إلى أصل راسخ في طباعهم، مما تركه الظلم والاستبداد والحمق في زمن الحكم التركي؛ فهم يُدون جوهر نفوسهم لأعينهم وأعين الناس، كأن اللغة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحمق في الدم... وهم بها يتنبلون.

وأما طبقة، فإنهم يتكلفون هذا مما في نفوسهم من طباع أحدثها الثغاق والخضوع والذل السياسي في عهد الاحتلال الإنجليزي؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذي فقد السلطة، وهم بها يتمجدون.

وأما جماعة، فإنهم يتعمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها، إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقة لتحلوها ومذهباً انتسبوا إليه، وفيهم العالم بعلوم أوروبا، والأديب بأدب أوروبا؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامي، إذ جعل هذه اللغة حكومة باقية في بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة؛ وهم يزدرون هذا الدين ويسقطون عن أنفسهم كل واجباته. وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، إذ يغفلون في مصريتهم غلواً قبيحاً ينتهي بهم إلى سفه الآراء، وخفة الأحلام، وطيش النزعات، فيما يتصل بالدين الإسلامي وآدابه ولغته. وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى

وصفهُ من حيث هو رقيقٌ، على وصفه من حيث هو عالمٌ أو أديبٌ أو ما شاء. إن هذا لمقت ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٣٥].

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئة رابعة، تحوّل فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقةٍ نفسيّةٍ في النفس؛ فهم يُقجمون في كتاباتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية، ويحسبون عملهم هذا تطرّفاً ومُعابشةً ومُجوناً، على أنّه هو الذي يُظهرُ لبعين البصيرِ مواضعَ القطع التاريخي في نفوسهم، وأماكن الفساد القومي في طبيعتهم، وجهات التحلّل الديني في اعتقادهم. هؤلاء يكتب أحدهم: (الزفرة) وهو قادرٌ أن يقول الغضب، (والفلير) وهو مستطيعٌ أن يجعل في مكانها المُغازلة، (وسكالنس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان، وهكذا وهكذا؛ ولا - والله - أن تكون المسافة بين اللفظين إلّا المسافة بعينها بين قلوبهم ورُشد قلوبهم.

وما برح التقليدُ السخيفُ لا يعرفُ له باباً يُلج منه إلى السُخفاءِ إلّا بابَ التهاون والتسامح؛ ونحن قومٌ ابتلينا بتزويرِ العيوبِ على أنفسنا وعدّها في المحاسن والفضائل، من قِلّة ما فينا من الفضائل والمحاسن. وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاولُ أن نقبَسَ من مزايا الأوروبيين، فلا نأخذُ أكثرَ ما نأخذُ إلّا عيوبهم، إذ كانت هي الأسهل علينا، وهي الأشكَلُ بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون.

ومن هذا تجدُ مشاكلنا الاجتماعية - على أنّها أهونُ وأيسرُ من مشاكل الأوروبيين، وعلى أنّ في ديننا وآدابنا لكلُّ مشكلةٍ حلّها - تجدّها هي علينا أصعبَ وأشدّ، لأنّنا ضعفاءٌ ومتخاذلون ومقلّدون ومفتنون، وكلُّ ذلك من شيءٍ واحد: وهو أنّ أكثرَ كُبرائنا هم أكبرُ بلائنا.

قال صاحبُ السرِّ: ثمَّ ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال: كيف تصنعُ أمّةٌ يكون أكثرُ العاملين هم أكبرُ العاطلين، إذ يعملون ولكن بروحٍ غير عاملة..

سُرُّ الْقُبَّةِ

وحدثني صاحبُ سرِّ (م) باشا، قال: نَجِمَتْ في مصرَ حركةٌ بِعَقِبِ أَيَّامِ
البِدعةِ التركِيَّةِ، حينَ لم تبقَ لشيءٍ هناك قاعدةٌ إِلَّا القاعدةُ الواحدةُ التي تُقَرَّرُهَا
المشائِقُ... فَمَنْ أبى أَنْ يخلَعَ العِمامةَ عن رَأْسِهِ خلَعُوا رَأْسَهُ؛ وَمَنْ قال (لا)
انقلَبَتْ (لا) هذه مشنقةٌ فَعُلِقَ فيها.

وكانتْ فِكْرَةُ اتِّخَاذِ القُبَّةِ في تركيا غِطاءً للرأس، قد جاءتْ بعدَ نَزَعَاتٍ من
مِثْلِها كما يجيءُ الجِذاءُ في آخرِ ما يلبسُ اللابس، فلم يشكْ أحدٌ أَنَّها ليستْ قُبَّةً
على الرأسِ أَكْثَرَ مِنَّا هي طريقةٌ لِتَرْبِيَةِ الرأسِ المسلمِ تربيةً جَدِيدَةً، ليس فيها ركعةٌ
ولا سَجْدَةٌ؛ وَإِلَّا فَتَحُنْ نرى هذه القُبَّةَ على رأسِ الزنجيِّ والهمجِيِّ، وعلى رأسِ
الأبله والمجنون، فما رأيناها جعلتِ الأسودُ أبيض، ولا عرفناها نقلتْ همجياً عن
طبيعهِ، ولا زعمَ أحدٌ أَنَّها أَكملتِ العقلَ الناقصَ أو رَدَّتِ العقلَ الذاهِبَ، أو انقلَبَتْ
آلةٌ لِحلِّ مُشكلاتِ الرأسِ البليد، أو غَصَبَتْ الطَّبِيعَةَ شيئاً وقالتْ: هذا لِحاملي دون
حاملي الطربوشِ والعِمامةِ.

وقد احتجُّوا يومئذٍ لِصاحبِ تلكِ البِدعةِ أَنَّهُ لا يرى الوجهَ إِلَّا المَدِينِيَّةَ، ولا
يعرفُ المَدِينِيَّةَ إِلَّا مَدِينَةَ أورُوتَا، فهو يَمَثِّلُها كما هي في حَسَنَاتِها وسَيِّئَاتِها، وما
يَجَلُّ وما يَخْرُمُ وما يكونُ في حاجَةٍ إليه وما يكونُ في غِنَى عنه؛ حتى لو أَنَّ
الأورُوبِيِّينَ كانوا عُوراً بالطَّبِيعَةِ، لجعلَ هو قومُهُ عُوراً بِالصَّنَاعَةِ لِيشبهوا الأورُوبِيِّينَ.
نعم إنَّها حُجَّةٌ تامةٌ لولا نَقْصُ قَلِيلٍ في البرهان، يُمكنُ تلافِيهِ بِإخراجِ طَبِيعَةٍ جَدِيدَةٍ
من كُتُبِ الفُتُوحِ العُثمانيَّةِ، يظهرُ فيها الخُلَفَاءُ العُظَامُ والأبطالُ المَفاوِرُ الذين قهروا
الأورُوبِيِّينَ لا بسِنِّ قُبَّعات، لِيشبهوا الأورُوبِيِّينَ...

قال صاحبُ السُرِّ: وتهوِّزُ في هذه الضلالةَ زَهْطٌ من قومِنا، وأخذوا يذعون
إلى التَّجَنُّبِ في مصرَ احتذاءً لِتركِيَّا، وذهبَ بعضهم إلى سَعْدِ باشا (رحمه الله) يطلبُ
رَأْيَهُ، فكانَ رَأْيُهُ (لا) بِمَدِّ الألف... وعهدَ إليَّ بعضهم أن أسألَ الباشا، فقال:

وَيَحْتَمُّهُمُ! أَلَا يَخْجَلُونَ أَنْ يَكُونُوا - نحنُ المصريِّينَ - مقلِّدينَ لِلتَّقليدِ نَفْسِهِ؟ إِنَّ

هذه بدعة تنحط عندنا درجة عن الأصل، فكأنها بدعتان^(١). ثم ضحك الباشا وقال: كان في القديم رجل سمع أن البصل بالخل نافع للصفا، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله: إزرع لي بصلًا بخل... هكذا يريدون من القبعات: أن تُخرج لهم ثركاً بأورويتين.

ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة، بل هي كلمة سب للعرب ورد على الإسلام. ضاقت بها كل الأساليب أن تظهرها واضحة بيّنة، فلم يف بها إلا هذا الأسلوب وخذه. وهي إعلان سياسي بالمنافاة والمخالفة والانحراف عننا وأطراحنا. فإن الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها وشعارها؛ فبهذا انفتح لهم باب الخروج في القبعة دون غيرها مما يجري فيه التقليد أو يُبدعه الابتكار؛ ولأفائي سر في هذه القبعات، ومتى كانت الأمم تُقاس بمقاييس الخياطين...؟

هنا سيف أراد أن يكون مقصاً فعمل أولاً ما يعمل الحسام البتار، فأجاد وأبدع وأكبره الناس وأعظموه؛ ثم صنع ما يصنع البقص، فماذا عساه يأتي به إلا ما يُنكره الأبطال والخياطون جميعاً؟

أكتب علينا أن نظل دهرنا نبحت في التقليد الأعمى، وألا يخيا الشرقي إلا مستعبداً ينتظر في كل أموره من يقول له: إشرع لي...؟ إن بحثنا فلنبحت في زِي جديد نتميز به، فتكون القوى الكامنة فينا وفي طبيعة أرضنا وجوئنا هي التي اخترعت لإظهارها ما يجعلها ظاهرها. كما يُخرج زور الأسد لبدة الأسد. غاية في المنفعة والجمال والملاءمة.

أنا البس ما شئت، ولكنني عند القبعة أجد حداً تقف إليه ذاتيتي الفردية، فلا أرى ثمة موضع انفراد ولكن موضع مُشاكلة، ولا أعرف صفة منفعة لي بل صفة حقيقة يني، ويعترضني من هناك المعنى الذي يصير به النوع إلى الجنس. والواحد إلى الجماعة وما دمت مسلماً أصلي وأركع وأسجد، فالقبعة نفسها تقول لي: دعني فليست لك.

وهؤلاء الرجال الذين لبسوها في مصر، إنما اشتقوها من المصدر نفس المصدر الذي يخرج منه التهنك في النساء، وكلاهما مترع من المخالفة، وكلاهما

(١) الأصل تقليد تركيا لأوروبا، وهذه بدعة؛ فتقليدنا لتركيا بدعة أسخف من الأول.

ضِدُّ من صِفَةِ اجتماعيَّةٍ تقومُ بها فضيلةٌ شرقيَّةٌ عامة . وليس يَعدُّمُ قائلٌ وجهاً من القولِ في تزيينِ القُبعةِ ، ولا مذهباً من الرأيِ في الاحتجاجِ لها ، غيرَ أنَّ المذهبَ الفلسفيَّةَ لا يُعجزُها أنَّ تُقيمَ لك البرهانَ جَدَلاً محضاً على أنَّ حياةَ المرأةِ وعَقَّتُها إنَّ هما إلا رذيلتان في الفنِّ . . . وإنَّ هما إلا مرضٌ وضعف ، وإنَّ هما إلا كَيْتٌ وكَيْتٌ ، ثُمَّ تنتهي الفلسفةُ إلى عَذَهما من البِلاهةِ والغفلةِ ، وما الغفلةُ والبِلاهةُ إلا أنَّ تُريدَ فلسفةً من فلسفاتِ الدنيا أنَّ تُفحِّمَ في كتابِ الصلاةِ مثلاً فصلاً في . . . في الدُّعارةِ .

لا يهولُك ما أقرَّزُ لك : من أنَّ القُبعةَ الأوروبيَّةَ على رأسِ المسلمِ المصريِّ ، تهتِكُ أخلاقِيَّ أو سياسيَّ أو دينيَّ أو من هذه كلها معاً ، فإنَّكَ لتعلمُ أنَّ الذينَ لبسوها لم يلبسوها إلا منذُ قريبٍ ، بعدَ أنَّ تهتَكِتِ الأخلاقُ الشرقيَّةُ الكريمةُ وتحلُلُ أكثرُ عَقْدِها ، وبعدَ أنَّ قارَبَتِ الحريةُ المصريَّةُ بينَ التناقضِ حتى كادَتْ تختلِطُ الحدودُ اللغويَّةُ ؛ فحرِيَّةُ المنفعةِ مثلاً تجعلُ الصادقَ والكاذبَ بمعنى واحدٍ ، فلا يُقالُ : إلا أنَّه وجدَ منفعتُهُ فصدق ، وجدَ منفعتُهُ فكذب ؛ وعندَ الحريةِ المصريَّةِ أنَّه ما فَرَّقَ بين اللغظينِ وجعلَ لِكُلِّ منهما حدوداً إلا جهلُ القدماءِ ، وفضيلةُ القدماءِ ، ودينُ القدماءِ . وهذه الثلاثةُ : الجهلُ والفضيلةُ والدينُ ، هي أيضاً في المعجمِ اللغويِّ الفلسفيِّ الجديدِ مُرادِفَاتٌ لِمَعْنَى واحدٍ ، هو الاستعبادُ أو الوهمُ أو الخُرافةُ .

ومتى أزيلتِ الحدودُ بينَ المعاني ، كان طبعيًّا أن يلبَسَ شيءٌ بشيءٍ وأنَّ يحلَّ معنى في موضعٍ معنَى غيرِهِ ، وأصبحَ الباطلُ باطلاً بسببٍ وحَقاً بسببٍ آخرٍ ، فلا يحكُمُ الناسُ إلا مجموعةً من الأخلاقِ المتنافرةِ ، تجعلُ كُلَّ حقيقةٍ في الأرضِ شُبُهَةً مزوَّرةً عندَ مَنْ لا تكونُ من أهوائِهِ ونزعاتِهِ ، فيحتاجُ الناسُ بالضرورةِ إلى قوَّةٍ تفصلُ بينهم فضلاً مسلحاً ، فيُكسِبونَ القانونَ بمدنيَّتهم قوَّةً همجيَّةً تضطرُّه أن يُعَدَّ لِلوحشيةِ الإنسانيَّةِ ، وتدفعُ هذه الوحشيَّةُ أن تُعَدَّ له .

ومن اختلاطِ الحدودِ تجيءُ القُبعةُ على رأسِ المسلمِ ، وما هي إلا حدٌّ يطمسُ حدًّا ، وفكرةٌ تهزُمُ فكرةً ، ورذيلةٌ تقولُ لِفَضيلةٍ : ها أنذا قد جِثْتُ فاذهبي .

ما هو الأكبرُ من شيئينِ لا حدَّ بينهما لِمَتعيينِ الصَّغَرِ ؛ وما هو الأصغرُ من شيئينِ لا حدَّ بينهما لِمَتعيينِ الكِبَرِ ؟ إنَّها الفوضى كما ترى ما دامَ الحدُّ لا موضعٌ له في التميِّيزِ ولا مقرٌّ له في العُرفِ ولا فصلٌ به في العادةِ ؛ ومن هنا كان الدينُ عندَ أقوامٍ أكبرَ كلماتِ الإنسانيَّةِ في عامَّةِ لغاتها وأملأها بالمعنى ، وكان عندَ آخرينَ

أصغرها وأفرغها من المعنى؛ وما كَبُرَ عند أولئك إلا من أنه يسعُ الاجتماعُ
الإنسانيّ وهو محدودٌ بغايته العُلَيّا، وما صَغُرَ عند هؤلاء إلا بأنّ الاجتماعَ لا يسعُه
فلا حدُّ له، وكأنَّه معنى مُتوهَّم لا وجودَ له إلا في أحرف كلمته .

فجماعةُ القبعة لا يَزُونُ لأنفسهم حداً يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو
شرقيّتنا، وقد مرَّقُوا من كلِّ ذلك وأصبحوا لا يَزُونُ في زِينَةِ الوطنيّ ما فيه من قوّة
السِّرِّ الخفيّ الذي يُلهمنا ما أودعه التاريخُ من قوميتنا ومعاني أسلافنا .

وأنا أعرفُ أنّ مِنّا قوماً يرى أحدهم في ظنِّ نفسه أنّه قانونٌ من قوانين
التطوُّر؛ فهو فيما يُلابِسُه لا ينظرُ إلى أنّه واحدٌ من الناس، بلّ واحدٌ من
النواميس . . . ومن هنا الثَّقُلُ والدعوى الفارغة، وما هو أكبرُ من الثقلِ وفراغِ
الدعوى . وإنَّه لحقُّ أن يكونَ بعضُ الناسِ أنبياء، ولكنّ أقبَحُ ما في الباطلِ أن يظنَّ
كلُّ إنسانٍ نفسه نبياً .

واعلم أنّ كثيراً ممّا يُزَيَّنونهُ لِلشَّرقيّ من رذائلِ المدنيّة الأوروپيّة، إن هو إلا
منطق شهواته في جملته، ولقد تسمع الجائع يتكلم عن الطعام، فترى كلاماً تحته
معانٍ ومعانٍ لا بعدها غيرُ الجائعِ إلا حماقةٌ ساعيتها . . .

سعد زغلول

وقال صاحبُ سرِّ (م) باشا: ألقى إليَّ الباشا ذاتَ يوم أنْ (سعداً) مُصْبِحُنَا زائراً^(١)، وكأنتَ بينَ الرجلينِ خاصَّةً وأسبابَ وطيدةً. وللباشاَ موقعٌ أعرُفُهُ من نفسِ سعدٍ كما أعرُفُ الشُّعْلَةَ في بركانيها؛ أمَّا سعدٌ فكان قد انتهى إلى النهاية التي جعلتهُ رجلاً في إحدى يديه السَّحَرُ وفي الأخرى المعجزة، فهو من عظماءِ هذه البلادِ كقاموسِ اللغة من كلماتِ اللغة: يُرَدُّ كُلُّ مُفْرَدٍ إليه في تعريفه، ولا تصحُّ الكلمةُ عندَ أحَدٍ إلَّا إذا كانت فيه الشهادةُ على صحتها.

وجاءنا سعدٌ غُدْوَةً، فأسرعتُ إلى تقبيلِ يده قبلَةً لا تُشَبِّهُهَا القُبُلَات، إذْ مُلِّتُ لي من فرجها كأنَّها كانتْ منفيَّةً ورجعتْ إلى وطنها العزيزِ حينَ وُضِعَتْ على تلك اليدِ.

إنَّ الرجلَ العظيمَ إذا كان باراً بأبيه عارفاً قدرَهُ مُدْرِكاً عظمتَه، يشعرُ حينَ يُقْبَلُ يدَ أبيه كأنَّه يسجدُ بروحه سجدةً لله على تلك اليدِ التي يُقْبَلُهَا، ويجدُ في نفسه اتصالاً كهربائياً بين قلبه وبين سرِّ وجوده، ويَخُصُّهُ العالمُ بلمسةٍ كأنَّ قُبْلَتَهُ نبضتْ في الكون: وكلُّ هذا قد أحسَّتهُ أنا في تقبيلي يدَ سعد، وزدَّتْ عليه شعوري بمثلِ المعنى الذي يكون في نفسِ البطلي حينَ يُقْبَلُ سيفُهُ المنتصرِ.

وضحك لي سعد باشا ضحكتهُ المعروفة، التي يبداها فمُه، وتُتِمُّهَا عيناه، ويشرحها وجهه كُلُّهُ، فتجدُ جوابها في روجِك كأنَّه في روجِك ألقاها.

والرجلُ من الناسِ إذا نظرَ إلى سعدٍ وهو يتبسَّم، رأى له ابتسامةً كأنَّها كمالٌ يتواضع، فيحسُّ كأنَّ شيئاً غيرَ طبيعيٍّ يتصلُّ منه بشيءٍ طبيعيٍّ، فيتعشَّشُ ويَتَبَّ في وجوده الروحيَّ وثبةً عاليةً تكونُ فرحاً أو طرباً أو إعجاباً أو خُشوعاً أو كُلِّها معاً. غيرَ أنَّ الرجلَ من الحُكَمَاءِ إذا تأملَ وجهَ سعدٍ، وهو يضحكُ ضحكتهُ المطمئنةُ المتمكِّنةُ من معناها المقرِّ أو المنكرِ أو الساخِرِ أو أيِّ المعاني - حسبَ نفسه يرى

(١) يقال: صبحه (بتشديد الباء)، أي جاءه صباحاً.

شكلاً من القول لا من الضحك، وظهرت له تلك الابتسامة الفلسفية متكلمة، كأنها مرة تقول: هذا حقيقي. ومرة تقول: هذا غير حقيقي.

إن سعداً العظيم كان رجلاً ما نظّر إليه وطني إلا بعين فيها دلائل أحلامها، كأنما هو شخص فكرة لا شخص إنسان؛ فإذا أنت رأيتك كان في فكرك قبل أن يكون في نظرك؛ فأنت تشهد بنظرين: أحدهما الذي تبصر به، والآخر ذاك الذي تؤمن به.

عبري كالجمرة الملتهبة لا تحسب يعيش بل يحترق ويحرق؛ ثائر كالزلزلة فهو أبداً يرتج وهو أبداً يترج ما حوله؛ صرّيح كصرّاحة الرّسل، تلك التي معناها أن الأخلاق تقول كلمتها.

رجل الشعب الذي يحس كل مصري أنه يملك فيه ملكاً من المجد. وقد بلغ في بعض مواقفه مبلغ الشريعة، فاستطاع أن يقول للناس: ضعوا هذا المعنى في الحياة، وانزعوا هذا المعنى من الحياة.

قال صاحب السر: وانقضت الزيارة وخرج سعد والباشا إلى يساره، فلما رجع من وداعه قال لي: - والله - يا بُني لكأنما زاد هذا الرجل في القاب الدولة لقباً جديداً، ثم ضحك وقال: أندري ما هو هذا اللقب؟ قلت: فما هو يا باشا؟ قال: - والله - يا بُني ما من (باشا) في هذه الدولة يكون إلى جانب سعد، إلا وهو يشعر أن رتبته (نصف باشا)...

هذا رجل قد بلغ من العظمة مبلغاً تصاغر معه الكبير، وتضاءل العظيم، وتقاصر الشامخ؛ نعم وحتى ترك أقواماً من خصومه العظماء، كفلان وفلان، وإن الواحد منهم ليلوح للشعب من فراغه وضعفه وتطرحه، كأنه ظل رجل لا رجل. وقد أصبح قوة عاملة لا بد من فعلها في كل حي تحت هذا الأفق، حتى كأن معاني نفسه الكبيرة تنتشر في الهواء على الناس، فهو قوة مرسلّة لا تمسك، ماضية لا ترد، مقدورة لا يحتال لها بحيلة.

هذا وضع إلهي خاص لا يشبهه أحد في هذه الأمت، كميدان الحرب لا تشبهه الأمكنة الأخرى؛ فقد غامر سعد في الثورة العرابية وخرج منها، ولكنها هي لم تخرج منه، بل بقيت فيه؛ بقيت فيه تتعلم القانون والسياسة، وتصلح أغلاطها، ثم

ظَهَرَتْ مِنْهُ فِي شَكْلِهَا الْقَانُونِي الدَّقِيقَ . وَبِهَذَا تَرَاهُ يَغْمُرُ الرِّجَالُ مَعَهَا كَانُوا أَذْكَيَاءَ ؛
لَأَنَّ فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِمْ ، وَتَرَاهُمْ يَظْهَرُونَ إِلَى جَانِبِهِ أَشْيَاءَ ثَابِتَةً فِي مَعَانِيهَا ، أَمَّا هُوَ
فَتَرَاهُ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهِ يَتَلَاطَمُ كَالْأَمْوَاجِ الْعَاتِيَةِ .

وَتِلْكَ الثَّوْرَةُ هِيَ الَّتِي تَتَكَلَّمُ فِي فِيهِ أحياناً فَتَجْعَلُ لِبَعْضِ كَلِمَاتِهِ قُوَّةً كَقُوَّةِ
النَّصْرِ ، وَشَهْرَةً كَشَهْرَةِ مَوْقِعَةٍ حَرْبِيَّةٍ مَذْكُورَةٍ .

وَلَمَّا كَانَ هُوَ الْمُخْتَارَ لِيَكُونَ أَبَا لِلثَّوْرَةِ - حَرَمَتُهُ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ النَّسْلُ ،
وَصَرَفَتْ نَزْعَةَ الْأَبَوَّةِ فِيهِ إِلَى أَعْمَالِهِ التَّارِيخِيَّةِ ، فَفِيهَا عِنَايَتُهُ وَقَلْبُهُ وَهَمُّهُ ، وَهِيَ
نَسْلٌ حَيٌّ مِنْ رُوحِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَيَكَادُ مَعَهَا يَكُونُ أَسَدًا يَزَارُ حَوْلَ أَشْبَالِهِ . وَلَنْ يُذَكَّرَ
السِّيَاسِيُّونَ الْمِصْرِيُّونَ مَعَ سَعْدٍ ، وَلَنْ يُذَكَّرَ سَعْدٌ نَفْسُهُ إِذَا انْقَلَبَ سِيِيَاسِيًّا ، فَإِنَّ
الْمَكَانَ الْخَالِيَّ فِي الطَّبِيعَةِ الْآنَ هُوَ مَكَانُ رَجُلٍ الْمَقَاوِمَةِ لَا رَجُلِ السِّيَاسَةِ ، وَهَذَا هُوَ
السَّبَبُ فِي أَنَّ سَعْدًا يُشْعِرُ الْأُمَّةَ بِوُجُودِهِ لَذَّةً كَلِذَّةِ الْفَوْزِ وَالْإِنْتِصَارِ ، وَإِنْ لَمْ يَفْزَ
بشَيْءٍ وَلَمْ يَنْتَصِرْ عَلَى شَيْءٍ ؛ فَاطْمَئِنَّا الشَّعْبُ إِلَى زَعِيمِ الْمَقَاوِمَةِ ، هُوَ بِطَبِيعَتِهِ
كَاطْمَئِنَّا حَامِلِ السِّلَاحِ إِلَى سِلَاحِهِ .

وَسَعْدٌ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي أَفْلَحَ فِي أَنْ يَكُونَ أَسَاتِذَ الْمَقَاوِمَةِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ فَنَسَخَ
قَوَانِينَ ، وَأَوْجَدَ قَوَانِينَ ، وَحَمَلَ الشَّعْبَ عَلَى الْإِعْجَابِ بِأَعْمَالِهِ الْعَظِيمَةِ ، فَنَبَتْ فِيهِ
قُوَّةُ الْإِحْسَاسِ بِالْعَظَمَةِ فَجَعَلَهُ عَظِيمًا ، وَصَرَفَهُ بِالْمَعَانِي الْكَبِيرَةِ عَنِ الصَّغَائِرِ ، فَدَفَعَهُ
إِلَى طَرِيقِ مُسْتَقْبَلِهِ يُدْعَى إِبْدَاعُهُ فِيهِ .

إِنَّ هَذَا الشَّرْقَ لَا يَحْيَا بِالسِّيَاسَةِ وَلَكِنْ بِالْمَقَاوِمَةِ مَا دَامَ ذَلِكَ الْغَرْبُ بِإِزَائِهِ ؛
وَالْفَرِيسَةُ لَا تَتَخَلَّصُ مِنَ الْحَلْقِ الْوَحْشِيِّ إِلَّا بِاعْتِرَاضِ عِظَامِهَا الصَّلْبَةِ الْقَوِيَّةِ فِي هَذَا
الْحَلْقِ .

وَكَمْ فِي الشَّرْقِ مِنْ سِيَاسِيٍّ كَبِيرٍ يَجْعَلُونَهُ وَزِيرًا ، فَتَكُونُ الْوِظَافَةُ هِيَ الْوِزِيرَ
لَا نَفْسُ الْوِزِيرِ ، حَتَّى لَوْ خَلَعُوا ثِيَابَهُ عَلَى خَشَبَةٍ وَنَصَّبُوهَا فِي كُرْسِيِّهِ ، لَكَانَتْ أَكْثَرُ
نَفْعًا مِنْهُ لِلْأُمَّةِ ، بِأَنَّهَا أَقَلُّ شَرًّا مِنْهُ . . .

يَا بُنَيَّ ، كُلُّ النَّاسِ يَرْضَوْنَ أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالسِّيَادَةِ وَالْحُكْمِ ،
فَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ مَسْأَلَةُ الشَّرْقِ ، وَلَكِنَّ الْمَسْأَلَةَ : مَنْ هُوَ النَّبِيُّ السِّيَاسِيُّ الَّذِي يَرْضَى
أَنْ يُضْلَبَ . . . ؟

حماسة الشعب

وحَدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: لَمَّا رَجَعَ سعد باشا من أوروبا في سنة ١٩٢١، كَانَتِ الأُمَّةُ في استقباليه كَأَنَّهَا طَائِرٌ مَدَّ جَنَاحِيه، لَا خِلَافَ لِشَيْءٍ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ، بَلْ كُلُّهُ هُوَ كُلُّهُ؛ وَكَانَتِ المَعَارِضَةُ فِي الاستِحَالَةِ يَوْمئِذٍ كَاسْتِحَالَةِ وَجُودِ رُقْعَةٍ فِي رِيشِ الطَائِرِ.

عَلَى أَنَّ ثَوْبَ السِّيَاسَةِ المِصْرِيَّةَ كَثِيرُ الرُّقْعِ دَائِمًا بِالجَدِيدِ وَالخَلْقِ، فِرْقَةٌ مِنَ المَعَارِضِينَ، وَآخَرَى مِنَ المَتَعَتِّينَ، وَثَالِثَةٌ مِنَ المِتَخَازِلِينَ، وَرَابِعَةٌ مِنَ المَعَادِينِ، وَخَامِسَةٌ وَسَادِسَةٌ وَسَابِعَةٌ مِنَ الحَاسِدِينَ وَالمَنَافِسِينَ وَالمُخْتَلِفِينَ لَشَهْرَةِ الخِلَافِ؛ وَرِقَاعٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا نَعْلَمُ وَمَا لَا نَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ العَجِيبِ أَنَّ هَذَا الجَوُّ الَّذِي لَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا بِطَيِّئًا، يَتَقَلَّبُ أَهْلُهُ بِسُرْعَةٍ؛ وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ الَّتِي لَا تَكَادُ تَخْتَلِفُ، لَا يَكَادُ أَهْلُهَا يَتَفَقَّوْنَ.

وَلَكِنْ سَعْدًا (رَحِمَهُ اللهُ) رَجَعَ مِنْ أَوْرُوبَا رَجْعَةً الكِرَامَةِ لِأَمَةٍ كَامِلَةٍ، فَفَازَ بِأَنَّهُ لَمْ يَخْسَرْ شَيْئًا مِنَ الحَقِّ، وَانْتَصَرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَهْزَمْ، وَدَلَّ عَلَى ثَبَاتِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَزَعَّزَعْ، وَذَهَبَ صَوْلَةٌ وَرَجَعَ صَوْلَةٌ وَعَزِيْمَةٌ؛ فَكَانَ إِيمَانُ الشَّعْبِ هُوَ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ، وَكَانَتِ الثَّوْرَةُ هِيَ الَّتِي تَحْتَفِلُ بِهِ، وَبَطَلَتِ العِلَلُ كُلُّهَا فَلَمْ يَجِدِ الِاعْتِرَاضُ شَيْئًا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ، وَانْفَقَتِ الأَسْبَابُ فَاجْتَمَعَتِ الكَلِمَةُ، وَظَهَرَ سَعْدٌ كَأَنَّهُ رُوحُ الأُمَّةِ مُتَمَثِّلًا فِي قُدْرَةٍ، حَاكِمًا بِقُوَّةٍ، مُتَسَلِّطًا بِبَقِيْنِ.

نَعَمْ لَمْ يَنْتَصِرِ البَطْلُ، وَلَكِنْ الأُمَّةُ احْتَفَتْ بِهِ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ فِيهَا كِمَالًا مِنْ نَوْعِ آخَرَ هُوَ سِرُّ الْإِنْتِصَارِ؛ فَكَانَتِ حِمَاسَةُ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حِمَاسَةً المَبْدِئِ المِتَمَكِّنِ: يُظْهَرُ شَجَاعَةُ الحَيَاةِ، وَفُورَةُ العِزَائِمِ، وَفَضِيلَةُ الإِخْلَاصِ، وَشِدَّةُ الصَّوْلَةِ، وَعِنَادُ التَّصْمِيمِ؛ وَثَبَّتْ بِقُوَّةِ ظَاهِرِهِ قُوَّةَ بَاطِنِهِ، وَكَانَ فَرَحُ الأُمَّةِ عِنَادًا سِيَاسِيًّا يَفْرُحُ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ قُوِيًّا لَمْ يَضْعَفْ، وَكَانَ ابْتِهَاجُهَا مُجَدَّدًا يُشْعِرُ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ وَافِرًا لَمْ يُتَقَفَّصْ، وَكَانَ الإِجْمَاعُ رَدًّا عَلَى الْيَاسِ، وَكَانَتِ الحِمَاسَةُ رَدًّا عَلَى الضَّعْفِ.

إِنْبَعَثَتْ صَوْلَةُ الحَيَاةِ فِي الشَّعْبِ كُلِّهِ، وَابْتَدَأَ المُسْتَقْبَلُ مِنْ يَوْمِئِذٍ، فَلَوْ نَزَلَتْ

الملائكة من السماء في سحابة مُجَلَّجِلَةٍ يُسْمَعُ تَسْبِيحُهُمْ لِيُؤَدُّوا سعداً - لِمَا زادوه شيئاً؛ فقد كان محلُّه من القلوب كأنَّه العقيدة، وكان التصديقُ مبدولاً له كأنَّه الكلمة الأخيرة، وكانتِ الطاعةُ موقوفةً عليه كأنَّه الباعثُ الطبيعي، وكان البطلُ في كلِّ ذلك يُشبهُ نبياً من قَبْلِ أَنْ كَلَّا منهما صورةً كاملةً لِلسموِّ في أفكارِ أُمَّةٍ.



قال صاحبُ السِّرِّ: ورجع الباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس، وصِحَّةِ العهد، واجتماعِ الكلمة، وإعدادِ الشعبِ لِلجِراسِ والمُعانة، فقال:

تالله لقد أثبت (سعدٌ) لِلدنيا كُلِّها أَنَّ بصَرَ الجبَّارةِ متى شاءتْ بَنَتِ الرجالَ على طريقةِ الهرمِ الأكبرِ في العظمة والشهرة والمنزلة والقوَّة. ولقد صنعَ هذا الرجلُ العظيمُ ما تُصنَعُ حربٌ كبيرة، فجمع الأُمَّةَ كُلَّها على معنى واحدٍ لا يتناقض، ودفعَها بروحِ قوميَّةٍ واحدةٍ لا تختلف، وجعل عِرْقَ السياسةِ يفورُ كما يفورُ العِرْقُ المجروحُ بِالدم.

إنَّ هذه الأُمَّةَ بين شيئين لا ثالثَ بينهما: إمَّا الحَزْمُ إلى الآخرِ وإمَّا الإضاعة. ولا حَزْمٌ إلَّا أَنْ يبقى الشعبُ كما ظهرَ اليوم: طُوفاناً حيّاً، مُستوي الطبيعة، مندفع الحركة، غامراً كُلُّ ما يعترضه، إلى أَنْ يَقْضَى الأمرُ ويقولُ أعداؤُنَا: يا سماءِ اقلبي.

هكذا يعملُ الوطنُ مع أهله كأنَّه شخصٌ حيٌّ بينهم، حينَ يستوي الجميعُ في الثقة، ويتأزَّرُ الجميعُ في الأمل، ويشتَرِكُ الجميعُ في العطفِ الروحي، ولا يبقى لِجماعةٍ منهم حظٌّ في رغبةٍ غير الرغبةِ الواحدةِ للجميعِ؛ وهكذا يعملُ الوطنُ بأهله حينَ يعملُ مع أهله.

كان أعداؤُنَا يحسبوننا ذُباباً سياسياً لا شأنَ له إلَّا بِفَضَلاتِ السياسة، ولا عملَ له في أزماتها وأثمارها وعطرها وخلوها؛ فاستمعهمُ الشعبُ اليومَ طنينَ النحل، وأراهمُ إِيْرَ النحل، ليُعلموا أَنَّ الأَزهَارَ والأَثمارَ والعِطْرَ والحلوى هي له بالطبيعة.

وكانوا يتخزَّصون أَنَّ مذهبنا في الحياة لِمصلحةِ المعاشِ فقط، وأنَّ المصريَّ، حاكماً أو محكوماً، لا يَمُدُّ آماله الوطنيَّةَ إلى أبعدَ من مدَّةِ عمره سبعينَ أو ثمانينَ سنة، فإذا أطلقوا أَيْدِيَنَا في حاضرِ الأُمَّةِ أطلقنا أَيْدِيَهُمْ في مستقبلها. ومن ثَمَّ طمِعوا أَنَّ يكونَ الحقُّ الناقصُ في نفسه حقّاً تامّاً في أنفُسِنَا لهذه العِلَّة؛ وحبَّبوا أَنَّ السياسيَّ المصريَّ لا يتجرأ أَنْ يقولَ ما يقوله السياسيُّ الأوروبيُّ: من أَنَّهُ لا يخشى الموتَ ولكِنَّهُ يخشى العارَ. فَإِنَّهُ إذا ماتَ وحدهُ، وإذا جلبَ العارَ جلبَهُ على نفسه وعلى أُمَّتِهِ

وعلى تاريخ أمّيته، يَبْذُ أنْ سعداً قالها؛ وفي مثل هذا يكون قول (لا) معركة.

وها هي ذي معركة اليوم التاريخية، فإنّ الذرّات الحيّة التي تُخلَق من دِمائنا - نحن المصريين - قد تارّث في هذه الدماء، في هذا النهار، تُعلِن أنّها لا ترضى أنْ تولدَ مقيّدةً بقيود.

أتدري ماذا عرضوا على سعد؟ إنهم عرضوا عليه ما يُشبهُ في السخرية طاحونة تائمة الأدوات والآلات من آخر طراز، ثمّ لا تُقدّم لها إلّا حبة قمح واحدةٍ لتطحنها. . . . نتيجةً تسخرُ من أسبابها، وأسباب تهزأ بالنتيجة.

إنّ أوروبّا لا تحترم إلّا مَنْ يحملها على احترامه، فما أرى للسياسيين في هذا الشرق عملاً أفضل ولا أقوى ولا أرْدُ بالفائدة من إحياء الحماسة في كل شعب شرقي، ثم حياتتها وحسن توجيهها؛ فهذه الحماسة الشعبية الدائمة القويّة البصيرة، هي قوة الرفض لِمَا يجب أنْ يُرفض، وقوة التأييد، لِمَا يجب أنْ يُقبل، وهي بعد ذلك وسيلة جمع الأمر، وإحكام الشأن، وإقرار العزيمة في الأخلاق، وتربية الثقة بالنفس، وبها يكون إذكاء الجسّ وتعميده إدراك الأعمال العظيمة، والتحمس لها، والبذل فيها.

وما علّة العِلل فينا إلّا ضعف الحماسة الشعبيّة في الشرق، وسوء تدبيرها، وقبح سياستها؛ وإنّا لنأخذُ عن الأوروبّيين من نظائهم وأساليبهم وسياساتهم وعُلومهم وفنونهم؛ فنأخذُ كلّ ذلك بروحنا الفاترة في خمول وإهمالٍ وتواكلٍ وتفرّدٍ بالمصلحة واستبدادٍ بالرأي، فإذا دينارهم في أيدينا درهم، وإذا نحن وإياهم في الشيء الواحد كالنحلة والذبابة على زهرة. . .

ليست لنا حماسة الحياة، وبهذا تختلف أعمالنا وأعمالهم، وذلك هو السرُّ أيضاً في أنّ أكثرَ حماستنا كلاميّة مخضّة؛ إذ يكون الصراخ والصياح والتشدّق ونحوها من هذه المظاهر الفارغة - تنقيحاً للطبيعة الساكنة فينا، وتنوعاً منها بغير أنّ نجهّد في التنقيح والتنوع. ومن هذا كائن لنا أنواع من الكلام ينطلق اللسان فيها للخروج من الصمت لا غير. . . ومنه كثيرٌ من هذا الهراء السياسي الذي يدور في المجالس والأحزاب والصحف.

إنّ حماسة الشعب لا تكونُ على أعدائه فقط؛ بل على معاييه أيضاً، وعلى ضعفه بخاصّة، والشعب الفاتر في حماسه لو نال حقين مغصوبين لعاد فخيراً أحدهما أو كليهما، أمّا الشعب المتحمس القوي في حماسه، فلو غُصِبَ حقين ونال أحدهما لعاد فابترّ الآخر.

الجمهور

وقال صاحبُ سرٍّ (م) باشا: كان من بعض عملي في الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أراقبَ الحركاتِ والسكناتِ، وأبثَّ العيونَ والأزصادَ، وأعرفَ المضطربَ والمنقلبَ في أيامِ الفتنِ ونوازلِ المِحنةِ، محافظةً على الأمنِ، ومبادرةً لما يُتوقَّعُ؛ فكُنْتُ كالمرصدِ المهيأِ بآلاتِهِ لِتدوينِ حركاتِ الزلازلِ.

وانتهى إلينا يوماً أن راجعةً من هذه الزلازلِ سترجفُ بفلانٍ من أهلِ الرأيِ الحرِّ؛ الذي يَسْتَقِيلُ ولا يُتَابِعُ، ويتنقّدُ ولا يُحَابِي، ويصرّحُ ولا يُجْمِجُ، وأنَّ قوماً ثوروا عليه الغُبارَ الآدميَّ من العائمةِ وأشباهِ العامةِ، وأنهم يتحَيَّنون الوقتَ لِتوجيهِ المكيدةِ له في شكلِها المفترسِ من هذا الجمهورِ الناقمِ.

أما فلانٌ هذا فرجلٌ سياسيٌّ عنيدٌ أضاعَ الحقَّ كُلَّهُ لأنَّهُ لا يرضى بنصفِ الحقِّ... وكلمتُهُ في السياسةِ كأنما تُلقَى على لِسَانِهِ من الغيبِ؛ فلا يتحوَّلُ عنها ولا يملكُ أن يتكلَّمُ إلَّا بما يتكلَّمُ؛ وقد ذهبَ بصوتهِ أنَّهُ في قومٍ لا يسمعونَ إلَّا ما أرادوا، فهو بيئهم كالحقِّ المغلوبِ: لا يموثُّ لأنَّهُ غيرُ باطلٍ، ثُمَّ لا يحيا لأنَّهُ لا ينتصرُ. وقد كان رجلاً كالمصباحِ الوهاجِ فالقوا عليه الغُطاءَ، فإذا هو في طبيعتهِ ويبدو للناسِ بغيرِ طبيعتهِ، وتركه رأيه الحرُّ الصريحُ كالنبيِّ المكذَّبِ يَرُدُّ صِدْقُهُ؛ لا لأنَّهُ غيرُ صدقٍ، ولكنَّ لأنَّهُ غيرُ مستطاعٍ، أو غيرُ ملائمٍ.

ومن آفاتنا - نحن الشرقيين - أننا نستمرُّ العداوةَ، وننقادُ لأسبابها، وننطأوعُ لها تطاوعُ الصَّغارِ بأنفسِهِم لِمَا في أنفُسِهِم؛ كأنَّ المستبدِّين الذين كانوا في تاريخنا قد انتقلوا إلى طبائِعنا؛ فَرَدُّ الفكرِ على الفكرِ في مناقشةِ تجري بيتنا - لا يكونُ من دَفْعِ الحقيقةِ للحقيقةِ، ولكنَّ من ردِّ الاستبدادِ على الاستبدادِ، ومن توثُّبِ الطغيانِ على الطغيانِ؛ فهو الثُّلبُ؛ والطعنُ والتجريحُ، وهو الجُفوةُ والخصومةُ والدُّلدُ، وهو المنازعةُ والعُنفُ والشَّحاملُ؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوطُ. والجِدالُ بينَ المغلَّاءِ يبعثُ الفكرَ فينتهي إلى الحقِّ، ولكنَّهُ فينا نحن يهيجُ الخُلُقَ فينتهي إلى الشرِّ، والردُّ على عظيمٍ مثا كأنَّهُ يَرُدُّ على منزلةِ في الناسِ لا على منزلتهِ

متزلته في الرأي، وكشف الخطأ عندنا تغييراً بالخطأ لا تبصيراً بالصواب، واستلاب الحجة من صاحبها وإفسادها عليه كاستلاب الملك من مالكه وطرده منه . . . ومن ثم كان الدفاع بالمكابرة أصلاً من أصول الطبيعة فينا، وكان الاضطهاد حجة للحجة العاجزة، وكان الإعانة دليلاً للدليل الذي لا ينهض بنفسه، ومتى اعتبر كل إنسان نفسه إمبراطوراً على الحق . . . فلا جرم لا ترد كلمة على كلمة إلا بحرب.



قال صاحب السز: وكبر الأمر على الباشا، فجمع رؤوس المؤتمرين بذلك الرجل الحر، وأخذ يقلبهم تقليبه بين التودد والملاطفة، وقال لهم فيما قال: إن فضيلة الجمهور هي التي تضمن تربية الفضيلة وحفظها وغلبتها على الرذائل، وإن كل صحيح يكون فاسداً إذا لم يكن الجمهور صحيحاً، وإن غير العقلاء هم الذين يقبلون الحقيقة في يوم ثم يرفضونها في ذاتها في يوم آخر، فإن دقبت تجادلهم وتحتج عليهم بأنهم قبلوها - قالوا: هذا كان أمس . . . فكأنما الفاصل بين زمنيين يجعل الشيء الواحد ضدين.

ثم سألهم: ما هو ذنب الرجل؟ فقال منهم قائل: إنه خارج علينا في الرأي. فقال الباشا: إن المعنى في أنه يُخالِفكم هو أنكم أنتم تُخالِفونه؛ فقد تكافأت الناحيتان، وخلاف بخلاف؛ فما الذي جعل لكم حق رده عن الرأي دون أن يكون له مثل هذا الحق في ردكم أنتم؟

قالوا: إنا الكثرة. قال الباشا: يا أصدقائي، إن خوف الكثرة من رأي فرد أو أفراد هو أسوأ المعنيين في تفسير رأيها هي؛ وعشرة جنينيات لا تعباً بالجنيه الواحد، فإنها تستغرقه؛ بيد أن هذه ليست حال عشرة قروش يا أصدقائي . . .

نعم إن قطع الخلاف ضرورة من ضرورات الوطنية، ولكن إذا كان الأمر في ظاهره وباطنه كالخلاف في أيهما أطول: العصا أو المثذنة . . . ؟ فذلك جدال محسوم من نفسه بلا جدال.

إن أساس انخدالنا - نحن الشرقيين - في قلوبنا، إذ لا نعتبر المعاني العامة إلا من جهة أنها قائمة بالرجال، ثم لا نعتبر الرجال إلا من ناحية ما في أنفسنا منهم، ثم لا نعتبر أنفسنا إلا من جهة ما يرضينا أو يغيضنا، وقد لا يغيضنا إلا الحق والجِدُّ، وقد لا يرضينا إلا الباطل والتهاون، ولكن لا نبالي إلا ما نرضى وما نغضب.

لنستم أحراراً في أن تجعلوا غيركم غير حر، فإن يكن الرأي الذي يعارضكم

رأيًا حقًا وتركتم مُنابذته فقد نصرتم الحق؛ وإن يكن باطلاً فإظهاره باطلاً هو بُرْهانُ الحق الذي أنتم عليه؛ ولن تُجردوا أحداً من اختيارِ الرأي إلا إذا تجرّدتم أنتم من اختيار العدل، فإن فعلتم هذه كبرياء ظالمة، تدعي أنها الحق، ثم تدعي لنفسها حُكمه، فقد كذّبت مرتين.

إسمعوا أيها السادة: قامت بين اثنين من فلاسفة الرأي مناظرة في صحيفة من الصحف، وتَسَاجَلَا في مقالات عِدّة، فلما عجزَ أضعفُهما حُجّةً وكَمَعَهُ الجِدال، كَتَبَ مقالته الأخيرة فجاءت سقيمة، فلم تُرضِهِ فَبَيَّنَهَا ونَامَ عنها على أن يُرسلها من الغداة بعد أن يُرَدِّدَ نَظَرَهُ فيها ويُصَحِّحَ آراءَهُ بِالْحُجَجِ التي يَفْتَحُ بها عليه. قالوا: فلما نَامَ تمثّلت له المقالة في أحلامه جِسْماً حَيّاً موهوناً مترَضِضاً، مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك، مجروحاً مِمَّا بينهما؛ ثُمَّ كَلَمَتْهُ فقالت له: ويحك أيها الأبله! إن أردت أن تغلب صاحبَكَ وتُسكِتَهُ عنكَ، فاحِملْ مقالَتَكَ إلى رأسه في العصا لا في الجريدة...



قال صاحبُ السرِّ: وضحك القومُ جميعاً، وأذعنوا وانصرفوا مقتنعين، قد خَلَصَتْ دِخْلَتُهُمْ لِذَلِكَ الرجلِ الحرِّ وتنصّلوا من جريمة كانت في أيديهم، وما جاء الباشا بمُعْجَزٍ من القول، ولكنْ تصويرةً لِلْمَسْأَلَةِ كان حلاً لها في نفوسهم. فلما أدبروا تنفّسَ الباشا كأنما خرجَ من البحر وكان يتعاطى إنقاذَ غريقٍ ويُعاني فيه حتى نجا؛ ثُمَّ قال لي: إن هذا كان جواباً عن شيءٍ في أنفسهم، ولكنه هو سؤالٌ عن شيءٍ في أنفسنا: ما الذي يجعلُ الناسَ عندنا يَخْشَوْنَ المَعَارِضَةَ في الرأي الوطني حتى أنهم لِيُجَاوِزُونَ عليها بهذه العقوبة الشعبية المنكرة؟ وما بالهم لا يُعْطُونَ الرأيَ حُكْمَهُ وحقيقته، بل يُعْطُونَهُ من حُكْمِ أَنفُسِهِمْ وحقائقها وشهواتها المتقلّبة، حتى لترجعَ الفروقُ الضعيفة المتجانسة في أبناء الوطن الواحدِ وكأنها من الخِلاف والمباينة فروقٌ جنسيةٌ كالتي تكونُ بين إنسانٍ من أمة، وإنسانٍ من أمةٍ أخرى تُعاديها.

قلت: إن رأيَ الكثرة قانونٌ يا باشا.

قال: هذا صحيح، ولكن بشرطين لا بشرط واحد: الأولُ ألا يخرجَ الرأيُ على القانون، والثاني ألا تكونَ الحقيقةُ في الرأي الذي يُناقِضُهُ؛ ومُحاوَلَةُ إكراهِ المعارضةِ نقصٌ للشرطين معاً؛ ثُمَّ إنَّ أساسَ الوطنية سلامةُ القلوبِ وصفاءُ النيات، واستواءُ المُوافِقِ والمُخَالِفِ في هذا الحكم، ومتى وقعَ الخِلافُ بين اثنين وكانت

النية صادقة مُخْلِصَة، لم يكن اختلافهما إلّا من تنوّع الرأي، وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرايين، وما من ذلك بُدّ.

الحقيقة يا بُنيّ أنّ الجماهيرَ الشرقيّة ليست في تربيتها من الجماهير السياسية التي يُعتدُّ بها، إذ لا تزال في أولِ عمرها السياسي، وبهذا السبب وحده كان اختلافُ الكُبراء في السياسة لا يُشبهه إلّا نزاعُ الخصمين بغير شهود ولا قاضٍ نافذ الحكم، فهو نزاعٌ قويٌّ تفوزُ بوسائلها، لا نزاعٌ حقٌّ يستغلي بأدليته.

وهذه المجالسُ النيابيّةُ الشرقيّةُ كلّها صُورٌ ممثلةٌ جافّة، منقطعةُ الثمّاء من أسبابها، كالفرعِ المقطوع من الشجرة، وإنّما ينتضّرُ الفرعُ ويُشمرُ أثماره إذا قام بشجرته لا بنفسه، وما شجرةُ الفرعِ السياسيّ إلّا الجمهورُ السياسيّ.

فسيّلُ الإصلاح في كلّ مملكةٍ شرقيّة أن ينهضَ أهلُ الرأي من كلّ مدينةٍ فيها بين عالم وأديب ومُحامٍ وسريّ، ومن كان بسبيل من هؤلاء، فيجعلوا لِمدينتهم دارَ ندوةٍ لِلإجتماع والبحث والمشورة، وقول (نعم) بِالْحُجّة وقول (لا) بِالْحُجّة. ثمّ يُعلنون ذلك في جمهورهم ويتزلّون منه منزلةَ الأستاذ والأب والصديق في تعليجه وهدايته وإرشاده؛ وتُتصّل هذه الدُور في كلّ مملكةٍ بعضها ببعض، وتنتهي بالمجالس النيابيّة. وبغير ذلك لا يُملأ الفراغ الذي نراه خاوياً بين الشعب والحكومة، وبين الكُبراء والجماهير، وإنّما أكثرُ مصائبنا من هذا الفراغ؛ فهو الذي يضيّع فيه ما يضيّع فيه، ويختفي ما يختفي.

مِنّا قومٌ موظفون في الحكومة؛ لكن أين القوم الذين تكونُ الحكومةُ نفسها موظفةً عندهم؟



(اعتذار): بهذا المقالِ انتهت أحاديثُ الباشا؛ فقد أنبأنا صاحبُ السرِّ أنّه

سيكتُم السرّ...

المجنون (*)

(١)

جاء يمشي هادئاً يتخيلُ في مشيِّته، يَزْجُفُ بين الخطوة والخطوة كأنه من كبيره يُشْعِرُكَ أَنَّ الأرضَ مُدْرِكَةٌ أَنَّهُ يَمْشِي فوقها... ولا ينقلُ قدمه إذا خَطَا حتى ينهضَ برأيه يُحَرِّكُهُ إلى أعلى، فما تدري أهو يُريدُ أَنْ يطمئنُ إلى أَنَّ رأسه معه... أم يُخَيِّلُ إليه أَنَّ هذا الرأسَ العظيمَ قد وُضِعَ على جسمه في موضعِ راية الدولة، فهو يَهْزُهُ هزُّ الراية...

وأخذته عيني وليس بيني وبينه إلا طولُ غرفةٍ وعرضها - فإذا هو زائغُ البصرِ كأنما وقعَ في صحراءٍ يُقَلِّبُ عينه في جهاتها متحيراً متردداً، ثم كأنما رُفِعَ له في أقصاها جبلٌ فأخذَ إلى ناحيته...

ورحبتُ به، واجلستهُ إلى جانبي، فأخذَ يَسْتَغْرِفُ إليّ بذكرِ اسمه وجماعته وبلده، لا يزيدهُ على ذلك شيئاً، كأنه عترةُ بني عَبَسَ: لأرضه من طبيعتها جغرافياً، ومن اسمه جغرافياً على جِدة... فلمَّا رآني لا أثبتُهُ مَغْرِفَةً قال: إنَّ بك نسياناً. قلتُ: وكثيراً ما أنسى غيرَ أَنَّ اسمَكَ ليس من هذه الأسماءِ التي تُذكِّرُ بتاريخ. قال: هذه غلطةُ الجرائد... ومهما تنسَ من شيءٍ فلا تنسَ أَنَّكَ أستاذُ «نابغة القرن العشرين»... (١)

فسرَّختُ فيه نظري، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أَمْرَدٍ أَهيفَ، يكادُ برخاوته وتفكُّكه لا يكونُ رجلاً، ويكادُ يبدو امرأةً بجمالِ عينيه وفتورهما. وتوسَّمتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسطُ الأساريرِ ممسوحُ المعاني، يُنبئُ بانقطاعِ صاحبه ممَّا حوله، كأنَّ دنياهُ ليستَ دنيا الناسِ، ولكنها دنيا رأيه...

(*) انظر حديث هذا المجنون وخبره في «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

(١) هذا الشاب المجنون من الأذكياء، وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية، ثم خولط في عقله فتركها؛ وكل ما يمر في هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه.

وتأملت فإذا طفولةً متلبدةً قد ثَبَّتْ في هذا الوجه لِتُخْرِجَ من بين الرجلِ والطفلِ مجنوناً لا هو طفلٌ ولا رجلٌ .

وتفرَّستُ فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصَّفحةِ، قَتَلَاهَا أَفكارُ المسكينِ وعواطفُهُ .
وتبيَّنتُ فإذا رجلٌ مُستَرخٌ، مُتَعَتِّرُ البدنِ، حائرُ النفسِ، كأنَّهُ قائمٌ لِتَوَّهِ من النومِ فلا تزالُ في عينيه سِتَّةٌ، وكأنَّهُ يتكلَّمُ من بقايا حُلُمٍ كان يراه . . .
وَحُيِّلَ إليَّ من هذا الحُمولِ في هذا الشابِ، أنَّ عليه جِوًّا من تشاؤبه، وأنَّ المكانَ كُلَّهُ يَتَّاءِبُ، فتتَّاءَبَتْ



فلما رأى ذلك مني ضحكٌ وقال: إن «نابغة القرن العشرين» رجلٌ مغناطيسيٌّ عظيمٌ؛ فيها هو ذا قد ألقى عليك النومَ . . وحسبك فخراً أن تكونَ أستاذَهُ وأخاهُ وبقته، «فليس على ظهرها اليومَ أديبٌ غيري وغيرُكَ . . .» .

قُلْتُ في نفسي: إنا لَئلهُ، ما يعتقِدُ الرجلُ أنَّ على ظهرها مجنوناً غيرهَ وغيري، وكأنما أَلِمَ بذلك فقال: لستُ مجنوناً؛ ولكنتي كُنْتُ في البيمارستان . . .

قُلْتُ: أهو البيمارستانُ الذي يسمَّى مستشفى المجاذيب؟

قال: لا؛ إنَّ هذا الذي تُسميه أنت، هو هو مستشفى المجاذيب؛ أمَّا الذي سمَّيته أنا فهو مستشفى فقط . . .

وذكرتُ عندئذٍ أنَّ من المجانين قوماً ظُرفاءَ يَدْخُلُهُمُ الفسادُ في عقولِهِم من ناحيةِ فكرةٍ ملازمةٍ لا تَبْرَحُ، فلا يكونُ جنونُهُم جنوناً إلَّا من هذا الوجه، وسائرُ أحوالِهِم كأحوالِ المُقْلَاءِ، غيرَ أنَّهم بذلك طيَّاشون متقلبون، إذا أزدَهِيَ لم يُعْطِفُهُ النَّاسُ من زَهِوهِ وكبريائِهِ وتنطعِهِ، كأنَّهُ واحدٌ الدنيا في هذه الفكرة، وكأنَّ بينَهُ وبين الله أسراراً؛ ويظنُّ عندَ نفسه أنَّه أعقلُ النَّاسِ في أرقى طبقاتِ عقلِهِ، وما جنونُهُ إلَّا في هذه الطبقة وحدها .

ومثُلُ هذا لا بدَّ له ممَّنْ يستجيبُ لهذيانِهِ كيما يُحرِّكَ فيه خِفَّتَهُ وطيشَهُ وزهوَه، وليكونَ عندهُ الشاهدُ على هذا الوجودِ الخياليِّ المُبدِعِ الذي لا يُوجدُ إلَّا في عقلِهِ المختلِّ . فإذا هو ظَفرَ بَمَنٍ يُحاسِنُهُ، أو يُصانِعُهُ، أو يُجارِيهِ، حَسِبَهُ مُذْعِناً مؤمِناً مصدِّقاً، فلا يَدْعُهُ من بعيدِهِ ويتعلَّقُ به أشدَّ التعلُّقِ، ويراهُ كأنَّهُ في ملكِهِ . . . فيتخذُهُ صَفِيًّا وهو يعتقِدُ أنَّه رقيقٌ، وقد يَزْعُمُهُ أستاذُهُ لِيَفْهَمَهُ من ذلك بحسابِ عقلِهِ . . . أنَّه تلميذُهُ .

وخشيتُ أن يكونَ (نابغةُ القرن العشرين) لم يُسمَنِي أستاذَهُ إلا بِحِسابٍ من هذا الحِساب، فهو سِيعَطي الأستاذِيَّةَ حقَّها، ولكنَّ كما هو حقُّها في لغة جنونه... فأصبحَ في رأيه تلميذَهُ وصنيعَتَهُ، ومحدِّثَ هذيانِهِ، وثِقَتَهُ وملجأَهُ، والمحاميَّ من ورائِهِ.

قلْتُ في نفسي: إذا أنا تركتُهُ جالساً كان هذا المجلسُ مَثابَتَهُ من بعدُ، فلا يعرفُ له محلاً غيرَهُ، ويُصيحُ كما يُقالُ في تعبيرِ القانون «محلُّ المختار»، فيَتطرَّأ إليَّ لِسببٍ ولغيرِ سببٍ، ويقعُ في أوقاتي وقوعُ السهو لا حِسابَ عليه، ويَضِيعُ فيه ما يَضِيعُ. فأجمعتُ أن أصرفَهُ راضياً بِالْيأسِ؛ وقد انتهتَ نفسُهُ من معرفتي، وانتهى عقلُهُ إلى الرأي أني لا أضلُّحُ له أستاذاً، لا بِحِسابِهِ هو ولا بِحِسابِ الناسِ.

فقلْتُ له: ظنَّي بك أنك أستاذُ نفسك، ولا يحسنُ بنابغةِ القرن العشرين أن يكونَ له في القرن العشرين أستاذ؛ وأراك قد فرغتَ لِلادبِ، أمّا أنا فممشغولٌ بأعمالٍ وظيفتي، وقد جاءَ من العملِ ما تراه، وتكادُ لا تغيُّ به الساعاتُ الباقيةَ من الوقتِ....

فقطعَ عليَّ وقال: إنَّ الوقتَ ليس في الساعة؛ والدليلُ أني أعطَلُها فيتعطلُ الوقتُ، ولا يكونَ فيها يومٌ ولا ساعةٌ ولا ثانيةٌ ولا دقيقةٌ.

فقلْتُ: ولكنَّك إذا عطَلْتها لم تتعطلِ الشمسُ التي تُعيِّنُ منازلَ النهارِ، فيسمرُ الظهْرُ ويَحِينُ العصرُ....

قال: ويأتي غد، وإنما أنا معك اليومَ فقط... ويجبُ أن تفتبِطَ بأنَّك أستاذُ (نابغة القرن العشرين)، فقد قرأتُ الكثيرَ في الأدبِ وقرأتُك، فما كان لي رأيٌ إلّا رأيتهُ لك... ولا صَحَّتْ عندي نظريَّةُ إلّا رأيتهُك قد أبديتَها، وأنا لا أعتقدُ أدباً في مصرَ إلّا ما توافينا عليه معاً «ولا أسلمُ جدلاً، ولا جدلاً أسلمُ أن في مصرَ أدباءَ ينالون مثي شيئاً، فهو أنا وأنا هو»^(١)، ولشئٍ لم يُلدَعِنوا (لنابغة القرن العشرين) فليعلمنَّ أنَّهم «وقعوا مثي موقعَ نملَةٍ على صخرة... هذا من جهة، ومن جهةٍ أريدُ سجنائزَ وليس معي ثمنها»....

فنهَلَلْتُ واستبشَرْتُ، وقلْتُ له: هذا قرشٌ فهلَمْ فاشترِ به دخائنك، وفي رعاية الله، ثم استويْتُ لِلقيامِ، ولكنَّهُ لم يَقم؛ بل تمكَّنَ في مجلسِهِ....



(١) ما بين القوسين هو كلامه بنصه كما نهبنا إلى ذلك، والباقي ترجمناه نحن عن معانيه، وأكثر ما يأتي فهذه سبيله.

وَكَرِهْتُ أَنْ أَتَغَيَّرَ لَهُ وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ فِي هَذَا صَحِيحُ التَّمْيِيزِ؛ فَمَا أَسْرَعَ مَا قَالَ:
إِنَّ «نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ» فَتَى قُوَى الْإِرَادَةِ؛ فَإِذَا هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَنِ التَّدْخِينِ سَاعَاتٍ
فَمَا هُوَ بِصَبُورٍ... وَإِذَا لَمْ يُثَبِّتْ لَكَ هَذَا الْأَمْرَ عَنْ مُعَايَنَةِ... فَمَا أُعْطِيَتْهُ حَقُّهُ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَقَدْ غَرَسْتُ الرَّجُلَ مِنْ حَيْثُ أَرَدْتُ اقْتِلَاعَهُ، وَأَيَقُنْتُ أَنَّهُ
مِنْ عُقْلَاءِ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ تَتَغَيَّرُ فِيهِمُ الْعَاطِفَةُ أحياناً قَتْلُهُمْ مِنْ آيَاتِ مِنَ الذِّكَايَ لَا
يُتَّفَقُ مِثْلُهَا إِلَّا لِتَوَابِغِ الْمُنْطَقِ؛ وَذَكَرْتُ (بِهَلُولِ) الْمَجْنُونِ الَّذِي حَكَّرَا عَنْهُ أَنَّ
إِبْرَاهِيمَ الشَّيْبَانِيَّ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ خَبِيصاً^(١) فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمْنِي. قَالَ: لَيْسَ هُوَ لِي،
إِنَّمَا هُوَ لِمُعَايَنَةِ بَنَتِ الْخَلِيفَةِ بَعَثَتْهُ إِلَيَّ لِأَكْلِهِ لَهَا...

وَقَالُوا: إِنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْبِزَازِينَ فَرَأَى قَوْمًا مُجْتَمِعِينَ عَلَى بَابٍ وَكَانَ قَدْ نُقِبَ،
فَنَظَرَ فِيهِ وَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ مَنْ عَمِلَ هَذَا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَأَنَا أَعْلَمُ.

فَقَالُوا: هَذَا مَجْنُونٌ يَرَاهُم بِاللَّيْلِ وَلَا يَتَحَاشَوْنَهُ، فَأَلْطَفُوا بِهِ لَعَلَّهُ يُخْبِرُكُمْ. ثُمَّ
قَالُوا: أَخْبِرْنَا. قَالَ: أَنَا جَائِعٌ. فَجَاوَوْهُ بِطَعَامٍ سَنِيٍّ وَحُلْوٍ؛ فَلَمَّا شَبِعَ قَامَ فَنَظَرَ فِي
النَّقَبِ وَقَالَ: هَذَا عَمَلُ اللَّصُوصِ...

وَكَانَتْ مَجْلَدُ (الرَّسَالَةِ) فِي يَدِ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ)، فَوَصَلَ الْكَلَامَ بِهَا
وَقَالَ: إِنَّهُ يَقْرَأُ كُلَّ مَقَالَتِي، وَإِنَّهُ وَإِنَّهُ، وَإِنَّهَا وَإِنَّهَا. قُلْتُ: فَمَا اسْتَحْسَنْتَ مِنْهَا؟
قَالَ: (مَقَالَةُ السِّيْمَا)...

فَقُلْتُ: مَتَى كَانَ آخِرُ عَهْدِكَ بِرُؤْيَا السِّيْمَا؟ قَالَ: أَمْسَ.

قُلْتُ: فَأَنَا لَمْ أَكْتُبْ مَقَالاً عَنِ السِّيْمَا، وَلَكِنَّكَ أَعْجَبْتَ بِمَا رَأَيْتَ أَمْسَ فَتَحَوَّلَ
مَا رَأَيْتَهُ حُلُمًا فِي مَقَالَةٍ.

فَأَعْجَبَنِي هَذَا التَّأْوِيلُ وَقَالَ: بِمِثْلِ هَذَا أَنَا (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ)، فَأَقْرَأْ مَقَالَتَكَ
فِي الْغَيْبِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكْتُبَهَا...

قُلْتُ: إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ عَنْ نَفْسِكَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ)، وَهَذَا يَحْصُرُ
نَبُوغَتَكَ فِي قَرْنٍ بَعِيْنِهِ؛ فَلَوْ قَطَعْتَ الْكَلِمَةَ وَقُلْتُ: (نَابِغَةُ الْقَرْنِ)، لَصَحَّ أَنْ تَكُونَ
نَابِغَةُ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَالثَّامِنِ عَشَرَ، وَمَا قَبْلَهُمَا وَمَا بَعْدَهُمَا.

فَرَأَيْتُ بِهِ شِدْقَةً كَأَنَّهُ يُفَكِّرُ فِي جَنُونِهِ، ثُمَّ أَفَاقَ وَقَالَ: لَا. لَا؛ وَإِنْ هَاهُنَا مَوْضِعٌ

(١) طَعَامٌ كَانُوا يَتَخَلَّدُونَهُ مِنَ التَّمْرِ وَالسَّمَنِ.

نظر، فلو رُضيْتُ بنابغة القرن فقط، لَجاءَ مَنْ يقول: إني نابغةُ قرنِ خروف... .

فَقُلْتُ في نفسي: حَمَاءُ مُدَّتْ بِمَاءٍ^(١)، وَإِنْ هَذِهِ الْوَسَاوِسَ لَا تَتَفَكُّ تُعْرَوِ هَذَا الْمَسْكِينَ مَا وَجَدَ مِنْ يَكْلَمِهِ؛ وَالْأَفْكَارُ فِي ذَهْنِهِ مَجْتَمَعَةٌ مُخْتَلِطَةٌ مُسْتَرْسِلَةٌ كَأَنَّهَا ثَوْرَةٌ مِنَ الْكَلَامِ لَا نِظَامَ لَهَا، فَلَأَسْكُتُ عَنْهُ وَلَأَتَشَاغَلَ بِمَا بَيْنَ يَدَيَّ.

وَسَكُتٌ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ؛ فَجَعَلَ طَائِفُهُ يَعْتَرِيهِ، وَكَأَنَّ السَّكُوتَ قَدْ سَلَطَ أَفْكَارَهُ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّهَا أَخَذَتْ تَصِيحُ بِهِ فِي رَأْسِهِ كَمَا يَصِيحُ غِلْمَانُ الطَّرِيقِ بِالْمَجْنُونِ، لَا يَزَالُونَ بِهِ حَتَّى يُخْرِدُوهُ وَيُقَقِّدُوهُ الْبَقِيَّةَ مِنْ صَبْرِهِ وَعَقْلِهِ مَعًا. فَغَضِبَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) وَنَقَلَهُ الْغَضَبُ إِلَى حَالَةٍ زَمْهَرَتْ فِيهَا عَيْنَاهُ^(٢)، وَكَلَّخَ وَجْهَهُ حَتَّى خِفْتُ أَنْ يَثُورَ بِهِ الْجَنُونُ، فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَتَعَلَّلْتُ بِسُؤَالِهِ: أَلَيْكَ إِخْوَةٌ؟ أَلَمْ يَنْبَغْ فِيهِمْ نَابِغَةٌ...؟

قَالَ: إِنَّ لَهُ أَخًا يُعَذِّبُهُ، وَيُوقِعُ بِهِ ضَرْبًا، وَيَعْلَلُهُ بِالسَّلَاسِلِ، وَيَشْدُهُ «بِأَمْرَاسٍ كَثَانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ»، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ بِهِ الْعَذَابَ مَا لَوْ أَنْزَلَهُ بِحَجَرٍ لَتَأَلَّمَ.

قُلْتُ: فَأَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَاحَةٍ، وَيَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَأْوِيَ إِلَى مَكَانٍ تَتِمَّدُ فِيهِ.

قَالَ: إِنِّي مُنْصَرَفٌ وَسَاجِلُسُ فِي نَدْيٍ كَذَا^(٣) «هَذَا مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُ الْقَهْوَةِ».

قُلْتُ: فَهَذَا قَرَشٌ تَدْفَعُهُ ثَمَنًا لَهَا، فَادْهَبْ فَاسْتَمْتِعْ بِهَا وَبِالتَّادِخِينَ وَبِالرَّاحَةِ فِي ذَلِكَ النَّدْيِ، فَالْمَكَانُ هَا هُنَا كَثِيرُ الضَّجِيجِ وَالْحَرَكَةِ. وَاسْتَوْفِزْتُ لِلْقِيَامِ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَلَّلْ مِنْ مَجْلِسِهِ.

ثُمَّ قَالَ: أَرَأَيْكَ الْآنَ مُسْتَبْصِرًا أَنِّي (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) بَعِينَةٌ.

قُلْتُ: بَلْ بَعِينَةُ الْيَمْنَى وَالْيَسْرَى مَعًا... .

قَالَ: لَا. لَا؛ إِنَّكَ نَسِيتَ أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ فِي التَّوَكِيدِ: عَيْنُهُ وَنَفْسُهُ وَذَاتُهُ.

«أَيُّ أَنَا نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ بَعِينَةٌ وَنَفْسُهُ وَذَاتُهُ، فَلَيْسَ غَيْرِي نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ».

وَكَادَتْ نَفْسِي تَخْرُجُ غِيظًا، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ الْجِلْمَ عَلَى مِثْلِ هَذَا يَجْرِي مَجْرَى

(١) هذا مثل في معنى زاد الطين بلة، والحماة إذا مدها الماء زادت واتسعت.

(٢) أي لَمَعَتْ غَضَبًا.

(٣) نحن نَسْتَعْمَلُ النَّدْيَ لِمَكَانِ الْقَهْوَةِ.

الصَّدَقَة؛ وقلت: إِنَّ أدباءَ المجانين كثيراً ما يَتَفَقُّ لَهُمُ الإِبْدَاعُ الطَّرِيفُ إِذَا عَلَّلُوا شيئاً، كذلك القاصُّ الذي كان يقصُّ على العامة سيرة يوسف - عليه السلام -، فقال لهم فيما قال: إِنَّ الذَّنْبَ الذي أَكَلَ يوسفَ كان اسمه كذا، فردُّوا عليه: إِنَّ يوسفَ لم يأكله الذَّنْبُ. قال: فهذا هو اسمُ الذَّنْبِ الذي لم يأكلُ يوسفَ.

فقلتُ للمجنون: فما العِلَّةُ عندَكَ في أَنَّ العربَ لم يقولوا في التوكيد: عَيْنُهُ وأذُنُهُ وأنفُهُ وِجْهُهُ ويَدُهُ ورجلُهُ؟

فنظرَ نظرةً في الفضاءِ ثُمَّ قال: ليسوا مجانينَ فيخلطوا هذا الخلطَ، وإلا وجبَ أَنْ يقولوا مع ذلك: وِعِمَامَتُهُ وثوبُهُ ونعلُهُ وبعيرُهُ وشاةُ ودرَاهمُهُ. «هذا من جهة، ومن جهةٍ ليس معي أجرَةُ السيارةِ إلى بلدي وهي قرشان».

قلت: هذه هي أجرَةُ السيارةِ وصِحْبَتِكَ السلامة، ونهضتُ واقفاً؛ ولكنَّه لم يتحرَّك.



ثُمَّ قال: إِنَّكَ لم تعرفَ بعدُ «أَنِّي أقولُ الشعرَ في الغزلِ والنسيبِ والمدحِ والهجاءِ والفخرِ؛ وَأَنِّي في الخطابةِ قُسٌّ بِنُ سَاعِدَةٍ أو أَكْثَمُ بِنُ صَيْفِي، وَأَنِّي صَخْرٌ لا ينفجر... يابسٌ لا ينعصر، لَسْتُ كَالْحَجَّاجِ بِلَى كَعْمَرٍ».

قلت: هذا شيءٌ يطولُ بيننا ولا حاجةَ لك بهذه البراهين كلها، فقد آمَنْتُ أَنَّكَ نابغةُ القرنِ العشرينِ في الأدبِ والشعرِ والخطابةِ والترسلِ.

قال: والفلسفة؟

قلت: والفلسفة وكلُّ معقولٍ ومنقولٍ؛ وقد انتهينا على ذلك.

قال: ولكنَّكَ تحسِّبني مجنوناً أو ممروراً «كما حسَّبتني الجرائدُ التي زعمتُ أَنَّ اختفائي في البيمارستانِ كان لِجنونِي الفكريِّ أو لِذكَائِي الطبيعيِّ وهو الأصح... فبيِّنْ لِهذه الجرائدِ أَنِّي خرجتُ، وَأني سأطبعُ الأدبَ بطابعٍ جديدٍ».

قلت: ولكنِّي لَسْتُ مراسلَ جرائدٍ. قال: «فاجعلني رسالةً ورأسلها عني أو أَكتبْ لك أنا ما تُرسلُهُ، وما جئتُكَ إلَّا لِهَذَا؛ ويجبُ أَنْ تُلحقني بجريدةٍ كبيرة، وهذه الجرائدُ تعرفني كلها، وقد تناولتني من جميع النواحي الأدبية؛ فضلاً عن أَني كاتبٌ قَدْ، وخطيبٌ قَدْ، وشاعرٌ قَدْ، وهذا قليلٌ من كثير، فهل أعولُ عليك في صِلتي بالجرائدِ أَوْ لا؟».

قلت: إِنَّكَ تعرفُهُم ويعرفونكَ، وقد بلَّوْتَهُم وبلَّوْا مِنْكَ، فلستُ في حاجةٍ إِلَيَّ عندهم.

قال: إنهم يخشون بأسى، وقد حسبوني مجنوناً استهوته الشياطين؛ وما علموا أن شيطانَ الشعرِ هو الذي استهواني، كما أن شيطانَ الحبِّ هو الذي استهواك... هذا من جهة، ومن جهةٍ ليس معي ثمنُ الغداء، ولا أكلُكُ شيئاً...».

قلت: فهذا قرشٌ للغداءِ في مطعمِ الشعب. وهم الآن يتغدّون ويوشِكُ إذا أبطأت أن تُوافِقهم وقد استنفدوا الطعام، وأنت لا تجهلُ أن القرشَ في مطعمِ الشعبِ هو قرشان في القيمة.

قال: صدقت؛ يوشِكُ أن أوافِقهم وقد فرغوا من طعابهم وغسلوا الآنية. فلأبقى هذا للغشاءِ وسأطوي إلى الليل...

قلت: فمعك الآن ثمنُ الدخان، والقهوة، والغداء، وأجرةُ السيارة إلى بلبك. وقد كان نابغةُ القرنِ الثالثِ للهجرةِ واسمه (طاقُ البصل)^(١) يُغني بغيرِ طِ ولا يسكتُ إلا بدائق. هذا من جهة، ومن جهةٍ فخذ هذا القرشَ ثمناً لِسكوّتك وانصرف.



فشقّ ذلك عليه وقامَ مُغَضِّباً وتنفسَتْ بعده الصُّعداءُ الطويلة... وفتحتُ النافذةَ واستقبلتُ الهواءَ النقيَّ وأخذتُ في رياضةِ التنفّسِ العميقِ، ثم زاعَتْ عيني إلى البابِ؛ فإذا (نابغةُ القرنِ العشرين) مقبلةٌ مع نابغةِ قرنٍ آخر.....

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة في القرن الثالث.

المجنون

(٢)

رأيتُ المجنونين يدخلان معاً، فكأنما سدا الباب وسوياًه بالبناء وتركوا العُرْفَةَ حائطاً مُضْمَتاً لا باب فيه، ممّا اعتراني من الضيق والحرَج؛ وقلْتُ في نفسي: إنَّه لا مذهبٍ لِلْعَقْلِ بين هذين إلَّا أن يُعَيَّنَ كِلَاهُمَا على صاحبه، فأرى أنَّ أَدْعَمَهُمَا وأَكُونُ أنا أَصْرَفُهُمَا؛ ويا ربّما جاء من النوادر في اجتماع مجنونين ما لا يأتي مثله من عقليْن يجتمعان على ابتكاره؛ غيّرَ أُنِّي خَشْيَتُ أن أكونُ أنا المجنونُ بينهما، ثُمَّ لا أَمْنُ أن يَتَّبِ أحدهُما بالآخر إذا خَطَرَتْ به الخطُرةُ من شيطانه، فرأيتُ أن يكونَ لي ظهيرٌ عليهما، إنْ لم يحقِّ به القوْنُ فلا أَقْلُ من أن يطول به الصبر... وكان إلى قريبٍ مِنِّي الصديقُ (١.ش)^(٥) فأرسلْتُ في طلبه.

أما هذا المجنونُ الثاني الذي جاء به (تابغَةُ القرن العشرين) فقد رأيتُهُ من قبل، وهو كالكتابِ الذي خُلِطَتْ صُحُفُهُ بعضُها في بعضٍ فتداخَلَتْ وفسدَ ترتيبُها، وانقلبَ بذلك العلمُ الذي كان فيها جَهْلًا وتخليطًا، يَتَّبِ الكلامُ بعدَ كُلِّ صفحةٍ إلى صفحةٍ غريبةٍ لا صِلَةَ لَهَا بِمَا قَبْلُهَا ولا ما بَعْدُهَا.

وهو طالبُ أَزهريٍّ كان أكبرَ هَمِّه أن يصيرَ حافظًا كالحفاظِ الأقدمينَ من الرواةِ والفُقهاء، فجعلَ يستظهرُ كتاباً بعدَ كتابٍ ومثناً بعدَ متنٍ؛ وكأنتَ له أذنٌ واعيةٌ، فكلُّ ما أفرغَ فيها من درسٍ أو حديثٍ أو خَبَرٍ، نزلَ منها كالنقْرِ على آلَةٍ كاتبةٍ، فينطبعُ في ذِهْنِهِ انطبَاعُ الْكِتَابَةِ: لا تُمَحَى ولا تُنسى.

ثُمَّ أُنَاتَ هذه اللُؤْمَةُ وهو يحفظُ متناً في فقه الشافعي (رضيَ اللهُ عنه)، فغبرَ سَنِينَ يتحفظُها، كُلُّما انتهى إلى آخره نَسِيَهُ من أوله؛ فيعودُ في حفظه ورويًا أثبتَ منه الشيءَ بعدَ الشيءِ ولكنه إذا بلغَ الآخرَ لم يجدَ معه الأول؛ فلا يزالُ هذا دأْبُهُ لا

(٥) هو الصديق أمين حافظ شرف.

يملأ ولا يجد لهذا العناء معنى، ولا يزال مقبلاً على الكتاب يجمعه، ثم لا يزال الكتاب يتبدد في ذاكرته .

وترك المعهد الذي هو فيه وتخلّى في داره للحفظ، وأجمع ألا يدع هذا المتن أو يحفظه، كأن فيه الموضع الذي فازقه عقله عنده، وبذلك رجّع المسكين آلة جفّظ ليس لها مساك؛ وأصبح كالذي يرفع الماء من البحر، ثم يلقيه في البحر، ليترخ البحر...



وجاء (١). ش) فقلّلت له، وأومأت إلى المجنون الأول: هذا نابغة القرن العشرين.

قال: وهل انتهى القرن العشرون فيعرف من نابغة؟
فقلّلت للمجنون: أجبه أنت. فسأله: وهل بدأ القرن الواحد والعشرون؟
قال: لا.

قال: فإن هذا الذي إلى جانبي نابغة القرن الواحد والعشرين... فكما جاز أن يكون هو نابغة قرن لم يبدأ، جاز أن أكون أنا نابغة قرن لم ينته.
قلّت: ولكنك زدت المشكلة تعقيداً من حيث توهمت حلّها؛ فكيف يكون معك في آن وبينك وبينه خمس وستون سنة؟
فنظر نظرة في الفضاء، وهو كلّمأ أراد شيئاً عسيراً نظراً إلى اللاشيء...

ثم قال: هذه الأمور لا تشبّه إلا على غير العاقل... وكيف لا يكون بيني وبينه خمس وستون سنة وأنا أتقدّمه في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة...؟

قلّت لآخر: أكن ذلك؟

قال: ممّا حفظناه عن الحسن: أدركنا قوماً لو رأيتهم لقلّمت: مجانين. ولو أدركوكم لقالوا: شياطين...

فضحك الأول وقال: إنّه تلميذي.

قال الثاني: لقد صدّق فهو أستاذي، ولكنّه حين ينسى لا يذكره غيري...

قلّت: لا عزّو «فمما حفظناه» عن الزهرّي: إذا أنكرت عقلك فاقدّحه بعقل...

فغضب نابغة القرن العشرين وقال: ويخ لهذا الجاهل، الأحمق، الجاحد للفضل، مع جنونه وخبله. أليدكرني وهو منذ كذا وكذا سنة يحفظ متناً واحداً لا

يُمْسِكُهُ عَقْلُهُ إِلَّا كَمَا يُمِيكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ؟ صَدَقَ - وَالله - مَنْ قَالَ: عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ؛ خَيْرٌ؛ خَيْرٌ، فَقَالَ الثَّانِي: خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ، هَا أَنْذَا قَدْ ذَكَّرْتُكَ مِنْ نَيْسَانٍ، وَهِيَ أَنْتَ ذَا رَأَيْتَ.

فَضَحَكَ النَّابِغَةُ وَقَالَ: وَلَكِنِّي لَمْ أَرِدْ أَنْ أَقُولَ هَذَا، بَلْ أَرِيدُ أَنْ أُولَفَ كَلَامًا آخَرَ.... عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ، خَيْرٌ، خَيْرٌ؛ خَيْرٌ مِنْ مَجْنُونٍ جَاهِلٍ.....

وَرَأَيْتُ أَنْ فِي التَّقَاءِ مَجْنُونَيْنِ شَيْئًا طَرِيفًا غَيْرَ جَنُوبِيهِمَا، وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّ الْمَجْنُونِ الْوَاحِدَ هُوَ الْمَجْنُونُ؛ أَمَّا الْاِثْنَانُ فَقَدْ يَكُونُ مِنْ اجْتِمَاعِيهِمَا وَتَحَاوُرِيهِمَا فَنُ ظَرِيفٌ مِنَ التَّمَثِيلِ، إِذَا وَجَدَا مَنْ يُصَرِّفُهُمَا فِي الْحَدِيثِ، وَيَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَهُمَا، وَيَسْتَكْشِفُ مِنْهُمَا قِصَّتَهُمَا الْعَقْلِيَّةَ.....

وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) مِنَ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ لَهُمْ أَذُنٌ فِي غَيْرِ الْأُذُنِ، وَعَيْنٌ فِي غَيْرِ الْعَيْنِ، وَأَنْفٌ بِغَيْرِ الْأَنْفِ؛ إِذْ تَتَلَقَّى أَدْمَغَتُهُمْ أَصْوَاتًا وَأَشْبَاحًا وَرَوَائِحَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا لَا مِنَ الْوُجُودِ، وَتُدْرِكُهَا بِالتَّوَهُّمِ لَا بِالْحَاسَّةِ، فَتَنْتَخِلُ هَوَاجِسُهُمْ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ، وَتَخْطُرُ الْكَلِمَةُ مِنَ الْكَلَامِ فِي ذَهْنِ أَحَدِهِمْ فَيَخْرُجُ مِنْهَا مَعْنَاهَا يَتَكَلَّمُ فِي دِمَاغِهِ أَوْ يَمْشِي أَوْ يَلَاطِفُهُ أَوْ يُؤْذِيهِ أَوْ يَفْعَلُ أَعْمَالًا أُخْرَى.

وَبَيْنَا أَنَا أَدِيرُ الرَّأْيَ فِي إِخْرَاجِ فَصْلِ تَمَثِيلِي مِنَ الْجَوَارِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَجْنُونِينَ^(١)، إِذْ قَالَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): صَهْ، إِنَّ جَرَسَ «التَّلْفُونِ» يَدُقُّ.

قَالَ (أ. ش.): لَا أَسْمَعُ صَوْتًا، وَلَيْسَ هُنَا «تَلْفُون».

فَاغْتَاظَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَقَالَ: إِنَّكَ تَتَفَحَّمُ عَلَى النَّوَائِغِ وَلَسْتَ مِنْ قَدَرِهِمْ، وَمَا عَمَلُكَ إِلَّا أَنْ تُنْكِرَ؛ وَالْإِنْكَارُ، وَيَلُكُ، أَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَى الْمَجَانِينِ وَأَشْبَاهِ الْمَجَانِينِ، وَالْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِ الْعَامَّةِ؛ وَقَدْ أَنْكَرْتَ نَبُوْعَهُ أَنْفَاءً، وَأَرَاكَ الْآنَ تُنْكِرُ «تَلْفُونَهُ»...

قَالَ (أ. ش.): وَأَيْنَ «التَّلْفُونُ» وَهَذِهِ هِيَ الْغُرْفَةُ بِأَعْيُنِنَا؟ فَضَحِكَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) وَقَالَ: صَهْ - وَيُحَكِّ - لَقَدْ خَلَطْتُ عَلَيَّ؛ إِنَّ الْجَرَسَ يَدُقُّ مَرَّةً أُخْرَى، وَأَنَا لَا أَرِيدُ أَنْ أَكَلِّمَهَا حَتَّى يَطُولَ انْتِظَارُهَا، وَحَتَّى تَدُقَّ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، وَأَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ دَقَّتِ الثَّلَاثَةَ وَذَهَبَ رَنِّيْهَا فِي صَوْتِكَ وَلَغَطِكَ...

(١) سَيَأْتِي هَذَا الْفَصْلُ التَّمَثِيلِي فِي مَقَالٍ آخَرَ.

قال المجنون الآخر: هي صاحبتُ التي يهاها وتهواه؛ وقد استهَامها وتَيَّها وحَيَّرها وخَبَلها، حتى لا صَبِرَ لها عنه، فوضَعْتُ له تلفوناً في رأسيه

قال «النابعة»: وهذا التلفون لا يُسمَعُني صوتها فقط، بل هو يُشَقِّنِي عَظَرها أيضاً. وقد تُكَلِّمُنِي فيه الملائكة أحياناً، وأنا ساخِطٌ على هذه الحبيبة فإنَّها غَيُورٌ تُخَشِي سَطَوَاتِها على اللائي تَغَارُ منهنَّ، ولولا ذلك لَكَلِّمْتُني في هذا التلفون إحدى الحُورِ العِينِ

قلنا: أو تَغَارُ منها الحُورُ العِينُ؟

قال المجنون الثاني: بل الأمرُ فوقَ ذلك، فإنَّ الحُورَ العِينَ يَشْتُمُّها ويلعُنُها؛ «فمِمَّا حَفِظْنَاهُ» هذا الحديث: لا تُؤْذِي امرأةَ زوجها في الدنيا إلَّا قالتَ زوجها من الحُورِ العِينِ: لا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللهُ؛ فإنَّما هو عندكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يَفَارِقَكَ إلينا.

قال (نابعة القرن العشرين): ونلي على المجنون إنَّه يُريدُ أَنْ يخلو له موضعي فهو يتمنى هلاكِي وانتقالي وشيكاً من هذه الدنيا. وهو يقولُ بغيرِ عِلْمٍ لأنَّه أحمقٌ ليس له عُقْدَةٌ من العقل، فيزعمُ أنَّها تُؤْذِينِي، ولو هي آذَنِي لَغَضِبْتُ قَبْلَ ذلك، ولو غَضِبْتُ لَرَقَمْتُ التلفون. صَهْ إِنَّ الجرسَ يدقُّ.



قال ا. ش: إنَّ لِلنوايغِ لَشأناً عَجَباً، ففي مديريَّة الشارقة رجلٌ نابغةٌ ماتت زوجها وتَرَكَتْ له غلاماً، فتزوجَ أخرى وهو يعيشُ في دارِ أبيه. فلمَّا كانَ عيدُ الأضحى سألَ أباهُ مالاً يبتاعُ به الأضحى فلم يُعْطِه. وهو رجلٌ يحفظُ القرآنَ، فذكرَ إبراهيمَ (عليه السلام) ورؤياهُ في المنامِ أنَّه يذبحُ ابنه، فحُيِّلَ إليه أنَّ هذا بابٌ إلى النبوة، وأنَّ الله قد أوحى إليه، فأخذَ الغلامُ في صبيحة العيدِ وهمَّ بذبْحِهِ، ولولا أنَّ صرَخَ الغلامُ فأدركه الناسُ فاستنقذوه

قال (نابعة القرن العشرين): هذا مجنونٌ وليس بنابعة؛ بل هذا من جُهلاءِ المجانين؛ بل هو مجنونٌ على جِدَّتِهِ. وقد رأيتُهُ في البيمارستانِ في حينِ كُنْتُ أنا في المستشفى . . . فكان يزعمُ أنَّه ائتمَرَ في ذبحِ غلامِهِ بإرادةِ الله. ولو كانتْ إرادةُ الله لَنفَذْتُ بِالذَّبْحِ، ولو كان الأمرُ وحياً لنزلَ عليه من السماءِ كبشٌ يذبحُهُ . . . وهكذا أنا في المنطقي (نابعة القرن العشرين).

ثمَّ إنَّه أشارَ إلى المجنون الثاني وقال: وأنا أنقدِّمُ هذا في النبوغِ بأكثر من عِلْمِ العلماءِ في خمسٍ وستينَ سنةً كاملةً.

قلت: ولكذك ذكرت هذا من قبل فلم عُدت فيه الآن؟

قال: إن السبب قد تغيّر فتغيّر معنى الكلام؛ وقد بدا لي أنّه يتمنى هلاكي ليكون هو نابغة القرن العشرين. فمعنى الكلام الآن: أنّه لو عاش خمساً وستين سنة «يحفظ المتن» لما بلغ مبلغى من العلم. هذا رجل نصفه ميت جنوناً وموتاً حقيقياً، ونصفه الآخر ميت جهلاً بالموت المعنوي.

قال ا. ش: حسبهُ أن يقلّدك تقليد العامي لإماميه في الصلاة وعسى ألا تستكثر عليه هذا فإنه يلمّيك.

قال المجنون الثاني «مما حفظناه»: لو صوّر العقل لأضاء معه الليل، ولو صوّر الجهل لأظلم معه النهار... ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلي، فقد وقف منذ أيام يصلي بالشعر... ولما رأيته ناسياً فذكرته ونبهته أنّ الصلاة لا تجوز بالشعر، التفت إلي وهو راكع فسبني وشتمني وصرخ في وقال: ما شأنك بي؟ هل أنا أصلي لك أنت...؟

فغضب «النابغة» وقال: - والله - إن تحسبونني إلا مجنوناً فتريدون أن يقلدني هذا الأحق الذي ليس له رأي يُمسكه. ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدي من السهل الممكن، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطيع تقليد نابغة القرن العشرين.

قلنا: هذا عجيب، وكيف كان ذلك؟

فضحك وقال: لا أعدكم من الأذكياء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك؟ قال ا. ش: هذا لم يُعرف مثله فكيف نعرفه؟ ولم يتوهمه أحد، فكيف نتوهمه؟

قال: لو لم تكن أستاذ نابغة القرن العشرين لما عرفتُها؛ وهذا نصف الصواب؛ وما دُمت أستاذي، فلو أننا اختلفنا في رأي لكان خلافك لي صواباً لأنه منك، وكان خلافي لك صواباً لأنه مني؛ فأنت (غير مخطيء) وأنا مُصيب، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظن أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً...

أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) في الرؤيا، ولكني رأيته في المرأة عند الحلاق... ورأيته يقلدني في كل شيء حتى في الإشارة والقومة والقعدة ولكني صرخت فيه وسببته ففتح فمه، ثم خافني ولم يتكلم...

وأوماً إلى المجنون الآخر وقال: وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة.

قال ا. ش : لقد قُلْتُها مرتين كِلتاها بمعنى واحد، فما معنَاكَ في هذه الثالثة؟

قال : هذا الغرُّ يزعمُ أَنِّي لا أعرفُ كيفَ أصلي، ويستدلُّ لذلكَ بأنِّي صليتُ بالشعرِ وأنِّي شتمتُهُ وأنا راكمُ ؛ ولو كان عاقِلاً لَعَلِمَ أَنَّ شتَمي إياه وأنا راكمُ ثوابٌ له . . . ولو كان نابغةً لَعَلِمَ أَنَّ الشعرَ كان في مدحِ دولة النحاسِ باشا وأولي الثُهي .
قلنا : ولكنَّ الشعرَ على كُلِّ حالٍ لا تجوزُ به الصلاةُ ولو في مدحِ دولة النحاسِ باشا .

قال : لم أَصلُ به ، ولكنَّ خطرَ لي وأنا أصلي أَنِّي نسيْتُ القصيدةَ فأردتُ أَن اتَّحقَّقَ أَنِّي لم أنسها . . . فإذا أنا نابغةُ القرنِ العشرينِ في الحفظ ، وهي ستُّ أبيات . لا كهذا المعتوه الذي صَبَرَ على المتنِ صَبَرَ الغريبِ على الغُربة الطويلة ، ومع ذلكَ لم يحفظه .
قال ا. ش : فأملِ علينا هذا الشعر . فأملِ عليه^(١) .

يا حليفَ الشُّهدِ قلْ لي	أينَ مَنْ في الدهرِ خالٍ
إنْ تَكُنْ تهوى غزالا	أُكحلَ العينينِ مالاً
أنا أهواها ولكن	لا سبيلَ إلى الوصالِ
منذُ ولتُ قُلْتُ مهلاً	منذُ غابَتْ في خيالِ
أنا مجنونٌ بليلى	ليلِ يا ليلى! تعالِ

قلنا : ولكنَّ ليس هذا مدحاً ، فضجكَ وقال : أردتُ أَن تعرفوا أَنِّي أقولُ في الغَزَل ، أمَّا المديحُ فهو :

شغفَ الورى بمناصبٍ وأمانى	وشغفَتْ يا نحاسُ بالأوطانِ
حسبوا الحياةَ تفاخراً وتنعماً	وحسبَتْها إلَهُ والأوطانِ

ثم أرتجَ عليه فسكتَ . قال المجنونُ الآخرُ : إنَّها ستُّ أبيات ، وقد نسيْتُ أربعة ، ولستُ أريدُ أَن أذكركَ :

فقال (النابغة) : أظنُّه قد حانَ وقتُ الصلاةِ وأريدُ أَن أصلي . . . ونظرَ إلى اللاشيءِ في الفضاء ، ثُمَّ قال . والبيتُ الأخير :

لا أبتغي في المدحِ غيرَ أولي الثُهي أو صادق^(٢) أو شوقي أو مطرانِ

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه .

(٢) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين .

ثُمَّ أَمْرًا ش. أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ الشَّعْرَ فَقَرَأَهُ، فَقَالَ: أَحْسَنْتُ، انْظُرْ إِلَى فَوْقِ.
فَنَظَرَ، ثُمَّ قَالَ: انْظُرْ إِلَى تَحْتِ. فَنَظَرَ ثُمَّ سَكَتَ.
قَالَ أ. ش.: وَبَعْدُ؟ قَالَ: وَبَعْدُ فَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِمَّا إِلَى فَوْقٍ وَإِمَّا إِلَى
تَحْتِ ...

وَكَانَ الضَّجْرُ قَدْ نَالَ مِثِّي، فَرَجَوْتُ أ. ش. أَنْ يَلْبِسَ مَعَهُمَا وَأَذْنُتُ لِنَابِغَةِ
الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ أَنْ يَلْقَانِي فِي النَّدْيِ وَانْصَرَفْتُ ..
قَالَ أ. ش. وَهُوَ يُبَيِّنُنِي: فَمَا غَبَّتْ عَنَّا حَتَّى أَخَذَ الْمَجْنُونُ يَشْكُو وَيَتَوَجَّعُ
وَيَقُولُ: لَقَدْ حَاقَ بِي الظُّلُمُ، وَإِنَّ (الرَّافِعِي) رَجُلٌ عَسُوفٌ ظَالِمٌ، لِأَنِّي أَكْتُبُ لَهُ كُلَّ
مَقَالَةٍ الَّتِي يَنْشُرُهَا فِي (الرَّسَالَةِ) ... وَأَجْمَعُ نَفْسِي لَهَا، وَأَجْهَدُ فِي بَيَانِهَا، وَأَذِيبُ
عَقْلِي فِيهَا، وَهُوَ مُسْتَرِيحٌ وَادِعٌ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَتَجَلَّهَا وَيَضَعُ تَوْقِيعَهُ عَلَيْهَا، وَيَبْعَثُ
بِهَا إِلَى الْمَجْلَةِ، ثُمَّ هُوَ يَقْبِضُ فِيهَا الذَّهَبَ وَيُنَالُ الشَّهْرَةَ، وَلَا يَدْفَعُ لِي عَنْ كُلِّ
مَقَالَةٍ إِلَّا قَرَشَيْنِ^(١) ...

قَالَ أ. ش.: فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُرْسِلَ أَنْتَ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ إِلَى الْمَجْلَةِ فَتَقْبِضَ فِيهَا
الذَّهَبَ؟ قَالَ: إِنَّ هُنَاكَ أَسْرَارًا أَنَا مُخَصِّصُهَا وَكَاتِمُهَا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَهَا أَحَدٌ فَإِنَّهَا
أَسْرَارٌ ... قَالَ لَهُ: فَدَعْ (الرَّافِعِي) وَاكْتُبْ لِي أَنَا هَذِهِ الْمَقَالَاتِ، وَأَنَا أَعْطِيكَ فِي
كُلِّ مَقَالَةٍ ذَهَبَيْنِ لَا قَرَشَيْنِ.

قَالَ هَذِهِ أَسْرَارٌ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَّا لِلرَّافِعِي، لِأَنَّ (نَابِغَةَ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ)
لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْعِيَ كَلَامَهُ إِلَّا أَسَاتِذُ نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ، وَلَوْ ادَّعَاهُ غَيْرُهُ لَكَانَ هَذَا
حَطًّا مِنْ قَدْرِ نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ، وَهَذَا بَعْضُ الْأَسْرَارِ لَا كُلُّ الْأَسْرَارِ ..
قُلْتُ: ثُمَّ جَاءَ الْمَجْنُونَانِ فِي الْعِشِيِّ إِلَى النَّدْيِ.

(١) لَا يَزَالُ هَذَا الْمَسْكِينُ مِنْذُ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ يَدْعِي أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَكْتُبُ لَنَا هَذِهِ الْمَقَالَاتِ، غَيْرَ أَنَّهُ
رَفَعَ الْقِيَمَةَ آخِرًا؛ فَجَعَلَهَا عَشْرِينَ قَرَشًا

المجنون

(٣)

وكنا في الندي ثلاثة: أنا، وا. ش. وس^(٥). ع؛ وقد هياث تدبيراً توافقنا عليه لتحريك هذين المجنونين، وتدوين ما يجيء منهما. فلما أقبلنا نحققنا بهما وألطفناهما، وقمنا ثلاثتنا ببسطيهما وإكراميهما، حتى حبيباً أن في كلمة «مجنون» معنى كلمة أمير أو أميرة. . ورأيت في عيني «نابغة القرن العشرين» - وهو أغني أنجل^(١) - ما لو ترجمته لما كانت العبارة عنه إلا أنه يعتقد أن له نفساً أننى أعشقه أنا. . فكان مُسَدِّداً فكّة اللسان، تُسْتَفْلِحُ له النادرة، وتُستَظَرَفُ منه الحركة.

ولما تمكّن منه الغرور، واحتاج الجنون كما يحتاج الجمال إلى كبريائه إذا حاطته الأعين - أدارَ بصره في المكان، ثم قال: أف لكم ولما تصيرون عليه من هذا الندي في ضوضائه ورُعايه وغوغايه. إن هؤلاء إلا أخلاط وأوشاب وخثالة. هذا الجالس هناك. هذا الواقف هنالك. هذا المستوفز. هذان المتقابلان. هؤلاء المتجمعون. هذا كله خيال حقيقة في رأسي. ما هي؟ ما هي؟

هذا التصايح المنكر. هذا الضرب بحجارة الثرد. هذه الزحمة التي انغمسنا فيها. هذا المكان الهائج من حولنا. هذا كله خيال حقيقة في رأسي. هي، هي، هي. فانزعج المجنون الآخر، ووقع في تهاويل خياله، ونظر إلينا تدور عيناه، وتوجّس شراً، ثم زاعَ بصره إلى الباب، واستوفز وجمع نفسه للقيام؛ فلما رأى صاحبه ما نزل به، قهقهة وأمعن في الضحك وقال: إنما خوفته الصبيان والضرب ليثبت لكم أنه مجنون. .

فحرد الآخر واغتاظ وجعل يتميم بيته وبين نفسه.

قال «النابغة»: ما كلام تطن به طنين الذبابة أيها الخبيث؟

(٥) س ع هو الصديق سعيد العريان.

(١) أي واسع العين أنجلها، وقد مرّ وصفه في المقالة الأولى.

قال: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: أَنْ مِنْ عِلَامَاتِ الْأَحْمَقِ أَنَّهُ إِذَا اسْتَنْطِقَ تَجَلَّفَ، وَإِذَا بَكَى خَارَ، وَإِذَا ضَجَّكَ نَهَقَ. كَمَا فَعَلْتَ أَنْتَ السَّاعَةَ، تَقُولُ: هَاءَ، هُوَ، هِيَ...»

فَتَغَيَّرَ وَجْهُ «النَّابِغَةِ»، وَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً مُنْكَرَةً، وَهُمْ أَنْ يَقْتَحِمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَجْنُونُ، لِمَاذَا تُضْطَرُّنِي إِلَى أَنْ أَجِيبَكَ جَوَابَ مُجْنُونٍ... لَا نَجُوزُ أَنْ نَجُوزَ مَعِي!

فَاسْرِعْ أ. ش، وَأَمْسِكْ بِهِ؛ وَاعْتَرِضْ مِنْ دُونِهِ س. ع، وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ بَدَأْتَهُ وَالْبَادِيءُ أَظْلَمُ.

قال: ولكن - ويح - كيف قال هذا؟ كيف لم يقل إلا هذا؟ كيف لم يجذ إلا هذا يقول؟ أنابغة القرن العشرين أحق، وقد أوحده الله في القرن العشرين؟ لهَمَمْتُ - والله - أَنْ أَكْبِرَ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ؛ فَمَا يَقُولُ إِلَّا أَنِّي أَحْمَقُ الْقَرْنَ الْعَشْرِينَ...



قُلْتُ: إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ مِنْهُ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَفِيهِ خَمَقَةٌ، فِيهَا يَعِيشُ». وَالْحَيَاءُ نَفْسُهَا حِمَاةٌ مَنْظُمَةٌ تَنْظِيمًا عَاقِلًا؛ وَمَا يَقْبَلُ الْإِنْسَانُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ لَذَائِهَا إِلَّا هُوَ مُقْبِلٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ حِمَاقَاتِهِ، وَأَمْتَعُ اللَّذَّةِ مَا طَاشَ فِيهِ الْعَقْلُ وَخَرَجَ مِنْ قَانُونِهِ؛ وَلَوْ لَا هَذَا الْحَمَقُ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ لَمَا احْتَمَلُ طَبِيعَةُ الْحَيَاةِ، أَلَيْسَ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنْ أَكْثَرَكَ غَائِبٌ عَنِ الدُّنْيَا وَأَقْلَكَ حَاضِرٌ فِيهَا، وَأَنْ يَقْظَنَكَ الْحَقِيقَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْحُلْمِ وَمَا يُشْبِهُ الْحُلْمَ، كَأَنَّكَ خُلِقْتَ فِي كَوْكَبٍ وَهَبَطْتَ مِنْهُ إِلَى كَوْكَبِنَا هَذَا، فَمَا فِيكِ لِلْأَرْضِ وَلَا فِيهَا لَكَ إِلَّا الْقَلِيلُ يَلْتَمِمْ بَعْضُهُ بِبَعْضِهِ، وَأَكْثَرُكُمْ مُتَنَافِرٌ أَوْ مُتَنَاقِضٌ أَوْ مُتَرَاجِعٌ؟

قال: بلى.

قُلْتُ: فَهَذَا الْقَلِيلُ هُوَ الْحَمَقَةُ الَّتِي بِهَا تَعِيشُ، وَهُوَ أَرْضِيَّةُ الْأَرْضِ فِيكَ؛ أَمَا سَمَاوِيَّةُ السَّمَاءِ فَبَعِيدَةٌ لَا تَحْتَمِلُهَا طَبِيعَةُ الْأَرْضِ؛ وَلِهَذَا يَعِيشُ أَهْلُ الْحَقِيقَةِ عِيشَ الْمَجَانِينِ فِي رَأْيِ الْمَغْرُورِينَ الَّذِينَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الْغَائِيَّةُ، أَوْ الْمَخْدُوعِينَ الَّذِينَ خَدَعَتْهُمْ الظُّوَاهِرُ الْكَاذِبَةُ؛ فَكُلُّمَا أَتَوْا عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ السَّامِيَةِ انْتَهَى إِلَى الْحَقِيقَةِ مَعْكُوسًا أَوْ مُحَوَّلًا أَوْ مَعْدُولًا بِهِ؛ وَلَعَلَّ هَذَا أَصَحُّ تَفْسِيرٍ لِلْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه».

قال المجنون الآخر: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه.

فقال (النابعة): المصيبةُ فيكَ أنَّكَ أنتَ هو أنتَ؛ ألا فلتعلم أنَّكَ من بلهَاءِ
البيمارستان لا من بله الجنة... .

قلتُ: ثُمَّ إِنَّ الموتَ لا بدَّ آتٍ على الناس جميعاً، فيسلبُهُم كلُّ ما نالوه من
الدنيا، ويُلحِقُ مَنْ نال بِمَنْ لم يئل؛ فَمَنْ ذا الذي يُسرُّ بأنَّ ينال ما لا يبقى له، إلَّا
أَنْ يَكُونَ سرورُهُ من حماقَتِهِ؟ وَمَنْ ذا الذي يحزَنُ على أَنْ يفوتَهُ ما لا يبقى له، إلَّا
أَنْ يَكُونَ حُزنُهُ حماقةً أخرى؟ وأيُّ شيءٍ في الحُبِّ بعدَ أَنْ ينقضِيَ الحُبُّ إلَّا أَنَّهُ
كَانَ حماقةً ضَرَبَتْ في الحواسِّ كُلِّهَا مَلاتِ النفسَ؛ ثُمَّ مَلاتِ النفسَ حتَّى فَاضَتْ
على الزمانِ؛ ثُمَّ فَاضَتْ على الزمانِ حتَّى خَبَلَتْ العاشقُ تخبيلاً لذيذاً تصغرُ فيه
الأشياءُ وتكبرُ، ويجعلُ الواقعَ في النفسِ غيرَ الواقعِ في دنياها؟ يُشَبِّهُ كلُّ عاشقٍ
حبيبتَهُ بالقمرِ: فَهَبِ القَمَرَ سمعَ هذا وفَهَمَهُ وَعَنَاهُ أَنْ يُجِيبَ عنه، فَمَاذَا عساهُ يَقُولُ
إِلَّا أَنْ يُعَجِّبَ من هذا الحمقِ في هذا التشبيهِ؟

فهذا (النابعة) وسكنَ غضبُهُ وقال: صدقتُ، ولهذا أنا لا أشبِّهُ حبيبتِي بالقمرِ.

قلتُ: فَمَاذَا تُشَبِّهُهَا؟

قال: لا أقولُ لك حتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبِّهُ أَنْتَ حبيبتَكَ. قلتُ: وأنا كذلك لا
أشَبِّهُهَا بالقمرِ.

قال: فَمَاذَا تُشَبِّهُهَا؟ قلتُ: حتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبِّهُ أَنْتِ.. .

قال: هذا لا يُرَضَى منك وأنتَ أستاذُ (نابعة القرن العشرين)، ولكِ حبايبُ
كثيراتٌ عدَّةٌ كتبكِ، وقد أعجبتُنِي مِنْهُنَّ تلكَ التي في (أوراق الورد)، وأظنُّكَ
أحبَّيْتَهَا في شهرِ مايو من سنة... من سنة.. .

قال المجنونُ الآخرُ: من سنة ١٩٣٥؛ ها أنذا قد نبهْتُكَ.

قال: يا ويلك! إِنَّ (أوراق الورد) ظهرتْ من بضْعِ سنين، إنَّما أَنْتَ من بلهَاءِ
البيمارستان لا من بله أوراقِ الورد.. . ماذا كُنْتُ أقولُ؟

قال ا. ش: كُنْتُ تقول: هذا لا يُرَضَى منك ولكِ حبايبُ كثيرات.

قال: نعم، لأنَّكَ إِذَا شَبَّهْتَ واحدةً مِنْهُنَّ بالقمرِ، انتهى القَمَرُ وفرغَ التشبيهُ
فيظَلُّ الأخرى بلا قمر.. . ثُمَّ إِنَّ كَلِمَةَ القَمَرِ لا تُعْجِبُنِي، فلوئِها أدكُرُ مُغْبِرًا^(١)

(١) الدكنة: لون بين الحمرة والسواد.

يَضْرِبُ أحياناً إلى السواد . . . فإذا عَشِثْتُ رَنْجِيَّةً فَهَئِنَا محلُّ التشبيه بالقمر . . أما
البيضُ الرُّعَابِيُّ فتشبيهُهُنَّ بالقمرِ من فسادِ الذوق .

قال س . ع : ولِلألفاظِ ألوانٌ عندك؟

قال : لو كُنْتُ نابغةً لأبصرْتُ في داخلِكَ أخيلةً من الجنة ؛ ألم يقلُ أستاذنا
آتفاً عن (نابغة القرن العشرين) : إِنَّهُ هبَطَ من كوكبٍ إلى كوكبٍ ؟ ففي كوكبنا الأولِ
يكون لنا سَمْعٌ ملوَّنٌ ؛ وجسٌ ملوَّنٌ نسمعُ قرعَ الطبلِ أزرق ، ونفخُ البوقِ أحمر ،
ورنينَ النغمِ الحُلُوِّ أخضر^(١) ، والوجودُ كُلُّهُ صَوْرٌ ملوَّنٌ ، سواءً منه ما يَرى وما
يُحسُّ ، وما هو مُستَخْفٍ وما هو ظاهر .

ثُمَّ أوماً إلى المجنون الآخرِ وقال : واسمُ هذا الأبله كلفظِ الجبر : لا أسمعُه
إلا أسود . .

وسَكَتَ «النابغة» وسكننا ؛ فقال له س . ع . ما لك لا تتكلَّم ؟ قال : لأني أريدُ
السكوت . قال : فلماذا تُريدُ السكوت ؟ قال : لأني لا أريدُ أن أتكلَّم . .

وتحرَّك في نفسه الغيظُ من المجنون الآخر ، فرمى بعينه الفضاءَ ينظرُ اللاشيءَ
وقال : إذا أصبحَ كُلُّ النساءِ ذواتٍ لِحَى أصبحَ هذا عاقلاً . . فدقَّ الآخرُ برجليه
دقات معدودة ؛ فنارَ «النابغة» وقال : مَنْ هذا يشتمُّني ؟

قال : س . ع : لم يشتمك أحد ، هذا خَفَقَ رِجْلَ على الأرض .

قال : بلْ شتمَني هذا الخبيثُ ، وسَمِعَني لا يَكْذِبُني أبداً ، وأنا رجلٌ ظَنُّونٌ ،
أسيءُ الظنَّ بكلِّ أحد ، وعلامةُ الحازمِ «العاقلِ» سوءُ ظنُّهُ بالناس . فهنَّه كما قلتَ قد
خَفَقَ بنعله ، أو خَبَطَ برجليه ؛ فهو ما يعني من ذلك ، وأنا أسمعُ ما يعنيه . لقد طَفَحَ
الشعرُ على قلبي فلا بدَّ لي من هجائه ، ولا بدَّ لي أن أذَبَّحَهُ ولو بالكلام ، فإنِّي إذا
هَجَوْتُهُ رأيتُ دمه في كلماتي ، وأريدُ أن أجعله كالعَنَرِ التي كانت عندنا وذبحناها .

ثُمَّ انتزعَ قلم س . ع ، وقال : هذه هي السكين . ولكن أسألك يا أستاذي أن
تذبحه أنت بكلمتين وتصفَ له جنونه ، فقد عَزَبَ عني الشعرُ . . . إنَّ خَفَقَةَ رِجْلٍ

(١) هذا واقع وليس من الخيال ؛ فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء ملونة ؛
وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من المؤثرات
فهو يصبغها .

على الأرض تستطيعُ الأرابُ فزعاً؛ فينفِزْنَ إلى أجْهَارِهِنَّ ويتَهَارِزْنَ، وما كائنُ
أبيات الشعرِ في ذهني إلا أراب . .

أنتم لا تعرفون أن من كان خفيفاً ثيباً مثلي، كان دقيقَ الجِسِّ؛ ومن كان
قدماً غيباً مثل هذا، كان بليدَ الجِسِّ غليظاً كثيفاً؛ فإذا أنا استشعرتُ البردَ رأيتُني قد
سافرتُ إلى القطبِ الشمالي؛ أما هذا المجنونُ فهو إذا استشعرَ برداً سافرَ إلى
عبابه أو لحافه . . إذ هو لا يعرفُ جغرافياً، ولا يدري ما طَحَاها .

قلت: هذا منك أظرفُ من نادرة أبي الحارث . قال: وما نادرةُ أبي الحارث؟
وهل هو نابغة؟

قلت: جلسَ يتغذى مع الرشيد وعيسى بن جعفر، فأني بجوانٍ عليه ثلاثة
أرغفة، فأكل أبو الحارث رغيقةً قبلهما، والرشيدُ ملكٌ عظيمٌ: لا يأكلُ أكل
الجانح، وإنما هو التشعيثُ من هنا وهناك؛ فكان رغيقةً لا يزالُ باقياً؛ فصاح أبو
الحارث فجأةً: يا غلام، قُرسِي . ففزعَ الرشيدُ وقال: ويلك ما لك؟ قال: أريدُ أن
أركبَ إلى هذا الرغيف الذي بين يديك . .

قال (النابغة): ولكنَّ فرقاً بين أبي الحارث وبين (نابغة القرن العشرين)، فإنَّ
من المعجائبِ أتني ربما نظرتُ إلى الرجلِ وهو يأكلُ فأجدُ الشَّبْعَ، حتى كأنه يأكلُ
بيطني لا ببطنه، ولكن من المعجائبِ أن هذا لا يتفقُ لي أبداً حينَ أكونُ جائعاً . . .

أما هذا المجنونُ الذي أمامنا، فرئنا أبصرَ الجِمارَ على ظهرِهِ الجِملُ، فيشعرُ
كأنَّ الجِملَ على ظهرِهِ هو لا على ظهرِهِ الحمار .

قال الآخر: «مِمَّا حفظناه»: أنه سُرِقَ لأعرابي جِمار، فقيل له أَسْرِقَ حمارُكَ؟
قال: نعم، وأحمدُ الله . فقيل له: على ماذا تحمده؟ قال: على أنني لم أكنْ عليه
حينَ سُرِق . . فإنا إذا رأيتُ جِماراً مثقلاً الظهرِ، حمدتُ الله على أنَّ الجِملَ لم يكنْ
عليّ، لا كما يقولُ هذا . ثُمَّ دقَّ برجلِهِ دقات . .

فاستشاطَ (النابغة) وقال: أسمعُكم كيف يقولُ إنني مجنون، ثُمَّ لا يكتفي بهذا
بل يقولُ إنني جِمارٌ على ظهرِهِ الجِملُ؟

قلت: ينبغي أن تتكافأ، وهذا لا يعيبُك منه ولا يعيبُك منك، فإنَّ من تواضع
«النوابغ» أن يشعروا ببؤسِ الحيوان، فإذا شعروا ببؤسِهِ دخلتْهُمُ الرقةُ له، فإذا
دخلتْهُمُ الرقةُ صارَ خيالُ الجِملِ جِملًا على قلوبِهِم الرقيقة؛ وقد يصنعون أكثرَ من
ذلك: حكى الجاحظُ عن ثُمالة قال: كان (نابغة) يأتي ساقيةً لنا سَحَرًا؛ فلا يزالُ

يمشي مع دابَّته ذاهباً وراجعاً في شِدَّة الحرِّ أيامَ الحرِّ، وفي البردِ أيامَ البردِ، فإذا أمسى تروضاً وقال: اللهم اجعل لنا من هذا الهمِّ قَرْجاً ومَخْرَجاً. فكان كذلك إلى أن مات!

قال المجنونُ الآخر: «مِمَّا حفظناه»: ثمرةُ الدنيا السرورُ، ولا سرورَ لِلْعقلاء، فلو لم يكن هذا أعقلُ العقلاء لَمَا مُجِّقُ سرورهُ في الدنيا هذا المخقُّ إلى أن مات غمًّا، رحمه الله!

قال: س. ع: فاعفُ الآنَ عن صاحبِكَ ولا تذبْخهُ بالهجاء.

قال: لقد ذُكِّرْتَنِي من نسيانٍ، وهذا المجنونُ يرى نسياني من مرضٍ عقلي، وكان الوجهُ - لو تَهْدَى إلى الحقيقة - أن يراهُ شذوذاً في العقل، أي نبوغاً عظيماً كنبوغ ذلك الفيلسوف الذي أرادَ أن يَتَّبِعَتْ في كم من الزمن تَسْلُقُ البيضة؛ فأخذَ بيده الساعةَ ويده الأخرى بيضة، ثُمَّ نسيَ نسيانَ النبوغ، فألقى الساعةَ في الماءِ على النار، وثَبَّتَ عينُهُ على البيضة ينظرُ فيها على أنها هي الساعة. ولو قد رآه هذا الأبله لزعَمَهُ مجنوناً كما يزعمُني، فإنَّ المجانينَ يَزَوُّونَ العُقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التي يعملونها.

وأنا فليس تُهَيِّجَنِي شيءٌ ما تُهَيِّجَنِي كلماتُ ثلاث: أن يُقالَ لي مجنون، أو أبله، أو أحمق. فَمَنْ رَغِبَ في صُخْبَتِي فَلْيَتَجَنَّبْ هذه الثلاث كما يتجنَّبُ الكُفْرَ والكُفْرَ والكُفْرَ...

قال ا. ش: فإذا قيل لك مثلاً. مثلاً. أي على التمثيل: مغفل.

فحك رأسه قليلاً وقال: لا، هذه ليست من قدرِي^(١)...

قلت: فبعضُ الكلمات إذا قُطِعَتْ عندك غيْرَتِ الحقائق، كذلك القرن الذي قُطِعَ قَرْدُ البقرة فرساً؟

قال: وكيف كان ذلك؟

قلت: زعموا أن أعرابياً خرجَ إخوته يشترونَ خيلاً، فخرجَ معهم فجاءَ بعجلٍ يقوده؛ فقبل له: ما هذا؟ قال: فرسٌ اشتريته. قالوا: يا مائقُ هذه بقرة، أما ترى قرنيها؟

(١) نص عبارته: «دي مش أدى»...

فرجع إلى منزله فقطع قرنيها، ثُمَّ قَادَهَا إِلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: قَدْ أَعَدْتُهَا فِرْسًا كَمَا تُرِيدُونَ..

قال (النابعة): هذا غيرُ بعيد، فقد رأيتُنا حينَ ذبحنا العنزَ وكسرنا قرنيها أعدناها كلبَةً سوداء، فتقدَّزْتُها وعَفْتُ لحمَها ولم أطمعُ منها.

ثُمَّ أَوْماً إِلَى الْآخِرِ وَقَالَ: هَذَا لَا يَدْرِي مَا طَحَّاهَا، وَهُوَ مِثْلُ الْعَنْزِ: تَحَسَّبُ قَرْنِيهَا لِلْقِتَالِ وَالنُّطَاحِ وَمِنْهَا تُمَسِّكُ لِلذَّبْحِ؛ فَقُلْ فِي هَذَا يَا أَسْتَاذَ (نابعة القرن العشرين).

قُلْتُ لِلْآخِرِ: أُبْرِضِيكَ أَنْ أَقُولَ فِي الْمَعْنَى لَا فِيكَ أَنْتِ...؟ قَالَ: نَعَمْ. فَكَتَبْتُ هَذِهِ الْأَيَّاتِ عَلَى مَا يُرِيدُ النَّابِغَةُ:

قُلْ لِعَنْزٍ نَاطِحَا	لِقِتَالٍ سَلَحَا
مَالَهَا قَدْ طَرَحَا	فِي يَدَيْنِ ذَبَحَا؟

شِيْمَةٌ مِثْلِي نَحَا	عَقْلٌ غِرٌّ قَلَحَا
لَيْسَ يَدْرِي مَا طَحَّاهَا	بَلْ يَرَى شَمْسَ ضَحَا
حَجَرًا مِثْلَ رَحَا	وَيَرَى اللَّيْلَ مَحَا
ظَلَمَ أَطَالَتْ لِحَا	

وَسُرَّ (النابعة) وازدهى، وجعل يقول: طَالَتْ لِحَاها، طَالَتْ لِحَاها. وما كان هذا إِلَّا السُّرُورُ الْأَصْغَرُ؛ أَمَّا سُرُورُهُ الْأَكْبَرُ فَمَجِيءٌ سَاعِي (البريد المستعجل) إِلَى التَّدْيِ، وَفِي يَدِهِ رِسَالَةٌ عَنَّا: نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ فُلَان، بَنَدِيْ كَذَا.

وجعل الرجلُ يهتَفُ بِالعنوانِ يَسْأَلُ عَنْ صَاحِبِهِ؛ فَتَطَاوَلَتْ أَعْنَاقُ النَّاسِ، وَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى (نابعة القرن العشرين) وَقَدْ مَدَّ يَدَهُ يَتَنَاوَلُ الرِّسَالَةَ وَكَأَنَّهُ مَلِكٌ مِنَ الْقَدَمَاءِ اسْقَطَ لَهُ كِتَابٌ بِالْفَتْحِ الْعَظِيمِ وَبِضَمِّ دَوْلَةٍ إِلَى دَوْلَتِهِ.

ثُمَّ تَرَكَ الرِّسَالَةَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ يَقْلُبُهَا وَلَا يَقْضُهَا وَنَحْنُ فِي دَهْشَةٍ مِنْ أَمْرِهِ؛ فَنَظَرَ فِيهَا الْمَجْنُونُ وَقَالَ لَهُ: هَذَا عَجِيبٌ يَا أَخِي، كَيْفَ هَذَا؟ إِنَّ هَذَا لَا يُصَدَّقُ؛ إِنَّكَ لَمْ تَلْقَها فِي صَنْدُوقِ الْبَرِيدِ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ..

المجنون

(٤)

وضاق «نابغة القرن العشرين» بِحُكمِ المجنون الآخر؛ ورآه داهيةً ذَوَاهٍ، كُلَّمَا تَعَاوَلَ أَوْ تَحَادَّقَ لَمْ يَأْتِ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يَكْشِفَ عَنْ جُنُونِهِ هُوَ: فَلَا يَبْرَحُ يُجْرَعُهُ الْغَيْظُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَلَا يَزَالُ كَائِدُهُ يَسْبُهُ فِي عَقْلِهِ؛ فَأَرَادَ أَنْ يَحْتَالُ لِصَرْفِهِ عَنِ الْمَجْلِسِ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الرِّسَالَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا (الْبَرِيدُ الْمُسْتَعَجِلُ) وَقَالَ لَهُ: خُذْ هَذِهِ فَادْهَبْ فَالْقِيْهَا فِي دَارِ الْبَرِيدِ، فَسَيَجِيءُ بِهَا السَّاعِي مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ تَذْهَبُ الثَّانِيَةَ فَتُلْقِيْهَا، وَيَعُودُ فَيَجِيءُ بِهَا، وَتَكُونُ أَنْتِ تَذْهَبُ وَيَكُونُ هُوَ يَجِيءُ، فَتَضْحَكُ مِنْهُ وَيَضْحَكُونَ.

قال س. ع: ولكن كم يذهب هذا وكم يجيء ذاك؟

فغمره (النابغة) بعينه أن اسكت؛ فتعافل س. ع، وقال: كم تُريدُ أن يجيء الساعي ليهتف بنابغة القرن العشرين؟

قال المجنون الآخر: هذا هو الرأي، فلست قائماً حتى أعرف كم مرة أذهب؛ فإن الساعي لا يجيء إلا راكباً، وأنا لا أذهب إلا راجلاً، وإن لي رجلي إنسان لا رجلي دابة..

قال (النابغة): سبحان الله؟ بقليل من الجنون يخرج من الإنسان مجنوناً كاملاً مُستَلْبُ الْعَقْلِ. بَيِّدَ أَنَّهُ لَا يَأْتِي النَّابِغَةُ إِلَّا مِنْ كَثِيرٍ وَكَثِيرٍ، وَمِنْ النَّبُوغِ كُلِّهِ بِجَمِيعِ وَسَائِلِهِ وَأَسْبَابِهِ عَلَى تَعَدُّدِهَا وَتَفَرُّقِهَا وَصُعُوبَةِ اجْتِمَاعِهَا لِلْإِنْسَانِ وَاحِدٍ (كتابغة القرن العشرين)، فَهُوَ الَّذِي تَوَافَتْ إِلَيْهِ كُلُّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَتَوَازَنَتْ فِيهِ كُلُّ تِلْكَ الْخِلَالِ. إِنَّهُ لَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْعِلْمِ وَلَا فِي التَّعْلِيمِ؛ وَلَكِنَّمَا الشَّأْنُ فِي الْمَوْهَبَةِ الَّتِي تُبْدِعُ الْإِبْتِكَارَ، كَمَوْهَبَةِ (نابغة القرن العشرين)، فِيهَا تَجِيءُ أَعْمَالُهُ مَنْسُجَةً دَالَّةً بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا؛ وَمُمَيِّزَةٌ مَعَ كَوْنِهَا مَنْسُجَةً دَالَّةً بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا؛ وَمُتَلَائِمَةٌ مَعَ كَوْنِهَا مُمَيِّزَةٌ دَالَّةً بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا...

هذا س. ع، كان الأول بين خريجي مدرسة دار العلوم، مدرسة الأدب

والعربية، والمنطقي والتحدّثي، وبلاغة اللسان وصِحّة النظر؛ وهو يعرف أنّ الكتاب يُلقى في البريد وعليه طابع واحد، فيصلُ إلى غايته بهذا الطابع، ثم يرى بعيني رأيه أربعة طوايع على هذه الرسالة المُعْتَوّنة باسم (تابغة القرن العشرين)، فلا يدرك بعقله أنّ معنى ذلك أنّ من حقّ هذه الرسالة أن تصل إليّ أنا أربع مرات..

فطرب المجنون الآخر، واهتزّ في مجلسه، وصفّق بيديه، وقال: «مِمّا حفظناه» هذا الحديث: «يُحَاسِبُ الله الناسَ على قدرِ عقولهم». فلا تؤاخذ س. ع، فإنّ مدرسة دار العلوم تعلّمهم: «فيها قولان»، وفيها ثلاثة أقوال، وفيها أربعة أوجه، ولكنّها لا تعلّمهم فيها أربعة طوايع..

ثمّ التفت إلى س. ع، وقال له: لا عليك، فأنا صاحبه وخليطه، وحامل عِلْمِهِ وراوية أدبه، وأكبر دُعَايِهِ وَثِقَاتِهِ، وما علّمتُ هذه الحكمة منه إلّا في هذه الساعة.

قال ا. ش: فإذا كان هذا، فإنّ لقائل أن يقول: لماذا لم يضع على كتابه عشرةً من الطوايع، فيجبي به الساعي عشرَ مرات.

قال (التابغة): وهذا أيضاً...؟

«وما شرّ الثلاثة أمّ عمرو بصاحبك الذي لا تصحّبين»؛ إنّ الشمعة في يد العاقل تكونُ لِلضوء فقط، ولكنّها في يد المجنون لِلضوءِ وَلِإِحراقِ أصابعه. كم الساعة الآن؟

قلنا: هي التاسعة.

قال: ومتى ينصرف أهل هذا الندي؟

قلنا: لتمام الثانية عشرة.

قال: فإذا كان الساعي يتردّد في كلّ ساعة مرة، فهي أربع مرات إلى أن ينفضّ المجتمعون هنا، وبين ذلك ما يكون قد ذهب قومٌ عرفوا (تابغة القرن العشرين)، وجاء قومٌ غيرهم فيعرفونه. وأمّا بعد ذلك فلا يجدُ الساعي هنا أحداً؛ فلا تكونُ فائدة من مجيئه.

فصفّق المجنون الآخر وقال: هذا وأبيك هو التّهدي إلى وجه الرأي وسداده، وهذا هو الكلام الرصين الذي يقوم على أصول الحساب والجغرافيا.. «ومِمّا حفظناه» هذا الحديث: «لا مال أعوذ من العقل». فأربعة طوايع، لأربع مرات، في أربع ساعات؛ وما عدا هذا فإسراف وتبذير؛ ولا مال أعوذ من العقل..



ورضي (النابعة) عن صاحبه وقال له : لئن كاثت فيك صَغْفَةٌ إِنَّ فيكَ لَبَقِيَّةٌ تعقِلُ بها . . . ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ الرِّسَالَةَ ودَسَّهَا فِي ثَوْبِهِ . قلنا : ولكنْ أَلَا تَفَضُّهَا لِنَعْرِفَ مَا فِيهَا؟

فضحك وقال : أَتَيْنَ جَارِيَتُكُمْ فِي بَابِ الْمُطَايَبَةِ والنَّادِرَةِ ، وَجَارَيْتُ هَذَا الْأَبْلَةَ فِي بَابِ جُنُونِهِ وَحُمَقِهِ - تحسبون أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّ الرِّسَالَةَ فَارِغَةٌ إِلَّا مِنْ عُنَاوِينَهَا ، وَأَنَّ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ هُوَ أَرْسَلَهَا إِلَى نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ ، كَمَا قَالَ سَعْدُ بَاشَا : (جورج الخامس يُفَاوِضُ جُورْجَ الْخَامِسِ) . . . ؟ لِحَقٍّ - وَالله - أَنَّ الْعَقْلَ الْكَبِيرَ الَّذِي يَأْبَى الصِّغَاثِرَ ، هُوَ الَّذِي تَأْتِي مِنْهُ الصِّغَاثِرُ أحياناً لِثَبَّتِ أَنَّهُ عَقْلٌ كَبِيرٌ ، وَهَكَذَا تَسَخَّرُ الْحَقِيقَةُ مِنْ كِبَارِ الْعُقُولِ (كتابغة القرن العشرين) . .

فغَضِبَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَهُمْ أَنَّ يَتَكَلَّمُ : فقال له (النابعة) : أَنْتِ كَاذِبٌ فِيمَا سَتَقُولُهُ .

قلنا : وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئاً بَعْدُ ، فَكَمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَاذِباً يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَادِقاً .

قال : وَسَيُخْطِئُ فِي رَأْيِهِ الَّذِي يُبْدِيهِ . .

قلنا : وَلَمْ يُبْدِ شَيْئاً مِنْ رَأْيِهِ . .

قال : وَلَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي سَيَتَكَلَّمُ عَنْهَا .

قلنا : وَيَحْكُ ، أَدَخَلْتَ فِي عَقْلِ الرَّجُلِ أَمْ تَعْلَمُ الْغَيْبَ؟

قال : لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ ، وَلَكِنَّهُ قِيَاسٌ مَنْطِقِيٌّ يَتَوَهَّمُ اطِّرَادَهُ . إِنَّهُ سَيَقُولُ : إِنِّي

مَجْنُونٌ . .

فأَخْرَجَ الْآخَرَ لِسَانِهِ . . قال : (النابعة) : تَبَا لَكَ ، لَقَدْ رَأَيْتُ الْكَلِمَةَ فِي لِسَانِكَ كَأَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ بِحُرُوفِ الْمَطْبَعَةِ . وَيَحْكُ يَا مَرْزُوعَان^(١) ، أَلَا تَعْرِفُ أَنَّ لَكَ دِمَاعاً مَخْرُوقاً تَسْقُطُ مِنْهُ أَفْكَارُكَ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهَا ، وَلَوْلَا أَنَّهُ مَخْرُوقٌ لَحَفَظْتَ الْمَتْنَ ! إِنَّ كُلَّ تَخْطِئَةٍ لِي مِنْكَ هِيَ اعْتِرَافٌ لِي مِنْكَ بِصَوَابٍ .

فَنَظَرَ الْآخَرُ إِلَيْهِ نَظْرَةً كَانَ تَفْسِيرُهَا فِي حَوَاجِبِهِ ، إِذْ مَطَّ حَوَاجِبُهُ^(٢) وَرَقَصَهَا .

فَقَالَ (النابعة) : وَنَظَرَاتُهُ خَبِيثَةٌ مِلْحَةٌ الطَّعْمِ ، مَرْزُوقَةٌ كَمَاءِ الْبَحْرِ الْمُرِّ أَخَذَ مِنَ الْبَحْرِ وَأَضِيفَ إِلَى مِلْحَةِ الطَّبِيعِيِّ مِلْحٌ ، أَكَاذُ أَنْهَوُعٌ مِنْ هَذِهِ النِّظَرَةِ فَأَقْبَهُ .

الآنَ فَهَمْتُ مَعْنَى قَوْلِهِمْ : «مِلْحَةٌ فِي عَيْنِ الْحَسُودِ» . فَإِنَّ الْمِلْحَ لَا يَغْلِبُهُ إِلَّا الْمِلْحُ ، كَالْحَدِيدِ بِالْحَدِيدِ يُغْلَحُ . هَاتُوا كَأْساً مِنْ مُعْتَقَةِ الْخَمْرِ ، ثُمَّ لِنَنْظُرْ فِيهَا

(١) المرقعان والرمق : الأحق الذي يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له .

(٢) هما حاجبان . ولكن هذا الأسلوب هو الأنصح هنا ، وهو كثير في العربية .

الخبِيثُ هذه النظرة، فَإِنَّ الخمرَ لا بَدْ مُستَحِيلَةٌ «شربة ملح إنجليزي»... هذا الأبلَةُ نَقِيلُ الدَم كَانَ دَمَهُ مَأخُودٌ مِنْ مُسْتَنْقَع... أَهَذَا الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لِنَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا: هُوَ لِي، إِلَّا الْفَقْرَ وَالْجُنُونَ وَالْخُرَافَةَ - يُكَذِّبُ مَا فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْبَرِيدُ الْمُسْتَعْجَلُ، وَلَا يُصَدِّقُ أَنَّهَا مَرْسَلَةٌ إِلَى نَابِغَةِ الْقُرُونِ الْعَشْرِينَ مِنْ صَاحِبِ السَّمَاءِ الْأَمِيرِ؟

هَذَا الدَّاهِبُ الْعَقْلُ هُوَ كَالْجَبَانِ الْمُنْقَطِعِ فِي وَخْشَةِ الْفَقْرِ، فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ: إِذَا تَوَجَّسَ حَرَكَةً ضَعِيفَةً انْقَلَبَتْ فِي وَجْهِهِ قِصَّةٌ جَرِيمَةٌ مَأْوَها الرُّعْبُ وَفِيهَا الْقَتْلُ وَالذَّبْحُ؛ وَلِهَذَا يَخْشَى مَا فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ صَدِيقِي صَاحِبِ السَّمَاءِ. هَاؤُمُ اقْرَؤُوا الرِّسَالَةَ.

وَفَضَضْنَا الْغِلَافَ، فَإِذَا وَرَقَتَانِ مَهْوُورَتَانِ بِتَوْقِيعِ أَمِيرٍ مَعْرُوفٍ، إِحْدَاهُمَا صَلَتْ بِالْفِ جَنِيهِ تُدْفَعُ (لِنَابِغَةِ الْقُرُونِ الْعَشْرِينَ)، وَالثَّانِيَةُ أَمْرٌ بِالْقَبْضِ عَلَى الْمَجْنُونِ الْآخَرِ... وَإِرسَالِهِ إِلَى الْمَارِسْتَانِ...

وَذَهَبْتُ أَضْلِحُ بَيْنَهُمَا صُلْحًا فَقُلْتُ: إِنَّ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: هَذَا مَجْنُونٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا مُصَابٌ؛ إِنَّمَا الْمَجْنُونُ الْمَقِيمُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ».

فَقَالَ صَاحِبُ الْمَتْنِ: «مِمَّا حَفِظْنَاهُ» إِنَّمَا الْمَجْنُونُ الْمَقِيمُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

قُلْتُ: وَلَيْسَ فَيْكُمَا مَقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ...

قَالَ الْمَجْنُونُ: «مِمَّا حَفِظْنَاهُ»: وَلَيْسَ فَيْكُمَا مَقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ...

قُلْتُ: هَذَا لَيْسَ مِنَ الْحَدِيثِ وَلَكِنَّهُ مِنْ كَلَامِي...

قَالَ (النَابِغَةُ): أَنْبَأْتُكُمْ أَنَّ هَذَا الْأَبْلَةَ يُفْضِلُ فِي دَارِهِ كَمَا يُفْضِلُ الْأَعْرَابِيُّ فِي الصَّحْرَاءِ؛ وَأَنَّ الْأُسْطُولَ الْإِنْجِلِيزِيَّ لَوْ اسْتَقَرَّ فِي سَاقِيَةٍ يَدُورُ فِيهَا نُورٌ، لَكَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى التَّصْدِيقِ مِنْ اسْتِقْرَارِ الْعَقْلِ فِي رَأْسِ هَذَا الْأَبْلَةِ؟...

فَاخْتَدَمَ الْآخَرُ وَهُمْ أَنْ يَقُولَ: «مِمَّا حَفِظْنَاهُ»، وَلَكِنِّي اسْكَنْتُهُ وَقُلْتُ (لِلنَابِغَةِ):

إِنَّكَ دَائِمًا فِي ذُرُوءِ الْعَالَمِ، فَلَا غَرَوَ أَنَّ تَرَى الْمَحِيطَ الْأَعْظَمَ سَاقِيَةً. «وَالنَّوَابِغُ» هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَوَابِغٌ، وَلَكِنَّهُمْ فِي رَأْيِ النَّاسِ مَرْضَى بِمَرْضِ الصُّعُودِ الْخَيَالِيِّ إِلَى ذُرُوءِ الْعَالَمِ. وَمِنْ هَذَا يَكُونُ الْمَجَانِينُ هُمْ الْمَرْضَى بِمَرْضِ التَّزَوُّلِ الْحَقِيقِيِّ إِلَى حَضِيضِ الْأَدْمِيَّةِ؛ فَهَنَّاكَ يَعْملُونَ فَتَكُونُ أَفْكَارُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، ثُمَّ تَكُونُ عَقُولُهُمْ مِنْ

أفكارهم، فيكون هذا هو الجنون في عقولهم، وذلك معنى الحديث: «إنما المجنون المقيم على معصية الله».

قال (النابعة): لعمري إن هذا هو الحق؛ فنبوغ العقل مَرَضٌ من أمراض السمو فيه؛ فالشاعر العظيم مجنون بالكون الذي يتخيله في فكره، والعاشق مجنون بكون آخر له عيان مكحولتان؛ والفيلسوف مجنون بالكون الذي يدب في معرفته؛ ونابعة القرن العشرين مجنون... لا. لا. قد نسينا أ. ش، فهو مجنون، وس. ع فهو مجنون.

وكل الناس مجنون بليلى وليلى لا تُقِرُّ لهم بذلك

ومن حق ليلى ألا تقر لهم، إذ هي لا تقر إلا لنابعة القرن العشرين وحده؛ وما أعجب سحر المرأة في الكون النفساني للرجال! أما في الكون الحقيقي فهي أنثى كإناث البهائم ليس غير. وأعقل الرجال من كان كالجمار أو الثور أو غيرهما من ذكور البهائم. فالجمار لا يعرف الجمار إلا أنها جمار، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة؛ ولا ينظمون شعراً، ولا يكتبون «أوراق الورد»... وإناث البهائم أمات^(١) لا غير، ولكن العجيب أن ذكورتها ليست آباء؛ فهذه الذكورة طفيلية في الدنيا، والطفيلي لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها، فيكون صاحب نوادر وأصاحيك وأكاذيب. ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضرورياً من الخداع والأكاذيب والأصاحيك والجيل والغفلة والبلاهة؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق، أما آخره فهو آخر الجيلة والأكذوبة، وهو قول الطفيلي: قد شبعث وقد زويت... ونحكم، أين أول الكلام؟

قلنا: أوله ما أعجب سحر المرأة في الكون النفساني للرجال!

قال: نعم هذا هو. إنه سحر لا أعجب منه في هذا الكون النفساني إلا سحر الذهب؛ فلو مُسِخَتْ المرأة الجميلة شيئاً من الأشياء لكأنت سبيكة ذهبية تلمع؛ ولهذا يوجد الذهب للصوص في الدنيا، وتوجد المرأة الجميلة لصوصاً آخرين، فيجب أن يُصان الذهب وأن تُصان المرأة.

قلت: ولكن أليس من المال فضة، وهي توجد للصوص كالذهب؟

قال: نعم، وفي النساء كذلك فضة، وفيهن الثحاس؛ ولو أنت ألقيت ريالاً

(١) يقال في غير العاقل: أمات، وفي العاقل: أمهات.

في الطريقِ لأحدثتُ معركةً يختصِمُ فيها رجلان، ثُمَّ لا يذهبُ بالريالِ إلَّا الأقوى، ولو تركتُ قرشاً لتضاربَ عليه طفلان، ثُمَّ لا يفوزُ به إلَّا مَنْ غَضَّ الآخر...

ولكنَّ (فورد) الغنيَّ الأمريكيَّ العظيمَ الذي يجمعُ يدهُ على أربعمئة مليون جنية، لا يتكلَّمُ عن القِرشِ؛ و(نابغة القرن العشرين) الذي يملكُ (ليلي)، لا يتكلَّمُ عن غيرها من قروشِ النساء...

قلتُ: فإنِّي أحسُّبك أعلمتني أنَّ اسمَها فاطمةُ لا ليلي.

قال: هل يستقيمُ الشعرُ إذا قلتُ: وكلُّ الناسِ مجنونٌ بفاطمة، وفاطمةُ لا تقرُّ لهم؟ قلتُ: لا.

قال: إذن فهي (ليلي) ليستقيمُ الشعر... أمَّا حين أقول: أفاطمةُ مهلاً بعض هذا التدلُّل، فهي فاطمة ليصحَّ الوزن.

قلتُ: يُشبهُ - والله - ألا يكونَ اسمُها ليلي ولا فاطمة؛ وإنما هي تسمى حسبَ الوزن والبحر، فاسمُها فَعُولٌ أو مُفَاعَلَتُن...



ثُمَّ قلنا له: فما رأيك في الحب، فإنه يُقال: إنَّكَ أعشَقْتَ الناسَ وأغزلَ الناس؟ قال: إنَّ ذلكَ ليقالُ (وهو الأصح)، ثُمَّ أطرقَ يفكِّر. وبدأ عليه أنه مدهوشٌ ذاهبُ العقل، كأنَّهُ من قلبه على مسافةٍ أبعدَ من المسافة التي بينهُ وبين عقله. وخيلَ إليَّ أنَّ النساءَ قد حُيِّرْنَ جميعاً في رأيه، ومرَّت كلُّ واحدةٍ تعرضُ مفاتيحَها وغزلها، وثلاثمُ هَذيانَهُ بهذيانٍ من جمالها، فهو يرى ويسمعُ ويغرضُ ويتخيَّر. ثُمَّ اضطربَ كالذي يُحاولُ أن يمسكَ بشيءٍ أفلتَ منه؛ فلم يَنْبُههُ إلَّا قولُ المجنون الآخر: «مِمَّا حفظناه» أنَّ أعرابيةً سنلتُ عن العشقِ فقالت: إنَّه داءٌ وجنون...

قال: اسكُتْ يا وملكُ لقد أطفأتِ الأنوارَ بكلمتِكَ المجنونة. كان في رأسي مرقصٌ عظيمٌ تسطعُ الأنوارُ فيه بين الأحمرِ والأخضرِ والأبيض؛ وترقصُ فيه الجميلاتُ من الطويلةِ والقصيرةِ والممشوقةِ والبائدة، فجنَّتْ بالداءِ والجنون - قَبَحَكَ الله - فأخرجتني عنهنَّ إليك. أحسبُ أنَّكِ لو انتحزَتِ لصلَّحَ العالمُ أو صلَّحتُ أنا على الأقل... فإذا أرذتُ أنَّ تشقِّي نفسك فانا آتيك بالحبلِ الذي كنتُ مقيداً فيه أي الحبلِ الذي عندي في الدار... على أنَّ رأسك الفارغُ مشنوقٌ فيك وأنت لا تدري.

قال الآخر: ما أنت مُنذُ اليومِ إلَّا في شتقي وتعذيبي أو في شتقي عقلي (على

الأصح). «ومما حفظناه» قول الأحنف بن قيس: إني لأجالس الأحمق ساعةً فاتين ذلك في «عقلي»...

فلم يرغنا إلا قيام المجنون مسلحاً بحذائه في يده... وهو جذاة عتيق غليظ يقتل بضربة واحدة؛ فحلنا بينهما وأبشناه في مكانه. وقلنا: هذا رجل قد غلب على عقله فلا يدري ما يقول؛ فإذا هو دل على أنه مجنون، أفلا تدل أنت على أنك عاقل؟ ما سألناك في انتحاره وجنونه، بل سألناك رأيك في الحب؛ وما نشك أنك قد أطلت التفكير ليكون الجواب دقيقاً، فإنك (نابغة القرن العشرين)، فانظر أن يكون الجواب كذلك.

قال: نعم إن العاقل إذا وزد عليه السؤال أطال الفكر في الجواب. فاكتب يا فلان (س. ع):

(جلس نابغة القرن العشرين مجلس الإملاء مُرتجلاً فقال^(١): قصة الحب هي قصة آدم، خلق الله المرأة من ضلعه. فأول علامات الحب أن يشعر الرجل بالآلم كأن المرأة التي أحبها كسرت له ضلعاً... وكل قديم في الحب هو قديم بمعنى غير معقول، وكل جديد فيه هو جديد بمعنى غير مفهوم؛ فغير المعقول وغير المفهوم هو الحب.

والجمرة الحمراء إذا قيل إنها انطفأت وبقيت جمرة فذلك أقرب إلى الصديق من بقاء الحب حياً بمعنى الأول إذا انطفأ أو برّد.

والعاشق مجنون. وجنونه مجنون أيضاً، فهو كالذي يرى الجمرة منطفئة، ويرى مع ذلك أنها لا تزال حمراء، ثم يمين في خياله فيراها وردة من الورد... وإذا سألته أن يصف الجمال الذي يهواه كان في ذلك أيضاً مجنون الجنون، كالذي يرى قمر السماء أنه قد تفتت وتناثر ووقع في الروضة، فكان يثاره هو الياسمين الأبيض الجميل الذكي...

والمجنون يرى الدنيا بجنونه والعاقل يراها بعقله؛ ولكن العاشق المخبول لا ينظر من يهواه إلا ببقيته من هذا وبقيته من ذلك، فلا يخلص مع حبيبه إلى جنون ولا عقل.

(والمجهول) إذا أراد أن يظهر في دماغ بشري لم يسغه إلا أحد رأسين: رأس المجنون ورأس العاشق...

(١) هذا نص عبارته حين يريد التخليط.

ولا صعوبة في الحكم على شيء بأنه خير أو شر إلا حين يكون الخير والشر امرأة معشوقة. أما أوصاف الشعراء والكُتَّاب للجمال والحُب فهي كلها تقليد قد توسعوا فيه؛ والأصل أن ثوراً أحب بقرة فكان يقول لها: يا نجمة القطب التي نزلت من السماء لتدور في الساقية كما دارت في الفلك.

قال (النابغة): هذا رأيي في حبّ العاشقين؛ أما حُبِّي أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعهُ قولُك: فلّ، ورد، زهر...

قلنا ما هذه الألغاز؟ وهل للحُب مثنٌ كقولهم: حروف القلقله يجمعها قولك (قطب جد)، وحروف الزيادة يجمعها قولك (سألتونيها)؟

فتضاحك (النابغة)، وقال: تكاثرت الأطباء على خراش، فلكيلا ننسى... إن كل حرف هو بدء اسم، الفاء فاطمة، واللام ليلي، والواو وردة، والراء رباب، والذال دلال، والزاي زكية، والهاء هند، والراء رباب...

قلنا: رباب قد مضت في (ورد).

قال: كنا تهاجرنا مدة ثم اصطللنا بعد هند...

قلت: هكذا «النوابع» فإن رجلاً أديباً كائن كُنيتُه (أبا العباس) فلما «نبغ» صيرها (أبا العير)^(١) وفتق له نبوغه أن يجعلها تاريخاً يعرف منها عمره. قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهي هكذا:

أبو العير طرد طيل طلييري بك بك بك...

(١) العير: الحمار وتكنى بعض الحمقى (أبو البقر) قياساً على (أبو العير).

المجنون

(٥)

ثم إن (نابعة القرن العشرين) استخفّت الطرب لذكر صواحيه وجماليته من فاطمة إلى رباب؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذب صدق نفسه، فإن قوة الضبط في عقله إما معدومة وإما مختلة؛ وكل وجه تخيل منه خيالاً فهو وجه من وجوه العلم عنده، إذ كان عالمه أكثره في داخله لا في العالم، فإذا توهم أو أحس أو شعر، فإمّا يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء؛ فليس يحتمل عقله إلا فكرة واحدة تمضي منفردة بنفسها مستقلة بمعناها كأنها قدّر غالب على جميع أفكاره الأخرى، فلا شأن لها بالواقع، ولا شأن للواقع بها، وإمّا هي تحقق معناها كما تحطّر له، لا كما تتمثل فيما حوله.

فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغه المتدجى بالغيوم العقلية، لا تزال تعرض له الغيمة بعد الغيمة من اختلال بعض المراكز العصبية فيه، وفساد أعمالها بهذا الاختلال، وقيام الطبيعة فيها على هذا الفساد.

ومن ذلك تنقلب الكلمة من الكلام، وإنها لحادثة تامة في عقل المجنون كالقصة الواقعة لها زمان ومكان، وبذة ونهاية، لا يخامر فيها الشك، ولا يغتر بها التكذيب؛ وكيف وهي قائمة في ذهنه من وراء سمعه وبصره قيام الحقيقة في الأبصار والأسماع؟

ولحواس المجنون جهتان في العمل، لأنّها بين كوّنين؛ أحدهما الكون الخرب الذي في دماغه؛ وفي هذا يقول (نابعة القرن العشرين): إن في داخل عينيه منظاراً يرى به الأشياء في غير حقائقها، أي في حقايقها..

وحديثنا الدكتور محمد الرافعي قال: إن في دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابعة كتابعة القرن العشرين، ذكرت أمامه قيصة روسيا وخبر مقتلها، فأحفظه هذا وأزمضه وقال يا ونحهم! كذبوا عليها وعليّ. فسأله الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كان من خبر القيصة أنها رأتني فأحبّني، وعلمت من كل وجه يمكن

أَنْ يُعْلَمَ مِنْ قَلْبِهَا أَنِّي أَنَا رَجُلُهَا لَا الْقَيْصِرُ؛ فَمَا زَالَتْ بَعْدَهَا تُنَاكِدُ الْقَيْصَرَ وَتَلْتَوِي عَلَيْهِ وَلَا تَصْلُحُ لَهُ فِي شَيْءٍ حَتَّى يَيْتَسَ مِنْهَا فِطْلُهَا، فَحَمَلَتْ كَنُوزَهَا وَجَلَّاهَا وَلَجَّاتٍ إِلَى حَبِيبِهَا، ثُمَّ تَبِعَتْهَا نَفْسُ الْقَيْصِرِ وَلَمْ يُطِيقِ الْعَيْشَ بَعْدَهَا فَانْتَحَرَّ . . . ثُمَّ طَلَبَهَا الشُّيُوعِيُّونَ لِمَا مَعَهَا مِنْ كَنُوزٍ، فَأَخْفَاهَا هُوَ فِي مَكَانٍ حَرِيصٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ؛ ثُمَّ إِنَّهُ هُوَ لَا يَصِلُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي أَحْرَزَهَا فِيهِ إِلَّا إِذَا نَامَ . . . كَيْلَا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنَ الشُّيُوعِيِّينَ فَيَتَعَبَّهُ فَيَعْلَمَ مَقَرَّهَا؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَنْسَى الْمَكَانَ إِذَا اسْتَيْقِظَ . . . فَقَدْ يَزِلُ مَرَّةً فَيُخْبِرُ بِهِ أَوْ يَغْلِبُهُ الشُّوقُ مَرَّةً عَلَى «عَقْلِهِ» . . . فَيَذْهَبُ إِلَيْهِ؛ فَعَسَى أَنْ يَرَاهُ مَنْ يَنْتُمُ بِذَلِكَ، فَتَقْتَضِخُ الْحَبِيبَةُ وَتُؤْخَذُ مِنْهُ.

قال: وَإِنَّ الْقَيْصِرَةَ هِيَ تَحْتَاطُ أَيْضاً مِثْلَ ذَلِكَ فَتُرَاسِلُهُ كُلَّ يَوْمٍ بِاللَّاسِلَكِيِّ رِسَائِلَ تَقَعُ مِنَ الْجَوِّ فِي دِمَاغِهِ فَيَقْرُؤُهَا وَحْدَهُ، وَإِنْ أَخَوْفَ مَا يَخَافُهُ أَنْ يَغْلِبَهَا جُنُونُ الْحُبِّ يَوْمًا فَتَطِيشُ طَيْشَ الْمَرْأَةِ، فَتَزُورُهُ فِي هَذَا الْمَارِسْتَانِ . . . فَقَدْ تَقْتُلُ إِذَا رَأَاهَا الشُّيُوعِيُّونَ.

قال الدكتور: وَهَآكَ (نَابِغَةُ) آخَرُ ثَبَتَ فِي ذَهْنِهِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ قَدْ اسْتَهَامَتْ بِهِ وَأَنَّهَا مُبْتَلَاةٌ فِي حُبِّهَا إِيَّاهُ بِجُنُونِ الْغَيْرَةِ، وَقَدْ ثَنَّاخَتْ فِيهِ حَتَّى أَنَّهَا لَتَقْتُلُ نَفْسَهَا إِذَا عَلِمَتْ أَنَّ لِصَاحِبِهَا هَوًى فِي امْرَأَةٍ أُخْرَى. وَخَبَّلَتْهُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ، فَاعْتَقَدَ أَنَّ حَبِيبَتَهُ مِنْ جُنُونِ غَيْرَتِهَا وَاقَعَتْ بَيْنَ السَّلَامَةِ وَالتَّلَفِّ؛ ثُمَّ تَوَهَّمَتْ ذَاتَ يَوْمٍ أَنْ وَاشِيَاءَ قَدْ أَعْلَمَهَا أَنَّ النِّسَاءَ افْتَتَحْنَ بِهِ؛ فَطَارَ صَوَابُهَا، فَهِيَ آتِيَةٌ إِلَيْهِ فِي الْمَارِسْتَانِ لِتَوْبِخَهُ وَتَشْفِي غَيْظَهَا مِنْهُ، ثُمَّ تَنْتَحِرُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ . . . وَأَدَارَ (النَابِغَةُ) الْفِكْرَ فِي إِقْنَاعِهَا لِتَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا بِالْغَيْبِ . . . فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى مَقْنَعٍ تَسْتَقِينُ بِهِ الْمَرْأَةُ أَنْ لَا أَرَبَ لِلنِّسَاءِ فِيهِ إِلَّا أَنْ . . . ففعل وَجَبَ خِصْمَتِيهِ بِيَدِهِ لِيَقْدَمَهُمَا بُرْهَانًا أَنَّهُ لَهَا وَحْدَهَا . . .

قلنا: وَطَرِبَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) لِذِكْرِ صَوَاحِبِهِ وَجَمِيلَاتِهِ، فَجَعَلَ يَتَرَنَّمُ بِهَذَا الشَّعْرِ:

قَالُوا جُنَيْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ

فَقَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: مَا لَذَّةُ «الْخَبْرِ» إِلَّا لِلْمَجَانِينِ . . .

فَضَحَكَ (النَابِغَةُ): وَقَالَ: مَا أَسْحَقَكَ مِنْ أَحْمَقٍ. إِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى فَقُلْ: مَا لَذَّةُ (الْكَعَكِ). أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّ هَذَا الْأَبْلَةَ لَوْ تَهَجَّأَ كَلِمَةً خَبِرَ قَالَ إِنَّهَا ل. ح. م. وَلَوْ تَهَجَّأَ كَلِمَةً لَحِمٍ لَقَالَ ف. و. ل. . .

إِنَّهُ طِفْلٌ عُمُرُهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً وَفِيهِ دَائِمًا غَضَبُ الطِّفْلِ وَنَزَقُهُ وَحِمَاقَتُهُ، وَفِيهِ كَذَلِكَ سُرُورُ الطِّفْلِ وَطِيشُهُ وَأَحْلَامُهُ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ عَقْلُ الطِّفْلِ. . . وَهُوَ مِنَ الضَّعْفِ، وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى الْعِنَايَةِ فِي حَيَاتِيهِ وَسِيَاسَتِهِ وَالْبَرِّ بِهِ كَطِفْلِ صَغِيرٍ - بِحَيْثُ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أحياناً أَنِّي أُمُّهُ. .

قلنا: وتُشَى في هذه الحالة أنك رجل؟

قال: وأنتم كذلك تتهموني بالسيان، وهو شرعاً جهةٌ مُلزِمةٌ لِلْحَكَمِ بِالْجُنُونِ فما النسيانُ إِلَّا الكلمةُ الأخرى لِمَعْنَى ضَعْفِ الْعَقْلِ؛ وَضَعْفُ الْعَقْلِ هُوَ اللَّفْظُ الْآخَرُ لِمَعْنَى جُنُونِي؛ وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ مَا أَكْرَهُ مِنَ الْكَلَامِ.

قلتُ: لا، النسيانُ لا يكون منك نسياناً بمعناه في المجانين، بل بمعناه فيك أنت من تَوَائِبِ الْأَفْكَارِ النَابِغَةِ وَتَزَاحُجِهَا فِي تَوَارِدِهَا عَلَى الْعَقْلِ. فإذا تَوَائِبَتْ وَتَزَاحَجَتْ كَانَ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ يُنْسِيَ بَعْضُهَا بَعْضاً، فَلَا يَنْطَلِقُ مِنْهَا إِلَّا الْقَوِيُّ النَّابِغُ حَقٌّ نَبُوغِهِ، فَيَجِيءُ كَالْمَنْقَطِعِ مِمَّا قَبْلَهُ؛ فَيُخَسَّبُ ذَلِكَ نَسِياناً وَمَا هُوَ بِهِ. وَقَدْ تَصْطَلِحُ الْأَفْكَارُ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الذَّهْنِيَّةِ إِذَا كَانَ النَابِغَةُ مَسْرُوراً مَجْبوراً يَرْقُصُ طَرَباً. . . فَيَكُونُ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ تَجِيءَ كُلُّهَا مَعاً عَلَى اخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَنَاقُضِهَا؛ فَيُخَسَّبُ ذَلِكَ ضَرْباً مِنَ الذَّهْوِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُ الْعِلَّةَ «النَّبُوغِيَّةَ»؛ وَعَذْرُهُ جَهْلُ هَذِهِ الْعِلَّةِ، وَهِيَ فِي دَلَالَةِ الْعَقْلِ لَيْسَتْ نَسِياناً وَلَا ذُهولاً.

قال: فأعْلمْني كيف نسيانُ المجانين، فَقَدْ خَفِيَ عَلَيَّ أَنْ أَدْرِكَ هَذَا الْأَمْرَ الْعَجِيبَ فِيهِمْ، وَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ يَفُوتُهُمْ مَا اسْتَدْنَى لَهُمْ مِنَ الْفِكْرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا قَدْ اسْتَقَرَّ وَخَصَلَ فِي عَقُولِهِمْ؟

قلتُ: لا يكون النسيانُ ثَمَةً بِالْجُنُونِ إِلَّا فِي أَحْوَالِ ثَلَاثٍ، جَاءَتْ بِكُلِّهَا الرِّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ الْمُحْفَظَةُ:

فأما الأولى: فما يُروى عن رجلٍ كان سَرِيّاً غَنِيّاً وَغَمُزَ حَتَّى أَدْرَكَهُ الْخَوْفُ؛ فَجَاءَهُ كَاتِبُهُ يَوْمًا يَسْتَعِينُهُ عَلَى تَجْهِيْزِ أُمِّهِ وَقَدْ مَاتَتْ، فَدَفَعَ إِلَى غُلَامٍ لَهُ دَنَانِيرَ يَشْتَرِي بِهَا كَفَنًا، وَدَنَانِيرَ أُخْرَى يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَى الْقَبْرِ، ثُمَّ قَالَ لِلْغُلَامِ آخَرَ؛ إِمِصْ إِلَى صَاحِبِنَا وَغَامِبِلْ مَوْتَانَا فَلَانَ فَادْعُهُ يَغْسِلُهَا. قال الكاتب: فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي إِيْعِثْ خَلْفَ فَلَانَةٍ وَهِيَ جَارَةٌ لَنَا تَغْسِلُهَا. قال: يَا فَلَانَ: مَا تَدْعُ عَقْلَكَ فِي حَزَنِ وَلَا فَرَحٍ. كَيْفَ نُدْخِلُ عَلَيْهَا مَنْ لَا نَعْرِفُهُ؟

قال الكاتب: نعم تَأْذُنْ بِذَلِكَ. قال: لا - والله - ما يَغْسِلُهَا إِلَّا فَلَانُ.

فضائق الكاتب بهذا الحمقى وقال: يا سيدي كيف يغسل رجل امرأة؟

قال: وإنما أملك امرأة؟ .. والله - لقد أنييت ..

وأما الحالة الثانية: فما يروى عن رجل كان نائماً في ليلة باردة فخرجت يده من الفراش فبردت، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحس بردها فأيقظته، فانتبه فزعاً فقبض عليها بيده الأخرى وصاح: اللصوص . اللصوص . هذا اللص قد قبضت عليه، أدركوني لئلا تكون في يده حديدية يضربني بها، فجاءوا بالسراج فوجدوه قابضاً بيده على يده وقد نسي أنها يده ...

وأما الثالثة: فهي رواية عن رجل قد ورث نصف دار، ففكر طويلاً كيف تخلص الدار كلها له ثم اهتدى إلى الوسيلة؛ فذهب إلى رجل وقال له: أريد أن أبيعك حصتي من الدار واشتري بثمانها النصف الباقي لتصير الدار كلها لي ...

قال (النابعة): لعنري إن هذا لهو الجنون، وما يُذكرُ مع هؤلاء مجانن المتن ولا «غيره» ...

فقال الآخر: تالله لولا أن (نابعة القرن العشرين) يرفع نفسه عن الجنون لجاء في الجنون بما يذهل «العقول» ...

ثم نظر فإذا النابعة يتحفر له ... فأسرع يقول: «مِمَّا حفظناه» كن حذراً كأنك غر، وكُن ذاكراً كأنك ناس. فهذا هو نسيان نابعة القرن العشرين، نسيان حكماء لا نسيان مجانين.

قال (النابعة): ولكن قد فسد قول الشاعر: ما لذُّ العيش إلا للمجانين؛ فما بقيت مع الجنون لذّة.

قلت: إن الشاعر لا يُريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض، وإنما يُريد العشاق المجانين بالجمال؛ وجنن العاشق في هذا الباب كعبوب العقماء من أهل الفن، وهي عيوب تُدافع عن نفسها بحسنات العظمة، فليست كغيرها من العيوب.

قال: فيجب أن أصنع بيتاً آخر يفسر ذلك الشعر ليستقيم لي التمثيل به، ثم فكرَ وهنهم، ثم كتب في ورقة ثم طواها وقال: إصنع أنت أول، وسأتمنّ س. ع. على شعري ودفع إليه الورقة:

فنظرْتُ وقلْتُ: يجب أن يكون الشعر هكذا:

قالوا: جُنِثَتْ بِمَنْ تهوى فقلْتُ لهم
العقلُ إنَّ حَكَمَ العُشَّاقِ أثقلُ من
ونشر س. ع. الورقة فإذا فيها:

قالوا: جنثت بمن تهوى فقلْتُ لهم
إنَّ العيوبَ عن المجنون دافعةً
بأنه «نابغ في القرن العشرين» . . .

وضحكنا جميعاً؛ فقال النابغة: أبعدك الله يا س. ع. إنَّ مَنْ اتَّخَذَ المجنونَ
على سرٍّ وقال له اكتفُ فكَأَنَّمَا قال له: انشُرْ . . .

ثُمَّ قال: وَدِدْتُ - والله - أَنْ يَكُونَ س. ع. هذا «نابغة»، ولكُنِّي ساجدُهُ
نابغة، فقد صارَ له عَلَيَّ حقٌّ الصديقِ وهو حقٌّ لا أَضِيعُهُ ولا أَجِلُ بِهِ. فإذا احتجَّتْ
يا س. ع. إلى خطابِ رنانٍ تُلْقِيهِ في حَفْلِ عَظِيمٍ، أو قَصِيدَةٍ تَمْدُحُ بِهَا وزيرَ
المعارف، فالجأ إليَّ فَأَنِّي مُلْجَأٌ لك. ومتى انتحلتَ شِعْرِي كُنْتُ عندَ الناسِ المتنبِّي
أو البحترِي. أو ابنُ الرومي، فإنَّ هؤلاءِ القُدَّامى لم يفغهم إلَّا أَنِّي لم أَكُنْ فيهم،
ولمَّا لم أَكُنْ فيهم أعجبوا الناسِ إذ أَنِّي لم أَكُنْ فيهم . . .

فلنا فما حُكِّمَك عليهم في الأدب؟

قال: إذا حُكِّمْتُ عليهم فقد جعلتُ نفسي بينهم، فمن الطبيعي ألا يُعْجِبَنِي
منهم أحد. إنَّ «نابغة القرن العشرين» لا يَقُولُ لِمَعْنَى هذا أحسنُ، فإنَّه هو فوقَ
الأحسن، ولا يَقُولُ عن نابغةٍ هذا أشهر، فإنَّه هو فوقَ الأشهر.

قلت: كَأَنَّ الدُّنْيَا تحتَ قدميكِ وَأَنْتَ فيها الزَّاهِدُ العَظِيمُ الَّذِي لا يَقُولُ في حُسْنِ
هذا أحسنُ لِأَنَّهُ فوقَ الشهوةِ، ولا في نعيمِ هذا أَطْيَبُ لِأَنَّهُ فوقَ الطمعِ، ولا في مالٍ
هذا أَكْثَرُ لِأَنَّهُ فوقَ الجِرْصِ. وأحسبك لو كُنْتُ تُرْعَى غِنَمًا لَكُنْتُ الحَقِيقُ في عَصْرِنَا
بقولِ تلكِ الرَّاعِيَةِ الزَّاهِدَةِ: أَصْلَحْتُ شَأْنِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَاصْلَحْ بَيْنَ الذَّنْبِ وَالْغِنَمِ.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: حُكِّيَ عن بعضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ فَكَّرَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ في نَفْسِهِ: يا رَبِّ. مَنْ
زَوْجَتِي في الْجَنَّةِ؟ فَأَرَيْتُ فِي مَنَامِهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ أَنَّهَا جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ فِي أَرْضٍ كَذَا. فَجَاءَ
تِلْكَ الْأَرْضَ فَسَأَلَ عَنِ الْجَارِيَةِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مَا هَذَا؟ تَسْأَلُ عَنِ جَارِيَةٍ سَوْدَاءَ مَجْنُونَةٍ
كَأَنَّتْ لِي فَاعْتَقْتُهَا؟ قَالَ وَمَاذَا رَأَيْتُمْ مِنْ جَنُونِهَا؟ قَالَ: كَأَنَّتْ تَصُومُ النَّهَارَ فَإِذَا أُعْطِيَتْهَا
فَطَوَّرَهَا تَصَدَّقَتْ بِهِ، وَكَأَنَّتْ لَا تَهْدَأُ اللَّيْلَ وَلَا تَنَامُ فَضَجَرْنَا مِنْهَا.

قال: فأين هي؟ قال ترعى غنماً للقوم في الصحراء:

فذهب إلى الصحراء فإذا هي قائمة في صلاتها، ونظر إلى الغنم فإذا ذئب يدلها على المرعى وذئب يسوقها. فلما فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها في الجنة وأنبأها أنه بشر بها؛ ثم سألها ما هذه الذئب مع الأغنام؟ قالت: نعم أصلحت شاني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم.

قال (النابعة): هذا كذب لأنه عجيب، وهو عجيب لأنه كذب.

قلت: وأني عجيب في هذا؟ إن الذئب والشاة والأسد والغزال، والشعبان والغصفور، وكل آكل ومأكول من الأحياء، لو هي دخلت في دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمت كلها صفًا واحداً يركع ويسجد. فهذه الجارية نشرت روح الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المعطمن بالإيمان فوق الذئب منها في دائرة مغناطيسية، فسلب وحشيته ورجع مسخراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجانس فيه الحياة بما حولها، وانسجم النوع والنوع في حركة متجاوبة انسجام الرجل المغناطيسي هو ومن ينوّمه في إرادة واحدة وفكرة واحدة.

قال (النابعة): فإذا دخل الذئب مسجداً يزنج بالمصلين، أترأه يصف أزبعته ويقف بينهم للصلاة، أم يصلي صلاته الذئبية في لحومهم؟

قلت: وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة، فيخرجون بها من النفس إلى الكون، ومن الزمن إلى الأبد، ومن الأسباب إلى مسببها، ويمّا في القلب إلى ما فوق القلب؟ إن هؤلاء جميعاً يصلون بجوارحهم وبينهم وبين أرواحهم طول الدنيا وعرضها؛ وما منهم إلا من يتصل فكره بما يغلب عليه، كما يتصل فكر اللص بيده، وفكر العاشق بعينه، وفكر الطفيل بمعدته. فاسمها عندهم الصلاة، وحقيقتها عند الله كما ترى.

قال (النابعة): ولكئذ ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يرعاها، فلا أفهم شيئاً.

وقال الآخر: «مما حفظناه» رجع الذئب في الغنم، ولم يقولوا صلى الذئب في الغنم، فلا أفهم شيئاً.

قلت: سأزيدكم عدّم فهم... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصل بالله، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظل من ظلال الدنيا؛ وقد تجلّى فيه سر الحياة، وهو السر الذي لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهي ولا يطمع

في شيء ولا يُحرز شيئاً، وإنما طبيعته أشواقه الكونية، واتصاله بِنَفَحَاتِ القُوَّةِ الأزلية المسخرة للوجود كله. فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها، وجاء الذنب فَالتَّجَّ فيها وغمرته الروحانية الغالبة، فإذا هو يفتح عينه على كونٍ غريبٍ قد تجلَّى السلام عليه، فليس فيه إلا قوةٌ امرأةٌ أمرها بالتلاف كل شيءٍ مع كل شيءٍ، واجتماع المتنافرين في حالةٍ معروفةٍ لا في حالة إنكار. فصار الذنب مستيقظاً، ولكئه في رُوحِ النوم، وشلت فيه الذبئية الطبيعية، فإذا هو يحمل الأنياب والأظافر وقد أنسى استعمالها؛ وبقيت حركته الحيوانية، ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها.

ومن كل ذلك اختفى الذنب الذي هو في الذنب، وبقي الحيوان حياً ككل الأحياء، فناسب الشاة وفزع إليها إذ لم تكن العلاقة بينهما علاقة جسم الآكل بجسم الأكلة، بل علاقة الروح الحي بروح حيٍ مثله^(١).



قال (النابعة): أما أنا فقد فهنت ولكن هذا المجنون لم يفهم. أكتب يا س. ع: جلس نابعة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعدادٍ ولا تمكّن، وبدون كتبٍ البتة... وكان هذا أجمع لِرأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوقّف على الإملاء بكل مواهب العقلية؛ ولما أن فكر النابعة أعطى النظر حقّه وجمع في عقله الفذّ جزالة الرأي إلى قوة التفنّن والابتكار، قال مرتجلاً: إن فلسفة الذنب والشاة حين لم

(١) روت الصحف في هذه الأيام قصة حاكم إنجليزي كان قد اقتنص ذئباً هنغارياً وشده في سلسلة وجعله في حديقة داره إلى أن يرى فيه رايّاً؛ وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذنب ومنظره الوحشي فتربص إلى الليل، فلما استنقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذنب فوثب هذا يتحفز لافتراسه؛ ولكن الطفل لم يدرك شيئاً من معنى هذه الوحشية، ولم يكن في نفسه إلا أن الذنب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك؛ ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيده الصغيرتين ويعبث به، والذنب مدهوش ذاهل، ثم سكن واستأنس إليه كأنه مع جرو من أجراءه لا مع طفل آدمي؛ وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجمه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام... وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده في فراشه، فنهت أهله وذهبوا يبحثون عنه في غرف الدار، ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائماً ورأسه على الذنب، وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكي على صديقه الوفي... هذا هو أثر الروح المطمئنة الماضية على يقينها، ولكن أين مثل هذا اليقين في مثل هذه الحالة؟ وكل مروضي الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم، وأن هذا هو وحده سلاح النفس في النفس.

يأكلها ولم تَنْطَلِخْ، هي بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين .

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة .

فامتعض الآخر وقال «مِمَّا حفظناه» :

وباث يقدح طول الليل فكَرَّرَتْهُ وفسر الماء بعد الجهد بالماء

فقال (النابغة) : ويلك يا أبله ! أما - والله - لو كنت نَقَطَوَيْهِ أو سَيَّوَيْهِ لَمَا كُنْتُ
عندي إِلَّا جَحَشَوَيْهِ أو بَقَلَوَيْهِ . . .

لقد كنت أرى الكلام في تلك الفلسفة طريقاً نزهاً جميلاً حَفَّتُهُ الأشجار
والأزهار عن جانبيه ، واندفعت في سَوَائِهِ (ثميلات) الأفكار خاطفة كالبرق . فلما
تكلّمت أنت انتهينا من سخافتك إلى طريق حجري تَقَعِّقُ فيه عربات النقل تجرّها
البغال البطينة .

فقال الآخر وهو يعتذر إليه : ما أردت والله مَسَاءَتَكَ ولو أردتها لقلت وفسر
الماء بعد الجهد بالسبرتو . . . فهذا هو الخطأ ، أما تفسير الماء بعد الجهد بالماء
فهو صحيح .

قال (النابغة) : ولكئنه تفسير مُفْرَطُ السقوط كتفسير المجانين ، فهو يقول إني
مجنون .

قلت : كلا ، إن تفسير المجانين يكون على غير هذا الوجه ، كالذي حكاه
الجاحظ قال : سمعت رجلاً يقول لآخر : ضربنا الساعة زنديقاً . قال الآخر : وأي
شيء الزنديق ؟ قال الذي يَقْطَعُ المزيقاً . قال : وكيف عَلِمْتَ أَنَّهُ يَقْطَعُ المزيقاً ؟
قال : رأيته يأكل التين بالخل . . .



المجنون

(٦)

تمة

وطال المجلسُ بنا وبالمجنونين، والكلامُ على أنحائه يندفعُ من وجهٍ إلى وجه، ويمرُّ في معنى إلى معنى؛ فأردتُ أنْ أبلغَ به إلى الغاية التي جمعتُ من أجْلِها بين هذين المجنونين، بعدَ ما انطلقنا في القولِ وانفتحَ القفلُ الموضوعُ على عقلِ كُلِّ منهما.

وكان قد مرَّ في الندى بانعُ روايات مترجمة «بوليسية» و«غرامية» ولصوصية! يحملُ الرجلُ منها مَزْبَلَةً أخلاقٍ أوروپيَّةً كاملةً لينفضَّها في نفوسِ الأحداث من فتياننا وفتياتنا، فقلتُ (لنابغة القرن العشرين): أقرأ الروايات؟ قال: لا، إلَّا مرةً واحدةً ثُمَّ لم أعادُ، إذ جعلتني الروايةُ روايةً مثلها.

قلنا: هذا أعجبُ ما مرَّ بنا منذُ اليوم، فكيف صيرتَ روايةً؟

قال: أنتم لا تعرفون طبيعةَ التوايح، إذ ليس لكم جسُّهُمُ المرففُ، ولا طبعُهُمُ المستحكِمُ، ولا خصائصُهُمُ الغيبية، ولا خواطرُهُمُ المتعلقةُ بما فوقَ الطبيعة.

قلت: نعم أعرفُ ذلك؛ وما من (نابغة) إلَّا وهو بين عالمين على طرفٍ ممَّا هنا وطرفٍ ممَّا هناك، فهو خِزَّاجٌ ولَّاجٌ بين العالمين؛ ولهُ نفسٌ مركَّبةٌ تركيبها على نواميس معروفةٍ وأخرى مجهولة؛ فهي تأخذُ من الظاهرِ والباطنِ معاً، ويحصُرُها المكانُ مرةً ويُفْلِتُها مرةً، وتكونُ أحياناً في زمان الأرض، وأحياناً في زمن الكواكبِ من القمرِ فصاعداً... ولكن...

فقطعَ عليّ وقال: أضفُ إلى ذلك أنْ هذه العقول التي تحصرُ مَنْ يسموئُهُمُ العقلاء في الزمان والمكان، لا تُوجدُ أهلها إلَّا الهمومُ والأحزانُ، والمطامعُ السافلة، والأفعال الدنيئة، فإنَّهم يعيشون فوقَ الترابِ.

قلت: نعم، وإذا عاشوا فوقَ الترابِ فباضطرارٍ أنْ تكونَ معاني الترابِ فوقَهُم

وتحتهم ومن حولهم وبين أيديهم، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً ترائياً في كل معانيه ولكن...

قال: وزد على ذلك أنهم مقيدون تقييد المجانين، غير أن جبالهم وسلاسلهم عقلية غير منظورة؛ وبثغليهم تغليل المجانين يسئون أنفسهم عقلاء، وأعقلهم أثقلهم قيوداً، وهذا من الغرابة كما ترى.

قلت: نعم، أما العقلاء بحقيقة العقل، فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخرون منهم، إذ كانوا في حال كحال المنطلي من المقيّد، وفي موضع كموضع المعاقى من المبلى ولكن...

قال: وفوق هذا وذاك، إنهم لا يملكون السعادة، إذ ليس لهم العقل الضاحك الساخر العابت الذي خص به النوابغ وكان الأوحّد فيه (نابغة القرن العشرين).

قلت: نعم، وإذا ملكوا السعادة لم يشعروا بها، أما (النوابغ) فقد لا يملكونها، ولكن لا يفوتهم الشعور بها أبداً فيحيثهم الفرح من أسبابه ومن غير أسبابه ما دام لهم العقل الضاحك الساخر العابت الذي دأبه أبداً أن ينسى ليضحك، ولا قانون له إلا إرادة صاحبه، على مشيئة صاحبه، لمنفعة صاحبه. ولكن...

قال: والذي هو أهم من كل ما سبق؛ أن أعظم خصائص هذا العقل الضاحك الساخر العابت أن يطرد عن صاحبه ما لا يحب ويحبّه أن يخسر شيئاً من نفسه؛ فهو لذلك يجعل حسابه مع الأشياء حساباً يهودياً لا بد فيه من ربح خمسين في المائة..

قلت: نعم، وهو دائماً كالطفل؛ وما أظرف بلاهة الطفل وما أجداها عليه، إذ يضع بلاهته دائماً في أرواح الأشياء وأسرارها فتخرج بلهاء مثله، وتنقلب له الدنيا كأنها أم تضاحك ابنها وتلاعبه ولكن...

قال: ولكن هذا مبلغ لا تبلغه الإنسانية إلا شذوذاً في أفرادها من جبابرة العقول (كتابغة القرن العشرين).

قلت: نعم (ولكن) كيف صار (نابغة القرن العشرين) رواية حين قرأ الرواية! قال: هذه نكتة النبوغ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغة مثلنا يتلقى في نفسه وحي الأثير وإشارات الروح الأعظم؛ لعلم من الغيب أن (نابغة القرن العشرين) سيقرا روايته، فكان يتحرى معاني غير معانيه ويتوخى بهذه القصة وضعا آخر لا تكون فيه حبيبة خائنة، ولا لص عارم، ولا قاتل سفاح، ولا سجن مظلم، ولا محكمة تقول حيث وحيث...

قلت: وما عليك من حبيبة خائنة في الورق، ولِصْرُ بين الحروف المطبعية وقَاتِلٍ لا يقتلُ إلا كلاماً، وسجنٍ ومحكمةٍ على الصحيفة لا على الأرض؟

قال: هذه نكتة النبوغ، فما استوعبتُ القصةَ حتى عمرتني أشخاصها، وأفجنتُ منها على هَوْلِ هائل، فخائنتني الخائنة لعنّها الله.. ولولا خوفُ السجن والمحكمة لقتلتُها أنشعَ قتلها، ومثلتُ بها أقبحَ تمثيل. ونِخَ الخائنة كيف استمالها ذلك الدميم الطويلُ العملاقُ المشبوحُ العظام المفتولُ العضلُ؟ ولكني لستُ عملاقاً ولا مَبْنِيّاً بناء الحائط، ثمّ كان مجنوناً بشهوّاته جنونُ الغيل الهائج، وكنتُ في شهواتي عاقلاً عقل الإنسان، ثمّ كان غنياً غنى الجُهل، وكنتُ فقيراً فقراً العلماء. والنساء؛ قبح الله النساء. إنهنّ زينة تطلبُ زينةً مثلها وإن المرأةَ لتمنحُ وجهها للقرْدِ يقبلُهُ إذا كان الذهبُ يتساقطُ من قُبلايته. أمّا مَنْ كان مثلي، أموالهُ الشبابُ والجمالُ والعقلُ والنبوغ، فهو مُفلسٌ عندهنّ إفلاسُ القِرْدِ في الغابة، فهو عندهنّ قِرْدٌ لهذه المشابهة.

قلت: هذا ليس عجيباً فإن اللغويين يُجرون على الشيء اسمَ ما يُقاربه في المعنى.

قال المجنونُ الآخر: «مِمّا حفظناه» أنّ اللغويين يُجرون على الشيء اسمَ ما يُقاربه في المعنى...

فتربّد وجهُ (النابعة) غضباً وقال: أبي يلعبُ هذا المجنون؟ إنّه يزعمُ أنّ اللغويين يسمونني قِرْداً، فهاتوا القواميس كلها وارجعوا إلى مادة (قِرْد) ومادة (نابعة)... سَوَاةُ عليك أيّها الصبي المعمّر.. ألا أدعوني أؤدّبهُ أدبَ الصبيان فإنّ اللطمةَ القويّةَ على وجه الطفلِ المُكابِرِ في حقيقةِ ثُلْبِسُهُ الحقيقةَ التي يُكابِرُ فيها إذ تُدْخِلُها إلى عقله من أقربِ طريق...

قال ا. ش: أنت قلت، لا هو. على أنّك لستَ قِرْداً أبداً إلا عند امرأةٍ جميلةٍ فاتنةٍ متخيلةٍ متماجنةٍ، قد تضعُ البردعةَ على ظهرِ الأميرِ وتجعله جِمَارَها، فيُعْجَبُ الأميرُ أن يكونَ جِمَارَها. ولستُ قِرْداً مع قِرَادٍ إلى جانبِ عِزٍّ وكلب.

قال: الآن علمتُ السبب، فإنّ الخائنة كانت متخيلةً مؤلفةً كُتِبَ وروايات، والمرأة التي تُؤلفُ الكتب، غيرُ بعيد أن تؤلفَ الرجلُ أيضاً، وتجعله قصةً هو فيها قِرْد.. وهذا إن كانت جميلةً كامراً الرواية. أمّا إن كانت دميمةً مجموعةً من المتناقضات، أو عجوزاً مجموعةً من السنين؛ فهذه وهذه كلّ أيامها كيوم الأحد عند النصارى... يومٌ للمُعْطلة لا يبيع فيه ولا شراء ولا مساومة. هذه وهذه كلتاها

تجعلُ الرجلَ كالماءِ في سبيلِ التجمد... لا يشتعل، فضلاً عن أن يستعبر، فضلاً عن أن يحترق.

ومؤلفَةُ الكتبِ لا يكون وجهُها إلا إحدى وثيقتين: إما جميلة، فوجهُها وثيقةٌ بأن لها دُبُوناً على الرجال؛ وإما غيرُ جميلة، فوجهُها (مُخالصةٌ) من كلِّ الديون...

قلنا: هذا في الخائنة. فكيف سرقةُ اللصِّ ولست غنياً؟

قال: هذه هي نكتةُ النبوغ؛ وفي النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرُها، وليس في جهلِها مضرةٌ على أحد، وجهلٌ لا يضرُّ هو علمٌ لا ينفع، لكنه علمٌ. والبحثُ في بعضِ أعمالِ (النابعة) هو كالبحثٍ عن سرِّ الحياة فيه، إذ يعملُ أعماله تلك بسرِّ الحياة لا بسرِّ العقل، أي بالعقلِ النابغِ الخاصِّ به وحده لا بالعقلِ الطبيعيِّ المشتركِ بين الناس.

قلت: ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات، ولكذك مع ذلك تؤلفها...

قال: إن ذلك ليكون، وإن لم أولفها أنا تألفت هي لي. فإذا تقدّم الليلُ ونامَ الناسُ جميعاً انتهتُ أنا وحدي لروايةِ العالمِ فأرى ما شئتُ أن أرى. وفي ضوءِ النهارِ أجدُ الناسَ عقلاءً ولكني في ظلمةِ الليلِ أبصرُهم مجانين. فهذا الليلُ برهانُ الطبيعةِ على جنونِ الناسِ وضمغِ عقولهم إذ هو يُثبتُ حاجةَ هذه العقولِ إلى ضربٍ من النسيانِ الأبله التامِ لولاهُ ما عقلتُ في نهارِها ولا استقام لها أمر.

يُضرعُ الناسُ في الليلِ صُرعةَ المجانين فيغمضونَ أعينَهم ولا يرونَ شيئاً. أما أنا فأرى العالمَ في الليلِ مسرحاً هزلياً يضحُّ بالضحكِ من الإنسانِ الأحمقِ الذي يقطعُ سرّاً نهاره، وهو معتقدٌ أنه قابضٌ على الوجودِ بالأعينِ والأذانِ والأنف... أنزِ رأيتُ الأسدَ بعينيك أيها الأحمقُ وسِغتُ في أذنيك زفيره، اذعيتِ الدُعوى العريضة، وزعمتِ أنك ملكتهُ وقبضتِ عليه، ولا تدري في هذا أنك كالمعتوه إذا قبضَ على الظلِّ بيده، وصاحَ هاتوا الحبلَ لأقيده لا يُقِلَّتْ؟...

قلت: فإذا كان العالمُ كلُّه روايتك فأخرج لنا فصلاً من الرواية.

قال: أيما أحبُّ إليكم، أن أكتبَ أو أمثلُ؟

قلنا: بل التمثيلُ أحبُّ إلينا. فنظرَ إلى المجنونِ الآخرِ وقال: إنَّ المجنونَ في طبيعتهِ ينبوغُ من الأشخاصِ يفيضُ حالاً بعد حال، كينبوعِ الماءِ يسُحُّ الدفعةَ

بعدَ الدفعة، فهنا المسرحُ، والروايةُ الآنَ روايةُ الطبيبِ والمجنونِ . . .

أنت يا س. ع. عُمُ هذا المجنون. فإذا قال لك يا عم. قل له: أنا لستُ
عَمُّكَ ولكني أخو أبيك. . . لِنْتَظَرْ أَيْتَبَّهْ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّيغَتَيْنِ أَمْ لَا؛ فَإِنَّهُ فَرَّقَ
عَقْلِي دَقِيقٌ تُمْتَحَنُ بِهِ الْعُقُولُ . .

تعال أيُّها المريضُ فأني أرجو أن يكونَ شِفَاؤُكَ على يدي، وفي يدي هذه لمسةٌ
من لَمَسَاتِ الْمَسِيحِ، لأنَّ (نابغةُ القرن العشرين) هو الآنَ طبيبُ القرن العشرين . . .

إِتَّقُوا أَنْ تَغْضِبُوهُ أَوْ تُخَيِّفُوهُ، وَأَقِيمُوا لَهُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَتَحَرَّوْا مَسْرَتَهُ دَائِمًا،
فَإِنْ إِدْخَالَ بَعْضِ السَّرُورِ إِلَى نَفْسِ الْمَجْنُونِ هُوَ إِدْخَالُ بَعْضِ الْعَقْلِ إِلَى رَأْسِهِ.

متى أَتَكَرَّزْتَ يا س. ع عقل ابن أخيك وما كان السببُ؟ وكيف غُلِبَ على
عقله؟ وهل أ. ش. هو خاله أو أخو أمه؟

لَطَفَ اللهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ. قل لي: أَتَتَذَكَّرُ أَمْسٍ؟ أَتَتَذَكَّرُ غَدًا؟ . . إِنْ
الْأَمْسَ وَالْغَدَ سَاقَطَانِ جَمِيعًا مِنْ حِسَابِ الْمَجَانِينِ؛ وَمِنْ الرَّحْمَةِ بِهِمْ أَنَّ الدُّنْيَا تَبْدَأُ
لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ فَقَدْ اسْتَرَاخُوا مِنْ ثُلُثَيِّ هُمُومِ الزَّمَنِ فِي الْعَقْلَاءِ. وَهُمْ لَا يَصْلُحُونَ أَنْ
يَنْفَعُوا النَّاسَ كَالْعَقْلَاءِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ صَالِحُونَ أَكْثَرَ مِنَ الْعَقْلَاءِ لِلانْتِفَاعِ بِأَنْفُسِهِمْ فِي
الضَّحِكِ وَالْمَرَحِ وَالطَّرَبِ، وَهَذَا حَسْبُهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ.

قل لي أَيُّهَا الْمَجْنُونُ: أَتُحِسُّ أَنَّ الدُّنْيَا تُصْنَعُ لَكَ نَفْسَكَ، أَمْ نَفْسُكَ هِيَ تُصْنَعُ
لَكَ الدُّنْيَا؟ إِنْ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ يَحْلُهَا كُلُّ مَجْنُونٍ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ، فَمَا هِيَ
طَرِيقَتُكَ فِي حَلِّهَا؟

مَا لَكَ لَا تُجِيبُ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ؟ (هذا من جهةٍ ومن جهةٍ) أَعْطَوْهُ قِرْشًا لِيَنْطَلِقَ
لِسَانَهُ، وَأَتَوَّاهُ الطَّبِيبُ أَجْرَهُ وَافِيًا وَهُوَ لَا يَقِلُّ عَنْ قِرْشَيْنِ . . .

ثُمَّ مَالُ (النَّابِغَةِ) عَلَى مَجْنُونِ الْمَتْنِ وَسَارُّهُ بِشْيءٍ. فَقُلْنَا مَا أَمْرُ الْمَالِ بَسِيرٌ؛
هَذَا قِرْشٌ لِلْمَرِيضِ وَهَذَا قِرْشَانِ لِلطَّبِيبِ.

فَقَالَ الْمَجْنُونُ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ» كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً.

قال «الطبيب»: هذا مريضٌ بنوع من الجنون اسمه «مِمَّا حَفَظْنَاهُ» وهو جنونُ
النسيان الذي يَضَعُ فِي مَكَانِ الْعَقْلِ كَلِمَةً ثَابِتَةً لَا يَتَذَكَّرُ الْمَجْنُونُ إِلَّا بِهَا؛ وَمِنْ أَعْرَاضِهِ
جَنُونُ الشُّكِّ فَكُلُّ مَا حَوْلَ الْمَرِيضِ مُشْكُوكٌ فِيهِ، وَقَدْ يَتَرَامَى إِلَى جَنُونِ اللَّئَمِ، فَلَوْ
لَمَسْتَهُ بِإَصْبَعِكَ تَوَهَّمَهَا عَقْرَبًا فَخَافَ مِنَ الْإِصْبَعِ تَلَمَّسَهُ خَوْفُهُ مِنَ الْعَقْرَبِ تَلَدُّعُهُ،

ولكن بقيت أشياء لا بُد من التدقيق في فحصها، فليس هذا من مجانيين العبقرية التي انحرقت عن طريقها أو شذت في قوتها؛ ولا هو بمن يتجان ويتحامق التماساً للرزق والعتيش كما قال بعضهم: حماقة تعولني خير من عقل أعولهُ.
فقال المجنون: «مما حفظناه» حماقة تعولني..

فضحك (النابعة) وقال: هو كما بينت لكم مصاب بجنون (مما حفظناه) وهو أقل الجنون وأهونه، وعلاجه البسطة والسرور والقرش؛ والضرب أحياناً. فإذا ثابر عليه الداء تحول إلى جنون (مما ضربناه).. فيعتدي المصاب على كل من يراه أو يوقع به ضرباً، وعلاجه حينئذ القميص المرقوم^(١)؛ فإذا قدحبت العلة انقلب المرض إلى جنون (مما قتلناه). وعلاجه يومئذ السلاسل والأغلال.

والحق أقول لكم إن آخر ما انتهت إليه فلسفة الطب في القرن العشرين أن الناس جميعاً مجانيين ولكن بعضهم أوفر قسطاً من بعض. كأن سلب العقل هو أيضاً حظوظ كحظوظ موهبة العقل. وأهل المريخ من أجل ذلك يسمون الأرض بيمارستان الفلك.

ولكن بقيت أشياء لا بد من التدقيق في فحصها؛ وعندني في الدار عاطوس إذا أشمته هذا المجنون عطس به عطسة قوية فخرج جنونه من أنفه... قل لي أيها المسكين: أتخاف إذا سرت وحدك في ميدان واسع كأن الميدان سيلتف عليك؟ أتضطرب إذا مشيت في مضيقي كأن المكان سينطبق عليك؟ وإذا كنت في عربة القطار فهل تخيل إليك أن البيمارستان قد جرّه القطار وانطلق به هارباً؟ وهل شعرت مرة أنه أوحى إليك أن تنتجر؟

أرني هذا القرش الذي في يدك. فمد إليه المجنون يده بالقرش.

قال (النابعة): انظر الآن هل تحدثك نفسك أن تغصبي هذا القرش أو تسرقه مني؟ قال: نعم.

قال (النابعة): إذن يجب أن أحرزه في جيبي.. وأسرع فأخفاه في جيبي...



فصاح الآخر وشعب، وقال سلبني ونهبني. قلنا لا ينبغي أن يتصل بينكما

(١) القميص المرقوم قميص السجن يليه المسجون ويرقم عليه العدد الذي يسمى اليوم (التمرة) وقد كان هذا معروفاً في التمدن الإسلامي.

شرُّ في تمثيل الرواية فهذا قِرش آخر، ولكن أفي الفلسفة عند (النابعة) إباحة السرقة والغضب؟

قال: فالرواية الآن هي رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذه أرسطو.

قل لي ويحك يا أرسطو. أعلمت أن في المجانين أغنياء يسرقون الشيء القليل لا قيمة له وهم أغنياء وليسَتْ بهم حاجةٌ إليه. فما عِلَّةُ ذلك عندك وما وجهه في مقولة الجنون؟

أعجزت عن الجواب؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصاب بهذا الضرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيء بدرهم كانت قيمته من الدرهم وحده، وهو غني لا قيمة للدرهم في ماله فلا يحفل بالشراء يبد أنه إذا سرقه كانت قيمته عنده من عقله وحيلته فيجثته بلذة لا تشتريها كل أمواله ولا كل أموال الدنيا. فهذا جنون باللذة لا بالسرقة، وهو بذلك ضرب من العُشْق يجعل الشيء إذا لم يسرق كأثمة المرأة المعشوقة الممتعة على عاشيقها.

والجِيع إذا سرقوا ليأكلوا ويمسكوا الرمح على أنفسهم، لا يُقال في لغة الفلسفة إنهم سرقوا بل أخذوا. . فباضطراب جاعوا وباضطراب مثله أكلوا، والسارق هنا هو الغني الذي منعه الإحسان والمعونة. .

فالدنيا معكوسة منقلبة أوضاعها يا أرسطو، ولو استقامت هذه الأوضاع لوجدت السعادة في الأرض لأهل الأرض جميعاً. وكيف لك بالسعادة والناس مخلوقون بعيوبهم؟ ويا ليتهم مخلوقون بعيوبهم فقط، ولكن الطامة الكبرى أن عيوبهم تعمل دائماً على أن ترى في الآخرين عُيوباً مثلها.

كل جمار فهو يريد أن يملأ جوفه ثيناً وفولاً وشعيراً، غير أنني لم أر جماراً قط يريد أن يملأ لنفسه الإصطبل؛ فإذا وجد جمار هذه همتة وهذا عمله فاسمه إنسان لا جمار.

يا أرسطو إن مُعضلة المعضلات أن يحاول إنسان حل مشكلة داخلية محضة قائمة في نفس جمار أو ثابتة في ذهنه الجماري. . . ومثل هذا أن يحاول جمار حل مشكلة نفسية في ذهن إنسان أو في قلبه، فلا حل لمشاكل العالم أبداً ما دام كل إنسان مع غيره كجمار مع إنسان. . .

والمعضلات النفسية من عمل الشياطين، فكان ينبغي أن تجيء الملائكة لتُحارب الشياطين بالبرق والرعد دفاعاً عن الإنسانية؛ ولكن الله - تعالى - منعها، وأرسل للإنسان

ملائكة أخرى إن شاء هذا الإنسان عملت، وإن شاء عجزت؛ وهي فضائل الأديان المتزلة. فإذا منحها الإنسان إرادته وقوته، فعملت عملها كان الإنسان هو الملك بل فوق الملك، وإذا أضاعها ومحقها كان الإنسان هو الشيطان وأسفل من الشيطان.

يا أرسطو^(١): «هذا العالم عندي كتلة من العدم اتفقت على الظهور وستختفي. والعالم عندي ضعف ركب وقوة ركب. والعالم عندي لا شيء. والعالم بين بين. والعالم قسمان: منهم الفلاح الزراعي وذلك أفضل فلسفة طبيعية. والعالم في حاجة إلى الموت والموت في حاجة إليه. والأدب هو الحياة ولا حياة بلا أدب. والأدب ضربان: أدب نفساني وأدب مكتسب، وقد يكون طبيعياً كما هو عند نابغة القرن العشرين. ومن هو نابغة القرن العشرين؟ هو شخص مات بلا موت، ويحيا بلا حياة».

أتريد يا أرسطو أن تعرف سر تركيب العالم؟ الأمر يسير غير عسير، فإن سر تركيبه كسر تركيب القِرْش الذي في يدك، فدغني أظهركَ على هذه الحقيقة ومُد يدك بالقِرْش لأبين لك سر التركيب فيه...



ولكن المجنون الآخر أسرع فغيب القِرْش في جيبه. فقال (النابغة): هذا سياسي داهية خبيث. والرواية الآن رواية سياسي القرن العشرين.

ليس في حقيقة السياسة إلا الرُّذُل من أفعال السياسيين. والألفاظ السياسية التي تحمل أكثر من معنى هي التي لا تحمل معنى. فليحذر الشرق من كل لفظ سياسي يحتمل معنيين، أو معنى ونصف معنى، أو معنى وشبه معنى؛ فإن قالوا لنا (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ؛ فإذا كتبوه قلنا لهم: ارسموا إلى جانبه معناه باللون الأحمر لتشهد الطبيعة نفسها على أن معناه أحمر لا غير... وعلى هذه الطريقة يجب أن تكتب المعاهدات السياسية بين أوروبا والشرق...

إنهم يكتبون لنا جريدة بأسماء الأطعمة ثم يقولون: أكلتم وشبعتم... ولقد رأيت (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التي أتمناها؛ فما أتمنى إلا أن يخرج كل المجانين في مظاهرة..

(١) هذه الأسطر التي وضعناها بين القوسين هي من كلام المجنون بالنص، وكنا سألناه أن يكتب رأيه في العالم والحياة فكتب على البديهة مقالة كلها تخليط، وتندر فيها كلمات كأعمق ما تجيء به مذاهب الفلسفة.

وهذا الأبله الذي أماننا ليس وطنياً ولا فيه ذرة من الوطنية؛ فإن كان وطنياً
أو زعم أنه وطني، فليُخرج القِرْشَ الذي في جيبه... ليكونَ فالاً حسناً لخروج
جيش الاحتلال من مصر...

ولكنَّ المجنونَ لم يخرج القِرْشَ وترك جيش الاحتلال في مكانه.
فقال (النابعة): الرواية الآن رواية الشرطي واللص. وبحق من القانون يكون
للشرطي أن يفتش هذا اللص ليُخرج القِرْشَ من جيبه...

غير أنَّ المجنونَ امتنع. فقال (النابعة): كل ذلك لا يُجدي مع هذا الخبيث،
فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة. ويجب أن ينكب الرشيد هؤلاء
البرامكة ليستصفي القرش..

بيد أننا منعناه أن ينكب «البرامكة» فقال: الرواية الآن رواية العاشق
والمعشوقة، ونظر طويلاً في المجنون وصعد فيه عينه وصوب فلم ير إلا ما يذكُر
بأنه رجل، فتهدى إلى رأي عجيب. فوقع على قدميه وتوهمه امرأة في حداثها...
وجعل يُناجي الحذاء بهذه المناجاة:

إن سخافات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن الحب غير سخي؛
فكل فكرة في الحب مهما كانت سخيّة، عليها جلال الحب؛ وللحذاء في قدميك
يا حبيبتى جمال الصندوق المملوء ذهباً في نظري البخيل، وكل شيء منك أنت فيه
سرّ جمالك أنت. والحذاء في قدميك ليس حذاءً، ولكنه بعض حدود جسمك
الجميل، فلا أكون كل العاشق حتى أحيط بكل حدودك إلى الحذاء...

إن جسمك يا حبيبتى كالماء الجاري العذب؛ في كل موضع منه روح
الماء كله؛ وحيثما وقعت القبلّة من جسمك كان فيها روح شفتيك اللورديتين،
هذه قبلّة على قدميك يا حبيبتى؛ وهذه قبلّة على ساقيك؛ وهذه قبلّة على ثوبك
وهذه قبلّة على جيبك...

وكادت يد (النابعة) تخرج بالقِرْش؛ فعضه المجنون في كتفه عضّة وحشيّة، فجاءه
الخوف منها فطار صوابه؛ فصرخ صرخة عظيمة دوى لها المكان وتردّدت كصر صرّة
البازي في الجو، ثم اعتراه الطيف، وأطبق عليه الجنون فاختلط وتخطط...

(والرواية الآن؟)... رواية عربة الإسعاف...

فهرس الموضوعات

الإشراقُ الإلهي وفلسفة الإسلام	٣
حققة المسلم	٩
وحيُ الهجرة	١٤
فلسفةُ قصة	١٩
فوقَ الأدمية الإسراء والمعراج	٢٥
الإنسانية العليا	٣٢
سموُ الفقرِ في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم (١)	٣٩
سموُ الفقرِ في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم (٢)	٤٤
درسٌ من النبوة	٥٠
شهرٌ للثورة فلسفة الصيام	٥٦
ثباتُ الأخلاق	٦٢
قُلْتُ لِنَفْسِي وَقَالَتْ لِي	٦٨
الانتحار (١)	٧٥
الانتحار (٢)	٨٣
الانتحار (٣)	٩١
الانتحار (٤)	٩٨
الانتحار (٥)	١٠٥
الانتحار (٦)	١١٣
وحي القبور	١٢١
عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرها (١)	١٢٥
موت أم	١٣٠
قصة أب	١٣٤
السُّمكة	١٤٠

١٤٨	الزاهدان (٢)
١٥٤	إبليسُ يُعَلِّمُ . . . (٣)
١٦٠	الدنيا والدرهم (٤)
١٦٦	دُعابةُ إبليس
١٧٣	الشیطان
١٨٢	تاریخُ يتكلَّم
١٨٥	المجلدُ الأول
١٨٦	المجلدُ الثاني
١٨٧	المجلدُ الثالث
١٨٧	المجلدُ الرابع
١٨٨	المجلدُ الخامس
١٨٨	المجلدُ السادس
١٨٩	المجلدُ السابع
١٨٩	المجلدُ الثامن
١٩٠	المجلدُ التاسع
١٩٠	المجلدُ العاشر
١٩٢	كُفْرُ الذُّبَابَةِ
٢٠٠	يا شبابُ العرب !
٢٠٤	لَوْ . . . !
٢٠٩	في محنة فلسطين
٢٠٩	أُيُّهَا المسلمون !
٢١٣	قصةُ الأيدي المتوضَّعة
٢١٩	نجوى التمثال
٢٢٢	فاتحُ الجَوِّ المصري
٢٢٦	أجنحةُ المدافع المصرية
٢٣٠	أحاديثُ الباشا
٢٣٠	الطماطمُ السياسي
٢٣٤	البك والباشا
٢٣٧	ساكنو الثياب

٢٤١ الأخلاق المحاربة
٢٤٥ خضع يخضع . . .
٢٤٩ فلنتعصب . . . !
٢٥٤ وزن الماضي
٢٥٨ المعجم السياسي
٢٦١ اللسان المرقع
٢٦٤ سر القبة
٢٦٨ سعد زغلول
٢٧١ حماسة الشعب
٢٧٤ الجمهور
٢٧٨ المجنون (١)
٢٨٥ المجنون (٢)
٢٩٢ المجنون (٣)
٢٩٩ المجنون (٤)
٣٠٧ المجنون (٥)
٣١٥ المجنون (٦)